د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود



قلبٌ من بنقلان

رواية

دار الفارابي

المحتويات

الإهداءُ

إلى الروحِ التي انتصرت على العقلِ الذي مانعَ طويلاً في كشفِ وقائع الإبحارِ عبرَ شواطئِ الزمنِ الماضي؛ بحثاً عن الجذور، وعن أصل الدموع التي رأيتها ذات يوم في عيون أمٍّ مسنةٍ كُفَّ بصرها بعد أن قوّست الأيامُ ظهرها وأقعدتها تصاريفُ الدهر.

إلى العقلِ الذي أخافني وأقلقني وناشدني مراراً وتكراراً أن أُخفيَ ما سمعتُه وعلِمته في جُبٍّ من المدركاتِ عميق ففشِلَ، ومن ثَمَّ كانت النتيجةُ: هذه الروايةَ.

الفصلُ الأولُ

الخميس: عندما بكتْ..!!

"كم هي جميلةٌ بلادُ الآخرين مليئةٌ بالناس
والثروات وأنهار من العسلِ لكن الخشَب
الجافَ في بلادنا خيرٌ من كلٍّ ما في العالم"

أغنية بلوشية

1

الرياض. صفر 1421هـ/ يونيو 2001م

لم تُسعفني الذاكرةُ من قبلُ، برؤيتها وهي تبكي بعدَ سماعِ أخبار فواجع موطنها الذي شهدَ مولدَها وطفولتها المبكرةَ ... إلا تلك الليلةَ، مع أن مواجعَ وأحزانَ تلك الديارِ تتجددُ دائماً ولا تكادُ تنتهي.

سألت نفسي، وقد أدهشني بُكاؤها: ما الذي جعل الحنينَ المكبوتَ يدهمُها؟ ما الأطيافُ التي غمرتْ روحَها وأعادتها إلى الجذورِ ... إلى أرض الآباءِ والأجدادِ؟ ما سرُّ تلك الدموعِ في العينينِ اللتينِ انطفأ نورُهما منذُ عشرِ سنواتٍ أو أكثرَ؟

أهي - فقط - فواجعُ الزلزالِ الذي ضرب أنحاءَ بلوشستانَ قبلَ أيامٍ وأدى إلى موتِ الكثيرينَ، الذين يُحتملُ أن تكونَ بينهم تلك الأسماءُ التي لم تعدْ تذكُرها منذ زمنٍ بعيدٍ : إبراهيمُ ... حسينٌ ... مريمُ ... وغيرُهم؟!

يمكنُ أن يكونَ الأمرُ كذلك. ما أنا متأكدٌ منه (الآنَ) أن الأسى

يتعمقُ أكثرَ فأكثرَ بين تلك الأخاديدِ العميقةِ التي تمددت بين ما تبقى من جِلْدِ الوجنتينِ، تاركاً إيحاءً بأن الجُرحَ في النفسِ، أعمقُ من أسئلتي ومن توهُّماتي ...

كَمْ نحن نرجسيُّون.. وكمْ نحبُّ ذواتِنا، لدرجةِ أنه قليلاً ما سألنا مَنْ نعيشُ طولَ أعمارِنَا ـ أو أعمارِهِمْ ـ ونحنُ نطلقُ عليهم صفاتِ: الأبوةِ والأمومةِ، عن: قصةِ لقائِهِمُ الأولِ ... عن حبِّهم ... عن أسبابِ بكائِهِمْ في بعضِ الأحايينِ. وعن مَردِّ التنهداتِ العميقةِ عندما يُذكرُ اسمُ الجهةِ التي قَدِموا منها، ليلتقوا، وليأتيِ بعدَ اللقاءِ الذي صنعهُ القدرُ، وغلّفتْه الكراهيةُ أو المحبةُ: أنا وأنتَ وكلُّ الناس.

يُخيلُ لأكثرِ الناسِ أنَّ الزمانَ بدأ بِهِمْ. وأنْ لا تاريخَ إلا تاريخُهم وأنَّ مسيرةَ البشرِ بدأتْ بصرختِهِمُ الأولى ... صرخةِ الميلادِ التي يسمِّيها البعضُ صرخةَ الألمِ.

أنا من الناسِ الذين استوطنَ حبُّ الذاتِ نفوسَهُم، إلى القدْرِ الذي جعلني أنْسى، أن أَطرحَ على هذهِ المرأةِ المُجللةِ بِالأحزانِ، الصابرةِ على وقائعِ الأيامِ وأحداثِها، وما تفعلُه عواصفُ الزَّمنِ بالنَّاسِ وأحلامِهِمْ ومصائِرِهم ـ أنسى أن أطرحَ عليها مثلَ أسئِلتي السابقةِ!

يرجعُ السببُ – وهذا من قبيلِ العزاءِ – إلى أنني لم أشاهدْها تبكي وتحزنُ بهذا القدْرِ من اللوعةِ إلَّا هذه المرةَ! صحيحٌ أنها كانت تأسى على وفاةِ هذا القريبِ أو ذاكَ، وهذا المستخدمِ أو المستخدمةِ أو غيرِهما من العاملين في قصرِها، أو على من كان لنا معه أو معها معاملةٌ وعلاقةٌ، وأنها كانت تتألمُ عندما تنزلُ بـ(بلادِنا) كارثةٌ أو فاجعةٌ ... لكنَّ التبريرَ بأنَّ هذا النشيجَ كان استثنائياً، لا يقللُ من شعوري بالذنب تجاهَ (أُمِّ) ولا كلِّ الأُمّهات...

هل كلُّ الأمهاتِ يخفنَ على أبنائِهنَّ – كما لو كانوا صغاراً – حتى وهم يلامسونَ أواخرَ أربعينيات أعمارِهم؟ هل كلُّ المنجباتِ، مثلَ هذه

العجوز اِلمنحنيةِ الظهرِ، العمياءِ، شبهِ المقعَدَة؟ ... أيمكنُ هذا؟! مجردُ طرحي لمثلِ هذا السؤالِ الاستنكاريِّ يعطي نموذجاً لمقدار أنانيتي وسذاجتي!!

همَمْتُ أنْ أطرحَ عليها كلَّ ما يجولُ في خاطري وكلَّ ما تحرَّجْتُ – أو بالأحرى تناسيتُ – إخراجَه من ذاكرتِها المزدحمةِ بالأحداثِ والوقائعِ، لولا رنينُ الهاتفِ المتواصلُ، ولولا أن أخبرتنا (جمعةُ)، تلك المرأةُ المسنةُ التي ظَلّت في خدمةِ الأسرةِ منذ ما يزيد على الخمسينَ عاماً ـ بأنَّ بائعَ الصور اِلتاريخيةِ في الطريقِ للمنزلِ حَسْبَ الموعدِ المضروبِ معه؛ ليعرضَ على والدتي ـ من خلال عيْنيَّ ـ ما بحوزته من صورٍ فوتوغرافيةٍ، تضمُّ فيما تضمُّ: رحلاتِ والدي ونشاطاته الاجتماعيةَ والسياسيةَ القديمةَ؛ لنختارَ ـ أنا وهـي ـ ما يناسبنا منها، وما هو ليسَ بمكررٍ وموجودٍ في أرشيفِ الأسرةِ المصوَّر.

وافقتْ والدتي ـ وهي تكفكفُ بقايا دمعةٍ شاردةٍ من بقايا الدقائقِ الماضيةِ المشحونةِ بالعواطفِ ـ على استقبالِ القادمِ، حالَ حضورِه، ولكن بدونِ أن يبدوَ عليها ما تعارفَ عليه أكثرُ الناسِ من تلهُّفٍ على حيازةِ الأشياءِ التي لا يمتلكونها. فكيف إن اقترنَ هذا الحبُّ الأزليُّ بعلاقةٍ من نوعٍ ما: بالماضي.. بالشريكِ.. بالزواجِ.. وبالحبِّ ... أو ما يعتقد الكثيرون أنه كذلك؟!

والدتي ... ليست من هؤلاء. فعلاقتُها بوالدي يمكنُ أن يُطلقَ عليها أيُّ شيءٍ... ماعدا أن يكونَ حُباً. فقط هو الاحترامُ والتقديرُ. لقد لمستُ هذا دائماً في حياة القيِّم الراحلِ، أو في الأيامِ الطويلة التي تلتْ خبرَ نعيهِ الحزينِ. ويمكنُ أن يكونَ للرعيلِ الأولِ، مصطلحاتٌ ومفاهيمُ معينةٌ لما تشير له أو تفكرُ فيه الأجيالُ الجديدةُ عندما يكونُ هناك رجلٌ وامرأة ... وعلاقة. فالحبُّ في أيامنا الحاضرةِ غدا ممارسةً فقط! فيقالُ في الغربِ مثلاً : "ممارسةُ الحبِّ". أما من سبقونا فكانوا يفرِّقون بين

العشق والهُيَام... وبين الالتقاءِ الجسديّ. وهناك نوعٌ ثالثٌ يأخذُ من النوع الأولِ شيئاً ومنَ النوعِ الثاني... شيئاً آخر. هذا النوعُ يمكنُ أن نطلقَ عليه ـ كما هي علاقةُ والدتي بوالديَ ـ "المودةُ والرحمةُ". هذا المصطلح الذي يشير كغيره إلى رغبتنا الدائمة في الالتجاءِ إلى مفاهيمِنا الدينيةِ، عندما تُعيينا ملكةُ الفهمِ والتحليلِ، في كشفِ ما يصادفُنا من ألغازِ وأسرارِ هذه الحياةِ ... وما أكثرَها!

برزخٌ زمنيٌ لا أدري ما أُسمِّيه، عشتُه قبل أن يُعلمَ مأمورُ الهاتفِ والدتي بأنَّ (بائعَ الذكرياتِ) يقفُ عند الباب الخارجيّ للمنزلِ، مُنتظراً الإذنَ بالدخولِ.

وفي دقائق ذيّاك البرزخ، كانتْ أحداثُ طفولتي وصبايَ.. وحتى هذا الوقتِ، تمرُّ أمامي مسرعةً بلا ملامحَ ولا هُويةٍ. وكنتُ أعرف أنه بدون أن أفكَّ شفرة (خِزانة) الماضِي، وبدون أن أُبحرَ في دواخلِ هذا الإنسان الباكِي أمامي؛ فإن ما سيبقى لديّ: مـجردُ مشاعر... ولهفةٍ على الأيام الخوالي. مشاعر لا تختلفُ عمّا لدى الآخرينَ. ويمكنُ أن تكونَ جعبةُ المغرمين التاريخية، أكثرَ امتلاءً من جعبتي الصغيرة، الفارغة.

لاحَ لي ـ بعدَ أن أصبحَ الزائرُ ثالثَنا ـ أنني في طريقي إلى تلمُّس أولى العملياتِ المعقدةِ والمتداخلةِ التي لابد أن يقومَ بمثلها (زائرُ) الخزائنِ، عندما يريدُ اكتشافَ (مجهولِ) خبيءِ الناسِ الثمين.

زوّارُ الليلِ، غير المرغوبِ ولا المرحَّب بهم، يحتفظون في حقائبهم ـ عادةً ـ بأجهزةِ الاستماعِ الدقيقةِ. بالإضافةِ إلى الحسِّ المرهفِ.. والأناملِ الرشيقةِ.. وتراكمِ الخبراتِ السابقةِ. أما (أنا) فقد كانتْ عُدَّتي، في التنقيبِ عن أسرار الجمجمة الصغيرةِ المتجهةِ إلى الأرضِ والفراغِ، مجردَ صورٍ فوتوغرافيةٍ مكدسةٍ في حقيبةِ بائع الذكرياتِ، الذي بدأ يسوّقُ بضاعتَه فور السَّماحِ له بذلك: صورة.. صورتين.. ثلاثاً.. بل عشراتٍ،

ومئاتٍ منها ... وبالرغمِ من حالةِ الإهمال المشاهدِ عليها، للوهلةِ الأولى، إلا أنَّ هذه الصورَ ظلَّتْ محتفظةً برونقِها وصفائِها النسبيّ.

كنتُ أَشرحُ لوالدتي مناسبة تلك الصورِ، والشخصياتِ التي تضمُّها عندما قطعَ (با سعيدُ) صاحبُ حقيبةِ التاريخِ، هارموني التواصل بيني وبين تلك المرأةِ التي لا أعرفُ للحياةِ معنى بدونها، والمتلبسةِ ـ وقد عادت القهقرى سنوات عديدة ـ حالةٌ من الصفاءِ والتأملِ لا مثيلَ لها. كيف لا وهي تسمعُ من محاولاتي الاسترجاعيةِ في تذكُّرِ اسمِ هذا الشخصِ الواقفِ بجانبِ والدي، أو تلك المجموعةِ المحيطةِ بأبي أولادِها، أو مستغرقاً في الإسهابِ الشارحِ لتلك المناسبة التي أُخذتْ فيها صورة منتقاة من أحداثِ العقودِ الماضيةِ:

"ولديَّ المزيدُ!! هل تريد سيدتي ... سيدي ... أن أخبر من في منزلي بإحضارها"؟

فطن (با سعيدُ) ـ وهو يطرحُ سؤالَهُ السابق، وبحكمِ تراكمِ التجربةِ وأيامِ الخبرةِ ـ، إلى أن (الصورَ) التي أحضرها، قد أشعلت حريقاً في قلبِ المرأة المسنة، وأن بضاعته قد راجتْ، وأن مغنمَهُ سيكون كبيراً هذا اليوم؛ لهذا استغل بفطرته التسويقية فرصته السانحة والنادرة؛ لإبرازِ "مواهبِهِ" في الاحتفاظِ بكنوزٍ لا يعرف قيمتها إلا نوادرُ مثل ... أمي!

"لقد اكتفيتُ ... لقد وجدتُ ما أُخبرت أنه في حوزتك ..."!

بهذه الكلماتِ الموجزةِ قزَّمت والدتي أطماعَ الرجل. وبهذه الثقة امتلأتُ أملاً في أنني على موعدٍ معها ... مع تاريخها.

دُفع لـ (با سعيدِ) ثمنُ عَشْرِ صورٍ ـ فقط ـ من مجموعته ... وزيادةٌ. ولاحظتُ أنه كان يأملُ في أن يحظى من المرأةِ وابنها بأكثرَ مما نُقدَ. وكان شعورُه متناسباً ومنطقياً، مع أخبارٍ تَردُه عن هؤلاءِ (المبذرين) غيرِ المهتمين بما يصرفونه ويخرجونه من أكياسِ نقودِهم! لكن حظَّه ـ

غير الجيد ـ أوقعه في وقتٍ كان الباحثون عن جزء من بضاعته، مأخوذين بسحرِ ما يمثلُه (بعض) التاريخِ المصور ... ألم يقولوا: إن المسحورَ لا تبعات على أفعاله ...؟!

بعد خروجِ (بائعِ) التاريخِ، رُحْتُ أستعرضُ أنا ووالدتي صيدَنا الثمينَ مرةً أخرى. وتبين أن ثلاثاً من الصورِ المختارةِ مكررةٌ، وأن مثيلاتِها موجودة في أحد (الألبومات) العديدةِ، التي نمتلكها والمبثوثةِ أمامي. أنا الذي أراها بعينيّ وتراها جليستي بإلهامها وبقايا أطيافٍ مختزنة في الذاكرة .

سمعتني والدتي وأنا أتحسَّرُ على ما دُفع مقابلَ الصور المكررة؛ الأمر الذي دفعَ بابتسامةٍ هادئةٍ ـ ولا أجملَ ـ لأنْ تتشبَّثَ بمحيا المرأةِ السبعينيةِ. كان صدى ذاك الانفعالِ، غيرِ العادي، سريعاً ومرسوماً على قَسَماتِ (جمعة)، التي شعرت ـ وهي تجمعُ الصور المتناثرة ـ بأنَّ هذا اليومَ ليس مثلَ كلِّ الأيام. أليست ابتسامةُ سيدتها - النادرةُ - دليلاً على هذا؟!

سرعان ما عادتْ ملامحُ الانضباطِ والجديةِ - التي لم تغادرْ، إلا نادراً، وجه والدتي - لتذكرني بأنَّ موجزَ أنباءِ الإذاعةِ عاد ليذكّرَ المستمعين بأهمّ أخبار النشرةِ التي لم تعِ منها - يومَها فقط - مستمعتُها الدائمةُ إلّا ما حلّ بأرض الآباء والأجدادِ من خرابٍ، إثرْ زلزالِ ذيّاكَ الصيفِ البلوشي الحزين.

...وفجأة سمعت سؤالاً منها لم أكن أنتظره ساعتها :

"من كان يقفُ وراءَ والدِك من الناحيةِ اليسرى، في صورهِ سنة 1367هـ"؟

تطلعتُ مليّاً في وجهها ... لقد حفظتْ ما سبق أن قلتُه لها قبلَ نصفِ ساعةٍ من الزمنِ، عَنْ أُناس الصورِ وأماكن وقوفِهم بجانبِ أو خلف والدي. بل وحتى تاريخَ التقاطِ الصورةِ و ...!

ـ"التي التقطتْ في الإحساء..."؟!

ـ "نعمْ".

إنها تتذكرُ ـ عَبْر تأكيدها ـ مكانَ التقاطِها... كذلك!

"والدي وابن عمه (سعود بن عبد الله بن جلوي) وثلاثةٌ لا أعرفهم ...منهم الرجل الذي ذَكرتِه".

همستُ بتلك الجمل وأنا أسردُ ما أعرفُه من معلوماتٍ مدونةٍ خلفَ الصورةِ، حيث بقى هؤلاء مجهولين، حتى لِمُلتقطِ الصورةِ وأصحابِ الذاكرةِ الضوئية:

ـ "أنا أعرفُه وأعرفُ الباقين: إنه (ابن دايل) ..."!

قالتْ هذه الكلمات، مشفوعةً ببكاءٍ ونشيجٍ.

لم أعرفْ ساعَتها كيفَ أتصرفُ... وماذا أقولُ. ظللتُ رَدحاً من الزمن وأنا أعاني جهلَ مواجهةِ حالةٍ مثل هذه: حالة العودةِ للماضي عبْرَ سفينة من الدموعِ والآهات.

(ابن دايل) هذا الاسم ليس غريباً عليّ ولا على ذاكرتي الضعيفة. أليسَ هو ذات الشخصِ المكروهِ من والدتي ومن (أخواتها)... زوجات والدي و(سراريه) الكُثر وإن اختلفت الأسبابُ؟! ..إنه هو، مازلتُ أذكر اسمه، وماذا يعني هذا الاسم..! هو الشخص الذي كان عندما يأتي قديماً ـ كما يقولون ـ عند والدي، تبدأ مراسمُ طويلةٌ من الأحزانِ: أحزان نساءٍ قد أُنقصن في السنة يوماً ـ أو أكثر ـ من التنعُّمِ معَ الزوجِ الذي لا شبيهَ له..! وأحزانٍ أخرى لصبيَّةٍ قادمةٍ من البعيدِ، لا تعرفُ ماذا ستواجهُ في قادمِ الأيام. أحزانِ مفارقةِ الأحبابِ والأهل، الذين تختلفُ أراضيهم باختلافِ هويةِ القادمةِ الجديدة. لابد أن (ابن دايل) هو أحدُ الخيوطِ المهمةِ وأحدُ المفاصلِ التي لا غنى عنها لفهم قصة والدتي المخفية، التي لطالما بحثتُ عن أسرارِها وتفاصيلها ووقائعها.

. . .عدتُ أسألُها:

ـ "هل بدأتْ الحكايةُ بهِ أو انتهتْ؟

ـ "بدأ كلُّ شيءٍ بحلْمٍ... بكابوسٍ مخيفٍ ومزعجٍ... يهزُّني برغم صغرِ سني وتواضع مداركي. حلم يأتيني في كل ليلةٍ... ليشعرَني بأنني محاطةٌ بالأشرارِ القاتلين... الخاطفين... وليشعرَني بأنني موعودة... بالاغتراب"!

الفصلُ الثَّاني

الجمعة: عندما باحتْ..!!

"لاحزنَ

أعمقُ

من حزنٍ

يتكلم".

(لونجفيلو)

2

بلوشستان... الأرضُ التي وُلدتْ أمي فيها، ومنها استمدتْ جذورَها... ماذا عنها؟ ومن أين أتى سكانُها؟

تقولُ بعضُ الرواياتِ التاريخيةِ، التي يمكنُ أن يأخذها الباحثُ عن الحقيقة بكثير من الحرص: إن (سليمةَ بن مالكِ الأزْديّ)، خرج من اليمن إلى "كرمان" عام (300 ق م) فاراً بحياته؛ لأنه قتلَ والده خطأً، فهرب خوفاً من إخوته إلى بلاد (كرمان) بفارس. وبعد فترةٍ طويلةٍ من المكوثِ والاستيطانِ بتلك البلاد، تحركت جموعٌ منهم إلى (مكران) وآخرون إلى العراق، لأن كبيرَ الفرسِ (أنوشِرْوان) حارَبهم وأَجْلاهم من حدود بلادِه. كان ذلك عام (560) بعد الميلاد. وقد عاد بعضُ الفارِّين إلى العراقِ من الأزديين ومنهم (حمزةُ بنُ المختارِ) إلى مكران.. حيثُ جذورُهم القديمةُ، في رحلةِ فرارٍ جديدةٍ بعد رحلة النفي الأولى لأجدادهم، والتى حدثت قبل ذلك بمئات السنين. لماذا؟ لأن جيش الأُمويين استمرَّ يقاتِلُهم لموقِفِهم المناصرِ للحسينِ بنِ عليّ (رضي الله عنهما) في معركة (كَرْبلاء). ولم تفطن بقية قبيلة (ابنِ المختار) إلى أن

بقاءهم في أرض العرب فيه مَهْلكتُهم، إلا في سنة (130) للهجرة، بعد معركةِ (القديد)، قربَ مكة المكرمةِ، والتي قُتل فيها والد (حمزة بن المختار).

وفي تلك الأيامِ العصيبةِ ـ على أجدادِ المرأةِ المسنةِ التي كانت تهمُّ بالبوح في يوم تالٍ على يوم البكاء، ـ رَحَل (حمزةُ) ومعه قبيلتُه إلى (مكران)، وهناك أُطلق عليهم (البلوش) نسبةً إلى جد (حمزة) الأول (جذيمة الأبرش)؛ ومازال البلوش حتى الآن يَرجعون نسبهم إلى (حمزةَ)، الذي عاد وعادت معه بقيةُ قبيلتِه إلى تلك الأراضي البعيدة مكاناً، والقريبةِ جذوراً للقادمين الجددِ آنذاك.

يأخذُ (ياقوتُ الحمويّ) في كتابه "معجم البلدان" بهذِهِ القصةِ متلمساً طريقَه للتعريفِ بسكّان أرض (البلوش)، والذين يُدْعَوْن في بعض الأحايين بـ(البلوص). ويقولُ (الحموي) عن خِلقتهم: إنها تغلب عليها النحافةُ والسُمرةُ وتمام الخلق. ويدللُ بعضُ الباحثين، الذين يميلون لـ(تعريب) البلوش ... على حقيقةِ الأصلِ العربيّ لأجدادِ والدتي بقولهم: إن هؤلاء القوم، وبالرغم من سُكْنَاهم بجوار الفرسِ والهنودِ، لم يأخذوا ـ في الغالبِ ـ عاداتِ ودينَ أهل تلك البلادِ، ولا مِللها ومذاهبها، ولا معتقداتِهم وفلسفاتِهم؛ بل إن عاداتهم وسلوكَهم الاجتماعيّ أقربُ إلى العرب. وبين العربِ والبلوشِ في اللغة تقاربٌ واضحٌ. فإن نحن أزحنا عُجْمَةً ـ تشكلتْ بمرورِ الزمنِ وتأثير المكان ـ عن اللسان البلوشي، فسنجدُ كثيراً من الكلمات التي لها أصل عربي. فوالدتي مثلاً تُسمي (الحياةَ) على أنها (هيات)، والمرضَ بـ(المرز)، والسرَّ الخفيَّ على أنه (باتن)، و(الأزاب) على أنه العذابُ، و(الرهمت) على أنها الرحمة، و(الهاكم) قاصدةً (الحاكم).. وهكذا..

وكأن القدر قد كتب على هؤلاء الأقوام ـ أو قسمٍ كبيرٍ منهم ـ التَّرحَالَ والاغترابَ... هكذا كانتْ أساطيرُهم وأحاديث عجائزهم تقول:

"فالبلوشي دائمُ السفرِ والتنقلِ. وطنه حيث يعتاشُ. ومنزلُه حيث يرزق. وأهله وأحباؤه تكوّنهم الأيامُ والمصادفاتُ.. والأقدارُ. سَمِعتْ هذه الأقوال لأولِ مرةٍ فتاة في الثانية عشرة من عمرِها، حيث كان الأهلُ يتسامرون ذات ليلة بعد خروجهم من حجرة والدتها المريضة بمرض فجائي، لم يَعْرف طبيبُ أعشابِ بلدتِها (بنقلان) كُنْهه ولا علاجَه.

كان الجمعُ في تلك البلدة البلوشية قد عَادَ والدتَها مراراً طيلة النهار ورَدحاً من الليل: هذا يصفُ لها علاجاً، وهذا يقرأ عليها ما تيسَّر من القرآنِ، وتلك تحمل أحجيةً لا يُعلم ما فيها، وأخرى تُقسمُ أنه الحسدُ والعينُ الشريرةُ التي أخطأت المريضةَ مراتٍ كثيرة في السابق.. ونجحت أخيراً!

ومع كلِّ ذلك لم تتحسنْ صحةُ جَدتي. وازداد أنينُها وبكاؤها. وبين ساعات مواجعَ وأخرى تروح في سُباتٍ عميقٍ. بينما الجمعُ المنتظرُ للتطورات والموجود بجوار حجرتها، يقطع زمن انتقالها من ألمٍ إلى ألمٍ بمثل تلك الأساطيرِ والحكايات"!

بهكذا بدايات (نطقت) والدتي. كانت قد ضربت لي موعداً بعد صلاةِ الجمعةِ، وأوصتني أن أصعدَ إليها مباشرةً حيث تنتظرني في جناحها الخاص بالطابق العلوي من قصرها بضاحيةِ (الناصرية)، الواقعة في الغرب الأوسط للعاصمة السعودية.

والدتي منحتني وعداً بأن (كَنْزي) المنتظرَ قد حان وقتُ الكشفِ عنه. لكنها اشترطتْ أن تكون حواسِّي فقط، ولا شيءَ غيرها، جليسنا الآخر... لا ورقةَ، ولا قلمَ، ولا آلة تسجيلٍ. كان الشرطُ صعباً وغير منطقيّ؛ مما دعاني للتحايل عليه لاحقاً، لكنني رحبت به ساعَتها فقط... وكيف لا وفي الإخلال به ـ أو كما يظهر ـ تفريطٌ بما حدّثتُ ومَنَّيتُ نفسِي به منذ سنوات بعيدة مضت؟

...لم يكن بيني ـ يومها ـ وبين تلك الأمنية إلا عشرون درجة...

صعدْتُها بخفةٍ لا تتناسبُ مع أواخر أربعينيات العمر، لكنّه الشوقُ إلى السَّماع والاستمتاع... والكشف:

"لم أستمع، تلك الليلةَ، لأحاديثِ السفرِ والتِّرحال واغترابِ (البلوش) فقط، بل كانت هناك أشياء أخرى... كان إخوتي وأخواتي يتحدثون عن المال الذي ستتركه والدتي...".

استمرتْ صاحبةُ القصةِ في سردها لأحداثِ الزمانِ الماضي، وهي تعي كلَّ ما تقولُ، كأنما حدثتْ تلك الوقائعُ بالأمسِ... هذا الأمسُ الذي شهد تعجُّبَها التالي:

"لماذا تتركني والدتي وإلى أين ترحلُ"؟

أما الآخرونَ ـ كما تقول ـ فكانوا يتساءلون:

"إن مرضها عضالٌ، كما يقول الطبيب، وموتَها محققٌ ولابد أن نسألها ـ قبل أن يأخذَ اللهُ وديعته: أين بقيةُ مالها؟ وماذا فعلتْ بالمال الذي ورِثْته عن ابن عمِّها ...أبينا الراحل"؟!

...هكذا كان إخوتي وأخواتي، غير الأشقاء، يتهامسون. لكن همسهم لم يستمر طويلاً حيث علت الأصواتُ، وتداخلت معها أصوات الأقرباء الآخرين الذين بدأوا ينهرون (الورثة)... لأنهم شَرَعوا بتقاسم إرْثهم قبل الأوان...!

وفجأة.. سُمع صوتٌ يقول: البقاءُ له.. البقاء لله.. ماتت (أم حسين بن بركة).. "إنا لله وإنا إليه راجعون".

كم هي موجعةٌ ذكرى الفناء واللوعات! وكم هو مؤلم أكثر أن نرْجعَها لذاكرةِ الآخرين، لمجردِ أنَّ رغبةً ملحةً دعمتْنا لمعرفة خباياها، أو حتى مجرد التطفل على مكنوناتِ نفوس حزانى البشر، لنكتبَ قصصاً.. مثل تلك القصةِ، التي أستمعُ لـ(بطلتها) وهي تُكمل أحاديثَ الموتِ والطمعِ:

"بعد الشجارِ..، بعد دقائق منه، سُمع صوت الناعي. كلهم عرفوا

ما تعني كلماته إلا أنا، بالرغم من أنني رأيتُ مناماً في الليلة السابقة يخبرني بموتها وأيامِ كربٍ لي بعدها.

تَوقفَ (البوحُ) للحظات، سُمع فيها نشيجٌ مكبوتٌ، وشُوهد دمع، جاهدتْ صاحبته ألّا يرى. خاصة أن في جعبة ذكريات يوم الجمعة ـ وما بعده ـ الكثيرَ من الأسى وبواعث البكاء:

"كثيرٌ جداً هذا الحزنُ عليَّ وأنا الصغيرةُ المتلهفةُ لأزمانِ اللعبِ والحبور والأمانِ تحتَ جَنَاحَيْ والدين رؤوفين. خاصةً أن لا شيء كان ينقصُ عائلتي: لا من حيثُ المالُ ولا المركزُ الاجتماعيُّ المميزُ، الذي يأتى لنا من خلالِ صلاتِ والدي (أحمد بن إبراهيم بن بركة) القويةِ، مع ابنِ عمِّه كبيرِ قبائل (ميقل) البلوشية الشيخ (أحمد بن محمود البلوشي). ويقال إن جَدّي لوالدي كان ينازعُ هذا الشيخَ زعامةَ قبائلِ (ميقل والأشار والرند) لولا أن دَفَعَ الشاه (رضا خان) ـ الذي انْتُخِبَ شاهاً على بلاد فارس في سنة 1925م ـ عملاءه ليقتلوا، بواسطة (سُم) زُعاف، (ابن بركة الكبير)، الذي كان يعوقُ هيمنةَ الشاهِ ومذهبِهِ الديني على تلك المناطقِ العصِّيةِ على الحكم المركزيّ الفارسيّ.

موتُ الشيخ الكبيرِ دفعَ قبائلَ (ميقل) في مناطقِ (مكران) وما جاورَها لأن ينتخبوا كبيراً لهم هو الشيخُ (أحمد بن محمود) لأنَّ والدي آنذاك كان صغير السن نسبياً. وفي عُرف البلوش فإن صغيرَ السنِّ لا يحكم.

ومع هذا ظلَّ والدي يمثِّل شيئاً كبيراً لقبيلته ولأسرته... كان يحبُّني ويعطفُ عليّ ويباهي بجمالي الطفوليّ بقيةَ فتيات الأسرةِ. وعندما ماتَ قبلَ والدتي بسنةٍ حزنتُ عليه كثيراً... كم هي تافهةٌ كلمةُ (كثيراً) هذه! فهي لا تعبّر عن شيءٍ، ولا تدلّ إلا على المقدير. وفي الحبِّ والحزنِ ومخزونِ المشاعر، لا مكانَ لهذا... "الكثير".

...في لحظات سماع صوتِ الناعي الجديد، نسيت ـ للغرابة! ـ

مأساة وفاة أبي قبل عامٍ، بل لم تعد تهمُّني تلك الذكرى الأليمةُ؛ لأن الفواجعَ ـ كما يبدو ـ لا تزيلها.. إلا فواجعُ طريةٌ للتوِّ وقعتْ!

ما كان يهمُّني ـ أنا الصغيرةَ المفجوعةَ ـ عندما سُمع صوتُ النَّاعي، أن يكونَ قد أخطأ هذا المولولُ بالشؤمِ، فأماتَ أمِّي بدلاً من امرأة أخرى لا يهمُّ أمرُ موتها أحداً إلا القلة، ونحنُ ـ قادةَ تلك البلادِ ـ لم نتعوَّدْ أن نكونَ من ضمنِ هؤلاءِ القلة!

أمي، وحسب هذا المنطق، يجبُ ألَّا تموتَ، وإن ظن أحد أنها ماتت، فإنه قد شُبه له، وإن لم يشبَّه له ولم يظنَّ، فموت بعده رجعةٌ للحياة سريعةٌ... أسرع من دمعي وتنهُّداتي. لكنَّ تعداد مناقبِ الفقيدةِ وضمي إلى صدور الباكين من أهلي وأقاربي.. أكدا لي شيئاً: أن المسمَّى (موتاً) قد لامس وجهها الطيب. وأنه ـ لا غيره ـ قد تغلغلَ في أعضائِها، وأنه كذلك ـ ولا شيءَ غيره ـ مما كنتُ أتمناه لها، قد سكن أحشاءها وتعانق تعانقاً أبدياً بخلاياها، وأحالها إلى عدم وفناء..

...في شهرِ جنْي الرُّطبِ ماتتْ (أمُّ حسين)، ولكم زادتْ محبةُ هذه المرأةِ عند الجميعِ عندما لفظتْ أنفاسَها الأخيرةَ في ذيَّاك الشهرِ، الذي يستبشرُ فيه قومُنا بموفورِ محصولِ الشجرةِ المباركةِ؛ لأن أهلَ بلدتي كانوا يعتقدون أن الأخيار من الذكورِ والإناث تقترن مواعيدُ قدومهم إلى الدنيا ورحيلِهم عنها، بمواسمِ الخيرِ واللفتاتِ الكونيةِ الخارقة!

أما أنا فقد كرهتُ فاكهةَ الرُّطب، كرهي لموتِ والدتي؛ لأن علينا ـ نحن أهلَ بيت المتوفية ـ إعدادَ عشَراتٍ من (الزنابيلِ) المملوءةِ من تلك الثمرات، التي يعتقد الكثيرون في بلادنا ببركتها وقدرتها على شفاء الأمراض. كان على بيت الراحلة (أمِّ حسين) تقديمُ التمر للفقراءِ والمساكين كصدقةٍ على روحِ الراحلةِ، حتى لو كان هذا على حساب أمنيات (الصغيرةِ) التي فقدت والدتَها، وتمنت أن يتركها الجميعُ تسبحُ

في نهر أحزانِها، لا بسبب صغر سِّنها على مثل هذا العملِ الرتيبِ المرهقِ فحسْب، وإنما ليتركوها تستعدُ لمجابهة أيـــامٍ قادمةٍ؛ توقعتُ يا (بني) تلك الصغيرةُ بحدْسِها، ألا تكـون هينةً على مـن كـان مثلها: هوساً في حب من رحلَ، وتعلقاً بكلِّ شيء يمت لهم بصلة. والدتك في تلك اللحظات كانت تشعر أن كلَّ بؤسِ العالمِ قد رَزَحَ فوق كتفيها الصغيرتين... ولمَ لا والأنس والمودة قد رحلا برحيل الأحبةِ، وكلُّ ما حولها، ورغم ظاهرية التعاطف، يعطيها إحساساً، بأن غُربة وشقاءَ لا مثيل لهما قادمان لا محالة؟!

3

لم تكنْ حرارةُ الطقسِ ـ كما حسبتُها ـ وحدَها، سببَ حُبيباتِ العرق المبللة للوجهِ الصغير، المحاولِ استرجاعَ أحداثِ الماضي البعيدِ، بل كانتْ هناك أسباب أخرى، عرضتْها هذه الكلماتُ:

"شيءٌ واحدٌ لم أكنْ أفهمُه من تصرّفاتِ (أمِّ حسين) التي كانت لي كالكتابِ المفتوحِ: حياديةُ مشاعِرها نحَو زوجِها الشيخِ المهيبِ والمطاعِ من الجميعِ، والذي كان يمثِّلُ لزوجتِهِ ما يمثِّله تماماً للآخرين خارجَ منزلِ الزوجية، لاشيءَ قبلَ ذلك، ولا بعدَه: لا حـبَّ .. لا عاطفـةَ .. ولا اشتياقَ. لـم أكن أعرفُ ما السببُ في ذلك، ولا رغِبتُ في معـرفته حينَها؛ مخافةَ أن تصدمَني تلك المعرفةُ بحقيقةٍ لا أودُّ سماعَها ولا الاطلاعَ على خباياها.

لقد احتاج الأمر سنواتٍ عديدةٍ لاحقةٍ لمعرفةِ السببِ. واحتاج الأمرُ

كذلكَ لتجاربَ من المعايشةِ المشوشةِ، والفهمِ الناقصِ، والحيرةِ تجاه زوج وجيه مرموقِ المركز، عشتُها أنا - يا بني - مع والدك، مثلما عايشَتْ والدتي، نفسَ ظروفِ العيشِ المشتركِ مع جدك: كبيرِ (بنقلان).

المرأة - أيُها الأستاذ الجامعي - تحتاج للأناملِ الرقيقةِ الـمُداعبةِ لخصلاتِ شعرها والمكفكفةِ لدموعِها، وتحتاج لذراعين تحيطان بكل أنحاء جسدها لتقولا لها بدون كلمات ولا صخب: لا إشكاليةَ ـ في هذه الحالة فقط ـ بين الاحتواء والعطاء. تحتاج المرأة لكل هذا، أكثر من دلائلِ سطوةِ ووجاهةِ زوجٍ يتقلدُ مشيخةً وسلطنةً... أو مملكةً!

هل تعرفُ هذا يا بنيّ؟ وهل فككت هذه الشفرةَ الإنسانيةَ الأنثويةَ مع زوجك"؟

سؤالٌ لم يكن وقتُه ولا مكانهُ مناسبين؛ فأنا أريد المزيدَ من كشوفاتِ غيبِ الزمنِ الماضي، ولستُ مستعداً لسماع دروس حواءَ، التي تذكّرنا، بين فينةٍ وأخرى، بجهلنا المطلقِ تجاهَ شريكِنا الأرضيّ العاقلِ.. المجهولِ!

لم تترك، لحسن الطالع، حركةٌ مفاجئةٌ من يد والدتي اليمنى، مجالاً للكشفِ عنْ جهلي، بكيفية التعامل مع حواء. ولم يتركْ اتجاهُ تلك اليدِ للمرأةِ الضريرة وهى تتحسسُ (خبيئةً) تحت وسادتها، مجالاً للشكِّ في أن ما أريدُ استحصالهُ سيكونُ بلا شك من نصيبي.. وزيادة!

أسرعتُ تجاهَ صاحبةِ اليدِ الممتدةِ، وهى تجلسُ على طرفِ سريرها، لآخذَ منها ما رغبت في أن أراه وألمسه.. بل وأختطفه؛ خشية أن تتردد في إشهار ما كنت متأكداً أنه جزءٌ من الماضي الذي كنت أبحث عنه:

"سدو[1]!!... ماذا يعنى هذا"؟

---

(1) قطعة محاكة تصنع من صوف حيوانات البيئة المحلية.

سألتها بنبرةٍ فيها استفزازٌ مقصودٌ، لم تكن محدثتي تحتاج إليه؛ لأن إجابتها كانت حاضرة:

"هذا "السدو" هو من ضمن أشياء قليلة تركتْها أمي قبلَ وفاتها في مخدعها الخاصّ، واحتفظت بها في حرزٍ منذ انتزعت من (بنقلان).. وحتى الآن.

يداها الرقيقتان صنعتا هذه القطعةَ في محاولةٍ عاطفيةٍ للفْت انتباه (جدك) لمشاعرها؛ كانتْ تريدُ أن تُهدى له ما حاكته يداها بعد أن أرشدتها وصيفة لها كيف تكتب اسـم زوجها عليها. وكما يبدو فالمحاولةُ لم يُكتبْ لها النجاحُ، وإلا لما قلّبتَها بينَ يديك الآن!

...فشِل البوحُ العاطفيُ والإشارة لـ(ألف باء) لغة القلوب. كانت المحادثاتُ السياسيةُ، ونزاعات الفرقاءِ، وتوزيعُ المغانمِ، وتوقعاتُ ما سيحدثُ في المستقبل لكراسيّ السلطة والجالسين عليها؛ كلُّ ذلك كان أقوى كثيراً من معاني قطعةِ "السدو" ومغزى اسمِ الزوجِ الأولِ المحاك عليها بعنايــةِ، علّ ذلـك يلفتُ الانتبــاهَ ويقولُ شيئاً لم تقله الشفاهُ! هذا شاهد يا (بني) لنادرية العلاقات الحميمة بين الرجل والأنثى، وللحبِّ بمعناه المجرد، عند سادةِ القصورِ مهما اختلفتْ أسماءُ مناصِبِهم و... (حريمهم)".

شعرتُ أنَ مسارَ سردِ ذكرياتِ والدتي، بدأ يحرقُ مراحلَ الزمنِ الماضي البعيدِ ليدخلَها بشكلِ التباسٍ مع الماضي القريب.. بل ومع الحاضر المعيش؛ لهذا أردت بسؤالي التالي، جعْلَ الأحداثِ الماضية أكثرَ وضوحاً في ترتيبها الزمني، حتى ولو كان هذا على حسابِ حالاتِ تلبس المعاناة بين الأمِّ والبنتِ... بين الجذورِ والفروعِ:

"أراكِ تُركزين على كُنية (أم حسين) عندما تشيرين لوالدتك... هل كان لجدتي ابن اسمه (حسين)؟ وكيف نفرق بين (حسينٍ) هذا و(حسين) أخيك الآخر غير الشقيق، الذي كان يَرِدُ على لسانِك بين فينةٍ بعيدة وأخرى"؟

لا يجدُ المرءُ ـ عادةً ـ صعوبةً في استحضارِ أسماءِ شخصياتٍ معينة قابعةٍ في ركنٍ من أركان ذاكرتنا، التي هي عبارةٌ عن وعاءِ تاريخنا. ومن هذا الوعاءِ كانت تلك الكلماتُ التي تضرَّجَ وجهُ صاحبتها وهي تقولها:

"والدتي (أم حسين) كانت الزوجة الأولى لجدك. وهي قد ولدت له ابنه البكرَ (حسين) الأول بعد زواجهما بسنة؛ لكن يدَ المنونِ اختطفته بعد ستةِ أشهرٍ من ولادته، ثم عَقُمت أمي ـ مؤقتاً ـ سنوات طويلةً قبل أن تحمل بـ(نائلة) السعودية... التي تحدثك الآن. والمفترض أن اسمها في أرض البلوش كان (مريم)! وبين (حسين) و (مريم) مرَّ زمنٌ طويلٌ، وفَّى فيه والدي بعهده الذي قطعه لأمي: بألا يتزوج عليها!

لكنّ هذا العهد سقط عندما رضخ جدك لنصائح بعض إخوته وأخواته ولـ(طمأنتهم) له بأن لا تعارض بين الوفاء لزوجة قد يطول عقمُها، وبين الاقترانِ بزوجةٍ أخرى تأتي للرجل بالبنينَ والبناتِ، وبامتداد الخلفِ الذي سيرث السلف.. وقد كان هذا. جاء (حسين الثاني) الذي سمي على الابن البكر الذي توفي من قبـل. رزق جدك لأمك بصبي سمّاه (حسين) ثم رُزقَ بولد آخر سمّاه (إبراهيم)؛ ولم تمضِ سنواتٌ قليلة كذلك إلا وكان لزوجة أبي الجديدة بنتان لم يفصل بين ولادة الواحدة والأخرى سوى دقائق معدودة. ومع هذا ظلت والدتي تُعرف بـــ(أم حسين) حتى ولو كان (حسينها) قد مات، وعاش (حسين ابن الضُّرة"!

توقف كلامُ والدتي لمدة نصف دقيقة بللت بلسانها شفتيها، قبل أن تواصل (عطاءاتها):

"وللتخفيفِ من الشعور بالذنب.. ذنب الزواج على والدتي، أغدق والدي على زوجته الأولى الكثيرَ من الأموالِ والهباتِ؛ وذلك لتعويضها عن فقدان ابنها البكر، وفقدها لقلب الزوج الذي استأثرت به زوجةٌ

أخرى صغيرة السن؛ وحتى بعد مقدمي للحياة، وحتى بعد أن تولع والدي بـ(مريمَ) الصغيرةِ ذاتِ الشعر الذهبيِّ المتموجِ والعينين المائلتين للزرقة.. بالله عليك... ألم يبق هناك ـ أيها الناظر ـ بقية من تلك السمات"؟!

"أُقسمُ أن الزمنَ لم يستطعْ أن يأخذَ من جمال تلك القسماتِ إلا النزر القليلَ"!

كانت تلك إجابتي على تساؤلها، الذي كانت تعرف إجابته معرفة حقة بالرغم من مجاملتي الظاهرة، وبالرغم من محاولاتي إبطال مشروع ابتسامة لن تستطيع أن تراها ـ بالطبع ـ إنما ستشعر بها حتماً: ألم يقولوا إن للبلوش حدساً لا يخيب؟!

وخطرَ لي، ساعَتها، أنْ أطرحَ عليها سؤالاً، لكنى ترددت لبضع لحظاتٍ في طرحهِ مخافةَ أن يثيرَ ذلك غضَبها... وأخيراً اتّكلت على الله:

"ما مقدارُ الغضبِ الذي واجهتْه جَدّتي من بقيةِ ورثةِ جدي، عندما لم يجدوا مالاً كثيراً، كانوا يعتقدون أنه موجود عند جدتي التي حظيتْ ـ كما أعتقد ـ بالكثيرِ من الإغداقِ والعطايا في حياةِ زوجِها، تعويضاً لها عن (مبدأ) نسائيّ أزليّ كانت تصر عليه، ثم تجاهلته غداة زواجه من امرأة أخرى"؟!

...وبسرعةٍ أضفت جُملاً أخرى، في محاولةٍ لتخفيفِ آثارِ عاصفةٍ أتوقعها:

"أرجو ألا تغضبي يا (أمي) من فضولي الذي أوجده سياقُ حديثٍ منك لا يُملُّ"!

لم تغضبْ من مضمونِ السؤالِ، لكنها تبرّمتْ - كما يبدو - من توقيتهِ، أو عدم ملاءَمته لفهمِ سياقِ القصةِ القديمةِ، التي ستكونُ مصائر أبطالها ـ كما يقول القدريون ـ كما هي عليه الآن، حتى ولو كان ما حدث لم يحدث .. أما والدتي فلها رأيٌ آخرُ :

" لقد غضبوا لأنهم لم يصدِّقوا أن والدتي وهبت وتبرّعت بكل ما حصلت عليه من جدك، للفقراءِ والمعوزين في (بنقلان) وما جاورها من قرى (مكران). والحقيقة أنه لم يكن لديها في بيتها من النقد أو الأشياء العينية، إلا نياشين لجدك تعلوها الأتربة وسيوفٌ قديمةٌ صَدِئة، ولفائف من الرسائل الواردة لكبير القوم من هذا الحاكم المحليِّ أو ذياك الزعيم القَبَليّ. تلك الحقيقة لم يصدقها أو يؤمن بها بقيةُ الورثة؛ ما وقرَ في قلوبهم أنَّ والدتي ماتت ولديها إرثٌ كبيرٌ من مال وأطيانٍ وكنوزٍ مدفونةٍ. وهم في اعتقادهم هذا تغافلوا عن أمرٍ مهمٍ لم يستذكروه أبداً أو لم يرغبوا أصلاً في تذكره.. هو: أن أمي ـ النبيلة ـ عندما تزوجت جدك لم تكن أبداً فقيرة مُعوزة، بل إن ثروتها كانت تعادل ثروة زوجِها.. على أي حال فقد كانَ لغضبِ إخوتي وقرارهم اللاحق ـ والذي تأخر سنواتٍ ـ في معاقبةِ المنفردة بتركةِ المال، الذي لهمْ فيه نصيب ـ كما يخمنون ـ عواقبُ وأي عواقب؟! لقد كانت كلُّ تلك الظنونِ والأوهامِ والأحقادِ سبباً في وجودي الآن بالعاصمةِ السعوديةِ الرياضِ، وأنا أسرد قصتي .. قصة البلوشية المختطفة، التي أصبحتْ من إماء (ملكٍ) يعادلُ في مأساته مأساتَها، وإن اختلفت صناعة وصُناع المأساة".

4

ازدحمتْ أفكارٌ كثيرةٌ في رأسي، وأنا انتظرُ والدتي حتى تفرُغَ من أداءِ صلاة عصرِ يومِ جمعةٍ استثنائي. ففي ذاك اليوم بدأ حديث القادمة من بلوشستان، عن إرهاصات وقائع الماضي البعيد؛ ولسوء حظي،

توقفت انطلاقاتُ السَّردِ بعد أن ناشدها بقيةُ سكانِ القصرِ وزائرو آخرِ الأسبوعِ قَطْعَ (الخلوة) العلوية لتناولِ الغداء. وعند ذكر كلمة الغداء في أي مكان آخر غير بيت (أم مقرن)، فإن هذا يعنى مجردَ وجبةٍ لملء المعدةِ. أما بين جدرانِ (ذاكَ) المنزلِ فالأمرُ مختلفٌ جداً، إنها رحلةٌ في قاربٍ من متعة تذوقٍ لا تُضاهَى، ولا يمكن فعلُ شيءٍ جادٍ بعد أي وجبةٍ يتناولها (المحظوظ) هناك، إلا بعدَ فترةِ راحةٍ ممزوجةٍ بالكثيرِ من النُّعاسِ. وما حدث في يومِ البوحِ الأول، لم يكنْ إلا شذوذَ (الاستيقاظةِ) المُلغيةِ للقاعدةِ الكبرى! ولعل مردَّ هذا، هو الحديثُ الجادُّ الذي جرى بين متحلقي مائدةِ الطعامِ من أجيالِ العائلة، حول أحداثِ الساعةِ في فلسطين، والمآسي التي وقودها دم ودموع أهل تلك البلاد المكبلة بقيودِ آخرِ استعمار على الأرض. وحتى بعد الغداءِ وأنا أتصفحُ جرائدَ يوم الجمعةِ في انتظار إتمامِ عمليةِ الهضمِ، وخروجِ المرأةِ التي أنتظر حديثها على أحرٍّ من الجمر من الحمام، وهو المكانُ الذي تقضي فيه ثلثَ يومِها ـ عادةً ـ مدعيةً إكمال طقوسِ الوضوءِ الكاملِ الذي تبتدعه والدتي، ولا نستطيع، نحن أحباءها، تخفيف غُلوّها فيه. حتى بعد تلك الفترة المملةِ من الانتظارِ، لم أستطعْ إلا الانغماسَ في الشأنِ العام مرةً أخرى، بعد أن حسِبْتُ أن ما جرى من حديثٍ مع الآخرين حول مائدةِ الطعامِ قد استهلك طاقة تلبستنا على شكلِ تقمُّصِ أدوارِ المصلحين الغيورين على واقع محيطهم القومي؛ فها هي أخبار الصُّحفِ وتعليقاتُها حولَ النزيفِ الذي لا يتوقفُ لجراحِ أمتنا العربية في فلسطين المحتلة والعراقِ المحاصرِ، تزيد ألم المتضررين من أوضاع أمتنا العربية المنكوبة بفقدان بوصلة معرفة اختيارات المستقبل.

الانتظارُ وتداعياتهُ، أعادوني، مرةً أخرى، إلى وضعيةِ الاكتئاب النفسيِّ، الذي كان يزورُني في أيـامِ كتابةِ هذهِ الأسطرِ من حينٍ إلى آخر. كنتُ أظنُّ أن تلك الدقائقَ الحزينةَ السوداويةَ كانت ستقودني حتماً

إلى الأسوأ نفسياً، لولا أن فتحت البابَ محظيةُ والدتي (جمعة) لتدخلَ سيدتُها تلك المرأةُ المسنةُ الضريرةُ التي تحتفظ، لحسن حظي، بكلِّ مدركاتِها العقليةِ وبملكاتها التذكُرية. وليسَ أدلَّ على هذا من تلك الكلماتِ التي قالتْها حالَ دخولِها لغرفة الانتظار المجاورةِ لغرفةِ الطعامِ، حيث فضَّلت أن تضع أثقالَها من الذكرياتِ على سطح الأوراق التي أحملها خِلسةً منها:

"أتعرفُ - يا بنيّ - أنني لم أبكِ في حياتي سوى مراتٍ قليلةٍ، حتى وأنا أفقدُ أغلى وأهمّ الناسِ في حياتي... أتعرفُ لماذا؟ لأنني أحمل موروثاً ثقافياً من أرض أجدادي .. من حكايات الكبار والتي يستلهمها الصغارُ حال سماعهم لها واستيعابهم لمضامينها.. تقول الأسطورة البلوشية: إن من يبكي كثيراً من البلوش سيكون مجنوناً طولَ عمرِه، ولن يُشفى من هذا الجنون، ولا يمكن لذريته أن تظل حيةً تُصارع تقلُباتِ الزمن. ومن تدمعُ عيناه دائماً، فهو ليس من البلوش ولا ينتمي إليهم.."!

وقرت تلك الكلماتُ الأسطورية في صدري، لكنني - يابني - قاومتُها وهزمتُ جبريتها مرتين، سأذكرُ بعد قليل ما حدث في المرة الأولى، وسأرجئُ الحديث عن الثانية لاحقاً عندما يأتي الوقت المناسب لتذكُرها و...".

قاطعتْ كلماتي تسلسلَ أفكارها؛ مما دعاها إلى إشهار اعتراضها. هكذا فسرتُ حركة يدها التي لوحت بها في الهواءِ، في محاولة فاشلة لمنعي من قول تلك الجمل المُشوشة والغارقة في... تفاهتها:

"وأنا أكادُ أبكي - يا أمي - بانتظار تكملة ما بدأتُ سماعَه في غرفة النومِ العلوية؛ وتذكري أنني لا أخشى البكاءَ؛ لأن تراثنا السعودي لا يقول شيئاً في (سفرهِ) غير المكتوبِ عن العواطف الإنسانيةِ، وعن عاطفة البكاء من أجل الحصول على شيءٍ ثمين"!

وكأنها لم تسمع هذه المداخلة المترهلة.. واصلتْ بطلة قصتي استحضار وقائع الزمنِ الأول:

"لم يمضِ أسبوعٌ على وفاةِ والدتي، حتى بقيتُ أنا الفتاة ذات الثانية عشرة وحدي في البيت مع إخوتي من والدي، مع الذين لا يطيقون نسخةً من (الغاصبة) الراحلة، والتي كانوا يجاملونها حتى قبل وفاتها بلحظات، مخافة أقوال الناس في (بنقلان). تلك الأقوالُ الموضوعة في أول سلم الضبط الاجتماعي لبيئة منعزلةٍ محافظة. بالإضافة إلى آمالهم المتوقدة، بأن (أم حسين) يمكن أن تتلفظ، عند النزع الأخيرِ، بكلمةِ السرِّ المنتظرة: (كنزُ) أبيكم.. هنا.. أو هناك.. أو في أي مكان تشيرُ إليه. وعندما لم تُخرج أمُّ حسين تلك (الدُرة) المأمولةَ، ولم يعد هناك كنز ولا حتى أوراقُ وصية مُخبأة تحمل البشارة؛ جُنَّ جنونُ إخوتي الذكور والإناث على حد سواء، وبدا أنهم مصممون على حرماني من إرثِ والدتي، الذي هو عبارةٌ عن مالها الخاصِّ الموروث ـ أصلاً ـ من أبويها اللذين يُعتبران من طبقةِ الأثرياء ممن يسمون في بلوشستان بـ(الباشا ندهز). لكن وبالرغم من علمهم بكلِّ هذه التفاصيلِ فإنَّ ذلك لم يكن ليُرضِيَهم ويغفرَ لأختهم الصغيرةِ غيرِ الشقيقةِ (ذنبَ) والدتِها!

في اليومِ السابعِ، وعندما تفرق المعزون والرُّثاة والمواسون، حسب تقليدِ أهالي (بنقلان)، وعندما تركتني بقيةُ العائلة مع (رُعاتي) الجددِ، ممن سأعيشُ في كنفهم بقيةَ العمرِ، ما لم يتزوجْني هذا الوجيهُ البلوشي أو ذاك؛ عرفت أن أياماً ـ ولا كل الأيام ـ في انتظاري، وأن الحبَّ والحنانَ والاحتواءَ مصطلحات لم تعد ذات معنى؛ لأن تلك المصطلحات غادرت محيطي عندما جفت منابعُها الحقيقية.

لم يكنْ بكائي لينقطع في تلك الليلةِ التي سمعتُ فيها قرارَ (حسين) وأشقائهِ بأن يُضيقَ عليّ ويُنزلَ بي عقاباً بالوكالة؛ لا سيما أنني علمتُ

بأن أول (فرمانٍ) سيصدر من مجلس العائلة ـ مخالفاً للشرع، الذي يقولون إنهم يتبعونه ـ يقول: إنني لا أرثُ مالاً من والدتي. وأن تُوزع تركتها كلُّها على (حسين) وأشقائه وشقيقاته.. مع والدتهم، التي منحوها مسؤولية تربيتي!!

...حينها، وعندما سمعتُ قراراتهم، من وراءِ البابِ الذي أغلقوه عليهم، بكيت بحرقةٍ، بعد أن أخذت رُكناً قصياً من أركانِ بيتٍ مسكونٍ بالأحزان. كان نشيجي يتحوَّلُ أحياناً إلى نحيبٍ وعويل. وخطر لي حينَها أن أهربَ صباحَ اليومِ التالي، إلى حيثُ تقيمُ (عمتي) في بلدةِ (بشن) المجاورةِ لبنقلان. كان ذلك مجرد تفكير ذى صبغة طفولية، لكن ذلك العبثَ لم يلبثْ أن تحوَّل إلى تصميم وقودُه الهلعُ واليأسُ من أوبة (كفلائي)، الذين أشاهدُ في عيونهم، كلَّ لحظة، نُذُرَ سحبٍ سوداءَ ستهطلُ أسوأ المعاملاتِ الإنسانيةِ على واقع من شقيت بهم.

...وذاتَ يومٍ من أيام الأسبوعِ الثالثِ لوفاة (أم حسين) شُوهدت فتاةٌ ناهزت ـ للتوِّ ـ الثانية عشرة من عمرها، وهي برفقة (جميلة)، إحدى أحبِّ وصيفاتها إلى نفسها.

شُوهدت الاثنتان تمشيان.. بل تهرولان.. صوب أمل ورجاء. اعتقدت الفتاةُ الصغيرةُ أنها ستجدهما عند عمتها التي تتحلى بصفاتٍ خُلقيةٍ، تشابه كثيراً صفات والدتها الراحلة. كانت الفتاة يا (بنيّ) تريدُ أن تشتكي هناك قدَرَها، وتَبُثَّ همومَها، وتذرفَ دموعاً إضافيةً، لم تستطع ذرْفَها عند من كان سعيداً ـ بالتأكيد ـ برؤيةِ تلك اللآلىءِ الصغيرةِ تتدحرجُ على خدها!

في خِضَمِّ تلك الأجواءِ المشحونة بالتوتر المحيطِ بفتاة بريئة، وعلى أرضٍ قاحلةٍ منعزلة من أراضي (إيران)، بدأت تغريبةٌ كبرى للهاربةِ من غربةٍ صغرى.

عصرَ يومِ الهروبِ، وفي منتصف المسافةِ بين (بنقلان) و (بشن)

والتي يقدرها المشاةُ بنهارٍ ونصفِ ليلةٍ، وتقدرها (مريمُ) وأمثالُها من المأزومين واليائسين بكلِّ أعمارِهم؛ وبينما كانتْ أربع أرجل تحثُّ الخطى نحو واحةٍ من الآمالِ، سدَّ الأفقَ غبارٌ كثيفٌ.

كان هذا يعني ـ ضمنَ معانٍ عديدة ـ أن أمرَ الفتاةِ ومربيتها قد اكتُشف، وأن إخوان (مريم) قد صمموا على ألّا تصلَ أختهم إلى المكان الذي يخشون ألّا يستطيعوا أن يعيدوها منه ـ وهي الفزعةُ ـ إلى سجنهم الأبديّ مرة أخرى. وهناك احتمال آخر تعنيه تلك الحجُبُ لما بقيَ من أشعةِ شمسٍ يوم بلوشي حارٍ:

..إنهم (الشاكيريس) و (الجاتس) أفرادُ الطبقاتِ السفلى في المجتمعِ البلوشيّ، الذين لم يجدوا طريقاً لإثبات ذواتهم في مجتمع طبقي محافظٍ معزولٍ غير طريق سرقة الصغار والصغيرات، أبناء وبنات الطبقات العليا في مجتمعهم؛ انتقاماً من العُزلة الإجبارية والنظرة الدونية التي يُنظر بها لهؤلاء المسحوقين وأمثالهم من مجاميع الطبقاتِ المحرومةِ. والخازنون ـ عادةً ـ مقاديرَ عظيمةً من الغيظِ والحقدِ في نفوسهم تجاه الأغنياءِ، ملاكِ الإقطاعات الكبيرة... أهلِ الاستعلاءِ والاستقواء!

...كانت الأحقادُ تحول سرقة صغار بشر المغضوب عليهم، إلى ما يشبه (الغنائمَ)، ثم تأخذ تلك السلائب طريقَها عادةً إلى الشاطئ الشرقي من بحر عُمان، متجهة إلى الشاطئ الآخر الغربي منه، بعد أن تُحشر في سفنٍ شراعية إلى حيث المجهولُ، وإلى حيث البداياتُ لقصص فيها من الآلامِ والغرائبِ... مافيها...".

الفصلُ الثالث

السبت: نحوَ المجهولِ..!!

"عندما

خلقَ اللهُ الكونَ

جعلَ طبيعةَ

بلوشستان

نائيةً".

(حِكمةٌ بلوشيةٌ)

5

بين الجلاَّدِ وضحيتهِ علاقةٌ أخرى غيرُ تلك التي تؤسَّسُ على تبادلية الكراهية بين الطرفين: علاقةُ الارتباطِ الوثيقِ بالزمن.. والانتظار. أحدهما ينتظرُ الغدَ؛ لانتزاع ما لم يستطع انتزاعه بالأمس من (اعترافات) ضحيته. والآخرُ يرى أن هذا الزمن عبءٌ ثقيلٌ لا يريده ولا يتمنى قدومه، إلا أن يكون بلا عنفٍ وبلا ضغوطٍ، وبلا هجمات انتزاع، لبقايا تاريخ مستغرق في سبات أبدي، داخل النفس الإنسانية.

حسِبْتُ نفسي بالأمس جلاَّداً.. ورأيتُ دموعها وسمعت آهاتها، وتأكدتُ من آلام سياط استرجاع ما قبع متوارياً في الذاكرة طويلاً. لكن ضحية الأمس لا تشابه أحداً من الضحايا! لقد رأيتها تستفزني ـ أنا الجلاد ـ أن أمعن في استجوابها.. في استنطاقها.. في إراحتها من أثقالِ أطيافِ الماضي، الذي يُعتبر الجلادُ ـ وللمفارقة! ـ جزءاً أصيلاً منه. بحيث من المفروض ألّا يكون ـ سوى ـ شاهدَ إثباتٍ لأقوالِ ضحيته

الحزينة، الراغبةِ في قولِ كل شيءٍ يرغب المُستجوب الشاهدُ.. الامتداد... في الكشف عنه:

"فُكت العصابةُ من على عيني، لأجد عشراتِ الأطفالِ من الذكورِ والإناثِ ممن تتراوحُ أعمارُهم بين الثامنة عشرة والرابعة عشرة عاماً. رأيتهم وهم يتزاحمون مجبرين في ركنٍ من مغارةٍ، بالكاد تتسع لِرُبعهم مع.. خاطفيهم؛ حينها لمحت في عيونهم ـ كما لمحوا ذلك بالتأكيد في عينيّ ـ جزءاً من التراث الإنسانيّ الطويلِ والأصيلِ المتعلقِ بالمعاناة والحزنِ والضياع: من هم الآن؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ وإلى أين تسوقهم أقدارُهم؟ في تلك اللحظات عَرفتُ، عَبْرَ حدس طفوليّ معززٍ بالوقائع، أن صفحةً طُويتْ من حياتي، التي بالكاد بدأتْ، وأنَ صفحة أخرى فُتحت، وفُتح معها فيضانُ الأسئلةِ حول الوجودِ والمصير، وعن حقيقة التأكيدات المتكررة لعجائزنا عن الحفظ الملائكيِّ للأطفال واليافعين"!

بهذا الحديث.. وبهذه الكيفية في استحضار ما مضى.. وبهذا التشويق لبقيةِ الحكايةِ.. حكايةِ الاغتراب الإجباري؛ بدأت سرديات ذيّاك السبتِ الصيفي الحار، ثالثِ أيام التدوين لقصتها، التي هي قصتي في ذات الوقت، مع أن الفوارق بين كتابة أسطر المخطوط وأزمنة أحداث سير الجذور والفروع.. جِدُّ كبيرة.

حكمة قرأتها: الإنصاتُ في مواقف بوح البشر ذي الخاصية النّادرة، هو المتعةُ والقرار الصائب بعينه:

"عرفتُ ساعتها يا (بنيّ) عن هؤلاء المُختَطَفين المتشابهين الكثير. كان كلُّ هؤلاءِ من أترابي، من أصدقائي، ممن ألعبُ معهم في تلك البيوت البلوشية المميزة عن غيرها. لكن عينيّ التقطتا، أيضاً، أطفالاً يقبعون، حسب التصنيف البلوشي للبشر، في آخر طبقات المجتمع... ماذا يعني هذا"؟

طرحتْ والدتي هذا السؤال في محاولة تحريضية لذاكرتها، ولكنَّ سرعةَ إجابتها عن سؤالها، لم تترك لي فرصةً لقياس مدى تأثير تتابع الأيام في العقل البشريّ:

"ككلِّ المنطلقاتِ الأولى للرفضِ أو لاحتجاجاتِ البشر على البشرِ، لا يمكنُ قياسُ مشروعيةِ تلك الاحتجاجات.. أو لِنقُلْ: نجاحها في الوصول للغاياتِ التي أعطتها شرعية عند انبثاقِها، إلا عندما تُختبرُ تلك (اللاءات) المسالمة أو الضعيفة بدايةً، ليس بعدَ يوم أو يومين، أو شهر أو شهرين، أو حتى بعد سنة أو سنتين، إنما بعد مضي وقتٍ طويلٍ من تكرارية الـ"لا" هذه. وهذا ما حدث لحركاتِ الاحتجاجِ التي أطلقتها طبقاتُ (البلوش) المستضعفةُ في وجْهِ الزعماءِ والوجهاء من قومهم. لقد ترجموا ضيقهم وتبرُّمهم من دونيةِ المعاملةِ التي تسوطهم ليل نهار، عبر خطفِ أطفالِ من أذاقوهم، لعقود، صنوفَ المهانة. لكنَّ الاحتجاجَ تحوّل إلى (مالٍ). وهذا المالُ، عندما تكدس في المغارات والشِّعاب، أشعل فتيلَ المطامع التي لم تكفها مدامعُ أطفالِ الأغنياءِ والقادرين".

لوعاتُ هؤلاءِ الصغارِ ـ للغرابة! ـ تحولت لزيتٍ ووقودٍ، لتلك الفتائل من المطامع الخبيثة، بل إن أنظار (الثوار) توجهت لوجهة أخرى: لـ(التيهس) ... وهم الأطفال البائسون والمتضررون من نار العبوديةِ والسُخرة، مثلهم مثل خاطفيهم، قبل أن يتحول الخاطفون إلى مجرد تجار من نوع خاص. ومَنْطَقَ هؤلاء الخاطفون (الثوّار) أفعالهم، بقولهم: إن المُعدِمين مثلهم مثل السادة ـ وإن اختلفت الدواعي ـ الكلُّ يحتاج للتطهير. لابد لأفرادِ الفئةِ البائسةِ ـ حَسَبَ زعم الخاطفين ـ أن يتطهروا من خنوعهم لأشكال الأنساق الاجتماعيةِ (الرجعية) وللسلبية وانحناء الظهورِ للأكثريةِ، ولسنواتِ تحمُّلِ سياطِ القلقِ المتحكمة. زد على هذا ـ والكلامُ مازال للثوارِ كما ترويه والدتي ـ فإن الطلب على الصغارِ للعمل في بيوت السادةِ والوجهاءِ (البعيدين) يزدادُ يوماً بعد يوم. وفي هذه

الحالة لا يكفي أن يُقدمَ لهؤلاءِ أمثالُ النقيبةِ (مريم) فقط، بل أطفالُ طبقاتِ المجتمع ككل، خاصةً أن المشترين الجدد المفترضين لا يسألون في معظم الأحوال عن الأصولِ والطبقاتِ، بل عن الفتوةِ والنباهةِ والجمالِ"!

الكلمات من والدتي تنهمر (الآن) سهلةً وكأنَّها تسترجعُ أحداثَ الأمسِ القريبِ.. سمعتها في حماستها المُتَّقدة تقول:

" لقد تحولت احتجاجاتُ (الثوارِ) إلى نوعٍ طقوسي من القرصنةِ وبيعِ الآدميّين في سوق النِّخاسة. والغريبُ أنني رأيت هؤلاء ـ في كل يوم من أيام الاختطاف، ووجودي كغنيمة مثل غيري، لديهم ـ رأيتهم يصلّون ويتهجدون ويُسبِّحون. لم أشعر ـ قط ـ أنهم يشعرون بوخزِ ضميرٍ أو ندم، أو أن ما يفعلونه مخالف لدين... لماذا لم أقل لعُرفٍ وتقليد"؟

والدتي تُجيبُ على سؤالها المنطقي:

"ذلك لأن العُرفَ والتقليدَ في أرضِ (البلوش) لا يتعارضان مع مظْهرية القوَّةِ، حتى ولو كان أحد سُبُل هذه القوة خطفَ الأجسادِ والأحلام. ولهذا، وحسب هذا النوع من الإرثِ التفكيري، تصبحُ كلُّ السُّبل وطرقُ قهرِ العدوِ، مبررةً، مادامَ المنتصرُ والفائز بغنيمة، قد أجبر الآخرَ المهزومَ والمسلوبَ على سكْب الدموعِ وإطلاقِ التأوُّهات والحسرات. ولا يهمُّ، بعد ذلك، أن تُعزَّزَ حالةُ الانهزامِ وما يقابلُها من حالة انتصارٍ مؤقتٍ، بما ينشأ لاحقاً، من جدلية عنيفة لا تنتهي من أزمنة تربُّص، لغلبةٍ وهزيمةٍ جديدتين مفترضتين، يسوقهما قسم من البشر ضد إخوانهم وبني جلدتهم هناك!

...في خضمِّ أفكاري ـ أنا الصغيرةَ ـ التي تقارنُ بين ظاهر وباطن سلوك البلوش، لم تراودني (حينَها) رغبةٌ ـ ويا للغرابة! ـ في أن أعودَ إلى إخواني وأخواتي وزوجة أبي.. حتى لو كان الثمن اختطافاً.. ومجهولاً.

ما كان يهمني، حينها ـ وأقسمُ على هذا ـ هو معرفتي لمصيرِ (جميلة)، وصيفتي الحبيبة. سألتُ نفسي وأنا أعيش أوقاتي الصعبة الأولى: أين هي؟ وهل سيكون مصيرُنا واحداً؟

لم أعرف الإجابة على السؤالِ الأولِ، وعَرَفتُ إجابة السؤال الثاني بعد ذلك؛ لأن رحلتي إلى خارج وطني، قطعتُها وحيدةً بدون تلك المشفقةِ، التي أظنُّها مازالت تبكي على ما حلَّ بي... إن كانت على بقيةٍ من حياة!

ولطالما سألت نفسي، والذاكرةُ تعود بي إلى تلك الحقبةِ العصيبةِ من عمري: هل النجاةُ من (طُغاة) عائلتي في بنقلان، لابد أن تكون أثمانُها المدفوعة، مشابهةً للوضعية السيئةِ اللاحقةِ، والتي وجدت المختطفةُ ذاتُ الحسَبِ والنَّسَبِ (السابقين) نفسها تغوص فيها؟!

كان رأيي الطفولي المندفع حينها يقول: نعم. لكن الثمن الأكبرَ الذي دفعته كان أكبر مما تخيلته: هو اقتلاعي من أرضِ الأجدادِ وإلقائي في قبضةِ الزمانِ الباطشة، والتي تُشكِّل دائماً مصائرنا.. حسب رأي الكثيرين.

تقولون في (السعودية): إن الإنسان يجبُ ألَّا يشتمَ أو يغضبَ من (الزمانِ)؛ لأن الزمان هو (الله). عند هذه الإشكالية أقفُ مترددةً ألف مرة، عندما أشكو هذا المدعوَّ (زمناً) والذي جعلتموه في جزيرتكم.. إلهاً. الإلهُ ـ عندي ـ لا يعرفُ إلا العدلَ والإنصافَ والجمالَ".

لم أكنْ أرغبُ، منذ البداية، في أن أجعلَ من والدتي مجردَ ساردةٍ للقصص، أو "حكواتيةٍ" مسلية. كنت أرغب في أن أجعلها شاهدةً على عصرٍ مثيرٍ انقضى، وإن برؤيةٍ ذاتيةٍ ضيقة للأحداث؛ لأنه، ومن خلال الشهادات المروية ـ بصفةٍ عامةٍ ـ تُكتشفُ خبايا الذاتِ عن الآخر؛ عن متقابلات الخاصِ العامِ، والرؤى المختلفةِ للقدر ـ مثلاً ـ ونقائضها من حريةٍ إنسانيةٍ مطلوبة. وبين العدلِ والإنصافِ، والظلمِ والعنف، وبين

مفاهيمِ الناسِ المختلفةِ، والتي يتمُّ بحثُها عادةً، عند تخومِ فكريةٍ محظورةٍ متهيِّبة في أوطانِنا المشرقيةِ.. مثلاً: عن الله وصفاتهِ، وبين حقيقةِ أن الخيرَ والشرَّ منه وليس أحدهما... كما نريد ونأمل!

لهذا... كان التعليق الأخير المُفعم بالتهكمِ على نظرتِنا السعودية (السلفية) للزمان، مفهوماً حسَب هذا السياقِ المتوقع، بل إن ما يجعل من مهمة التدوين لـلتاريخ أكثرَ ثراءً ومنفعة وتجلياً؛ هو أن يأتيَ التدوينُ من خلال الربطِ بين أحداثِ الماضي... وما يحدث حاضراً: سلوكاً، وتفكيراً، إلى جانب وقائع الأيام المعيشة التي لا يمكنُ فهمُها بدون العودةِ... للوراء.

...وللوراء عادتْ والدتي في جلستها على مقعدها المفضلِ، كحركةٍ تعبيرية، تُخبرُ عن استعدادٍ آخر للبوح:

"ثلاثةُ أيامٍ قضيتُها في تلك المغارةِ البلوشية النائية الواسعةِ، الصغيراتُ (=الإماءُ) عُزلنَ عن الصبيانِ (=العبيد)، وتم تنبيهُ الجميعِ إلى أنه لا يحقُّ لأحدٍ مغادرةُ آخرِ مكانٍ تتماسُّ الشمسُ فيه مع ظلالِ المغارةِ. فهمَ الجميعُ ـ حسَب هذا التوجيه ـ أماكنَ قضاءِ الحاجة. هذا المكانُ الذي لم يكنْ إلا زاويةً منعزلةً من أرضِ البرزخِ الفاصلِ بين زمنِ الحريةِ وأزمانِ العبودية.

لقد أصبتُ يا (بنيّ) في الأيام الثلاثة التي قضيتها هناك بأمراضٍ كثيرة. وكان أشدَّها الإسهالُ الذي سبَّبه الماءُ الملوَّثُ والأكلُ نصفُ المطهوِّ. ومع أن غيري من الأطفال قد تكيَّفَ مع ما كان يُقدمُ له، إلا أنني لم أستطع (أنا) أن أتكيف مع هذا الغِذاء والشراب الملوَّثَين بكل شيءٍ، واللذين لم تتعوذْهما معدتي المجرِّبةُ لأطايبِ الطَّعامِ ولذيذِ الشرابِ، والمتناقض، تماماً، مع (مائدةِ) الخاطفين غيرِ الكريمةِ! ومن واجبات الأمانة القولُ: إن الخاطفينَ كانوا يبادرون إلى تقديمِ علاجِ الأعشابِ الذي يناسبُ ـ في ظنِّهم ـ الحالاتِ المرضيةَ لرهائنِهم.

ومن صدق القول، كذلك، ذكرُ أنَّ (مسوقينا) لم يتحرَّشوا جنسياً بالأطفال... لا لأنهم أتقياء عفيفون، ولكنهم يعرفونَ حقَّ المعرفةِ، أن البضائع إن أريد رواجُها وبيعُها سريعاً، فإن على جالبيها للأسواق، أن يحافظوا ـ ما استطاعوا ـ على جودتها وإبعاد (العطب) عن موجوداتها!

...أؤكدُ لك يا (بنيّ) إضافةً لما سبق أن الإنسانَ يتكيفُ مع ظروفِ حياتهِ سريعاً، وإن أنكر هذا وادّعى. حدثَ هذا معي، حتى وأنا لا أكفُّ عن البكاءِ والنحيبِ والتمتمةِ بأسماءِ الراحلين، وبِطلب الهامسِ غير المسموع للنجدةِ، من أقرباء وأهلٍ ومحبين في (بنقلان) يفتقدون بكل تأكيد ـ ماعدا بعضَهم ـ تلك الفتاة المنعمة ذاتَ الدماءِ الزرقاء، والتي أصبحتْ تأكُلُ "الزرت"[1] بعد أن كانت تعافُ "التريت"[2] ـ أحياناً ـ وتعطيه لهرتها البيضاء.

في اليومِ الثاني من اختطافي، وبينما كنتُ أغرق، شيئاً فشيئاً، في أحزاني واستسلامي لقدري الخفي؛ سمعتُ صوتاً يخاطبني، وأنا بين النومِ واليقظة، يقول:

يا بنتَ الأكابر! كيف هو الفرقُ بين الاضطجاعِ على فُرش بنقلان المريحةِ، وأبسطةِ (لاشار جلال)؟

...إذاً هذا هو (لاشار جلال) صاحب الاسم الذي كنت أسمعه يتردد كثيراً بين الخاطفين، مقروناً بالإجلالِ والإكبارِ.. والخوفِ. (لاشار جلال) زعيمُ (مُضيفينا) وربُّ نِعمتي المؤقت! ..لابد أن أرهف سمعي لقوارعه:

لستِ يا بنتَ بركة دُرَّتي الوحيدةَ هنا. على يمينك ويسارِكِ ومن أمامك وخلفك، بناتٌ من (الهوت) و (البزنجو) و (الرند) و (ميرواني).

---

(1) الزرت: طحين الذرة المخبوز.

(2) التريت: طعام من خبز يُفت ويُبل بمرق اللحم.

إنّهن يساوين أوزانهن ذهباً، لكن أنتِ تعادلينهن كلّهن في القيمةِ عندي.. أتعرفين لماذا؟ لأن (آل بركة) لهم معي ومع أهلي ثأر قديمٌ وتراثٌ متراكمٌ من الأحقادِ، الحمد لله الذي أطال عمري لأشاهد يوم عبوديتك، إنه يومٌ يساوي عندي، كلَّ أثمانِ الصبايا والغلمانِ أبناء الأكابر والسواد على حدٍ سواء..

يا للسخرية..! أدفع ـ أنا ـ وحسب هذا الضرب من التفكير، ثمن بضاعة غيري. وغيري هنا ليسوا إلا ما أُمثِّلُ امتدادَهم، وما يرمزون له من هيبة وهيلمان. أدفع ـ أنا ـ ما لم يستطع (الآخرون) صَدَّه وكسْرَ طوقِه.. وبالطبع الانتقامَ منه، إلا برؤية بكاء بُنَيَّةٍ (الجبارين) الصغيرةِ ذاتِ الضفائر الطويلة؟! لن يجديَ في هذا المقام الاعتذارُ والتبريرُ، ولن يفيدَ في هذهِ الأجواءِ المتأزمةِ المليئةِ بالحقدِ، التذكيرُ بألّا يؤخذ الإنسانُ بجريرةِ غيره... إن حدثت. لكن متى كانت للمنتقمين قلوبٌ أو آذانٌ يفقهون ويسمعون بها، خاصةً إن ظفروا بمبتغاهم، أو بمَن يمثِّلُ هذا المبتغى؟ حينها: يبكي... لا يهمّ، يرتعد خوفاً وهلعاً.. سيّان، تقول عيناه كلمات وكلمات... لا فائدة!

(لاشار جلال) يواصل التذكِيرَ بـ"مآثرِ" الانتقام:

أتعرفينَ ـ يا بنتَ بركة ـ أنني قضيت أشهراً عديدةً وأنا أخططُ لخطفك؟ لقد كان من حُسن طالعي أن تُتوفى والدتك، وأن تحدث القطيعةُ بينك وبين إخوتك من والدك، وأن تُقرري الهروب إلى (بشن) حيث تعيشُ عمتك، الأمرُ الذي وفَّر عليّ أسابيع أخرى كانت لازمةً لإتمام عملية الخطفِ... إن للسماءِ هدايا ـ أحياناً ـ غيرَ متوقعةٍ...!

..همسَ في أذنِ زعيمِ الخاطفين أحدُ رجاله، ولاحظتُ أن وجْهَ (لاشار جلال) قد امتقعَ للحظات، إلا أنه عاد إلى هدوئه ثانيةً؛ لأنه ـ وكما يبدو ـ تعوّد على نوعيات كثيرةٍ من المفاجآت، ودليلي على عودة سكينته إليه ما قاله بعد ذلك عن وقائعِ تاريخٍ قديمٍ:

سأروي لكِ يا (مريمُ) هذه الحكايةَ:

ولدتُ من أبوينِ ذاقا، في مطلعِ كلِّ شهرٍ، وعلى امتداد سنة كاملةٍ طعمَ سياط جلادي سجن والدك الوجيه... لماذا؟ لأن والديّ اتُّهما ظُلماً، بأنهما اتفقا على سرقة (زرابيِّ) من بيت أسرتك حيث كانا يعملان لسنواتٍ طوالٍ. وهناك في السجن ولدتُ؛ ومنذ اللحظةِ الأولى لولادتي أصرَّ والدي المعتقلُ، على تسميتي (لاشار جلال)، ليس تيمناً بـ(لاشار مير جلال) زعيم اللاشار، بل تهكُّماً وإذلالاً ـ وإن كان متواضعاً ـ للسادة زعماءِ (ميقل) و (الرند) و (اللاشار). لكنني عندما كَبِرْت وعَرَفْتُ معاني ودلالة الاسم، ووعيتُ التاريخ الأسود لأسرتك مع والدي، ومع آخرين كُثر ممن أوقعَهمُ فقرُهم تحت تسلطكم وعُنجهيتكم ـ قررت أن أكونَ (لاشار جلال) آخرَ... زعيماً لايستمدُّ قوَّتَهُ من العصبيةِ القبليةِ، ولكن من السيفِ واختطافِ الأحلام"!

عند تلك الكلماتِ الأخيرةِ من استرجاعِ الماضي، لاحظتُ على محيا والدتي تعابيرَ مختلطةً. وكان من الممكنِ فرزُها لو أنَّها لم تستمرّ ـ وباندفاعٍ ملحوظٍ ـ في تذكر لقائِها الأولِ مع سيّدِ تلك المغارةِ المشؤومةِ:

"(لاشار جلال) كانَ يُصلّي. وأهلي السادةُ كانوا يُصلُّون. وكانت صلاةُ الأولِ تحثُّ على الصبرِ والاصطبارِ والدفعِ بالتي هي أحسنُ. وكانت صلاةُ سادةِ (بنقلان) تدعو إلى العدلِ والإحسانِ والتقوى. لم أجد ـ كما لم أجد لاحقاً ـ أي تطبيقٍ لهذه الدعواتِ وتلك المناداةِ على أرضِ واقعِ حياةِ المسلمين، لا في (مكران) أرضِ البلوش، ولا في (الرياض) عاصمةِ الجزءِ الأكبرِ من جزيرةِ العرب، كما لن أجدَها ولن تجدَها يا (بنيّ) في أرضِ الإسلامِ الواسعةِ... واللهُ أعلمُ!

...إنها مأساةُ المسلمين القديمةُ الجديدةُ، تلح عليّ بوطأتها عندما أسترجعُ بؤسَ أيامي الخوالي تلك، أو عندما (اسمع) حال أمتنا اليوم.

في أوقاتٍ لها خصوصيتُها يصْعبُ يا (بنيّ) على الإنسان أن يفرِّقَ بين مأساةِ الأممِ والأوطانِ، وبين أحزانهِ وكربه. حينها يغدو قلبُ هذا الإنسان الكسيرُ، هو وطنه المأزوم والعكسُ صحيحٌ.

هل تريدُ يا (دكتور) أن تعرفَ أيضاً مزيداً عن شخصية سيدِ الخاطفين، الذي خاطبني بتلك الدُرر قبلَ ستةٍ وخمسين عاماً؟

من حديثه الذي سأورده يمكنك أن ترضيَ فضولك. لقد قال لي بعد أن ذهب لشأن له ثم عاد، وأنا مازلت أعيشُ ذهولَ وقعِ كلماتهِ الأولى:

أمامي طريقان لإذلالِ بنتِ السادة.. أولهما: أن آخذك إلى بلاد العربِ حيثُ أبيعُكِ ـ ولو بثمنٍ بخسٍ ـ إلى أقلِّ الرِّجالِ شأناً، وأوضعِهِم حَسباً، وأكثرِهم صُنعاً للنكد والكرب. وبهذا ستَقرُّ عيني نوعاً ما، وسأجدُ السلوى ـ ولو قليلاً ـ لنسيانِ مقدارٍ ضئيلٍ مما فعلتموه (آل بركة) بنا.

أما الطريق الثاني: فلن يكون سوى أن أبيعك لأشرافِ جزيرةِ العربِ، حيث سأحظى بالمالِ الوفيرِ، في نفس الوقت الذي أنا متأكدٌ فيه، أنك لن تحاولي قط، فداء نفسك من (سادتِكِ) الجدد. ولن تكون لك الجرأة على التفكير يوماً في العودة لأرض الآباءِ والأجدادِ. فالعربُ السادةُ لا يلعبونَ ولا يتسامحونَ في مسألةِ هروب (العبيدِ) من قصورِهِم!

بعدما قال (لاشار جلال) تلك الكلماتِ تطلعتُ إلى قَسَماتِ وجهه: كان بهياً،جميل الطلعة، ذا عينين تُجبرانك، عندما تحدّق فيهما، على الاقرار بأن الفطنةَ والدهاءَ لهما عنوان واحد: هناك، حيث النصفُ الأعلى من وجهِ (الفارسِ) البلوشي، الذي يريد أن يطبِّقَ العدالةَ على طريقتهِ. ولطالما أساء طالبو العدالة حيثما أرادوا إقرارَ الحقوق!

أتعرفُ ..؟! طويلاً تساءلتُ: هل تدلُّ السماتُ الساحرةُ للناسِ على حقيقةِ مخابرهم؟ والدي مثلاً: طويلٌ ومثال على الرجولة المكتملة. بالإضافة إلى ما حباه الله من حُسنٍ وجاذبية. لكنَّ غالبيةَ من قابلتهم

يكادون يُقسمون على أن والدي يحملُ الكثيرَ من الحقدِ والضغينةِ على غيره، وخاصةً على من يخطئون بحقه، أو يحاولون المساسَ بكرامتهِ أو سرقة أملاكهِ... أياً كانت تلك الأملاكُ. أنا لا أصدقُ هؤلاء: ألأنه أبي؟ يمكن هذا! ولكنني أحمل اعتقاداً، قد أكون مخطئةً فيه بقدرٍ كبيرٍ، بأن الفضيلةَ لا يمكنُ، أبداً، أن تجتمعَ مع القُبح في الهيئة، مع أن أحداث زماني قد أخرجتْ لسانها لاعتقادي السابق هذا، الذي مازلتُ أحتفظ به من باب المكابرة... كما يبدو!".

سؤالٌ أبلهُ خرجَ منّي في لحظاتِ المكاشفةِ تلك:

"وماذا عني يا أماه، هل يتوافق مَخبرِي مع مظهري حسب التصنيف (البلوشي) للسمات والخُلق، والذي تحول ـ عند البعض منهم ـ إلى اعتقاد.. كما يبدو"؟!

وكأنها لم تسمع هذا السؤالَ السمجَ، استمرت والدتي في استجلاب الماضي:

" المكابرةُ لم تكن فيما كنتُ أعتقده سابقاً، عن الرابط بين الاستقامة والفضيلة من جانبٍ، والوسامة وحُسن الطلعة من جانب آخر فقط، بل في الترفع عن زادِ (لاشار) وجماعتِه. لقد ظللْتُ ليومٍ كاملٍ ـ وهو اليومُ الأولُ ـ مُضربةً عن تناول مأكلِ وشرابِ هؤلاء القومِ، لكنّ المكابرةَ ذابتْ في اليومِ الثاني كما تذوبُ الحقيقةُ في المشرقِ. أقبلت والدتُك يا (بني) بدافع الجوع والعطشِ على تناول ما يُقال إنه طعام، وتجرُّع ما يُدعى ماء! مرضتُ وقرفتُ.. نعم، ولكنني لم أستطعْ المكابرةَ في مسألةِ الجوعِ والعطشِ. مع أن شكاً خالطني في أنَّ (لاشار جلال) لم يكن ليتركني أموتُ من العطشِ والجوعِ، حتى لو جلَبَ لي عبر أعاجيبه، المأكلَ والمشربَ المناسبين والمحببين لي... أتدري لماذا؟ لأنني أمثّل لـه (كنزاً) كما يقول. وأستطيع أن أقول إن هذا الشك لم أستطع اختبار جديته، فدافعي الغريزي على التهام ما قُدم لي كان لا يقاوم!

مرضتُ بعد تلك المائدة، غيرِ العامرةِ، بساعاتٍ. أخرجتُ ما التهمته من طعام... وزيادة! وكلما ذهبت إلى (ما يسمى) مرحاض (لاشار جلال) مرضت أكثر!

وعندما نُودي للرحيل في ظهرِ اليومِ الثالث وتجهزت المطايا الكثيرةُ لحمل المشاريع الجديدة للعبودية بالإضافة إلى مبتدعي مشاريع العبودية البائسة؛ لم أكن على ما يرام ـ جسدياً ونفسياً ـ من تأثير أحداث اليوم السابق؛ لكنَّ نحيبَ الأطفال واليافعين، أنساني ـ أنا المهمومة مثلهم ـ ألمي ومعاناتي. سمعتُ يا (سيف) بُكاءً لا يمكنُ أن أنساه طوالَ عمري: لقد كان مزيجاً من حرمان الفطام العاطفي، ولوعة اقتلاع الإنسانِ من جذوره وتربته.. بل انتزاعه من أحضانِ حَدَبِ ورعايةِ الأحبابِ من الأهلِ، لدفعه إلى ثقوبِ الحياةِ السوداء.. حيث لا نكوصَ ولا رجعة.

سمعتُ بعضَ الصغار يردد أدعيةً حفظها عن والديه. قيل له إنها تردُّ الشرور وترجع الغائبَ وتُخفف المُصاب. لكنهم في الحقيقة، وبالرغم مما قيل لهم، لم يسمعوا إلا نداء سجانيهم ومسوِّقيهم، والذي يذكرهم دائماً بعبثية ابتهالاتهم. وفي أحيان أخرى قليلة، كانت (مشاريعُ العبودية) تسمع كلمات سلوى وعزاءٍ نادرة.. تقول فيما تقول: إن المؤمن مُصابٌ، أو إنَّ الجزاء يمكن أن يؤخر للداعي إلى وقت آخر. هل تظن يابني، أن ما جدَّ في أزمانٍ أخرى من حياتي، وما شاهدتُه وعلمتُه وكسبتُه وخسرتُه، هو مثالٌ للجزاءِ الذي كان يتحدث عنه المنظرون مختطفو جماعة (لاشار)؟ ...لا أدري... هل تدري أنت"؟

الكرة في ملعبي ـ كما يقولون ـ وإجابتي لابد أن تكون حاضرةً.. ومواسيةً وذكيةً:

"أعتقد أن المقارنةَ جائزةٌ لمن كان حُراً، ونحن لسنا ـ كبشرٍ ـ أحراراً من قيود أقدارنا. أكان باستطاعتك ـ والدتي ـ أن تختاري بين ظلم الأخ البلوشي النبيل، وبين سوءات الأيام التي ملأت بكدرها،

لاحقاً، الروحَ الشابةَ لهذه المرأة (الجذابةِ) الجالسةِ أمامي، والتي لم يزدها الشيبُ والإهمالُ المتعمدُ للمظهرِ، إلا تأكيداً لمن يعرفها، بأن الأجسام النورانيةَ ذاتَ البهاءِ والسناءِ أبقى من الجسدِ وعوارضهِ؟ ... لا أظن هذا".

لم يُعرفْ عن والدتي أنها تُصدقُ المجاملات التي يخالطها كثيرٌ من الكذبِ، وحتى في انتظارِها لإجابتي، لم تخرجْ عن هذا الإطار (المبدئيّ) تجاهَ المجاملة. علمتُ هذا من مظاهرِ التبرُّمِ التي لاحتْ على وجهها، لكنني شعرتُ أن الضيقَ كان أكثرَ عُمقاً هذه المرة؛ لأنني لم أقطع بشيء أكيد حول الرضا بالقدر وما يمكنُ أن يكونَ مخبأ لنا في المستقبل، تعويضاً عن كُرَب الماضي؛ ولأنني ـ كما تعتقد ـ كنت أتنقل بخِفة لافتةٍ بين الاختيارِ والجبرِ في مسألة القضاءِ والقدرِ، دلَّ على هذا قولُها اللاحقُ:

"عشتُ طوالَ عمري ـ خلافاً للآخرين ـ أعتقد أن الإنسان مُخيَّرٌ في أفعاله ومواقفه، وأنه لا يُجبر على صُنعها وإشهارها. لقد رأيتُ في ليالي الاختطاف إصراراً من المدركين من الغلمان والصبايا، والذين يعتقدون بالمذهب الشيعي، على تأديةِ فروضِ شعائرِهم، حسَب مقتضيات مذهبهم، بالرغم من معرفتهم أن ذلك سيزيد من نقمةِ خاطفيهم (السُّنة) عليهم، وعلى قرارات (البيع) المُذل لهم في وقتٍ لاحق. كانوا يستجيرون بـ(علي وفاطمة والحُسين) إلى جانب (محمدٍ) و (ربّه) جلَّ شأنُه، ويضعون جباههم على حصاةٍ عندَ السجود، كانوا يفعلون هذا وذووهم الذين غرسوا فيهم هذه الاعتقادات، بعيدون عنهم ولا يراقبونهم، بل إن هؤلاء الصغار نزعوا من قلوبهم قناع (التُقية) الشيعيةِ المشهورةِ، والتي كُنا في قصورنا (ببنقلان) نعلم عنها، مهما تحايلَ على علمنا ذاك، من كانوا يخدمون أسرَنا من بقايا (الهوت التالبور) و (المرى).. تلك الجماعات البلوشية السُّنية التي تشيعت حالما غادرت بلاد مكران، متجهةً إلى السندِ.

...هذا التصرف، في اعتقادي، ليسَ اختيارَ مذهب وتعصباً لضربِ من التفكير الديني فحسب، بل اختياراً لمستقبلٍ غامضٍ كان يمكن، بشيء من الاعتقاد بجبرية الأقدار، إذابةُ هذا الاختيار وإخفاؤه... ولِمَ لا؟ فالخاطفون سُنة. والجميع من بلوش مكران سُنة، والأجسادُ والمصائرُ سترسَلُ مع عبوديتِها إلى مكمن وعرينِ السُنة في جزيرة العرب.

وقد تقول: إنني لم أختر أباكَ، ولم أخترْ أن أعيشَ في هذه الأرضِ ولا أن أتعاملَ مع (جمعة) و (زبير) وغيرهما. ولم أشهد خلعَ ملوكٍ ومقتلَ آخرين، ولا كلَّ الأحداثِ التي عرفتُها أنا ولم تعرفْها أنت، وتنسى حين تقولُ هذا السؤالَ الذي قوّلتكَ إياه: إنني اخترت مفارقة أخٍ ظالمٍ حتى ولو كلَّفني هذا حريتي واستقراري وأياماً بلوشية، كان يمكن ـ لولا الاختيارُ والرفضُ ـ أن تمضيَ رتيبةً كئيبةً. لقد اخترتُ طريقاً آخر مختلفاً للحياة، حتى ولو كان هذا الثمنُ انقلاباً طبقياً وقبولاً بخلطٍ في قوائم السادة والمسودين" .

كان يمكنني، بدوري، أن أقول لها: إنها، وهي تعتقدُ أنها اختارت المجهولَ وتركت المعلومَ، لم تكنْ تعرفُ أن هذا (الاختيارَ) المزعومَ ما هو إلا سطرٌ في سِفْر حياتها المقدَّرِ والمكتوبِ بحتميةٍ وجبريةٍ، إلى حد أن الاعتقاد بغيرِ ذلك هو ضربٌ من الجهالة والعمى المعرفيّ. لكن حتى الآنَ، وفي لحظات هذا اليقينِ الذي أودُّ أن أقوله لوالدتي، تدهمني الظنونُ في هذه المسألة بالذات. المرأة المُسنة كانت تعرفُ رغبتي في عدمِ القطعِ بشيءٍ عندما يتعلقُ الأمرُ بإشكاليات التفكير الكبرى. حتى وإن بدوتُ واثقاً مما أعتقده وأجزمُ به. هي تعرف أنني أعرفُ: أن حالةَ الإيمانِ بجبرية الأقدارِ و(اختيارِ) هذا الجانبِ الاعتقاديِّ أو ذاك، هو تأكيدٌ بحد ذاتِه ـ في رأي البعضِ ـ على أن الإنسان مخيرٌ في اعتقاداته، مثلها مثل سلوكياته!

كلُّ ما وددتُ قوله، وكل يقينها و(ميوعة) تصوراتي نحو قضية قديمة

أثارت الجدلَ ومازالت؛ كل ذلك أزحْتهُ جانباً، عندما قلت لها تلك الكلمات التي تعبر عن ضيقي وقلة حيلتي تجاه مجهول نحاول ـ عبثاً ـ أن نعرفه، إلى جانب رغبتي في ألَّا أدع خزينَ ذاكرتِها نهباً للتشتت:

"ما أعرفهُ تمامَ المعرفةِ، وما أنا متأكدٌ منه، أنني وإياكِ على موعد مع القدرِ، الذي نختارُه أو يختارُنا. والذي (قد) يجعلُنا مُرغمين لسطوته وإيقاعه، حتى تبوحي ـ مثلاً ـ وأستمعَ أنا، لما كان من قصةِ فتاةٍ بلوشيةٍ جميلةٍ، استعدت في يومِ اختطافِها الثالثِ للرحيلِ ـ هي ومن (شاء) القدرُ أن يُستعبدوا أو يُستعبدن معها ـ إلى مجهولِ تلك الأزمنةِ الخاصةِ، والتي صنعها (لاشار جلال) ورجالُه.. كما ضحاياه"!

إيماءةٌ برأسها أعطتني الأملَ في أنَّ خيطَ استرجاعِ الماضي لم ينقطعْ.. وقد كان:

"لفحتْ وجهيَ ونحن نستعدُ في بكور صباحِ اليومِ الثالثِ من أيامِ (الضيافةِ) الإجباريةِ؛ رياحٌ حارةٌ رطبةٌ خانقةٌ. كان هذا يعني أننا قريبون جداً من البحر، حيث الجزءُ المخفيُّ من الوطنِ الذي لم أره من قبل في الفترة البلوشية من حياتي؛ لأن تقاليدَ أسرتي المشابهةَ لتقاليدِ الأسر الميسورةِ والمتوسطةِ هناك، كانت تحظرُ خروج الأنثى من المنزلِ إلا لشيءٍ قاهرٍ جداً؛ ولأجل ذلك لم أكن أحلم يوماً بأن أرى هذا المدى الواسعَ المضطربَ، الذي يخبئ أسراراً بشرية وكونية كثيرة كما يقولون.

وبالرغم من هذا، فالبحر كان حاضراً في (بنقلان) دائماً من خلال رياحِه اللزجَةِ التي تعصفُ بمدينتي الصغيرةِ في أشهرِ الصيفِ التي تحلُّ ضيفاً ثقيلاً على تلك الأنحاءِ المُنزاحة عن البحرِ بمسافة تقدرُ بما يقطعه المهرولُ في يومين. ولأننا، نحن البلوش القاطنين في ديار (مكران)، لا نعرف (الروزنامة) التي تُخبر قراءها عن مواعيدِ الفصولِ والمواسمِ، يبدأ صيفُنا منذُ اللحظاتِ الأولى لإحساسِنا بوطأةِ الاختناقِ المتأتي من هبوبِ الرياحِ الجنوبيةِ الغربيةِ، التي تشملُ برطوبتها الثقيلةِ كلَّ أنحاءِ السواحلِ

الواقعةِ على خليج عُمان. ويستمر الإحساسُ المضْجرُ للبشر؛ من جرّاء تلك الأجواء المناخية طوال أشهر القيظ، ولا يقتلُ هذا الإيقاعَ المناخيَّ الرتيبَ، إلا أيامٌ قد تطول في سنوات وتقصر في أخرى، تُمطرُ فيها السماءُ المرعدةُ بقوة، مخلفةً سيولاً تجري بها أودية (مكران) أياماً عديدة. لهذا فإنني ومنذ استشعاري الأولي للرياح الثقيلةِ المحملةِ بأبخرةِ المياه المالحةِ خمنتُ أن الخاطفينَ قد اختاروا مكاناً غيرَ بعيدٍ عن الساحلِ لإيواءِ وتجمُّعِ (بضائعهم) من (التيهس).. وهي كلمةٌ أذكرك ـ مرة أخرى ـ أننا نعني بها في بلادنا البلوشية، مصطلح (العبيد)؛ هذا المصطلحُ الذي (يزهو) به أيضاً وبشكل لافتٍ للنظر.. قاموسكم العربي!"

بعد كلمات (المديح) تلك في حق لغة الضاد وأصحابها، توقفت والدتي عن السرد لدقائق، قامت فيها بسؤال مأمورِ هاتفِ القصرِ عن موعد صلاة المغرب. ولحسن حظي، فقد عرفت من رغبتها في مواصلة الحديث، أن هناك برزخاً زمنياً يفصلنا عن الصلاة وعن توقف البوح، ومن هذا البرزخ كانت هذه الكلمات:

"في وقتٍ لاحقٍ من اليومِ الثالثِ لتغريبتي، وعندما كنا في طريقنا مع (أسيادنا) لمكانٍ ما، علمتُ أن المغارةَ التي قضينا فيها تلك الأيامَ البائسةَ، لم تكن بعيدةً عن قريةٍ يقالُ لها (بولان). ومن هذه القرية ـ بالذات ـ يمكن أن يذهب (الراغب)، للموانئ الكثيرةِ الواقعةِ على الضفة الشرقية من خليج عُمان، ومن ثمَّ يعود إليها في نفسِ اليوم.

لكن الراغبينَ في هذه (الزيارة) والمستفيدينَ منها في صُبح يومٍ صيفيٍّ حارٍ من أيام الكرْبِ تلك... كانوا قلائل، علِموا ـ بالتأكيدِ ـ أنَّ مشاعرَهم تعاكسُ مشاعرَ المجاميعِ التي كانت ترافقهم مُجبرةً، ومعهم أحلامهم (السابقة) الطليقة الموؤودة، برؤية الشواطئ التي طالما تمنوا رؤيتها وهي تتلقى البحرَ في أحضانها.

أما الأكثر رُعباً في هذا الحلم، الذي استحال كابوساً، فليس إلا

معرفة المغلوبين على أمرهم ـ وإن في وقتٍ متأخرٍ لاحق ـ بأن الرغبات الماضيةَ وتحقيقَها لم تكن تعني إلا شيئاً واحداً: غُربة عن البلاد.. صحارى.. وجبالاً.. وسواحلَ.. وأناساً.. وإلى الأبد...".

6

لَكَمْ تمنيتُ أنني رأيتُ وعاينْتُ تلك الأزمنةَ والأمكنةَ التي جعلت من هذه المرأةِ: ـ التي قلما يرى من حولها علامة ضُعف تنم عنها ـ إنسانا آخر يستسلم أمامي بِرضاءٍ ولهفةٍ، للأسى الذي تصنعه العودةُ (الاختيارية) إلى ما كان، منذ أكثر من قرنٍ

كتفاها اللتان تهتزان بقوة، والبكاءُ المكتومُ المتقطعُ، والرأسُ المنحدرُ إلى الأسفل؛ منحوني جميعاً إحساساً طاغياً بأن موعد الانتهاء من تدوين بوحِ يومِ الجمعةِ.. ذاك قد أزف أوانه.

..وفجأةً، ولحُسن طالعي، خاب ظني.. عندما أعطت والدتي إشارة مواصلةِ السردِ:

"صباحَ يومٍ لا أعرفُ من ملامحه إلا أنه يومُ ثُلاثاء، انطلقتْ من تجويفٍ هضبي، قافلةٌ من الإبل والحمير والبغال. وعلى ظهورها مئات الأطفال من الجنسين، يرافقهم عشرات من الخاطفين المتمرسين على صناعة بشعة اسمها: (عبوديةُ البشرِ للبشر)، صناعة لها هدف واحد: سحقُ آدميةِ الإنسان وكرامتهِ. صناعة تهدم صناعة أخرى: خياراتُ المستقبلِ وكيفياتُ العيشِ مع من نريدُ ونحبُّ... ونكره!

القافلةُ، وهي سائرةٌ من الشمالِ إلى الجنوبِ الغربيِّ، كانت تنحدر

بشكلٍ قويٍّ نحو الساحل الذي تُطل عليه هضبةٌ غير مرتفعةٍ، تفترشُها مُدن... مثل: (بنقلان) و (بشن) و (بولان) وغيرها من المدن والقرى. كان الطريق مليئاً بجفاف مشاعر الخاطفين؛ جفافٍ يماثله قسوةً، الوجهُ العبوسُ لهضبة بلوشستان ذات التضرس العميق، والتي تُظهر وجهاً آخر لها في (بعضِ) السنواتِ ذواتِ الصيف وأواخر الربيع الممطر. ذلك عندما تسيل أوديتها الخانقةُ التي يصبُّ بعضُها في خليج عُمان. وبعضها تلتهمه السبخات والكثبان الرمليةُ، التي تفصلُ بين أجزاءِ من الهضْبةِ والساحلِ البحريِّ.

...في لحظةٍ من ساعاتِ ذيّاك النهارِ الحزينِ، خُيل لي أن زعيم الخاطفين (لاشار جلال) تخلّى عن مرافقة حملته البائسة. وقد كان هذا الحدسُ الشخصيُّ صحيحاً، دعمته الرؤيةُ المستمرةُ لـ(قائدنا) المؤقتِ ـ والمسمى (خميس زادي) ـ وهو شخصٌ رأيته مرتين يرافقُ ويأخذُ تعليماته من (لاشار جلال) شخصياً، أيام الاحتجاز في تلك المغارةِ العفِنة!

منذ رؤية هذا القائدِ (المؤقت)، داخلني شعورٌ غريبٌ بأن (لاشار جلال) يعتبر (إنساناً) ذا نسخة ملطفة، قياساً بهذا المدعو (زادي)، والذي أمــر رجـــاله (=رجال لاشار) بأن يمتنعوا عن إعطاء الماء والطعام للمغلوب على أمرهم من المخطوفين، إلا بالمقدار الذي يقيهم الموت أو المرض المُقعِد. وكان يتعلّلُ، بأن هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ، لجعل المؤن أكثرَ كفايةً وسداً لحاجة الأيام المقبلة الصعبة. والتي ستشهدُ ـ كما أشيع حينها ـ حرباً انتقامية بين رجال القبائل وزعماء المدنِ والقصباتِ البلوشية.. من جهة، وبين الخاطفين الآتين من الطبقات المحرومة والمعزولة والمضطهدة من جهة أخرى. وأن عليه، والأمرُ كذلك، اختيار طريق أطولَ وأكثرَ وعورةً مما خُطط له سابقاً.

...وحتى وهذا البخيل (خميس) يترنم مُتمايلاً بأبيات قصيدةٍ بلوشية

مشهورة، فيها كمٌّ كبير من العواطف؛ لم أغير رأيي فيه، بل ازددتُ يقيناً بأن معدِنَ هذا الشخص ذو تركيبة خاصة ليس من ضمنها الرفقُ والرحمةُ.

ومازلتُ يا (بنيّ) أحفظُ تلك الأبيات، بالرغم من مرور سنين طوال على سماعي لها. ولا أدري لم؟ قد يكونُ السببُ أنني وجميعَ أهل تلك البلاد البلوشية لم نحظَ بأي قدر من التعليمِ سوى حفظِ السور القصارِ التي وردت في القرآن الكريم. وحتى تلك السورُ، على قصرِ آياتها وعدم صعوبة فهمها ومن ثم نُطقها، تمزج عربيتها في بلادنا بأعجميةٍ واضحةٍ. لكنَّ هذا الفقرَ التعليـميَّ جعـلني ـ مثل غيري ـ من البلوش، نمتلكُ ناصيةَ الحفظِ والامساكِ بكلِّ شيءِ مسموعٍ؛ ومن ثم وضعه بصورة آلية في خِزانةِ الذاكرة.. يقولون: إن ما سلَبه الخالقُ من هاهنا يعطيه ـ وبشكل تعويضيّ ـ هناك! ويقولون نقلاً عن الربِّ المُتناهي في علمه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة 216].

وأعتقدُ، يا بني، أنكَ تبتسمُ في هذه اللحظاتِ، من الخير الذي أعطِيتهُ تعويضاً عن جهلي وأميتي. ستقول في داخلك: لقد أثابها الله حفظ تلك الأبيات من الشعر! إنما عليك، وأنت تسخرُ، أن تتذكرَ إمكانية أن أكونَ قد نسيتُ جُلَّ أحداث قصتي التي تتشوق لسماعها، لو أن ذاكرتي ملئت بأبجديات التعلم وطرق الإفهام مثلكم يا مَن تدعون الثقافة"!

سأقبلُ كلَّ شيءٍ منها؛ لأنها والدتي أولاً، ولأنني، ثانياً وحتى عاشراً، أحتاجها، أحتاجُ إلى المعرفةِ وإلى إجـــاباتٍ لأسئلةٍ كثيرةٍ. لهذا صمتُّ ولم أقاطعْ، أو أحتجّ أو أعلقْ. وهي تعرفُ أنني لا أتحلى عادةً بصفاتِ الصبرِ والتجلدِ إلا عندما أريد شيئاً... و هذا الشيءُ لم يتأخر:

"حفظتُ تلك الأبيات، كما حفظتُ أسماء الكثيرينَ من (رُفقاءِ) الرحلةِ سواء كانوا خاطفين أو مخطوفين. ولم يكن هذا ضرباً من نبوغِ أصبتُه، ولا عودة لضفة الطُّمأنينةِ التي تتيح للإنسانِ أن يستدعيَ اسمَ هذا

وذاك إلى حيثُ ترقدُ وتُبعث الرموزُ والصفاتُ والهيئاتُ.. والأسماء. كلّا لم تكن تلك الأسبابُ واردةً بالطبع. ما حدث هو أنني، من جانب، كنت طوال فترة احتجازي، أو اختطافي ـ سيَّان ـ أشعرُ برهبةٍ ويأسٍ كبيرين، ولم أجدْ طريقةً للتخفيف من هذه المشاعر وغيرها، سوى تذكرِ الماضي القريب، ومحاولةِ (خطف) كلِّ الكلمات التي تقالُ والأسماءِ التي ستُستبدل بأسماء أخرى بعد ذلك، والحواراتِ القليلةِ المفهوم منها وغير المفهوم؛ لعلي أحتفظ بما بقي لي من عقلي ورغباتي في المقاومةِ والعيش... احتفاظ الحي المستيقظ. ولأن داعياً خفياً كان يقول لي : إن ما سيأتي أكثرُ إثارة لمشاعرِ الحيرةِ والتشُّتتِ العقليِّ والروحيّ... فصبراً يا (بنت بركة) فلا عزاء لغير المتجلدين!

تلك الحالةُ المزيجُ من التوهُّمِ واليقظةِ الاستثنائيةِ، شملتْ ـ تقريباً ـ جميعَ المختطفين من: بنينَ وبناتٍ. ولن أنسى يوماً من أيام الذُّلِّ تلك، عندما جُلدَ أمامنا اثنان: مولي وأمةٌ صغيران، لا يتجاوز عمراهما الحادية عشرة! ومردُّ ذلك أن أحد زبانية (لاشار) ونائبه (خميس)، ظنَ أن الصغيرين يتغازلان ويتهامسان. ومازلت أتذكرُ قسمهما المشترك ـ الذي أعتقدُ جازمة صدقه ـ أن هذا من الوهم.. وهم المُختطفين المتوترين. وإن حدث وتكلم هذا الفتى مع تلك الصبية، فليس إلا لأجل التأكد من استمرار آدميتهما التي من شروطها الحديثُ المتبادلُ بين البشر"!

اقتنصتُ فترةَ صمتٍ مفاجئة؛ لأبادرَ والدتي بسؤال:

"كم قضيتمْ من الوقتِ للوصولِ إلى الوجْهَةِ التي (ساقكم) إليها الخاطفون؟... وهل لي بجواب على سؤال آخر: إلى أين كانت الوجهة أصلاً"؟

أجابت دون إبطاء:

"النهارَ كلَّه. وفي أرض جرداء. وكان يمكنُ أن نصلَ في وقتٍ أبكرَ

من هذا لولا التوقفاتُ الكثيرةُ غيرُ المنتظرةِ والتي حدثت يومها، بسبب المخاوف من هجمات يقوم بها آخرون. وتكاثر علل الصغار والصغيرات مثل إصابتهم بحالات الإسهال الحاد، والاستفراغ، وبما يلحق بهم من جفاف يُقرب أصحابه إلى الهلاك. وعندما تحدثُ مثلُ تلك الحالات يُضْطرُ (خميس) ومساعدوه إلى التوقف عن السير. ويضطرون، كذلك، إلى استدعاء (طبيب) الأعشاب والعطارة، الذي يبادر فوراً إلى إرغام المرضى المتعبين، على تناول (أدويته) الجالبة للمرض أكثر من العلة نفسها!!

ولم أكن أنا ـ لحسن الحظ ـ واحدةً من هؤلاء المنتكسين في صحتهم؛ لأنني قد مررتُ من قبلُ بنفسِ الحالةِ المرضية، امتلكتُ بعدها أسرارَ المناعة... ببساطة: أضربتُ عن استطعام ما كان يُقدمه طباخو (لاشار)، واكتفيت بالماء والتمر، عندها فقط برئتُ ولله الحمد! وقبل أن أعرض على هؤلاء النفرِ المسمين، مجازاً، بـ... الأطباء!

أما وجهتُنا فلم أحددها إلى وقت متأخر من ليلةِ الوصولِ إلى شاطئ البحر" .

ـ "شاطئ البحر"؟!

سؤال لم يكن هناك بدٌ من طرحه؛ لأن الإجابة التي أتت مسرعة، كانت هي الفيصل في الحكاية كلِّها:

ـ "...نعم شاطئ البحر. وأخيراً.. رأيتُ المجهولَ الغامضَ الذي كنا نسمعُ عنه وعن حكاياته وأسراره، وما يخبئه للذين يعلُون ـ أحراراً ـ مياهه، مُبْحرين إلى حيث (شاءتْ) هممهم وأحلامهم.

...ليلتَها لم أنمْ؛ لأن النومَ سيحرمني من سماع صوت أمواج البحر وما كانت تقوله لي. وبالرغم من أن حديث الأمواج الافتراضيَّ لم يُدْخل السرورَ والطمأنينةَ على نفسي، إلا أنني قاومت الكَرَى مخافة أن يحرمني ممن تشوقتُ لصوتِ هسيسه الليلي، وحتى وامتداده النهاريّ

الرّحْب. لقد دفعتني تلك (المغريات) إلى ألا أقطعَ خشوعَ إنصاتي لانفعالات البحر الغامضةِ، إلا عندما تحين أوقاتُ صلواتِ الليلِ المكتوبةِ وغير المكتوبةِ، التي علمني أهلي ألَّا أترك شيئاً منها؛ فهي ـ كما سمعتُ ذلك منهم ـ تُطيلُ العمرَ وتجلبُ الرزقَ وتُحببُ الناسَ في المحافظِ عليها. ولعمري... فكل هذه الأشياء كنت احتاج إليها في محنتي تلك.

...وفي وقت متأخر من الليل، سمعت، كما غيري من (زملاء) الرحلة، حديثاً مسموعاً، عرفنا، من خلالِ تجربتنا، أن أحد طرفيه (خميس) والآخر كُني بـ(أبي شامبيه). وما فهمتُه، شخصياً، من هذا الحديث، أن شخصاً مُهماً سيكون هناك، في ميناء (جاه بهار) الواقع على بحر عُمان. حيث سيوافيه (لاشار جلال) صباحَ غد (= رابع أيام الاختطاف). وتواردت لأسماعِنا.. نحن الأماءَ والعبيدَ، شواردُ أنباء عن مشكلةٍ تتمثّلُ في عدم وجود سفنٍ كافيةٍ لنقل (المسافرين) إلى البرِّ الغربيِّ من البحرِ؛ ولهذا فـ(ستُشحن) أولاً الفتياتُ الصغيراتُ المختطفاتُ، ثم سيتبعهنّ، بعد ثلاثة أيام، البقيةُ الباقيةُ من الأطفالِ وغلمان... مشاريع العبودية"!

استوضحتُ من والدتي:

"هذا يعني أن (لاشار جلال) كان موجوداً قُربَ الميناءِ قبلَ قدومِكم إليه"؟

أجابتْ:

"كلَّا.. لقد وصل ومعه أربعةُ فرسانٍ في فجر ليلةِ وصولنا إلى (جاه بهار). سمعت، وأذان الفجر يعلو، حوافر خيلِهم وصوتَ (الزعيم) الذي حُفر في ذاكرتي. ورأيت كذلك خيولَهم المجهدةَ بعد بزوغ شمسِ يومنا الجديد. وأظن أن (لاشار) لم ينم إلا ساعات قليلة، شاهدته بعدها ـ مترنحاً ـ يتحدث مع شخصٍ لا يماثل خِلْقتنا، ولا تشابه ملابسُه وهَيْأتُه

ما كان يلبسُه عامةُ البلوش وساداتهم على حد سواء. كان هذا الغريب إنجليزيَّ الجنسية، واسمه (جونثان). وأتذكر طوله الفارع، وسحنته البيضاء المنفرة، وهاتينك العينين الجاحظتين المليئتين بكل نقائض الخير. ولاحظت يا (بني)، ونحن نشاهدُ محادثةَ الرجلين من خلال نوافذ (الخان) الذي أنزلنا فيه، أن الرجل الغريب كان يضع لُفافةً بيضاءَ بين شفتيه، مُخرجاً من آخر طرفها الظاهرِ دخاناً أبيض، وكلما اشتد الحديث بينه وبين (لاشار) وتعاظمت أصواتهما، ازدادت كثافة وكمية هذا الدخان!

وبين حين وآخر كان (لاشار) يستدعي رجلاً من أتباعه ـ لم أره من قبلُ ـ للقيام بترجمةِ كلماتٍ من نفس لغة (جونثان) عندما لا يستطيع نطقها بالفارسية، التي كان الغربي ـ كما لاشار ـ يعرفُ (معظم) مفرداتها ومصطلحاتها. ومن الأشياء اللافتة أن المحادثة أخذت وقتاً طويلاً؛ لأن المترجم كان ينقلُ، بعنايةٍ، (كل) ما يريدُ (لاشار) قولَه لهذا الشخص، الذي يبدو أنه بالغُ الأهميةِ لمجموعة الخاطفين وزعيمهم".

استأذنتُ من والدتي؛ للذهاب للمرحاضِ لدقائقَ معدودةٍ. وعندما عدت وجدتُها تتلمّسُ بيديها قلمي وأوراقي و(آلة التسجيل) التي أودعتها تلك الدرر الغالية من الذكريات. وفضلت أن أطرح عليها سؤالاً (يختلفُ) عن السؤال الذي كنت أظن أنها تتوقع مني طرحه عليها، والذي لن يخرج محتواه ـ فيما لو صدق حدسُها ـ عن معرفة ردود فعلها، بعدما علمتْ أن وقائع تاريخها، لم يعد توثيقُها حَصْراً على الأوراقِ والقلم فقط:

"ماذا يمثل هذا الإنجليزيُّ (جونثان) لمجموعة الخاطفين؟ ولماذا هو بهذه الأهمية"؟

أجابتْ بعد فترة صمت لم تطُلْ، وكأنها تسترجع نثار أحاديث الماضي الذي (تغاضت) عن استخدامِ كل أدواتِ التطفلِ عليه:

"في بيت أسرتي في (بنقلان)، كانت الأحاديثُ تدورُ في بعضِ الأحايين حول الأحداث التي كانتْ تمر بها إيران. الدولة التي تتبعها سياسياً أجزاء من منطقة البلوشستان. في تلك الأيام وقبل وفاة والدتي وهروبي ثم اختطافي، عُزل شاه إيران (رضا خان) بعد أن ثار عليه رجال الملالي ـ الذين يطلقون على مقابليهم هنا (المطاوعة) ـ ونُصِّب بدلاً منه على عرش بلاد الطاووس، ابنه (محمد رضا بهلوي). كل ذلك حدث وأسرتي تتحدث عن (احتلال) قوات مشتركة من الحلفاء لإيران. وما أعرفه حينها أن تلك الجيوشَ تتكونُ من جنودٍ سوفييت وبريطانيين. قدمَ هؤلاء لبلادِ الشاه أثناء ما كانت أسرتي تطلق عليه (أيام الحرب الكونية الثانية). وأصدقُك القولَ ـ يابنيّ ـ إنني لم أكن أعرفُ معنى الاحتلالِ ولا الحربِ الكونيةِ. لكنَّ هذا (الجهلَ) لم يكنْ ليعيقَ ملكةَ الحفظ عندي لتلك الأقاويل والمناقشات".

قاطعت حديثها لأسألها:

"وما علاقةُ كلِّ هذا بـ(جونثان)"؟

أظهرتْ قسماتُ وجهها مدى ضِيقِها الدائم من مقاطعتي لحديثها، لكنها تمالكتْ نفسَها وأخفتْ هذا الضيقَ بسرعةٍ؛ لأنها قد عودت نفسها سابقاً ـ وستعوّدها ـ على مثل هذه الأسئلةِ غيرِ الذكية:

"احتلتْ هذه الجيوشُ كلَّ إيران تقريباً. ومن ذلك ساحل (مكران)، حيث الإطلالةُ المتميزةُ على البحرِ الذي كان أخي (الظالمُ) يسميه (بحر الكنوز). وعندما (حُملنا) على ظهر سفينة العبودية إلى ساحل عُمان، وتهادت إلى مسامعنا قصصٌ من بعض سجانينا ومعاونيهم، الذين اطمأنوا إلى أن أحداً لن يسترجع (ودائعهم) البشرية التي لديهم. ومن تلك القصص: أن جيوش الحلفاء الذين يسميهم البلوش (الكفَّار) لم يعودوا يسمحون بأن يقترب البلوش أو حتى الفرسُ من سواحل البحر.

كان (جونثان) هذا مسؤولاً إنجليزياً مختصاً في تموين البواخر

العسكرية والمدنية التابعة للحلفاء. هذه المكانة هيأت له فُرص أخذ الرشاوي من (لاشار جلال) وعصابته مقابل السماح بالمرور للبواخر المشبوهة، مثل (باخرتي) التي أقلتني مع غيري نحو الشمال الغربي من خليج عُمان. وإن حدث أن استراب أحدٌ من قادة جيوش الحلفاء في تلك المنطقة بالأمرِ، يدَّعِي (جونثان) حينها أن تلك البواخر المشبوهةَ تؤدي خدمة إنسانية في نقل عائلات البلوش، اللائي يسكن ويعمل عائلوهم في عُمان وإمارات الساحل المتصالح!

...كل ذلك كان يتم ـ بالطبع ـ مقابل أموالٍ طائلةٍ، وارتفاع صوت (لاشار) و (جونثان) أمكنَ تفسيرُه بأن (لاشار) قد أخلَّ بوعدِه، المتمثلِ في إعطاءِ (جونثان) كاملَ رِشوته. أما حجةُ (الزعيم) فهي أن (جونثان) أخلّ بوعده المتقدمِ هو الآخرُ، ولم يستطع إلا (تمريرَ) سفينةٍ واحدةٍ لشحن البضائع الآدمية. وبهذا فإن السفينةَ الأخرى التي ستحمل الغلمان العبيد، لم تستطع بالتالي أخذ تصريح لرسوِّها. وقد علل الغربيُّ تقاعسه ذاك بقوله ـ كما نُقل لنا ـ : إن المسؤولين في تلك المنطقة ـ وهو أحدُهم ـ كانوا مشغولين في ترتيبات الزيارة الاطلاعية للوجيه (علام) محافظ لسيستان وبولشستان، لتلك الأنحاء من الأراضي الإيرانية المطلة على بحر... الكنوز!

حديثُ العتابِ الملتهبُ بين (لاشار) و (جونثان) أسفر عن إعطاء (جونثان) جزءاً من المبلغ المتفق عليه. وبعد ثلاثة أيام سيتم تسليمه الباقي عندما يتم التأكد من (شحن) البقيةِ الباقيةِ من المغلوبين على أمرهم بعد أن تزول أسبابُ منحِ تراخيصِ الإبحار".

في تلك اللحظةِ كان لابد أن أرضيَ فضولي مهما كانت النتائجُ.. سألتها:

"حديثُ الخاطفِ والمرتشي كان صباحاً، والاتفاق كذلك، ماذا حدث بعدَ إتمام تلك الاتفاقيةِ التعسةِ"؟

أجابت والدتي:

"أعلمنا في ضحى اليوم نفسه، أن رحلتنا البحرية التي لن تطول ـ حسب قول (لاشار) ـ ستبدأ بعد زوال الشمس؛ لهذا تم الإسراع في إعطاء كل بنت "دراعة"، ولم يسمح لنا بأخذ أي شيء آخر؛ لأن السفينةَ مجهزةٌ ـ كما قيل لنا ـ بكل احتياجات الرحلة!

...السفينةُ الموعودةُ كنا نشاهدها راسيةً في مكان قصيٍّ جداً من الميناء؛ الأمر الذي اضطرني، وكل البُنيّات الصغيرات، إلى الذهابِ، مشياً، على الأقدام وعلى شكل مجموعاتٍ قليلةِ العدد، إلى المرْسى الذي تقفُ بجواره سفينتنا الخشبية العتيقة المُسماة (فُرس).

كنتُ ـ يابني ـ يومَها من ضمن آخرِ المجموعاتِ الأنثوية الصغيرة الذاهبة إلى حيث الإعلانُ الحقيقيُّ للتهجيرِ القسْري من أرضِ الآباءِ والأجدادِ والأحبةِ. أما من كنَّ معي من رفيقات العذاب الإنساني فقد شرعْن بالبكاء المصحوب بالنشيج، مع محاولةِ اخفاء مشاعرهن، مخافةَ زجرِ الجلادين وسياطهم. أما أنا فلم أعد أدري ـ ساعَتها ـ لماذا تحجر دمعي وحُيِّدتْ مشاعري؟

. . .لكنَّ تجلُّدي هذا، لم يكُنْ إلا مؤقتاً وضعيفاً وواهناً. بدأ انكسارهُ عندما رأيت جميع (الإماءِ) البريئات يُدفعن دفعاً إلى سطح السفينة، ثم سمعت الرُبان يُخبر (جونثان) أن الفُلك الثانية، ستكون جاهزة للرسوِّ في نفس المكان يوم الحادي والعشرين من جمادى الآخرة[1] سنة 1366 للهجرة وأنه مستعد في تلك الساعة للإبحار، وأنه ينتظر فقط الأمر من (الغربي) صاحبِ اللُّفافةِ المحترقة!

حينها... نظرتُ، وأنا أضع أحد خديَّ على سارية السفينة التي صعدتُ بصعوبةٍ على سطحِها؛ إلى البرِّ البلوشي القريب، حيث يرقدُ ـ

(1) التدقيق الأحق للتاريخ المشار إليه، يوضح أنه يوافق الأول من يونيو 1945م.

غيرَ بعيدٍ ـ أبي وأمي تحت ثرى (بنقلان)، وإلى حيث يتنعمُ إخوتي، الذين لم أعدْ أحملُ ـ يا للغرابة! ـ ضغينة عليهم.. بالمال الحرام. وإلى حيثُ الأرضُ المسكونةُ بالجمودِ وبأغلالِ العاداتِ والتقاليدِ، المُنجبةِ.. احتجاجاً واقتتالاً، وإلى السماء المُظلة لمشاعرِ الحبِ والحقدِ، ولكلماتِ المواساةِ والعطفِ المتجاورة مع همزات ولمزات الشر والضغينة.

لا يمكنُ ساعَتها إلا أن أفكر في الأمة التي ظلمها تاريخُها وموقعُها، بنفس المقدارِ الذي ظلمها أهلُها، بشغفهم الدائمِ بإيذاء أنفسهم، وبجهلهم عندما يغْرقون في المنقولِ ويتباعدون عن المعقول. الأمةِ التي قُسمَ بشَرُها بينَ أكثر من دولةٍ، فارتُهِنَتْ بدورِها لطُغاةِ العالمِ ومخططاتهمْ.

قبل الإبحارِ نحوَ المجهولِ، سرحتُ في كيفياتِ عيشِ كل الأقوياءِ والمستضعفين في أرض البلوش، وهم يحاولون ـ بلا كللٍ ـ تبادل مواقعهم. رحت أغرق في تلك المُسطحات الكبرى من الأفكار، وأنا باكيةٌ حزينةٌ على الأمسِ، حائرةٌ وخائفةٌ من الغد. الغد الذي لا أعرفُ من سيُقاسمني صنع ملامحه وتداخلاته..."

الفصلُ الرابع

الأحد: في اليمِّ..!!

لن تستمتعَ
الشجرةُ
بحريةٍ أكبرَ
حينَ تتعتقُ
من رِقِّ التُرابِ...

(طاغور)

7

في لحظةٍ من أزمانِ المشاركةِ الوجدانيةِ للهمِّ الإنسانيِّ، تشفق ومهمَا يكنْ موقعُك: طبيباً معالجاً، أو حتى مُنقباً عما أخفي في ذاكرةِ الناسِ واستقرَّ كوديعةٍ منسية في اللاوعي؛ تشفقُ على الطرفِ الآخرِ المقابلِ، المحتاج إلى دوائك حقاً، أو إلى أوراقِك وقلمِك، ولتلك المخترعاتِ الحديثةِ التي ندوِّنُ ونسجلُ عبْرها بوحَ المقابلِ وشجنَه. إنها الحالةُ التي تشعر فيها أن زيادةَ الدواءِ، أو زيادة الاستنطاقِ وتدفقَ الأسئلةِ والاستيضاحَ؛ أشياء قد تكون مُضرةً ومسيئةً ولا تأتي بخيرٍ البتة.

...هذا ما أدركته وبسرعة، وأنا أستمع من صاحبة الاغتراب الإجباري القديم، لما كان يدور في داخل نفسِ تلك الصبيةِ الطاهرةِ، التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها، من مشاعرِ البهاءِ والتجلِّي والصفاءِ والمناجاةِ،، وهي تشاهدُ آخرَ قطعةٍ من البرِّ البلوشي تختفي من عينيها؛ لقد أدركت أن المُضي في لعب دورِ المستمعِ والمدونِ والمسجلِ للوقائعِ، وبشكل فاق سرديات اليوم السابق، مع تردد ـ مرافق ـ في التحولِ إلى دورِ الابنِ الوجل والمُشفق على والدتِه.. هو الجنونُ والأثرة بعينهما.

كان لزاماً عليّ وأنا أشعرُ بمدى الحزنِ والأسى اللذين سببتهما العودةُ إلى أحداثِ عقودٍ من الأعوامِ مضت، وإلى حيثُ أبحرتْ سفينةٌ من ميناءٍ بلوشي اسمه (جاه بهار) ـ أن أغلقَ دفاتري. وأفطمَ مدادي. وأزيحَ آلة التسجيل التي لا تحبُّ والدتي ـ كثيراً ـ أن تكون مشاركة لها في جلسات استدعاء الماضي. كان لزاماً عليَّ أن أجعل من بقية يوم السبتِ، راحةً للمرأة... الكنزِ!

علمت ما كان لزاماً علي فعله، وحدث أيضاً أن بكَّرتُ يوم الأحد بالقدومِ إلى ذلكمُ المكانِ الحميمِ لوالدتي؛ والذي أعتقدُ أنه من اللازم، توجيهُ نوعٍ من الشكرِ له في ختام تدوينِ هذه القصة!

في نفسِ المكانِ الذي تحدثتْ فيه (نائلة) خلالَ ثلاثةِ أيام سابقة من السرد، رحتُ أسألها:

"أصبحتِ الآن في داخلِ السفينةِ (فُرس) ومعكِ ـ كما فهمتُ ـ القسمُ الأنثوي من الصغار المختطفين.. كيف سارت أيامُ اليمِّ؟ وحتى متى عشتِ الأيامَ البحريةَ من غربتكِ الطويلةِ الممتدةِ حتى الآن؟ وكم هو عدد الخاطفين على ظهر السفينةِ؟ وأينَ..."

بحركةٍ من يدها اليُمنى قاطعتْ والدتي سيلَ الأسئلةِ غير المنضبطةِ التي حاولتُ أن أدفعها تجاهها، وأفهمتني إشاراتٌ لاحقةٌ ألّا أقاطعَ سردَها الثمينَ خلالَ يومِ التدوينِ ذاكَ.. ثُمَّ قالتْ:

"لا تتعجلْ في طَرحِ الأسئلةِ، واتركني أقم تدريجياً، وحسب مقتضى تسلسل الأحداثِ، بالردِّ على طمعك المعرفيّ وإسكاتِ فضولكِ القديم:

في يوم جمعةٍ من التاريخِ الذي أبانَه رُبّان السفينة لـ(جونثان) الإنجليزي، أبحرت (فـرس) من مكانِ رُسوٍّ بعيد، حيث تنتظر السفن دورَها في عبور الخورِ الضّيقِ للميناءِ البلوشي المسمَّى (جاه بهار).

أخذتْ سفينتنا، في بداية الرحلة، اتجاه الشمال، وغيرَ بعيدٍ من

الساحل، مررنا ـ كما أتذكر ـ على عدة ألسنةٍ صخريةٍ داخلة في البحر، يُسمى أكثرُها بأسماءٍ تتكون من مقطعين، يبدأ دائماً الأول منهما بـ(رأس...)، فهناك (رأسُ كوهلاب) و (رأس مدين) و (رأس تانج).

...لم يَطُل إبحارُنا نحو الشمال، ففجأة، ولسبب مجهولٍ آنذاك، أخذت السفينةُ زاويةً إبحاريةً حادةً نحو الغربِ، ثم إلى الجنوبِ الغربيِّ، حيث أرادَ الربَّانُ ـ كما يبدو ـ أن يقطعَ وبشكلٍ مباشرٍ الأفق المائيَّ الذي يكونه التقاء خليج عُمان مع بحرِ العرب.. وإلى حيثُ وجهتُه!

رُبَّانُ سفينتنا عُمانيٌّ، اسمه (سعيد الخوصري)، معه عشرة مساعدين، تعود أصولهم لإمارة (الفجيرة). وتوجد مع هؤلاء.. امرأتان: واحدةٌ منهما زوجة الربان، والأخرى أختهُ. وقد أوكل للمرأتين دور إعدادِ الطعامِ وغسلِ رؤوس الصغيرات المختطفات والعناية بهن.

كان الجميعُ يُطلق على الربان (سعيد) لقبَ (النوخذة). وفي وقت آخر يسمونه (الطواش)؛ لأنه كان يتاجر باللؤلؤ في السنواتِ التي تبور فيها تجارةُ الإنسان!!

ومن جانبه كان "النوخذة" يطلق على مساعديه ألقاباً مثل: (المجدمي) و(السوكني). وهذه الأسماء لها دلالاتٌ على رُتَبِ العاملين على ظهر السفينة. أما الفُلكُ التي حملتنا إلى المجهول، كما حملتْ أحلامنا، فكانت متوسطةَ الحجمِ وبسطحٍ ينتصبُ فيه صارٍ عريضٌ طويلٌ يكادُ طولهُ يقاربُ طولَ السفينةِ الشراعية، والذي قَدرتُه بـتسعين ذراعاً! وفي أعلى الصاري، والذي يُسمى كذلك (بالدقل)، عُلق شراعٌ أبيضُ ضخمٌ مثلثُ الأضلاع.

السفينة لم تكن سطحاً علوياً، بل ضمَّتْ سطحاً أرضياً، سقفهُ متنُ السفينة المرئي. وفي هذا الدور السفليِّ تم حشرُ ما يقارب خمساً وأربعين طفلة وشابة، بعد أن منع المرضُ والهزالُ والبكاءُ الفضائحي، عشرَ صغيرات أخريات من السفر مع بقية الضحايا.

خُصص للمختطفاتِ جميعاً مرحاضٌ واحدٌ لا يدخله غيرهن! أما الرجال من الخاطفين ومسيرو السفينة، فقد خُصص لهم الدورُ العلويُّ بكلِ (مرافقه) وتسهيلاتِه، التي كنا نحسدهم عليها... وإن تواضعتْ.

زوجة النوخذة (سعيد) وأخته المتزوجة من أحد مساعديه، كانتا دائمتيْ الوجود معنا في الأسفل؛ وكانتا، بحق، لطيفتين، صاحبتيْ معشرٍ غير منفِّرٍ، وقد خفف هذا الشعورُ ـ إلى حدٍ مَا ـ ما كنتُ، وكان غيري من (الإماءِ) يشعرن به من الوحدةِ والانكسار. تلك الأحاسيسُ التي كانت تذهمنا، عندما يغادر النهارُ ـ الذي نراه فقط من كوَّتين صغيرتين مُتقابلتين ـ سطحَ اليمِّ، وتخيمُ عندَ الأفقِ وعلى المكان ظُلْمتا السماءِ والماء. حينها توغلُ فاقداتُ الحريَّةِ والاختيارِ في معاشرة أحاسيس شتى، ليست بينها مشاعرُ الفرحِ والأملِ وانتظارِ الوقت الجميل الآتي.

...من جانبي، كان مما يزيد همِّي ووحشتي، ذاك الخـَوران الجسديُّ، وتلك الرغبةُ المستمرة في إفراغِ قليلِ القليلِ من عُصارة المعدةِ الصفراء. يحدث هذا كلما اهتزت السفينة من جراء عاصفةٍ بحريةٍ تنوء سحُبها بالرعود والصواعق. وحتى إن غفلت يوماً تلك الأجواءُ العاصفةُ وابتعدت عن سفينتنا، فإن موجاتِ البحرِ تستمرُّ في اللطمِ العنيف للألواحِ الخشبية التي صُنعت منها هياكلُ السفينةِ. ولا تحسبْ ـ يابني ـ أن السفينة (فُرس) منيعةٌ متينةٌ ضد موجات البحر التي تستلمها معانقة دائماً؛ لأن السفنَ المبحرةَ في خليج عُمان وفي بحر العرب، وكما أخبرتني "شهد بخت" زوجة الربان البلوشية السندية ـ لا تُصنع من أخشاب يربط بين كل قطعة وأخرى مساميرُ ودُسر، بل يقوم القلافون (= بنَّاؤو السفن) باستعمال الخيوط الليفية المُفلطحة المطلية بالشحوم عند صناعتها. هذه الطريقة من الصُنع تجعلُ من السفنِ التي يطلق عليها اسم (بوم) والممخرة عُبابَ بحر العرب وخليج عُمان، أكثرَ مرونةً تجاهَ الدواماتِ والعواصِفِ البحريةِ... خاصةً في أيام الرِّياح الموسميةِ المجنونةِ، والتي تهبُّ بصفةٍ مستمرةٍ تقريباً طوال شهور الصيف، لكنَّ

هذه المرونةَ تأتي على حسابِ راحة الركاب والاحتفاظ ببقايا الطعام في معدهم!

...وفي رحمِ المصائبِ قدْ نجدُ يا (بني) أنواراً تُنسينا ـ مؤقتاً ـ عَتْمة القنوطِ، حتى لو كانت تلك الأنوارُ خافتةً وضعيفةً. أقول هذا وأنا أسترجع ـ يابنيّ ـ ذكرى أيام السفينةِ (فُرس). فمع اشتدادِ الكرْبِ في الأنفسِ وهي تصارعُ أنواءَ خليجِ عُمان، وجدتُني أقتربُ أكثرَ فأكثرَ من الفتياتِ اللواتي شاركنني في رحلتي تلك، وحتى أكُون أكثرَ موضوعيةً وصدقاً معك، فلابد أن أقول (بعض) الفتيات وليسَ جميعهن؛ لأن قسماً منهن كان أكثرَ توحشاً ونفوراً تجاه الأخريات، فكيف و(بنت الأكابر) تحاول التقرب منهن؟ وهي التي لولاها ولولا ما فعلَ أهلُها وغيرُهم من النافذين بـ (لاشار جلال) وغيره من البائسين، ما كان الجميعُ في وسْط هذا البحرِ الهائجِ المائجِ، ولا كانت الرحلة.. بدايةً"!

ـ "ماذا عنْ (لاشار جلال)"؟

سؤالٌ وجهتُه للمرأةِ التي تعودتُ على غضبها عند سماعها لمثل تلك المقاطعات.. ولمثل تلك الأسئلة، مهما تكن وجيهة.. في رأيي!

ـ "سؤالٌ في محلِّه ووقتِه يا فتى! (لاشار جلال) كان في نفس السفينة التي أقلَّتْ أولَ دفعة من المختطفات في صيف ذاك العام. (لاشار جلال) اختار سفينة الإناث، وترك لـ(خميس) ـ مساعده ـ إمارة سفينة بقية المختطفين من الذكور. وذلك لسبب رئيس: لأن رمز غيظهِ بمعيته. وهذا يعني كذلك رمز غِناه الذي يحلُم به.. أليستْ (بنت بركة) في أصفاد العبودية؟ أليستْ في طريقها إلى أن تصبحَ جاريةً لسيدِ قومٍ يشار إليه بالبنان، قادرٍ على دفع أضْعافِ ما يدفعه الآخرون؟

إلا أن هذه المعية الدائمة من (لاشار) لم تجعلْني ـ طوال الرحلة التي استمرت خمسةً وعشرين يوماً ـ أراه شخصياً إلا ليومين اثنين فقط، من أيام تلك المعيةِ الجالبةِ للغم:

أولُ الأيامِ كان عندما أخرجنا فيه من (محشرنا) البحريِّ إلى سطحِ

السفينةِ؛ لنعرفَ أن الشمسَ مازالت موجودة في هذا الكون، وأنها مازالت تشرق وتبعث الدفءَ والإحساسَ بمعرفةِ الزمنِ.. أيِّ زمن!

يومَها اقتربَ مني صاحبُ القَسَمَاتِ المخادعةِ ليقولَ لي:

يوماً بعد يوم، يقتربُ موعدُ وصولنا إلى شواطئ جزيرةِ العرب، حيث ينتظرُ (القادرون) البضائعَ الثمينةَ، التي تليقُ بمكانتهم. وعلى خلافِ العادةِ القاضيةِ بإخفاء موعدِ وصولِ السفن الحاملةِ للرقيق البلوشي لعُمان؛ أرسلتُ هذه المرةَ إلى أحد أهم أصدقائنا التُّجار (=تجار العبيد) أعلمه بأن على (جلالة السلطان) توقُّعَ مثولِ محظيةٍ استثنائيةٍ، ذات حَسَبٍ ونَسَبٍ.. بين يديه الكريمتين. فتاة حان الوقتُ لبلاطِ عظمتهِ أن يزدانَ بها وبأمثالها. ومن الخير لها وللامتدادِ السلطانيِّ، كذلك، أن تكون المحظيةُ الجديدةُ ولوداً. لقد أكدتُ ومن خلال شواهدَ عرضتُها لـ(الدلّال)[1]، أن (الذرية) المتوقعةَ ستكونُ نِتاجاً رائعاً لتزاوجِ واختلاط دماءِ أصحابِ الأصول الملكية، مع دماءِ بناتِ النُقباء البلوش. وعليه فهديتنا للسلطانِ تستحقُ هذا العناءَ.. ونستحقُ نحن كذلك عطفهُ الكريم!

...حدثتني نفسي ساعتها يا (بني) أن أغرزَ أظافري في عيني (لاشار)، وأن أقذفَ وجهه بكل ما تستطيع يداي حمله، وأن أراه يطلبُ النجدةَ وهو يغرقُ في هذا البحر، ولا أحد يمد له يد مساعدة... إن استطاع!

لقد أدمتْني تلك الكلماتُ القاسيةُ، الخارجةُ من قلب قُدَّ من مادة الطمع والوحشيةِ والحقدِ. وها أنا من أقواله وأفعاله أتعلمُ من مدرسةِ الحياةِ أهمَّ دروسها: ألّا مكان فيها إلا للقوي، ولا عزاء في سرادقها للضعفاء أو مَن أوقعهم حظُّهم العاثرُ في أيدي الأقوياء، الذين تحركهم أحقرُ نزعاتٍ من قِيل إنه الكائنُ (الوحيدُ) العاقلُ في الملكوت!

لكنَّ الضعيفَ يمكنُ أن يقولَ شيئاً ـ أحياناً ـ حتى ولو دلَّ ذلك على مقدار عيشه المُسْتَكين:

---

(1) الدلّال: يقصد به الوسيط الإنساني لبيع الإنسان لأخيه الإنسان.

يا سيد لاشار...! أنت بلوشي وتعرف كيفَ هم البلوش متعلقون بعاداتهم وتقاليدهم. أستحلفك بالله وبما تعلمته من تلك الأرض من قيم، أن تُراجعَ نفسَك، وتحفظ لي بقيةَ كبرياءٍ وأنفةٍ. دعني أعد إلى بقاعنا الجميلة التي أحببتُها، ولا أخالُكَ أيها (السيد) إلا عاشقاً لها مُتيماً بها!!

...لكمْ يستعذبُ الجلادُ يا (بني) تلك الأصواتَ المبحوحةَ من الـمُعذبين! ولكم تَطيبُ له كلماتُ الرَّجاءِ والتذلل بعد كلِّ (حفلةٍ) يقيمُها، لمن لا يملكون غيرَ الدُّموعِ وتلك الكلماتِ الواهنةِ المرتعشة! (لاشار جلال) واحدٌ من صفوفٍ طويلةٍ ترمزُ لنوعياتٍ مثل هؤلاء البشر قُساةِ القلوبِ.. لقد سمعته يقول حينها:

يا مريمُ ألم يعرفْ ذووك أن الدوائرَ ستدورُ على المتكبرين، الذين يبغون دائماً العلوَّ في الأرض، وأنَّ لعبة الأسيادِ والعبيدِ، يلعبها بشرٌ يتبادلون مراكزهم التي تعطيهم صفاتِ القوةِ أو الضعفِ دائماً، في فلكٍ من المتغيرات، لا يكلُّ ولا يملُّ، ولا يتوقف دورانه؟ اليومَ ألعبُ أنا دورَ المتغلِّب المنتصرِ، وأنتِ تلعبين دور المهزوم المنكسر، الذي لابد أن يقبلَ كلَّ نتيجةٍ تفرضُها قوانينُ التغيرِ والدورانِ، ومَن يدري ما الذي تخبئهُ لنا أيامنا المقبلة، وأين ستكون مراكزنا آنذاك"؟

بصوتٍ مبحوحٍ تواصلُ (بلوشيتي)... الحديثَ:

" في حياتي الممتدةِ حتى الآنَ، مرت عليّ فواصلُ من الأحزانِ؛ وحدَها تلك الموجة من الأسى التي أحدثها خُلق (لاشار).. لا تُنسى أبداً. لقد تعادلَ ـ تقريباً ـ ما في داخلي من صخب المشاعر، مع مقادير غيظ أمواج خليج عُمان، حيث تُبحر السفينةُ الـمُقلة لحمولتها المعذبة... إلى حيث مجاهلُ الأيام. وحدها أحزانُ تهكُّمات (لاشار) لها طابع استثنائيٌّ، ولا يمكن أن تزولَ من ذاكرة مزدحمة، بالكثير. أتصدق يا (بني) أن غمغماتي المصحوبةَ بالتنهدات شُوهدت ملامحها من بعيدٍ؛ الأمر الذي دفع الربان (سعيد الخوصري) وزوجته للإسراع إلى حيث

تسمرت قدماي وأنا أنظر إلى الامتداد اللامتناهي للماء؟ بالطبع لم يتجرأ الزوجان على الاقتراب مني، إلا بعد انصرافِ زعيم الخاطفين، وهي نفسُ الإشارةِ التي دعت رفيقاتِ الرحلةِ، من الفتيات المختطفات، إلى التسلل فُرادى إلى حيث مكاني في ركنٍ عُلوي من السفينة، محاولين التخفيف عني مما كنتُ أشعرُ به .. وهو كثير".

افتعلتُ سعالاً متواصلاً لأتيحَ لنفسي طرح سؤال، اقتضتْ ظروفُ اللحظةِ، طرحَه على المرأة التي لا يزعُجها شيءٌ مثل سماعِها أن ابنَها الوحيدَ يشكو من مرضٍ عارضٍ... أو حتى يتشاكى:

"تبّاً لهذا السعالِ المفاجئ، وآسفُ يا (أماه) على المقاطعة. استفساري التالي اعترافٌ مني، أن لا إمكانَ لقدرتي على لَعِبِ دورِ المستمعِ دونَ سؤالٍ هنا، وإزالة غموضٍ اعترى الحبكةَ هناك:

هل محاولة التخفيفِ من وقع حديثِ (لاشـار) عليك، كانتْ بمبادرةٍ عفويةٍ من قِبل الربَّان وزوجته، أم أن (الزعيمَ) قد هيمنَ على تلك السفينةِ وعلى دوافع سلوكِ مَنْ عليها أيضاً؟!

علتْ الجديةُ محيَّاها وهي تُجيب:

"أكاد أجزمُ أن حالتي البائسةَ، ومشاهدتي وأنا أهتزُّ بشدةٍ كالمصابِ بداءِ الصرعِ، هي دافع تلك اللهفةِ في السؤال والمساندة من قِبل الزوجين؛ مع عدم إسقاط حقيقة أن كل ركاب السفينة، وخاصةً ربانها ومساعديه، يعرفون أن (لاشار) كان يحتقرني، ويجعلني رمزاً للشر الذي أوقعه الآخرون به وبأهله وأقربائه. في نفسِ الوقتِ الذي يخالجهم فيه شعورٌ قويٌّ، يصل إلى حد اليقين، أن هذا القائد المشهورَ عندَ عصاباتِ خطفِ وجلْبِ وبيعِ الرقيقِ، مهتم ألّا تتجاوز حدود الإذلال خطوطاً حمراء رسمها في مُخيلته... وهـي كما يخمنون: أن أُصابَ بانهيار عصبيٍّ واكتئاب نفسيٍّ أو... أن يجدوني ذات يومٍ جثةً هامدةً يلتفُّ حبلُ الانتحارِ حول عنقها!

...لكنَّ الحقيقةَ هي أنه لم يكن يهمُّني وسْط حالةِ هدمِ خلايا

الأمل في نفسِي حينها، طُرق تفكير الآخرين ومقاصدُهم؛ ما كنت أحتاجه فعلاً لمسةٌ حانيةٌ وقولُ عزاءٍ، مهما ظهر وجه التصنُّع فيهما.

لم يطُل انتظاري يا (بني) كثيراً، فها أنذا أسمع في وقت احتياجي ذاك، كلمات النوخذة (سعيد) العربية الممزوجة بالفارسية، تلك الكلماتُ التي لم أعرفْ منها شيئاً، لجهلي بكلتا اللغتين اللتين يتقن (سعيد) التحدث بهما؛ لأن واحدة منهما كانت لغته الأم، والثانية أجادها للضرورة في وسط ظروف عملٍ مثل عمله.

أعاد (الخوصري سعيد) على مسامعي محاولته في التخاطب مراراً وتكراراً، لعلي أعرفُ ـ أنا البلوشية ـ مما يقولُ شيئاً. لكن جُهده خاب ـ من وجهةِ نظرهِ فقط ـ لأنني، وإن لم أفهم التركيبات الظاهرية لكلماته تلك، إلا أنني كنتُ متأكدةً من أنها تعني فيما تعني: أن المشاركةَ والمساندةَ الإنسانيتين لا تزالان موجودتين، وإن ظنَّ (بعضُ) مَن على السفينة أنهما غير ضروريتين ولا يحسُنُ التعاملُ بهما ومعهما. فمنطق (أشيائهم) ومساراتُ الأحداثِ المقبلة التي يحاولون صُنعها، تنطق، بلا مِراء، بما في نفوسهم؛ إنهم يعتقدون بأن مُكابدة وألَم شِقٍ من الناس، هو في الوقت ذاتِه، طريقُ المجد والغنى والثروةِ للسالكين الآخرين عليه!

...التفاتة من (النوخذة) تجاهَ زوجتِه البلوشية كانتْ تعني طلبَ المساعدةِ، في إيصالِ مرامِي تلك الكلماتِ التي أعادها على مسامعي مراراً بدون جدوى. هذه الحركةُ اللاشعورية دفعتني للابتسام في خضمِّ مظاهرِ الحزنِ والقنوطِ التي بدتْ عليَّ قبل دقائقَ؛ لهذا لم تتوانَ (شهد بخت) عن اقتناصِ فرصةٍ كهذه، مشابهةٍ لإشراقةٍ مفاجئة، لشمس يوم شتائيّ ممطرٍ طويل:

"بُنيتي مريم، زوجي.. وأنا، لا نحبُّ كثيراً التدخل بين (لاشار) و(أبنائه وبناته) المحمولين إلى أزمانٍ، قد تكون أسعدَ من أزمانهم الماضية. حياةٌ فيها من الحسنِ والنعيمِ المقيمِ، بما لا يقارن بأيامهم

المنصرمة، التي أقل ما يقال فيها، إنها رديفُ السأمِ والشدةِ، وصنوُ العدمِ وسكونُ المقابر ...

بنيتي..! قد يجعلُ الله من الشدةِ مفاتيحَ للرخاءِ، ويبدِّلُ الأحزانَ التي كان يبدو أنها ليل سرمديٌّ لا ينتهي، إلى أعراسٍ متواصلةٍ من الفرح والسرور. هذه الأقاويلُ العزائيةُ نقولها بحكم وجودنا الدائم على هذه السفينة، لِمن نراهم أنا وزوجي، يندبونَ حظوظهم ويتأسـون على أمْسـهم. لكنني ومن معي في دائرتي الضيقة ـ وأقسمُ على هذا ـ أحببناكِ كابنة لنا أو أخت صغيرة. إن هذا استثناءٌ لم يحدث من قبل! نقول دائماً ما يخففُ عن ركاب سفينتنا الحيارَى والبائسين.. نعم، أن تتحولَ هذه المساندةُ إلى ما يشبهُ الحبَّ والوله... لا! هل يمكن أن يكونَ كلامُ (لاشار) عن نَسَبِك ومنبتِك الكريمين هو سبب شعورنا الاستثنائي ذاك؟ ...محتمل! أما الأكثرُ احتمالاً، فهو أن الأرواح وما بينها من أنواع تواصلٍ غير مفهوم، هو ما شدَّنا كثيراً لكِ.. صغيرتي!

...ما نعرفُه حقاً أننا نحبُّك، ونريدُ أن نقولَ لك ـ بحق ـ إن القادمَ سيكون أفضل مما سلف، وإن الأرض الجديدةَ حُبلى بالضياء والحبور، تعويضاً عن عُقم ما تُرك!

...نظرتُ إليها واحترتُ في الإجابة، بل إنني أزحت أي محاولة لإيجاد كلمات للردّ على ما يقولان... أمجنونان هما؟ يدعيان الطيبة وأنهما من الناصحين؟ يعرفان من خلال التجارب السابقة ما سيحدث؛ ولهذا فهما مستبشران بأن (بضاعتهما) الإنسانية لن تشقى في الغد، الأمر الذي يخفف جزئياً من أوزارهما؟ مجردُ وسائط تسمين للضحايا الأسلاب، الذين لابدَّ أن يظهروا أمام المشترينَ في سوق النِّخاسةِ في أحسن حالٍ صحيٍّ ونفسيٍّ؟!.. كلُّ ذلك جائزٌ ولا يمكنُ إسقاطُ أيٍّ من هذه الأسئلةِ الافتراضية.

...شيءٌ واحدٌ حيَّرني في حديثهم (الرعويّ) ذاكَ، وهو نفسُ الشيء الذي استمرَّ يحيِّرني بقيةَ حياتي في جزيرة العرب: ثقة الناس الذين

قابلتُهم في أنَّ رزقَ غدٍ سيكونُ أفضلَ من الأمس، وأن الشقاءِ كل الشقاء متسربلٌ في ثياب الماضي، أما المستقبل: فأعيادٌ وجنائنُ فيها ما لم يخطرْ على بالِ بشر!

... من جهة أخرى: هل الأمواتُ ـ وهم خلاصةُ الماضي ـ أشقياءٌ لأنهم انسلخوا إلى حيثُ هم؟ ونحن الأحياءُ.. نقيضهم؟ ألا يتمنى (أكثرنا) أننا لم نخلقْ ولم نكنْ من قبلُ شيئاً؟!

ما شأني في هذه الفوضى من المواقف، والبحث عن النيَّاتِ؟ وما شأني وما يفكرُ فيه (سعيد) وزوجُه وغيرُهما؟!

إن أردتَ ـ بنيّ ـ معرفَة ردّي عليهما، فسأقول لك: إنه لا شيء لدي ساعتها سوى مزيدٍ من السَّرَحانِ والتنهدات. ومن بين هذا وذاك، جعلت عينيّ رسولاً يطلب منهما.. رجاء: أن أنزل إلى الطابق السفلي من السفينة حيث لا شمس، ولا (لاشار)، ولا كلماتهم التي يلفها الغموضُ وتغشاها الاحتمالاتُ!

آه..! لقد نسيتُ يا (بني) أن أخبرَك بأن (أخواتي) المختطفات، تحلقنَ حولي وأنا أهبطُ سُلَّمَ السفينةِ المؤدي إلى حيث (الزنازين). صويحباتي الطيبات كُنّ يربتن على كتفي ويمسحن دمعي، ويأخذنَ بيدي، ويقلن كلمات عذبة صادقة، تخلو من عمقِ حديثِ (سعيد) وزوجه، لكنها حافلة بالمشاعر الإنسانية الشفيفة".

سألتها وقد حسبتُ أنها تحتاجُ إلى وقتٍ مستقطعٍ قصيرٍ من الراحةِ:

"ألم تعاودي مرةً أخرى الصعودَ إلى الطابقِ العلويّ للسفينةِ حيث الشمسُ ومنظرُ البحرِ الذي يثيرُكِ دائماً"؟

أجابتْ دون تردد:

"كلَّا.. لم يحدثْ هذا، والسفينة تُبحر بسلام... قط. قضيتُ الأيام الباقيةَ من زمنِ رحلةِ الرقِ تلك، وأنا أبحرُ في داخلِ نفوسِ (أخواتي) الصغيراتِ. فيوم أخصصه لسماع قصة هذه (الأسيرةِ)... ويوم لأخرى، وقد تصادف أن كانتْ حكايةُ (زينب) هي أولى حكاياتِ ضحايا الأوقات

الرديئة، التي يبدو أن لا نهاية لها، إلا مع نهايةِ وجود الإنسانِ على الأرض.

...مَن هي (زينب)؟ هي فتاةٌ بلوشية تماثلُ عمري أو أكبر قليلاً. خمريةُ اللونِ، ساحرة العينين، دقيقةُ الأنفِ، صغيرةُ الجبهةِ، علاماتُ الأنوثةِ ـ بالرغم من صغرِ سنها ـ بادية عليها، وهي علاماتٌ أدت إلى أن تجد نفسها في (خُن)[1] السفينةِ المبحرة إلى حيثُ العبوديةُ.

...نشأت (زينب) في وسْط عائلة فقيرةٍ من مجاميعِ المهمشين في مدينة (قصر قند) البلوشية. عائلة لم تختلفْ ملامحُ فقرِها المدقع عن الملامح التي كستْ مصائرَ العائلاتِ الأخرى المشابهةِ. وزاد من قسوةِ الزمانِ على مستضعفي تلك المدينة وغيرها من المدنِ البلوشية، أن المعنيين لم يبادروا أبداً بإزالة ركام العوز والشعور بالذلِّ الذي جثَا عليهم، عن طريقِ مبادرةٍ منهم لعملِ شيءٍ نافعٍ لأنفسهم، حتى ولو بدت تلك الأعمالُ هينةً وبسيطةَ المردود. لقد كبلتْهم أحاسيسُ تقول: إنهم لن يستطيعوا الفكاكَ من أوضاعِهم وبؤسِهم. وكبلتهم تقاليدُ تَعيب أحياناً العملَ اليدويَّ حتى ولو كانَ الفقرُ وقلةُ ذاتِ اليد المقابلَ المنطقيَّ لنسقِ تفكيرهم ذاك. كما كان (الظلم) المتأتي من الإقطاعِ والاستحواذِ المبالغ فيه، والتصنيفُ الطبقيُّ المقولب من مئاتِ السنين، سبباً آخر لما تعانيه عائلَةُ (زينبَ) وأسرٌ بلوشية أخرى، تتشابه ملامحُ عيشِها حتى في أدقِّ التفاصيل.

ما الحلُّ الذي كانَ في مقدار والدِ (زينب) فعلُه لإعاشَةِ عشرٍ من البنات وأمّهن؟

تفتقَ ذهنُ الولي الجاهلِ عن حلٍ خبيثٍ مؤلم: لقد قرَّر أن يبيعَ واحدةً منهن إلى عصابة (لاشار) بثمنٍ بخسٍ، حتى تستطيع الأفواه الباقيةُ الاستمرارَ في ما يسمى... حياة!

---

(1) مكان في أسفل السفينة توضع فيه المؤن... أو بعض المسافرين.

مقابلَ لقيماتِ خبزٍ في فم أخواتِ (زينب) التِّسْع، قُيِّدت روحُ فتاة صغيرة بريئةٍ متطلعةٍ للقادم الأفضلِ (المفترضِ)، مثلَها مثل بقيةِ صغيراتِ العالم!

لكنَّ الحظ، كما يقولُ بعضُ الناس، والمقاديرَ، كما يقولُ آخرون، كانت معاكسةً لكلِّ أحلامِ هذه الفتاةِ، المُبحرة على سفينةٍ مُقلةٍ لأخريات، شربن من نفس ماء الدهر، الذي تكدَّرَ وكثرتْ طحالبُه...".

قاطعتُ تلك الكلماتِ الموغلةَ في الألمِ، عبْرَ سؤالٍ ـ خاطفٍ ـ طرحتُه على والدتي، بعد الكشفِ عن تلك الزوايا السوداءِ التي تمتلئُ بها صفحات وقائعِ بني البشر:

"ألم تتأكدي ـ أطالَ الله عمرَكِ ـ وأنتِ تستمعين لقصة (زينبَ) أن القدر والمكتوبَ قوىً لا تُصارع"؟!

قالت:

"مازلتُ على رأيي!... التعاسةُ التي حلَّتْ ضيفةً ثقيلةً لا تتزحزحُ من على روحِ وأيام (زينب)، كانت بفعلِ كل شيء، ما عدا تلك القوى الغامضة التي أعطيناها ـ وهي غيرُ راغبةٍ ـ مقاليدَ حرّيتنا وأفعالِنا وكسْبَ أيدينا، وألبستها قُدراتُ الناس الشخصيةُ المختلفةُ، وعلوُّ وانخفاضُ هممهم، ألبسةً مزركشةً زاهيةً تسرُّ الناظرين!

...على كلِّ حالٍ، تلك السيرةُ لـ(زينبَ) ورفيقاتِها في (ألبوم) كانتْ خيرَ سلوى لوالدتِك، التي عرفتْ أن الحياة لا تتوقفُ ويجبُ ألّا تتوقف على ولادةِ مأساةٍ هنا وهناك، بل إن بعض الأحزان ليست إلا أرقاماً لحكايات لاحقة. خُذ مثالاً: ما جرى في قصر بركةَ في (بنقلان) من أحداثٍ أدت تداخلاتها العديدة، إلى أن أخاطبك الآنَ في هذا القصرِ بعاصمةِ المملكةِ السعوديةِ، وبعد مُضيٍّ أكثرَ من ستةٍ وخمسين عاماً على سرد (زينبَ) لقصتها. أعود لأقول لك: كلُّ ما جرى، للبلوشيات الصغيرات يماثلُ قطرةً في بحارٍ ومحيطاتِ تاريخ البشر. امتداداتُ مياهٍ لا

يتوقفُ توسُّعها أبداً؛ لأنها تستمدُّ تجددها من أنهار وينابيع أحزانِ الناسِ ومآسيهم، على مدى الزمانِ وأينمَا كان المكانُ".

تساءلتُ، وأنا أتصنَّع عدمَ الظهورِ بمظهرِ المتلهفِ الشبقِ لسماع بقيةِ حكاياتِ الإماء الصغيراتِ:

"طبعاً كانتْ قصةُ (زينب) هي القصة الأبرز، من بين عشرات ما تختزنه أرواحُ (زميلاتِ) رحلتكِ تلك، من الطرائفِ والسردياتِ غير المعقولة؛ ولهذا فمن المستحسن أن أطرحَ عليكِ سؤالاً عن الأحداثِ التالية لأيام السفينة (فُرس)[1]"!!

لاحَ على ثغرِها مشروعُ ابتسامةٍ، دلالة على أنها فهمتْ مقاصدي.. ثم قالت:

"قصةُ (زينبَ) لم تكن الأبرزَ بين زميلاتِها في رحلةِ العبوديةِ، فقصصهم كلها تُنبئ كل زاوية من تفاصيلها، بالكربِ والبؤسِ الإنسانيين. لكنَّ ما ميَّز قصةَ (زينب) وأعطاها ذلكمُ الوقعَ المؤثِّرَ في نفسي، أنَّها (فقط) كانتْ القصةَ الأولى من عشراتِ القصصِ لصاحباتها البريئات، وكلُّ واحدةٍ منهن عندما أستمع لها وهي تبوح، أجد نفسي بعد أن تنتهي من نفث ما في صدرها، أغرق أكثرَ فأكثرَ في لجج تلك النوعيات من المعاناة، التي لا يمكن وأنت تستمع لها، إلا أن تتفاعل معها، ثم تشارك صُويحباتها.. الهمَّ واللوعةَ؛ خاصةً وأنا (متهمةٌ) من الرفيقاتِ ـ وإن لم يُظهرن شيئاً يدل على ذلك ـ بأنَّ ما يرمز له اسم عائلتي، هو في حدِّ ذاتِه أحدُ الأسبابِ الرئيسةُ لما حَلَّ بهنَّ؛ إلى درجةِ أنهن اعتبرن ـ في البدايةِ ـ بوْحَهُنَّ بقصصهنَّ العجائبيةَ لصبيةٍ من آل (بركةَ) ـ تنازلاً ما بعده تنازلٌ!

...لكن، ومع الدموع الأولى لـ(زينبَ) والحميمية الإنسانية وما

(1) اسم من أسماء السفن الكبيرة المبحرة بين سواحل الخليج العربي وخليج عُمان وبحر العرب.

تُثيره من دفءٍ، ومع المشاركةِ الوجدانيةِ التي تُسقطُ كلَّ شيءٍ؛ ذابتْ كلُّ خلفيات الضغائنِ، حتى التي كان مُجددَ وقودِها، كلامُ (لاشار) الذي وجَّهه لي وعلى مسمع من الأخريات.

شَعرْتُ، و(زينبُ) تسرِد بكائيتَها، أنني جُزءٌ أصيلٌ يا (بني) من القصةِ الكليةِ الحزينةِ لتلك الجموعِ، والتي من بينها قصةُ والدِ (زينبَ) الذي باع ابنته لعصابات الرقيق؛ ليستطيع إعاشة أخواتها من ثمن عبوديتها! وكيف لا أكون جزءاً أصيلاً، وجميع بُنيات رحلة العبودية ـ وأنا منهنَّ ـ نستمعُ لزفرات وتنهدات الحرقةِ المشتركةِ، على مفارقة الأرضِ التي تنكرت وتحاملتْ... على بعضنا"؟!

فكرتُ أن أمُد يدي اليمنى؛ لأمسكَ بكفيها الصغيرتين المتشابكتين وهما تهتزانِ من شدةِ التأثُّر، لكنني وفي آخر لحظة، تراجعتُ مخافةَ أن تظن أنني أحاولُ ـ وقبلَ الأوانِ ـ عصْرَ ما تبقى من رحيقِ مشاعرِ سيدةٍ مسنةٍ، استرجعت ذاكرتها كلَّ خلاصةِ ما قَبَعَ ـ حَينها ـ في نفوسِ الإماء الصغيراتِ، وهن يعشْنَ تجربةَ الحرمان من الأوطانِ، والحرمانِ من الحريةِ، والحرمان من العيش كيفما يريد صاحبُه.. أو صاحبتُه.. حتى ولو كان عيشَ الكفاف والذلِّ...

وكأنها قد شَعرتْ بما أفكرُ فيه وأنوي أن أترجمه لفعلٍ.. فلم يتأخَّرِ الكلامُ:

"أخرى... لم تختلفْ خواتيم قصتها عن قصة (زينب) والأخريات: (حياة) صبيةٌ شديدةُ النحافةِ، شاحبةُ الوَجْنتين، طويلةُ القامةِ، يغزوها الخوفُ في كلِّ لحظةٍ حتى وهي في مأمنٍ من الاحتواءِ الذي يبديه من تشابهتْ مآسيهِن مع مأساتِها... الكلُّ وقع في مصيدةِ الأيامِ ذاتِ الفخاخ:

...(حياة) وُلدتْ في مدينةِ (سورو) البلوشيةِ من إقليمِ (مكران). والدُها، بعكسِ والدِ (زينبَ)، واسعُ الثراءِ وصاحبُ إقطاعٍ مثمرٍ. كانت وحيدةَ والدِها وأمِها. وعندما توفي أبوها، وبعدَ مضيِّ أيام (العدة) التي

لابد من مُضيِّها في الإسلام؛ لتتزوجَ المرأةُ من رجلٍ آخرَ غيرِ زوجها؛ تقدَّمَ لوالدة (حياة) عمُّها الفقير بالنسبة إلى غنى والدها.. ولم تتردد الأرملة، التي تزوجت من عم ابنتها فوراً. وضمت إلى كنفه ـ كعلامة للثقة في المستقبل ـ الصغيرة التي كانت تبلغ آنذاك عشْرَ سنواتٍ من البراءة، إلى حدِّ أنها ظنت أن هذا العمَّ خير قيِّمٍ عليها بعد وفاة حبيبها... والدِها الراحل!

وما هي إلا شهورٌ حتى ظهر العمُّ على حقيقته. بعد أن أعطته أمُّ (حياة) وكالةً مطلقةً على إدارة أموالها، وأموالِ ابنتها القاصر والمورثة من زوجها الراحل. راح الزوج (= العم) بعد هذه الوكالة، يذيقهما أصنافاً مُبتكرة من العذاب؛ راح يعتدي على زوجته الجديدة بالشتم والضرب والإهانات. أما ابنةُ أخيه فقد عانت ضِعْفَ ذلك منه ومن زوجته الأولى وأبنائها.

استمرت هذه التعاسةُ إلى أن بلغت (حياة) الرابعة عشرة، حيث فوجئت ذات يوم، هي وأمها، بالعمِّ والزوج يدخل عليهما ثم يحيِّيهما بتحية الإسلام في رقةٍ ومودة، ويتلطف بالكلام واللمسات، مع كثير من الأحاديث عن فضائل أخيه عليه وعلى الأسرة!

سبب هذا التغيُّر، كما علمت الأمُّ وابنتُها لاحقاً: هو أن عمَّها عَلِمَ بأنَّ والد (حياةٍ)، كان قد كتبَ وصيةً، قبل وفاته، تقضي بعض بنودها، بعودة إقطاعَين من الأطيان الزراعية ـ بعدَ وفاتِه ـ إلى ملكية (حياة) دونَ والدتها. واشترط أن يتمَّ ذلك بعد أن تحيض (حياةُ) حيضَتَها الأولى، التي هي إشارة بأن الصغيرةَ قد أصبحتْ امرأة"!

استطردت والدتي قائلةً، وهي تطلق زفرةً عميقة:

"قبل أن تبلغ (حياةُ) مبلغ النساء لم يكن عمُّها وزوج أمها في حاجة إلى كلِّ هذا التلطف؛ فالريعُ كان يأتي للأمِّ، التي لن تكون جيوبُها إلا مَعبراً سريعاً لجيبِ زوجِها. أما وقد بلغت الوصيةُ منتهاها الزمني، فلا بد أن يستجمع هذا العمُّ كلَّ ما بقي له ـ وهو قليلٌ ـ من

اللياقةِ وحُسن التصرف لكسب ود المرأتين. أما الوسيلة الأخرى ـ والأكثرُ نجاعة بعد كلِّ تلك الحِزمِ من كلمات الكياسة والتلطف ـ فليست إلا زواجاً مقترحاً (لحياة)، من أحدِ أبنائه.. أبناء العم. وليضمن بذلك ـ هذا الظالم ـ استمرار ريع الأطيان، التي يبدو أنها في طريقها لأن تصبح مِلكاً لـــ"الغير"، الأمر الذي يجعل كلَّ خُطُواتِ المخطط الاستغلاليِّ لثروات المستضعفتين لسنوات مضت.. في مهبِّ الريح! ...

أما المفاجأة الكبرى عندما طُرح اقتراح الزوج (= العم)، فلم تكن إلا موقف الأمِّ (= أمِّ حياة)، التي لم تعارض ولم تحتجَّ على مقترَحِ زوجها: إما لأنها قد يئست من أي نتيجة مرجوَّة يمكن أن تُحدثها احتجاجات ـ وهو أمرٌ كانت (حياة) تَأمُلُهُ ـ وإما أن تكون المرأةُ ـ وقد شارفتْ على الخمسين ـ قد أحسَّتْ أن هذا الرجلَ الظالمَ نهاراً، هو في نفس الوقت الشخصُ الذي يُشْعِرها بأنوثتِها الغاربة ليلاً. وهي تعتقدُ أن ابنتها ستعرفُ هذا (النعيمَ) المُحاط بالنيران، عندما تتزوج من رجل، قد لا تحبُّه، ولكنها ستحتاج له قطعاً"!

بلعت والدتي ريقَها ثمَّ تابعت قائلةً:

"أما (حياةُ)، وهي زهرةٌ متطلعة للشمسِ والهواء النقي غير الملوث، فلم ترضخ لمثل هذا الابتزاز ولمثل هذا العجز والاستكانة.. والحاجة! لقد قررت ـ في نفس اللحظات التي أبدت فيها والدتُها موافقةً ضمنية على زواج ابنتها من ابن عمها ـ أن تقول: (لا) ...و(لا) كبيرة أيضاً... كيف؟ ليس هناك في كتيِّب الحياة البلوشي، والمرشد لكيفية مقاومة الجنس الأنوثيِّ لواقعهم البائسِ إجابةٌ على هذا السؤال.. إلا سطرٌ إرشاديٌ واحدٌ: الهرب! ولا يهم بعد ذلك إلى أين ولا الكيفية، ولا نتائج الهرب. المهمُّ هو البعدُ والافتراقُ عن مسبباتِ الموت المعنوي البطيء. يحدثُ هذا دائماً للصبايا الهاربات، مع أنهن يسمعْن عن اللواتي وقعْن، بعد هروبهن، في قبضة ظلم معنوي لا يقل بشاعة عن مسببات

الهرب الأول. إنها تجربة مؤلمةٌ بشعةٌ غامضةٌ في بدايتها ومنتهاها. صُناعها ظلمةٌ من ذوي القربى... و(إخوانُهم) من زعماء العصابات"!

جمعتُ قوةً شاردةً مني لأقاطِعَها متسائلاً:

"لكن ماذا عن (حياة)؟ وكيفَ وصلتْ إلى (لاشار) وعصابته"؟

أجابت والدتي والضيق بادٍ على محيّاها وعلى كلماتها:

"كما قلت لك: لا تهمُّ الكيفية ولا أزمانُ الهروب، النتائج واحدة: (حياة) وشبيهاتها، في طريقهنَّ بعد أن وقعْنَ في أيدي عصابات (نشل) الأحلام والمستقبل، إلى حيثُ سوقُ النِّخاسةِ!

كلُّ قصة استمعتُ إليها، من أخواتي (الإماء)، تقول أشياء مختلفة في التفاصيل. كُلُّها موحدةٌ في تفاصيل الوجع والآهةِ الإنسانيتين. كلُّها تخرجُ من مشكاة معاناةٍ واحدة. ومع هذا لم أمَل من الاستماع والبكاء والمساندة. ولم ينقطع هذا التواصلُ والقرْبُ المشتركُ لمن توحَّدت مشاعرهن فأظهرنَ الألم والبغضاء تجاه الماضي، والغضب الذي اختص به الحاضر، والخوفَ الذي لا يمكن إلا أن يكونَ من المستقبل.

يومٌ واحدٌ فقط لم أتكلمْ فيه ولم يتكلم أحدٌ غيري من كل ركاب السفينة: عبيداً أو أحراراً، سجناء وسجانين؛ لأن الذي تحدث وبصوتٍ عالٍ نيابةً عن الجميع لم يكن سوى: البحر...".

8

...البحرُ: هذا الغموضُ الذي أحبَّتْه والدتي قبل أن تتعامل معه. المُدلهِمُّ الذي تُحاكُ عنه الأساطيرُ في (بنقلان). حكايات غرائبية عن البحر سمعتها الصغيرة وهي في كنف والديها الوجيهين، فاقت ما عداها

من تلك المرويات المليئة بالخيال البلوشي المشوش؛ ويبدو أن هذا الحبَّ المشوبَ بالخوفِ، تبدلَ لاحقاً إلى أن أصبحَ خوفاً فقط، وذكرى أليمةً من هذا المسمى: بحراً ...

ألمْ يكنْ هو الذي أوسع مياهه لتمخرَ فيها سفينةُ عبوديتها؟! ألم يكن هو الذي استمعَ، معها، لبوحِ المعذباتِ ـ المحبات له ـ في تلك السفينة ولم يقلْ شيئاً؟ ألم يكن هـو بطل تلك الليلةِ وفارسَ المسرحيةِ التراجيديةِ التي لُعبت بين الماء والسماء؟

ألا يحقُّ لهذه العجوزِ، الآنَ، والتي (كانت) صبيةً عندما بدأ أول فصول تلك المسرحية، أن تكره وتتحاشى التعامُل مع البحر مرة أخرى، وهو الذي أعطى الحق لنفسه في أن يلعب كلَّ أدوارها، إلى جانب تأليف تلك الملهاة التي لُعبتْ، في منتصف الليلة العاشرة، قبيل الوصول المفترض للسفينة (فُرس) للشاطىء العُماني؟

لندع الشاهدةَ على تلك الوقائعِ، تُخبْرنا ـ وهي المتحفزةُ ـ عن مفصل العلاقة بينها وبين البحر: كيفَ انقلبت المشاعرُ من حبٍّ غامضٍ، إلى كراهية وخوف عند أول اختبار لمن (كان) حبيبها:

"مثلَ كلِّ الليالي السابقة، وبعدَ مُضيِّ أسبوعين من آخر رؤيةٍ للشاطىء الإيرانيِّ البلوشي، وقبل وصولنا إلى ميناء (مسقط) بأيام؛ استعددت للنوم بعد يومٍ حافل بالإنصات إلى ما تُخفيه صدور (أخواتي) الصغيراتِ. في تلك اللَّيلة ـ كما في معظم الليالي ـ سهر معنا ونحن نفترشُ الذكريات ونستظلُّ بالآمالِ... زوجةُ وأختُ (النوخذة).

بدت الزوجة (شهد بخت) في تلك الليلة وهي في أحسن حال من التجلِّي الشخصيِّ، والتقرب الإنسانيِّ مع (بضائع) سفينة زوجِها.. الآدميين. كانت تشاركُ في الحديث كثيراً، بل وتستفزُّ بطريقتها الخاصة، الصبية (الحكواتية) ممن تطلبُ الحديث عن (الماضي)، والذي لا نملكُ غيره مسلياً ومؤانساً طوال رحلتنا البحرية. كانت هذه المرأة الأربعينية البضَّة الممتلئةُ الجسم، تدفعُ المتكلمة دائماً لمزيدٍ من الكشف والبوح،

عندما تطرحُ على هذه الفتاة أو تلك أسئلتها الذكية، والتي تعودتْ على طرحها ـ كما يبدو ـ كلّما حُمِّلت (فُرس) بالإماء!

أما السيدةُ الأخرى (عائشة)، أختُ النوخذة (سعيد)، فقد كانت طول جلسة سمر (الإماء) تلعب دور المستمع، ولم يكن هذا شيئاً غريباً عليها، فهي تلعب نفس الدور في كل الليالي التي تصادف أن شاركت معنا في التئام عقدها؛ كانت سارحة البال على الدوام. ابتسامتها عذبة نقية. ما لم تبخل بها كعادتها. وعلمتُ فيما بعد من (مصادري الخاصَّة) أن (عائشة) تعيش فترةً قلقةً مع زوجها الذي عَلِمَتْ أنه ينوي الزواجَ من غيرها في عُمان.

ما يحدثُ في سفينتها وفي كل برٍّ ترسو عليه، لم يكنْ يعني (عائشة) في شيء. صَغُرت الحياة عندها، بكلٍّ ما فيها من أتراحٍ وأفراحٍ، إلى أن أصبحت مجرَّد خوفٍ من فقدانِ زوجٍ.. حضن.. رفيق. هذا الفقدان عند (بعضٍ) النساء كارثةٌ. وبعكس (بعض) بنات جنسي، أنا لا أرى ـ من خلال تجاربي البعديَّة ـ في هذا الفقدان للزوج، أيَّ نوع من المأساة. فعلى الأقل نكتشف عبره حقيقة إنسان لم يظهر لنا إلا ما رغب أن يُظهره، ومن السُّخفِ، والأمرُ كذلك، ألَّا نرى من الحياة إلا أحزاننا وهمومنا وقلوبنا المكسورةَ!

كنتُ أريدُ أن أقول لـ(عائشة) هذا (الفاصل) من النُّصح، إلا أنني، وقبلَ نطقِ أول كلمات الفاصل المفترض، تذكرت أننا، (كلّنا) عائشةٌ. كلُّنا ننظرُ للحياة من خلال عيوننا.. أرواحنا.. عقولنا، ما يدهم الآخرين وما يعايشونه لا يهمُّنا إلا بقدر ما يمسُّ (الأنا) فينا، وما يمسُّ مصالحنا وواقعنا.. وما نريدُ أن يكون".

فهذه القصةُ ـ كمثال ـ أحكيها لكَ يا (بني) من (خلالي) لا مِنْ خلال (لاشار) ولا من خلالِ أخي (الظالِم) ولا من خلال السلاطين والملوكِ الذين سيأتي الحديثُ عنهم لاحقاً. إنني أظن أن القصة لو أنها رُويت من أفواه هؤلاء لكانَ الأمرُ مختلفاً، وَلَمَا صدقني أحدٌ .. حتى أنت"!

"صِدقٌ ما تقولينه، والدتي. وتزداد صدقيةُ القصة، إن نحن تمسكنا بخيوط السرد، ولم نفقد بوصلة تماسك الأحداث، حتى ولو كان هذا على حساب كلام فلسفي عميق سمعته قبل قليل"!

...كان هذا تعليقاً داخلياً لم ولن تسمعه والدتي، وهي تهيِّئ مسرحَ أحداث تلك الليلة البحرية، برؤاها التي أعجبتني حقاً، لكن الفضول قد تملكني إلى حد أنني أريد أن أتحاشى كلَّ هوامش القصة، حتى ولو أن السياق لا يمكن فهمُه دون تلك الهوامش...

أقلتُ هوامش؟ ...لا لم أقلْها! بل حامَ فكري حولَ هذا المعنى فقط، أما صاحبةُ القصة فكأنها قد قرأتْ ما في أفكاري:

"تفتقدونَ ـ جيل هذه الأيام ـ الحسَّ بعمق الجمال وضرورة وجوده في كلِّ شيء. الجمالُ يا (بني) قد يكونُ في كلِّ شيء: في زهرةٍ.. في سمات امرأة أو رجلٍ.. في طائرٍ أو سكون ليلٍ.. وقد يكون أيضاً في ثنايا ما يقوله البشرُ للبشر، مهما حملت تلك المقولاتُ من المآسي والانكسارات..

ألا يهمّك، بعد سماع حواشي قصتي وتاريخي، اكتشافُ الجمالِ فيها عوضاً عن التدوين الميكانيكيِّ للأحداثِ، الذي قد يُرضي فُضولاً، ولكنه أبداً لا يكشف قيمةً.. ومكمناً للجمال"؟!

وقبلَ أن أجيبَ، وقبلَ أن أطيّبَ خاطِرَها بكلمات منتقاةٍ، استطردت قائلةً وكأنها ليست في حاجة إلى مشروع اعتذاري:

"...قبل أن ينامَ الجميعُ، سمعتُ، يا (بني) كما سمع غيري، جَلَبَةً كبيرةً... مفاجِئةً في أعلى السفينة؛ حينها طلبت عيناي من زوجة النوخذة وأخته معرفةَ ما يدورُ في الأعلى.

بعد فترةٍ لم تطُل رجعتْ (شهد بخت)، وحدها، إلى حيثُ تحلَّقتْ مجموعةٌ من البناتِ، في انتظار الأخبار التي خَمَّنت أنَّها مهمَّة... وقد كان هذا بالفعل:

...ما كان يدورُ في الأعلى، هو عبارةٌ عن نقاش وصراخ حادَّين

يتحولان أحياناً إلى اعتداءاتٍ وحشية بالأيدي، من قِبل (لاشار) ورجاله، موجهة للنوخذة (سعيد) ومساعديه. أخبرتنا (شهد بخت) كذلك بأن أكثر شخصٍ تعرض للإهانة والضرب والأذى، هو مساعد زوجها... زوج أخته (عائشة)، التي بقيت في الدور العلوي لتضميد ومعالجة جروح بعلها.

السبب ـ كما أفهمتنا إياه من تلعب دور الصديق الليلي، ودور المراقب الباعث بنصائحه غير المطلوبة نهاراً ـ هو أن (سعيد) ورجاله، قد أكدوا لـ(لاشار)، عبر الإنجليزي (جونثان)، أنَّ حمولةَ السفينةِ المقدرة بـ 200 طنٍّ!! سيكون نصفها (=الحمولة) مخصصاً للقوت والمياه، والمؤن المساعدة لبقاء من على السفينة ـ مهما كانت أسباب وجودهم عليها ـ أحياءً إلى أن يصلوا لِوجْهتِهم؛ لكنَّ النوخذة (سعيد) فاجأ (لاشار) بأخبار مزعجة جداً. هذه الأخبار تقول: الماء والطعام يكادان ينفدان من مخزن السفينةِ؛ لأنه لم (يخطط) لرحلة ستطول أكثر من المقدر لإبحارها... بعشرة أيام! وعلل قائد السفينة، زيادة الأيام المفترضةِ للرحلة، بالرياح العكسية التي جعلت السفينة تتباطأ وتستهلك أيـاماً لم تكن في الحسبان؛ مما سينقص بالتأكيد من احتياطي مؤونةِ الـغذاء والماءِ!

...أما لماذا كشف (النوخذةُ) سعيدُ هذه المعلومات (للاشار) الآن، ولم يكن قبلَ ذلك؛ فلأن (لاشار) قد لاحظ تناقُصاً مُريعاً في حصة المسافرين على السفينة، وخاصةً ما يحصل عليه هو ورجاله!

أما السبب الآخر ـ والأهمُّ ـ فتمثلَ في الشائعات التي سَمعها اليوم (لاشار)، وتأكد منها لاحقاً من مُطلقها... النوخذة (سعيد). تلك الشائعات (= الحقائق) تُقرر أن السفينة، ومَن عليها، سيدهمهم خطرٌ كبيرٌ غداً، لأن إحدى أخطر النوّات البحرية سيحل موعدها على أكثر تقدير بعد أربعٍ وعشرين ساعة؛ مما سيضطر السفينة إلى التقليل من سرعة اندفاعها، خاصةً أن الشراع العود[1] في سفينتنا، ليس في وضع

---

(1) هو الشراع الأهم والأكبر، لسفنٍ معينة مثل السفينة (فُرس).

جيدٍ؛ لأنه تعرض للترميم السريع قبل شهر واحد فقط. هذه الحقائق أجبرت قبطان السفينة (التعس) على أن يُعطيَ أمراً خطيراً لمساعديه: إنزال الشراع ـ الممزق ـ حتى لا يتعرض لتلف أكثر! وهذا معناه أن مجاعة شبه حقيقية سيتعرض لها كُل مَن على السفينة (فُرس)؛ لأن الرحلة ستطولُ، وبالتالي سيلْتهمُ (المسافرون) كلَّ مؤونتهم، والنتيجة لن يبقى احتياطيّ لبقيةِ أيام الإبحارِ!

... لكن ما لم يَدُرْ في خَلَدِ أحدِ ملاحي السفينة (فُرس)، ولا مُستأجريها، هو أن (الخطرَ الأكبرَ) لا يتمثَّلُ في هذا التأخير لمسارها المبرر في رأي البعض، وغير المبرر في رأي البعض الآخر، وغير المفهوم ولا المهم في رأي شريحة ثالثة تلعبُ دورَ المراقب لما يحدث، دون إبداءِ رأيٍ قاطعٍ في مسارِ تلك الأحداث ـ ما هو (أخطرُ) هو شيءٌ مُختلفٌ جداً..."!!

"الخطر، والأكبر... ماذا تعني تلك الكلماتُ، غيرَ ما كنتمْ فيه من ضائقةٍ في غذائكم وشرابكمْ"؟

سؤالٌ طرحته بعد لحظاتٍ مقصودةٍ، توقف سردُ والدتي فيه عند هذا الجزء من قصتها، ولم يكن التوقفُ من قبيل المصادفة فلطالما تعمدت (عجوزي) فعلَ ذلك عندما تريدُ أن أعيشَ قلقَ انتظارٍ وما سيقال لاحقاً:

"قبلَ أن أخْلُدَ إلى النوم، في تلك الليلة، تذكرتُ أنني أعايشُ أثقلَ ليلةٍ مناخيةٍ عشتها في حياتي: كان الهواءُ ثقيلاً وتكادُ سرعته لا تذكر. أما الرطوبةُ فكانت خانقة جداً للأنفاس؛ حتى أنني شَعرْتُ في أثناء ساعات مغرب ذاك اليوم، بأنني أتنفس فقط بخار الماء ورذاذه، وأن هذا البخار لا يحمل ذرةً واحدة من الغاز الحيوي الذي تسمونه (أكسجين).

"...مَغْربَ ذاكَ اليوم، لاحظت في الجنوب الغربيّ تجمعات سُحُبٍ سوداءَ كثيفةٍ، حجبت الشمسَ كلَّ ساعات ما بعد الزوال وحتى قبل الغروب. ولا تظن يا (بني) أن ظهورَ السُحُب في صيف خليج عُمان هو

شيءٌ مستغرب، العكس هو الصحيح؛ السحب الكثيفة والتي قد تُصحب بالرعد الصاخب والبرق المبهر شيء معتاد دائماً هناك؛ ما كان غير معتاد يومها، هو الشكل الطبقيُّ للسُحُبِ، والتي يفترش أسفلها، كامل الخطِّ الوهميِّ لالتقاءِ الماءِ بالسماء.

...عندما انفضَّ سامِرُ (الإماءِ) تلك الليلة، تطلعتُ إلى صفحة السماء من خلال كُوَّةٍ في أحد (المحابس) السفليةِ للسفينةِ، إلى صفحة السماءِ، عندها دهمني شعور غريب يلازمني طيلة حياتي قبل وقائع معينة.. أتدري ما هو هذا الشعور؟... إنه الحدس بأن شيئاً (ما) سيحدث... أمراً خطيراً سيقعُ، وأنه في كلِّ الأحوالِ لن يكونَ مُفرحاً ولا دالاً على خير!

...لم يكن هذا الشعورُ آتياً من فراغ، بل كان مدعوماً بما رأيته، أو على الأصحِّ بما لم أره في الأعالي.. في السماء: لم تكن هناك نجومٌ، ولم يكن هناك قمرٌ، ولا حتى نُتف السحابِ المتبقية من يوم ماطر سابق والسابحة عادةً ليلاً، وعلى علوٍ منخفضٍ بين البحر والقبة الكونية المرصَّعةِ بالنجوم، والتي طالما تواصلتُ معها، عبر حديثٍ من جانبٍ واحدٍ. ما رأيتُه ساعتها كان شيئاً غريباً، أنه خليط بين البخار والغبارِ. كان يحيطُ بالبحر، وبنا، من كل جانب، بحيث لا توجد ثغرةٌ في الأفقِ وعلى المستوى الرأسي والأفقي إلا وقد امتلأ بهذا الذي... لا أعرفُه!

...خالطني، في لحظاتٍ قليلة وقتها، وفي وسط الإحساس العام بالانقباضِ، شعورٌ مفاجيءٌ بالراحَةِ، كان هذا الشعور يعاكسُ كلَّ ما كانَ عليه السكونُ الغريبُ في داخلِ السفينةِ... والمنذر بقادم غريب.

لقد لامستْ شعري ووجهيَ نسماتٌ باردةٌ جداً خفيفةٌ، آتيةٌ من الاتجاه المعاكس لسير السفينة، ومع تلك النسمات لاحظتُ أن ذراتٍ دقيقة من الغُبار الـمُبلل، تلتصق بكل جزء من الأجزاء المكشوفة لجسدي... وفجأةً هوى ضوءٌ خاطفٌ من أعلى السماءِ إلى قاع البحر...

ثم ضوء آخر سقط ـ تقريباً ـ عموده المشتعلُ على نصف السفينة المكشوف...

تكومتُ على نفسي في اللحظة التي شاهدتُ فيها هذا الحدثَ العجيب، لكنَّ فرقعةً عظيمةً هي عبارة عن تفريغٍ لتلك الشحنةِ الكهربائية الضوئية، جعلتني في حالة بسط لا إرادية بعد حالة الانكماش السابقة. ثم تعددت تلك الظواهرُ الطبيعيةُ من الأنوار السماوية وفرقعاتها غير العادية، ولاحظتُ أن كُلَّ مَن على السفينة قد استيقظَ فزعاً. لقد رأيتُ هذه المشاهد التي لا تُنسى: هرولةً في كل اتجاه قامتْ بها الصبايا وهن يصرخن ويحوقلن. ومما زاد من وطأة الفزع ذاك، أصوات خُطى أقدام الرجال الدالة على الرعب والهلع، والقادمة من أعلى السفينة.

...إنها العاصفةُ التي (بشَّرَ) بها القُبطان مسافريه... لقد سمعت مثل هذا التأكيدِ من أفواهِ كثيرين ساعةَ وقوعِ ما وقع!

آه... لقد نسيتُ أن أخبرك، يا (بني)، مما يُفترض ألَّا يُنسى: إحدى الصواعقِ، والتي ضربتْ زاويةً من زوايا سطح السفينة، أشعلت في يوم النحس ذاك، حريقاً كبيراً، مما دفع جميعَ الرجالِ، و(بعض) النسوة للإسراع إلى حيث مكانُ الحريق في محاولة لإطفاء اللهب المستعر، والذي يهدد، حقيقةً، السفينة ومن عليها، مدفوعاً بالرياح الجنوبية الغربية العاتية، الـحُبْلى بالصواعقِ وبذيّاك المزيج بين البخارِ والغبارِ"!

غمغمتُ ثم سألتُ، مقاطعاً، سرد والدتي:

"وأنت يا (أماه) ومن معك من زميلات الاختطاف.. وبقية السجانين الموكلين بكن، ماذا فعلتم وأنتم تعرفون أن الجزء العلوي من سفينتكم يحترقُ"؟!

أجابت وقد بدأت قسمات وجهها ترتعد، وترتسم على محيَّاها علاماتُ استحضارِ ذكريات مأساةٍ بحريةٍ مرَّ على وقوعِها زمنٌ طويلٌ:

"لم يكن يوجد حرسٌ من الرجالِ بيننا. فهناك اعتقادٌ جازمٌ قديم

لدى (مروجي) النِّخاسة البشرية، بأن هؤلاء العبيدَ (= العبدات) قد استقر في دواخلهم أنهم (= أنهن) قد أصبحوا بالفعل عبيداً يشترون ويباعون منذ اللحظات الأولى لاختطافهم، وأنهم ساعة أصبحوا على ظهر السفن المقلة لهم، والذاهبة إلى حيث استرقاقهم؛ تنهار بالتالي رغباتهم السابقة بالمقاومة، وقد تحاول قلة نادرة منهم أن تهرب ـ بالرغم من عدم وجود فرص حقيقية لهذا البعض ـ لكن هذه القلة ستعرفُ، وإن متأخراً، مصيرها المحتوم: قاعَ البحارِ أو في أجواف الأسماكِ النهمةِ لمثل هذه الأنواع من اللحوم الغريبة عنها!

...كلُّ الرجالِ ـ إذاً ـ كانوا دائماً في أعلى السفينة، ولم يكن يتفقد البنات الأسيرات إلا زوجة النوخذة وأختُه، وإذا لاحظتا شيئاً مريباً، يتم في الحال إخبار الزعيم (لاشار) بهذا الأمر المريب؛ لاتخاذ ما يلزم من إعادة ترتيب (البيت الإمائي) مرة أخرى. لهذا فلم يكن في أسفل السفينة إلا نحن (الإماء). كُنا نسمع ـ نحن الحيارى ـ الصرخات واللعنات والأدعية في الأعلى، مشيرة إلى أن الحريق قد خرج عن السيطرة أو يكادُ. ووسط هذه البلبلة وحالة عجزنا عن فعل شيء، بادرت صبية لا يتجاوز عمرها الثالثة عشرة، في بث روح النخوة والحمية في نفوس البقية، عبر مناشدتها لزميلات الرحلة أن يتخلَّصْن من مشاعر اللامبالاة القاتلة وسلوك الاسترقاق الذي لم يأتِ أوانُه!

وما هي إلا ثوانٍ حتى لم يبقَ في الدور السفلي للسفينة من الإماء الصغيرات، إلا أنا. الجميع صعدن للأعلى للمساعدة في إطفاء النيران، إما من خلال مد الدِلاء إلى البحر وسحب المياه المالحة للأعلى، وإما السحب من خزانات المياه الموجودة في (السريدان)[1] بعد سكْب تلك المياه العذبة في المواعين والأوعية الأخرى، على أمل أن تنجحَ تلك المحاولاتُ العبثيةُ في إطفاءِ الحريقِ الذي بدأ يتوسعُ ويكبرُ لهبُه.

---

(1) السريدان: عبارة عن صندوق يقع في الجزء الأمامي من سطح المراكب البحرية العربية، ويُخزن فيه الحطب وأنواع الوقود الأخرى بالإضافة للمياه.

...وفي خِضمِّ الأعمال (البطولية) التي لم تُؤتِ أكلَها، وبينما كان الجميع من جلادين وسجناء، أحرارٍ وعبيدٍ ذكورٍ وإناثٍ، وزوجاتٍ محباتٍ، بجانب أزواج مُغضبين مفارقين ـ يحاول فعل شيء.. هطل مطر العاصفة غزيراً مدراراً .

ومع أول قطراتِ مطر النَّوة، كنتُ حيث كان الجميعُ، لقد زال ترددي يا (بني)، ودفعت بعيداً مواقفي السابقة؛ لم أعدْ أتذكرُ ساعتها مواقفي المبدئية السابقةَ ـ منذ أول أيام اختطافي ـ تجاه أعدائي... أعداء أسرتي... أعداء طبقتي!

...على سطح تلك السفينة الخشبية القديمة والمتأرجحة، والتي تفوح منها رائحة حريقٍ خانقٍ، كاد يجعلها مع ركابها خبراً بعد عين، وقِصةً يرويها البحارة والمسافرون عبْر هذا الخليج؛ على هذا السطح لم يكن من المستطاع التفريقُ بين أيدٍ مُنقذة كانت للتو في الأغلال، وأيدٍ تصنع هذه الأغلال، وأيدٍ أخـــرى هي الوسيطُ والشاهد على كلّ ما يحدث من هوان إنسانيّ".

بعد فترة توقفٍ حسبتها دهراً، طرحت سؤالي التالي محاولاً إعادة تسلسل الأحداث:

"الحريق أخمدَ. والعاصفةُ هدأتْ. والجميعُ رجَع إلى حيثُ كان. هذا ما أتوقع أنه حدث.. أليسَ كذلك والدتِي"؟!

وجومٌ وصمتٌ مُفاجئان، خيَّما على أجواءِ المكانِ للحظاتٍ، وعندما بدا أنني تكيفتُ معهما، قطعت هي كل ذلك عندما قالت:

"تَوقُّعكَ... خابَ! صحيحٌ أن خطرَ الحريقِ قد زال، بفضلٍ من اللهِ أولاً ثم بفضل المطر الذي جاء تعويضاً ربانياً من السماء، لسوط النار الذي تعرضنا، وسفينتنا، له ثانياً؛ لكنَّ ما تلا ذلك الإنقاذ الإلهيَّ المؤقتَ، لم يكنْ إلا تكْمِلة للكابوسِ الأوَّلِ... ليسَ إلّا!

...ما حدثَ هو أن سطحَ السفينة غرق بمياه المطرِ التي تشبه فيضان نوح. نصفُ ساعةٍ ـ فقط ـ فصلَ بين توقفِ تلك الشلالاتِ

السماوية، وبداية فاصل مزاح بحريٍّ آخرَ قاتلٍ. لقد أخذت مياه البحر تعلو بفعل الرياح الشديدة، ثم لا تجد لها مكاناً لتهبط فيه، إلا على كامل جِرْم السفينةِ، كأنها تركتْ مستودع الماء كلَّه المسمى (بحراً)، لتختار تلك الأمواجُ بدلاً من ذلك، الجزءَ الخشبيَّ الضيقَ، الذي يكادُ يضيقُ بمن حُشر بين جنباته... لتستقر عليه وبما فيه!!

...سفينتُنا كانت تتأرجحُ كأنها لُعبةٌ صغيرة، ضاق كبيرُ المنزل بوجودها المزعج، فراحت يداهُ تتلاعبُ بها بشدةٍ قبل أن يَقذف بها إلى مكان مجهول. المياه يا (بني) في كل مكانٍ وبين كل مكان؛ بل لقد أصبح مجرد بقاء جِرْمِ السفينةِ ذاته، طافياً على سطح البحر؛ أمراً مشكوكاً فيه بشدة؛ وقتها لم يكنْ أحدٌ يثقُ في شيء... لقد تزلزلت، عند الخوف، الثوابتُ والاعتقاداتُ!

...أمُّكَ يا (بنيّ) كانت، ساعَتَها، تتنفسُ الماء وليسَ الهواء، فما أكادُ أجمعُ شيئاً قليلاً من الهواء في رئتيّ، حتى أقذف بمياه لزجة مالحة كثيفة، تأتي من أسفل السفينة، إلى حيث تهربُ بقية شجاعة ومقاومة المتمسكين بأطراف لوحٍ خشبي يطفو بصعوبة... كان يسمى السفينة (فُرس).

...ومن تلك الأمواج المتعاقبةِ القويةِ، كانت واحدةٌ، ولا أشدَّ منها، ضربتْ رأسيَ بدايةً، قبل أن تضرب كلَّ جسْمي، ثم طوّحتْ بي في الهواء وعلى بعد أمتار من مكاني الذي كنت (أحاول) الوقوف عليه، قبل أن (أهبط) على شيء يُشابه جانبي الأيمن. ثم لم أعد أتذكر شيئاً.."!

"هه"..!

بهذين الحرفين، حاولتُ أن أظهرَ تعجبي وقلقي ـ غير المبرر ـ المتأخرَ عليها، والأهم من كل ذلك، فضوليَ الذي تعلمه، وتعرف أنه لا يرضى عن الكشف والتنقيب بديلاً. استكملت والدتي الرواية:

"لا أدري كم مرَّ عليّ من الوقت.. كلُّ ما أذكره بعد ذلك، أنني

فتحتُ عينيّ وضياءُ الشمسِ يغمرُ كلَّ شيءٍ فيَّ وعلى السفينةِ، التي قاومت العاصفة وشيخوختها. ضياء يغمرُ البحرَ الذي كأنه لم يفعل شيئاً ليلة البارحة، بركاب السفينة والذين بدتْ وجوهُهم فرحةً مستبشرةً، على الرغم مما جرى وكان.

...كنتُ مضطجعة على جانبي الذي سقطت عليه، وبالرغم من الأغطية الثقيلة التي دُثِّرت بها، ظللتُ لفترةٍ، غير قصيرة، أشعر ببرد تتبعه حُمى؛ وعند رأسي تجمع عددٌ من (أخواتي) الجواري، بالإضافة إلى (شهد بخت)، التي، ومن خلال حركات يديها ونظراتها، عرفتُ أنني أصبت في أعلى رأسي إصابة بالغة، إلى حد أنها وأخريات، جاهدن بوسائلهن المتواضعة، لإيقاف النزيف المُذهل للدماء، وتضميد جرحي الغائر. وعرفت لاحقاً أن (لاشار) وعندما تبيَّنَ أنه لايزالُ حياً يرزق، ويمسك بمقاليد الأمور في السفينة التي صارعت من أجل البقاء مثلَه ـ بادر أولاً، وقبلَ أي تصرف (قيادي) آخر، بالسؤال عني وعن خطورة إصابتي. ولم يكن هذا مستغرباً، فالمال و(مصادره) أكثر الأشياء التي نحرصُ عليها بعد حياتنا!!

...مرت سحابة اليوم التالي للعاصفة و(الأكثرية) تدعو الله ألَّا تتكرر مشاهدُ الليلةِ السابقة، ثم يتوجهون (له) بالشكر والثناء على إنقاذهم. وبعضهم من أصحاب الإيمان المتضعضع، راح يلعنُ ويشتمُ كلَّ شيءٍ بصوتٍ منخفض. وأحدُ المدهوشين، سُمع يقول: إنه رمى خاتم زواجه الثمين فداءً للجن والعفاريت التي تكثر في مياه خليج عُمان، طلباً لهدوء تلك الأرواح الغريبة، لرُبما تدع سفينتنا ـ ومن عليها ـ لمصائرهم، التي ستكون أرحم بالتأكيد مما يقرره الجنُّ، وهم فيما يقررون ـ في رأي هؤلاء ـ جدُ خَطِرين"!

والدتي تقول طُرفة! جميلٌ جداً. والأجملُ منه أن أستغل هذا الانفراج النفسيَّ؛ لأطرح سؤالاً في صيغة تعليق:

"لابدَّ أنَّ العلاقاتِ بين ركاب السفينة قد تأثرت بما ساد بينهم في ساعات الكرْب الراحلةِ، من تراحمٍ وتوادٍّ ومساندةٍ... أليسَ كذلك"؟!

أجابت المرأةُ المتحفزةُ لمثلِ هذا السؤالِ:

"توقعك خاب مرة أخرى.. يابني! لقد ظننتَ ـ مُحقاً ـ أن المنطق يتماشى مع قولك آنفاً، ولكنك نسيت أن التفكير المنطقي لا يجد مكاناً مناسباً في الأزمات والمحن. فبعد أن تحسس الجميعُ رؤوسهم وأطرافهم، وتأكدوا أنها باقية ولم يفقدوا منها شيئاً؛ تذكروا أزمة المياه والمؤن التي كادت تنفد حتى قبل العاصفة. لقد عصفت النوّةُ بالبحر، وبما عليه من سُفنٍ، وعصفت أيضاً بأحلام أهل (العقد والحل) المهيمنين على واحدة من تلك السفن والمسماة (فُرس)، والذين اعتقدوا أنه بالإمكان أن يبقوا و(رعيتهم) أحياءً، إلى أن يصلوا إلى برٍ ينقذهم من ورطةِ الجوع والعطش!

لقد غرقتْ ـ يابني ـ أكياسُ الأرزِ والتمر وصفائحُ الزيت القليلةُ، ونضبت أوعية المياه المتسربة ـ والتي كانت قبل نهار فارط مُحكمة ـ ولم يبقَ من ماء الشفة إلا ما يبلل الشفاه المُملحة.. لمدةِ يومٍ أو بعضَ يوم!

...لقد أدى هذا الوضع المُزري يا (بني) إلى توترات ومشاحنات عديدة. كنتُ وغيري نستمعُ ونشاهد اللعناتِ واللكمات بين الطرف الأقوى المتنفذ والمتمثل في (لاشار) وزمرته، وبين طرف مستكين تتنازعه رغبات الطمع والخوف، والرغبة في بقاء الجميع أحياء؛ حتى يضمنَ تلك النقودَ النجسةَ، التي ستمتلئُ بها جيوبُه؛ مقابل شحن ونقل المرغمين والمهددين بالاستعباد من بني جنسه.

النوخذةُ (سعيد) ـ يابني ـ هو الجانب الذي يمثل ما في الحياة من ضَعْفٍ ومذلّةٍ واستكانةٍ لما يفرضه عليه الأقوياءُ من شروطٍ وإملاءات.. مقابلَ ماذا؟ مقابل دراهم معدودة لا تكاد تنفدُ حتى تبدأ حكايةٌ طويلةٌ أخرى... من عروض بيع الضمائر والخدمات المشبوهة، علَّ ذلك يُرضي الأسياد الذين بيدهم المالُ والجاهُ، والرفْعُ والخفضُ. ولا يهم إن

اعترض في الطريق ـ طريق الثروة والغنى ـ شتائمُ هنا وبصقاتٌ هناك.. وبينها ركلاتٌ ولكمات... غير قاتلة"!

بعد جملتها الأخيرة ندَّتْ مِنّي ضِحْكة مكتومةٌ، وكان ذلك كافياً لأن تتوقف والدتي عن هذا الفيض من الذكريات، ولتتيح لي فرصة سؤالها:

"ماذا بقيَ لم يُحط بكم في سفينتكم: عواصفُ، ونيرانٌ، وجوعٌ مُنتظرٌ واقتتالٌ بين المهيمنين عليها.. كيف استطعتم في مثلِ هذه الأوضاعِ الوصولَ إلى بر الأمان"؟!

أجابتْ وكأنها لم تكن في حاجة لمثل سؤالي كمُحفز لاستمرار سرديات قصّتها:

"أويتُ إلى فراشي في تلك الليلة وأصواتُ الوعيدِ والالتحام السلبي البشريِّ تُسمعُ. ولم يكنْ من المستغرب أن أسمع همسات بعض من زميلاتي (الجواري) التي تقول: (لاشار) قتل أحد مساعدي النوخذة (سعيد).. قبل قليلٍ. وهو (المساعدُ) الذي كان موكلاً إليه الإشرافُ على مؤونة السفينة، وأن (لاشار) قد رمى بجثته في البحر. وتقول بقية تلك (الإشاعات) الخافتة، التي كانت تتردد في أجواء من الرعب العميق: ساعاتٌ فقط ويأتي دورُ النوخذة (سعيد) في القصاص منه، ليُرْمى ومَن معه ـ نَكالاً ـ في البحر. ثم تضيف الشائعات: (الزعيمُ) سيقودُ السفينة بعد ذلك بنفسه بعد أن نفد صبره.. ولكَ أن تتخيل يا (بني) خاتمة القصة لو أن هذا الزعم الأخير.. قد تحقق!".

ولم تدعني أجيب أو أعلق، بل إنها أهملتْ ـ كما يبدو ـ وجوديَ واستطردتْ قائلةً:

"وفيما الإشاعاتُ تتعاظمُ والبكاء يُسمعُ، والأدعيةُ المختارةُ والعفويةُ تغمرُ رُدْهات السفينة العلويةَ والسفليةَ ـ عدتُ إلى نفسي وإلى حيثُ المنطقة التي لا يوجد أحد يشاركني فيها، وبدأتُ أسأل نفسي وأنا ألمسُ وأشاهدُ كلَّ المخاوفِ ـ التي لها ألفُ سببٍ وسبب ـ المرسومة

على وجوه الناس من حولي وأسمالي الممزقة ويديَّ اللتين طالهما اللهبُ، وجرحَ رأسي الغائر الذي بدتْ ندبتُه واضحة للعيان. استحضرت كلَّ تلك المشاهد والمظاهر، معيدةً التفكيرَ فيها مراتٍ ومرات، ثم في النهاية خلصت إلى تساؤلاتي التالية: إلى أين المصير؟ وإلى أين تقودنا ما تقولون إنها (مقادير)، وأقول إنها أفعال بشر يخضع لها آخرون؟

...كنت أخاف من العبودية المنتظرة، وهأنذي الآن ـ يا للغرابة! ـ أزيح خوفاً ليحل بديلاً عنه خوفٌ آخر: رهبة الموت والرغبة في البقاء!

...نمتُ، تلك الليلة، والهواجسُ كثيرةٌ، والآلامُ، على تنوعها، لا حصرَ لها. وعند الفجر صحوتُ على جَلَبَةٍ كبيرةٍ أكاد ألحظ فيها مظاهر مسموعة للتفاؤل والأمل؛ لقد كان سبب تلك الجلبة التي كانت تُحدِثُها تدافعات ركاب سفينتنا نحو الجانب الأيمن منها، هو مُشاهدة أحد البحارة لإحدى السفن قادمةً من اتجاه الشمال؛ سفينة حسب زعم هذا (البشير) سوف تمرُّ مُبحرةً ـ حسب أقواله ـ غيرَ بعيدٍ من سفينة الجوعى والعطشى... سفينتنا. ردد هذا الشخص، والذي هو من مساعدي النوخذة، هذه التأكيدات، بالرغم من توعد (لاشار) بأنه سيلقى حتفه على يديه إن لم تكن مشاهدته حقيقية، ولن يغير من أمر الوعيد شيء، لو أن تلك المشاهدات، حدثت من جراء خداع ووهم الجوع والعطش فالعقاب واقعٌ واقع.. لا محالة"!

راحت والدتي تبحث عن كأس الماء التي توضعُ، عادةً، غير بعيدة عنها. وعندما هممتُ بالمساعدة، كانتْ قد أمسكتْ بالكأس ودفعت ما بقي بها من ماء إلى فمها؛ لهذا اغتنمتُ تلك اللحظاتِ الشاردةَ التي توقف فيها الزمنُ للحظات لأطرحَ عليها سؤالاً محدداً:

"هل ما شاهده هذا البحارُ واقعٌ أم خيالُ خائفٍ"؟

أجابت وابتسامة تُرسم على ثغرها:

"لقد نجا الرجل عندما صدقت عيناه! ما شاهده كان عبارة عن سفينة بضائع تعمل بين خط البصرة، وعُمان والإمارات المتصالحة. هذه

النوعيةُ من السفن تسمى (البغلة). ولا أدري حتى الآن لماذا تم اختيار هذه الصفة غير المحببة، لِتُطلق على أجمل سفينةٍ رأيتها حتى الآن؟!

عندما تأكدتْ مشاهدة (البغلة) واقتربت من سفينتنا، بعد بزوغِ الشمس، رأيتُ مقدمتها الطويلة المائلةَ إلى الأمامِ، ومؤخرتَها التي تشبه التربيع العالي، وعلى كلا الاتجاهين رأيت زخارف مرسومة بأشكال جميلة لافتة للنظر. لكنَّ ما كان مُهمّاً ـ حينها ـ لركابِ سفينتنا، ليس ذاك الشكلَ اللافتَ البهيَّ (للبغلة) المنقذةِ؛ بل ما كان مؤملاً فيها من حمولة مؤن ضرورية للعيش والبقاءِ. الجميعُ على السفينة (فُرس) في حاجة لهذه (الكنوز)، حتى لو دفع فيها أضعاف ثمنها، الذي كان يفترض أن تباع به عند وصولها إلى هذا الميناء أو غيره، وفي اعتقادي أنه لو أراد أصحاب (البغلة) جواري ومحظيات زيادةً على (البيعة)، فإنه لم يكن هناك مانعٌ، بكل تأكيد عند (لاشار) وجماعته، من الموافقة على العرض بل واستحسانه!

...كنت أستمعُ طيلةَ نهارِ يوم الإنقاذ لأحاديثَ ودية: الكثير منها بالعربية والقليل منها بالفارسية. وكان يُنقل لي بالبلوشية أولاً بأول معنى تلك الأحاديث. ومنها ما أخبرتني به إحدى (الأخَوات) الجواري، بأن أصحاب السفينة (البغلة) قد وافقوا على تزويدنا بما نرغب فيه من مؤن غذائية ومياه، بل إنهم بادروا إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه، من دُسرٍ وأخشاب سفينتنا التي دمرتها العواصف والنيران. وعند انتهاء فترة الإمداد والإصلاح، والتي استغرقت يوماً كاملاً، أصر (لاشار) على أصحاب السفينة المنقذة، أن يأخذوا أضعاف ما طلبوه لقاء خدماتهم وبضائعهم. وبعد ترددٍ طويل تمنى النوخذة (سعيد) ألّا ينتهي... قَبِل هؤلاء الـمُنقِذون عرض (لاشار)!

عند فجر اليوم التالي أبحرت السفينتان كلٌ في اتجاه سفر معاكس. وابتغاءً لتحقيق أهداف مختلفة. حينها لم يتوقف ولاة أمر سفينتنا (فُرس) و (البغلة) تبتعد شيئاً فشيئاً، عن التلويح بكلتا يديهم لمنقذيهم علامةً

للامتنان والدعاء لهم برحلة تجارية مربحة وناجحة، وشملت تلك الهبات من العواطف الجميع.. حتى (الإماء) اللواتي تناسين ـ ولو مؤقتاً ـ حقيقة أن فرحهن كان يبدو (للعارفين) سُخريةً ما بعدها سخرية، فما بعد الابتهاج ليس إلا تعاسة إنسانية مُقبلة: التعاسة التي قالتْ عنها (شهد بخت) من قبلُ: إنها مجردُ غلالاتٍ من الأوهام، ويبدو أن كثيراتٍ ممن سمعن تلك الحِكم... قد صدَّقن ذلك!

... قد تسأل يا (بني) هل أنا من تلك الفئة؟ نعم.. ولا! كما هو شكي واعتقادي المهتزّ حتى الآن...!

التثاؤب إحدى علاماتِ الرغبة في النوم. وهو كذلك علامةٌ على الضجر والملل. وعندما تماديت في تجاهل تلك الحقائق، أوضحت لي والدتي بجلاء بأن الوقت لم يَعُدْ مناسباً للحديث بل للنوم وللراحة.

قبَّلْتُ يديها ورأسها، وشكرتها على مجهودِ بوحِ يومنا الطويل. ولم أترك المكان إلا بوعدٍ منها بإكمال بقية الحكاية... غداً.

الفصلُ الخامسُ

الاثنين: قريباً.. من القصور..!!

"مع دمي المجتمعِ من ألفِ عصفورٍ
مشيتُ طويلاً بطولِ الأرضِ
ضحكتُ من الصلصالِ
أنكرتُ الزمنَ
وعَرَفْتُ كيف أخاطبُ الغريب".

أندريه شديد

9

هجمتْ عليَّ المشاغلُ والاهتماماتُ، غيرُ المتوقعة، مما أزاحَ موعديَ المضروبَ مع (فتاة بنقلان) ساعتين. وكنت أحسَبُ أن تلك المئة والعشرين دقيقة لا يمكن أن تُحدث لـ(فتاتي) كلَّ هذا الضيق والتجهُّمِ الممزوجين بالإحباط. كانت تتوقع مني ـ وأنا المتلهفُ على سماع وتدوين هذه الخبايا والأسرار ـ أن أكون أكثر حرصاً والتزاماً بأزمان ومواقيت البوح. البوحُ الذي يتفجر، ولأول مرة، كينبوع فاضت مكامنه بالماء الزُلال. أما وقد تلكأ العطاشى واستنكفوا الارتواء، فذلكم ما كان غريباً وممجوجاً من الينبوع.. وحق له ذلك!

قضيتُ رَدْحاً من الوقت، وأنا أزيلُ ما عَلقَ في نفسِ تلك المرأة الطيبة القلب، التي طالما صفحتْ عن أخطاء الغرباء قبل الأبناء. ولكنَّ الصفحَ الطبائعي ـ وكما عرفت ـ كان مقروناً، هذه المرة، برغبةٍ دفينةٍ ملحةٍ، بألَّا يعوق مثلُ هذا (السفهِ)، الذي يبديه الآخر، كشف معالم الماضي، حتى ولو لم يكن للكشف غايةٌ إلا ذاته.

كان أولُ نجاح حققتُه بعد جهود الاعتذار المضنية، رؤية إشراق تلك الابتسامة الوادعة الرضيَّة من والدتي؛ لأنني، وقبل كلِّ شيء، لا أستطيعُ أبداً تحملَّ المقادير القليلة من عتبها. فكيف بهذه الأنهر العظيمة من الانفعالات المتعددة الألوان والمعاني، والتي رأيتُها مرسومةً على مُحيّا، يعلنُ، عادةً وبدون مواربةٍ، عن كل الدفائن النَّفسيةِ المبررة وغير المبررة لصاحبته.

أما النجاحُ الثاني: فقد كان يتمثلُ في إعادةِ هذا الخيط الرفيع ـ الذي كاد ينقطعُ ـ من المؤانسة الإنسانية والرغبة في إطلاق العنان لمخزون الذكريات. ولو حدث هذا الانقطاع، فإنه قد لا يكونُ بالإمكان مدُّه مرةً أخرى، فيما لو تحولت الفجيعةُ المؤقتةُ، المتمثلة بتجاهل الآخر ـ المؤتمن على فيض بوح السارد ـ إلى ممانعةٍ نهائيةٍ للتواصلِ، والتي من الممكن أن تُخففها مشاعر أمومة فطرية، تبقى بلاشك ثابتةً مهما فعل (الصغار) السُفهاء!!

لقد خالطني، حينها، أكثرُ من ظن، بأن سفيرالرضا،قد استطاع تحويل أجواء ما يشبه المجابهة والتوجس وخيبات الأمل، إلى ما يعاكس تلك الأجواءَ تماماً، وفي فترة قصيرة نسبياً قياساً بتوقعاتي. مع العلم أن هذا السفير لم يكنْ إلا عدة كلماتٍ أطلقتها على مسامعي والدتي، فأحالت ـ مع غيرها من الجمل الاعتذارية الأخرى ـ العبوس... إلى رضا، والاعتقادات بخور همة المدوِّنِ... إلى ثقةٍ بأن تلك الأوقات التي تُقضى معه لن تذهب سُدىً!

لقد قلتُ لها ـ وأنا نصفُ صادقٍ ـ إنني لم أجعل (كلَّ) وقتي الفاصلَ بين لقاء أمس ولقاء اليوم ينقضي، دون أن أجعل منه مادةً بإمكانها مساعدتي في كشف غموضٍ ـ متوقعٍ ـ سيخالط بقية القصة. فمن كتاب إلى كتاب، ومن مرجع إلى مرجع، ومن بحث لآخر أمضيت جُلَّ ساعاتِ يومي السابق، كل ذلك لأصنع لنفسي ولقصتها مرجعية

وثائقية، وخاصةً في المرحلة (العُمانيـة) التي أنهت بدايتها، مرحلة ما قبل الرق الحقيقي، الرق الذي لا يمكن أن تدخل في بهو نمطيته هذه المختطفة أو تلك، إلا عندما تخطو (الجارية) خطواتها الأولى، في بيتِ سيِّدها ومالك كلِّ أمرها... الأولِ!

...وفيما يشبهُ التقريرَ قلتُ لوالدتي:

"إنني لطالما زرتُ هذا البلد الجميل المسمى (عُمان). ومررتُ كثيراً بالقرب من ميناء العاصمة مسقط، وإن مخيلتي، حينها، لم تكن لتستطيع الوصول إلى تخوم قصة كهذه القصة التي تروينها. هل كان بالإمكان ـ مثلاً ـ تخيّلُ وقائعَ يوم وطئت، ولأول مرة، أرضَ سواحلِ الجزيرةِ العربية، أقدامٌ صغيرةٌ، لفتاةٍ بلوشيةٍ مختطفةٍ... ستصبحُ والدتي بعد سنوات لاحقة؟!

...بإمكاني أن أذكّركِ ـ أطالَ اللهُ عمرك ـ وكرابطٍ بين ما سبق من فصولٍ للقصة وما ستأتين على ذكره لاحقاً: أنه وفي صباح يوم الخامس عشر من شهر رجب عام 1364هـ[1] رست سفينةٌ محملة بصبايا من (الإماء) على رصيف ميناء، مدينة قديمة، ضمن (دفعة) من الجواري، فتاة بنقلانية كانت محتفظةً، حتى ساعتها؛ باسمها الأول (مريم). عمرها حينذاك ـ تخميناً ـ لا يتجاوز الاثني عشر ربيعاً.. أو خريفاً! لم تكن تلك الصبية تعرف أن هناك بلداً يسمى (عُمان)، بل لم تكن تعرفُ، في ظني ـ وقد أشارت برأسها أن الأمرَ كذلك ـ أن هناك بلداناً غير الوطن الكبير (إيران)، وأرضاً غير أرض البلوش!

"هل تعرفين كيف كانت الأوضاعُ المختلفة في عُمان عندما وصلت لها في الساعات الأولى من صباح يوم صيفي مسقطي"؟!

سألتها وأنا أكاد أعرف الإجابة.

(1) الموافق للخامس والعشرين من يوليو 1945م.

قالت:

"وكيفَ لي أن أعرفَ؟! كنتُ أعيشُ في برزخ بين الحُلمِ والواقع، وبين الحقيقة وأضغاثُ المنامات. ليتها كانت الثانية! لكنَّ جُرحيَ النازفَ داخل نفسي، وجُرحيَ الملموسَ الذي مازلتُ أشعر بنَدْبَتِه، وما يدور حولي، وما مرّ بي... يقولون لي: إن ما تعايشينه (الآن) وما سيحدث تبعاً لذلك ـ أيتها المكلومةُ ـ هو الحقيقة.. ولا شيء غيرَ ذلك"!

ثم أردفت والدتي متسائلة:

"قل لي كيف هي أوضاعُ (عُمان) حينها؟ منك نستفيد".

ما فائدةُ ما سأقوله لها الآن، وما كان يعنيها تلك الأيام، ليس سوى نفسها المُهانةِ المستضعفةِ الخائفةِ؟ سؤال أبقيته في داخلي، وفضّلت أن ألعبَ دور الراوي ـ ولو ـ لدقائقَ معدودةٍ:

"عُمانُ بلدٌ يأخذُ مساحة ربع الساحل الجنوبي الشرقيِّ لشبه الجزيرة العربية. وهي بموقعها ذاك تسيطر على مدخل الخليج العربي. ويقال إنها أقدم دولةٍ عربيةٍ ذاتُ سيادة من كل الدول العربية التي حاول الاستعمار الغربي إيجاد موطئ قدم فيها. ويقال أيضاً إن (مسقط) شهدت أقدم حكومة مستقرة في جنوب غرب آسيا كلها. تقع عُمان في الركن الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وتطل من الشرق والجنوب الشرقي على كلٍّ من البحر والخليج العربيين. أما حدودها الشمالية والغربية فتشرف على تخومِ الرُّبْعِ الخالي. وبالرغم من تماسّها مع بلدانٍ وبحارٍ عربيةٍ، فإن موقعها النائي ذاك جعلها ـ كما تقولُ بعض الكتبِ ـ جغرافياً وتاريخياً وسياسياً، خارج خطوط التاريخ العربي.

...عُمان عُرفت في المراحل التاريخية المتعددة بأكثر من اسم ومن تلك الأسماء: (مجان) و (مزون) وأيضاً (عُمان). وكلُّ اسمٍ من تلك الأسماء له ارتباط حضاري وتاريخي محدد. فمثلاً اسم (مجان) أطلق

عليها؛ لأنها اشتهرت بصناعة السفن وصهر النحاس. وكان أول من أطلق عليها هذا الاسم هم (السومريون) حيث كانوا ينعتونها باسم (أرض مجان)... أي: أرضُ صهْر النحاسِ، الداخلِ في صناعة وبناء أنواعٍ من السفن الشراعية القديمة.

أما اسم (مزن) فلأنها تنعمُ بوفرة مائية، وخاصةً في فترات تاريخية سابقة، قياساً بأراضي الجزيرة العربية الأخرى المجاورة لها. ولعل هذا ما يفسر التوسع العمرانيّ والازدهارَ الزراعيَّ العُماني القديم، وما يصاحب هذا من حضارة. يبقى اسم (عُمان) وفي هذا هناك أقوال منها: أن الاسم منسوب لـ(عُمان بن إبراهيم الخليل) عليه السلام. وأقوال أخرى تنسب الاسم إلى (عُمان بن سبأ بن يغشان بن إبراهيم الخليل). وابن خلدون يقول: إنها سُميت بعُمان نسبةً لاسم شخص يدعى (عُمان بن قحطان) الذي كان أول عربي يستقر هناك بعد السيل المدمر الذي ضرب مأرب. والشيءُ الثابتُ في كلِّ هذه التخرُّصات هو أن عُمان ومنذ القديم كانت موطناً للقبائل العربية التي قدمت إليها وسكن بعضُها السهول، واشتغل البعض الآخر بالزراعة أو بالصيد، وأقوامٌ منهم استوطنوا المناطق الداخلية والصحراوية. وكانت مهنتهم الرعيَ وتربية الماشية.

عُمان هذه يطغى عليها، مثلها مثل دول الجوار، النظام القبلي. وأهمُّ قبائلها: قبيلةٌ يقال لها (الأزد) التي استوطنت عُمان عند ظهور الإسلام. وهناك قبيلة مشهورة هي قبيلة (بنو سامة بن لؤي) التي ينسبها النسابون إلى قريش. ويذكر الإخباريون عن عُمان أنها أسلمت في أواخر حياة الرسول (صلعم) سلماً ودون قتال. وفي عصر الدولة الأموية استقلت عُمان فعلياً عن الدولة المركزية في دمشق، وإن احتفظت بالارتباط الاسمي بأصحاب الرايات البيضاء. وفي وقت لاحق وبعد وفاة الخليفة (يزيد بن معاوية) أصبحت عُمان جزءاً من دولة الخوارج التي

تناصبُ الدولة الأموية ـ وكلَّ الدول ـ العداء. ولم يكن اختيارُ الخوارجِ لعُمان عبثاً، وإنما لأنهم عرفوا أن طبيعتها الجبلية القاسية وما يحيطُ بتلك الجبال من صحارٍ واسعةٍ، تهزم دائماً من يريد قطعها. عرفوا كذلك أن تلك الملاذات الطبيعية الآمنة هي خير مكان يلجؤون إليه، عندما تفكر الدولة المركزية في قتالهم. هذا إلى جانب الأهمية التجارية لعُمان الواقعةِ على امتداد سواحلَ طويلةٍ بالغة الأهمية. نفس هذه الأهمية أعادت عُمان إلى حظيرة الدولة الأموية مرة أخرى؛ لتستمرَّ عُمانُ في هدوئها وخضوعها للحكم المركزيِّ الإسلاميِّ، حتى بعد أن سقطت دولةُ الأمويين، وقامت دولة العباسيين على أنقاضها. وبدون أن أرجعك ـ والدتي ـ إلى التاريخ كثيراً.. أقول: إنّ هذه البلاد (= عُمان) كانت حاضرةً في ذهن الحاكمِ الإسلامي مهما تكن صفته: فهي مهمة لطرق التجارة الملاحية، ولطرق رسوّ وعبور السفن التجارية. ومهمةٌ كذلك لكل السلع التجارية الآتية من الشرق إلى الغرب، إبَّان الدولة الإسلامية في كل أحقابها... وحتى بعد انهيار مركزية الحكم الإسلامي.

ومن السلع المهمةِ التي كانتْ لابد أن تمرَّ عبرَ عُمان إلى الأسواق الأخرى سلعٌ قيمة مثل: الذهب، والعاج، والمعادن المختلفة والبهارات، والعطور، والأخشاب، والمنسوجات، والعبيد"!

علتْ دهشةٌ كبيرةٌ وجهَ والدتي عندما سمعت اسم آخر (سلعة) تجارية اشتهرت بها عُمان في القديم. هذا القديم الذي لحق بمسار حياة والدتي بعضُ ملامحه. وحتى أعود إلى ما سبق أن مهدت له من سياقات تغريبتها في قسمها العُماني، وأزيل دهشتها المتعاظمة... استطردتُ قائلاً:

"نعم، العبيد...! لكن لهذا النوع من السلع قصةً أخرى ودعيني (الآن) أكملْ بقية إطار صورة البلادِ التي استقبلتك ذات صباحٍ حارٍّ، كفتاة لها وضعية اجتماعية أخرى... غيرَ التي كانت:

منذُ أكثرَ من ثمانمئة عامٍ تقريباً، حكم عُمان أميرٌ من (بني نبهان)

وصلت حدود سلطته إلى كلِّ شرق أفريقيا مقديشيو وزنجبار ومحابس وغيرها من بلدان شرق أفريقيا. وساعد (النبهانيين) في توسُّعهم وحبِّهم للسيطرةِ، علمُهم الواسعُ في بناء وصناعة السفن، وكذلك في الإبحار داخل البحار والمحيطات القريبة والبعيدةِ نسبياً عنهم.

لقد عمَّرت تلك الدولةُ خمسةَ قرون: ثلاثةٌ منها عاشتها قويةً مزدهرةً. أما في القرنين الأخيرين من عمرها، فكان الأمرُ المعاكسُ لحياة وفتوة الدول... كل الدول. لقد دبَّ الضعفُ والتفكك في جسمها، وانقسمت إلى دويلات وكيانات هزيلة. وزاد من حالةِ الهُزالِ عاملٌ آخر، هذا العامل، والذي عجل بوفاة تلك الدولة التي (كانت) منيعة؛ تمثَّلَ في النشاط الاستعماري البحري للبرتغاليين الذين غزوا مناطق النفوذ العُماني على سواحل شرق أفريقيا، التي ما لبثت أن سقطت في أيديهم... ثم تحول البرتغاليون إلى عُمان نفسها، حيث وصلوا إلى هناك في عام 913هـ[1]. في تلك الأيام أحرقت السفن العُمانية ومراكبُ صيدِ الأسماكِ واحتُلتْ مدن عُمانية: مسقط وصور.. وغيرهما. ولم يكتفِ المستعمرون البرتغاليون بهذا فقط، بل راحوا يقتلون ويجدعون أنوف الأهالي ويقطعون آذانهم. وتقول بعض الروايات: إنهم أحرقوا جميع دور الوجهاءِ والأعيانِ العُمانيين.

لقد تمثَّلَ في الاستعمار البرتغالي جميعُ صور حقد الرجل الأبيض الاستعماريِّ على المشرقيين، وما تمثله حضارتهم ومكامن قوتهم الاقتصادية والاعتقادية. بعد ذلك عاشت عُمان في فوضى سياسية واجتماعية عظيمة، حتى بعدَ دخول عامل غيَّر وجه الاستعمار البرتغاليِّ القديم... ما أقصده كان استعماراً آخر: هولندياً تارةً وإنجليزياً تارة أخرى. حينها تلحفت العتمة والفوضى عُمان. إلى أن اجتمعت كلمة

(1) الموافق لعام 1507م.

العُمانيين على رجلٍ نصَّبوه إماماً عليهم. اسم هذا الإمام هو (ناصر بن مرشد اليعربي) الذي بدأ بحكمه حكمُ أسرةِ (اليعاربة)، التي استمرت ولمئة سنة تحكم عُمان.

ولا بدَّ ـ يا أماه ـ أن ألفتَ انتباهكِ لأمرٍ مهمّ، قد تجدينه غريباً عليك هنا: فبسطوع نجم الإمام الجديد، انتهت طريقةُ انتخاب القيادة في عُمان وولاة عهودهم. أو لنقلْ من يأتي إماماً بعدهم. الطريقة القديمة اختارها العُمانيون ولمدة مئاتٍ من السنين. وكانت تتم على أساس المزايا الشخصية والتقدير الذي تحصل عليه الشخصية المختارةُ. وبعيداً عن فكرة توريث الحكم واختصاص أسرةٍ معينةٍ بذاتها بهذا الشرف الديني قبل الدنيوي. شخصية الإمام المختار في عُمان كانت تتمُّ بشروط: أن يكون ذكراً عَالِماً بالدين، وألّا يكون مصاباً بعاهة جسمانية أو عقلية. على أن هذا الاختيار لم يكن يخرجُ عن نطاقٍ قبليٍّ معين، فكل أئمة عُمان السابقين المختارين بطريقة الشورى والاختيار، كانوا من قبيلة (الأزد)، إحدى القبائل الكبيرة المنتشرة في أغلب أراضي عُمان!

وعندما يُختار الإمام يُشترط عليه ألّا يختار خليفته مستقبلاً من محيط أسرته، وأن يوافق على شرط مهمّ آخر: ينبغي أن تكون مدة ولايته محدودة وألّا تتجاوز، على الأكثر، عقدين من الزمان. وبتولي الإمام (ناصر بن مرشد) انتهت تلك التقاليد الشورية تقريباً في هذا الركن القصيّ من بلاد العرب، والغريبة عن طقوسِ اختيار القيادةِ في تلك المناطق التي يهيمنُ عليها الطابَعُ البَدويُّ القبليُّ.

...(ناصر بن مرشد) هذا وحَّد العُمانيين بعد طول انقسام. وقام بعدة محاولات لطردِ الغزاةِ البرتغاليين، تكلل أكثرُها بالنجاح، لتدور دورة الزمن المعتادة بعد ذلك وتنهار دولة اليعاربة، وتقوم مكانها دولة (البوسعيد) والمتمثلة حتى الآن بآخر سلاطينها في عُمان... السُلطان (قابوس بن سعيد).

سلاطينُ وأئمةُ الدولة الجديدة الممتدة عديدون. وأول مؤسس لدولتهم هو الإمام (أحمد بن سعيد البوسعيدي الأزدي) الذي بُويع في سنة 1158هـ[1].

استطاع الإمام (أحمد)، قبل طرد الفُرس الذين غزوا عُمان واحتلوا أجزاء كبيرة منها؛ توحيد البلاد المنقسمة على نفسها، وقام بما يشبه المعجزة في تحقيق الولاءِ من جانب العُمانيين المصابينَ بحالة التفرقة من جراء اختلاف سلاطينهم المتأخرين الضعفاء من اليعاربة، وزاد هذا الإمامُ كتابَ إنجازاتهِ، صفحاتٍ أخرى كثيرةً عندما جعل عُمان دولةً تجارية إلى جانب صفة الدولة البحرية التي اتصفت بها طويلاً في الماضي".

لم أستطعْ، بعد هذه (الخطبة) التاريخية، أن أستشف مدى تأثيرها المباشر على والدتي، وعلى ما يمكنُ أن تقوله بعد ذلك عن رحلةِ العبوديةِ التي قطعتها حتى وصلتُ إلى هنا. صحيح أنها أظهرت اهتماماً بما أقول عن أحداث وقائع الماضي، لكنها كانت ـ كما يبدو ـ تبحثُ عن شيءٍ آخر في زوايا التاريخ غير الذي سردته.. وبعد لحظات أصبح التخمينُ حقيقة:

"لكن ماذا عن العبودية في عُمان؟ وما علاقة عُمان بتلك التجارة المنحوسة"؟

أجبتها، وأنا أستحضرُ كلَّ معلوماتي في هذا الشأن:

"عُمان مثلُها مثلُ بقيةِ مجتمعات الخليج والجزيرة العربية: الجميعُ كان يتعامل مع حقيقة أن الإنسان يمكن أن يكون عبداً لأخيه الإنسان، وأن يُباع ويُشترى حسب منطقية هذه الرؤيا. وأظن أن مجتمعاتنا المحلية قد وطنت هذه الرؤيا عبر انعكاسات الظواهر التاريخية والاجتماعية على

(1) الموافق لعام 1745م.

هذه المجتمعات، مع العلم ـ يا أماهُ ـ أن العربَ لم يكونوا متفردين في استعباد المجاميع البشريةِ الذين تشاءُ أقدارهم أن يصبحوا عبيداً... مثال: فيلسوف يوناني[1] من الممكن أن يكون قد مرَّ عليكِ اسمه ـ أطالَ الله عمرك ـ يقول ناطقاً باسم حضارته في كتاب له أسماه "السياسة":

"إن نفعَ الحيوانِ ونفعَ العبيدِ واحدٌ تقريباً. ولقد وُلدوا ليطيعوا. وصيد النوعين جائز عندما يرفضون"!!. الرومان كذلك وبعد تأسيس أمبراطوريتهم العظيمة، لم يبدلوا من الأمر شيئاً. التاريخ يقول لنا: إن روما عاصمة العالم آنذاك كان يوجد بها أربعمائة ألف عبد.. مخصيّ! وحتى بعد أن اعتنقت المسيحية، فلم يغير هذا الاعتناق من الاعتقاد بوجود قطيع من الماشية الإنسانية!! إحدى الكنائس ـ مثلاً ـ في سنة 324 بعد ميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ أحلتْ اللعنة على من يحول العبيد عن واجبات العبودية التي خُلقوا لها! أما أوروبا الناهضة وفي بداية رحلتها نحو التمدن الخالص وما يلحق بهذه المدنية من فكر وتنظير؛ فقد أصرّت على الرؤية القديمة نحو استرقاق الإنسان. نعم... لقد تبنت الرق وجعل الأوروبيون القارة الأفريقية كلَّها من أملاكهم: مكاناً وإنساناً.

...أيامَها لم يكن الوضعُ في غربِ الأطلسيِّ أفضلَ حالاً، بالرغم من ادعاءات الدولةِ الناشئةِ هناك بأنها حاميةُ الحرياتِ وحقوقِ الإنسان. لقد وصل عدد العبيد الزنوج المجلوبين من أفريقيا إلى أمريكا سنة 1870م إلى قرابة تسعة ملايين زنجيّ!

أما العربُ يا (أماه) فقد انتشر بينهم بيعُ وشراءُ العبيدِ؛ نظراً لأنهم كانوا جزءاً من المنظومة الإنسانية حولهم التي ستؤثر عليهم وبالعكس، إلى جانب أن حياة الغزو والإغارة التي هي من صميم القيم لديهم،

---

(1) أرسطو.

كانت تجبرهم على سبي أسر مقابليهم المهزومين. حيث يُساق الرجال والنساء والأطفال إلى جانب الأنعام. وكلُّ ما يملكه الغيرُ المنكسرُ إلى موطن القبيلة المنتصرة. ولم يكن العبيد يِملَّكون عن طريق حرب القبائل بعضها لبعض فحسب، بل أيضاً عن طريق شراء وتملك الرقيق المجلوب للأسر الغنية والمُرفَّهة في الجزيرة... من أفريقيا ومن بعض المجتمعات الفقيرة المجاورة.

وهناك نوعٌ آخرُ من تملك العبيد، يتمثل في استيفاء المال المُقرَض بعد إعلان عجزِ المقترِض عن الدفع والإيفاء. حينها يغدو المقترِض عبداً مؤقتاً للمُقرض إلى أن يعتقد أن صاحب المال قد استرد ماله بعد خدمة العبد (= المُقترِض) والتي تطول بمقدار المال المقتَرَض!

ولم يتغير الحالُ كثيراً عندما جاء الإسلام إلى جزيرة العرب وحتى بعد أن أصبحت كلُّ أنحائها تقريباً خاضعة لمعتقده. لقد استمرَّ الناسُ يقتنون العبيد وبصورةٍ أكبرَ من السابق بسبب سبايا الفتح الإسلاميِّ العربيِّ لمناطقِ العالمِ المختلفة، مع الإشارة هنا يا (أماه) أن رسولَ الإسلام (صلعم) قد وجه ونصحَ بمعاملة الرقيق معاملة حسنة، والرفق بهم، وإن لم يحظر ويحرم نقلاً عن ربه ـ لأسباب كثيرة ـ هذا النظام الاجتماعي المتغلغل في فكر وروح العربي... حامل لواء الإسلام الأول.

"...عُمانُ ـ والدتي ـ لم تكنْ شذوذاً عن الحياة الاجتماعية العربية العريضة حولها، والتي لها سمات وأطرٌ تشترك فيها، وإن اختلفت في جوانب معينة قد لا يرصدها الباحثُ المتتبعُ لتلك السماتِ من الظواهرِ الاجتماعيةِ العربيةِ القديمة. حتى مذهبُ (الأباظية)، المتفردُ في طرق التفكير قياساً بالمذاهب والطوائف الإسلامية الأخرى، والذي أخذت به عُمان طويلاً ـ ومازالت ـ لم يعالج ـ قط ـ ظاهرةَ الاسترقاقِ وتوابعه من نظامٍ اجتماعيٍ قديم، ولم يجهد رواده ومنظِّروه الأوائلُ أنفسهم في حل إشكاليته، مثلما أجهدوا أنفسهم في مسائل الإمامة والحرية الإنسانية

الكلية، التي لها علاقة باختيار الإمام، أو اختيار المسلكية الإنسانيةِ التي يحاسبُ بها العبدُ يوم القيامة بدل الجبرية، التي آمنت بها مذاهب ونحلٌ إسلاميةٌ عديدةٌ".

كانتْ والدتي تستمعُ لتلك الخلفيةِ التاريخيةِ التي لا تبرر ـ كما تعتقدُ ـ ما حَدَثَ لها من استرقاقٍ، وهي مطأطأة الرأس وبشكل غير معتاد إلى درجة أنني وجدت صعوبة في معرفة أثر حديثي الذي ألقيتُه بشكل مدرسيٍّ فوقيٍّ، وتمنيت أن تقول شيئاً؛ لأعرف بعدها ما هي الإجابة المناسبةُ منها على هذين السؤالين: هل من المستحسنِ مواصلةُ اتجاه سرد المعلومات الذي أقوم به، أم أن أعود إلى دور المستمع لقصتها؟ والتي لولاها لما كان لي أن أهتم بالحصول على كل هذا الكم من أخبار تاريخ.. عن العبيدِ والجواري و...

"عندما وصلتْ سفينتُنا لمسقط لم أجد أن تلك المدينةَ تستمتعُ باقتناءِ (الإماء) ـ اللاتي كُنَّ حرائر، فقط. بل كانت مدينةً تعتمد في تجارتها الكلية ومداخيلها على سوق الرقيق كذلك. كان هناك موردون، ومصدرون، ومسوقون، وتجار جملة... وتجزئة! هل لك أن تجيبني ـ بُنيَّ ـ لِـمَ كان هذا الميناء بكل هذا الشغف لمثل تلك التجارةِ التعسة"؟

عرفتُ ساعَتها أنني تأخرتُ كثيراً في إعطاء المعلومة التي تهم تلك المرأة المسنةَ الراغبةَ في معرفة إجاباتِ الأسئلة. والتي يبدو أن كشفَ غموضِها لن يغيِّر من الأمر شيئاً. لكن الإجابات ستعزز ـ بالتأكيدِ ـ من فرصِ حصولي على مبتغاي الأهمِّ.. سيرةِ حياتها.

وعند هذا المنحنى من التفكيرِ و(الرغبة) بدأتُ أسترجعُ تاريخ مسقط وعُمان مع تلك التجارة الغريبة:

"على ما يبدو لي أن تجارة عُمان وازدهارها، ارتبطت بتجارة الرقيق المقبولةِ، حينَها، في تلك الأصقاع الجنوبية من الكرة الأرضية. فعبر موانئها، كانت تمرُّ السفنُ القادمةُ من الشرقِ الأفريقي البائسِ

الفقير، إلى حيثُ مناطقُ الجذب الشرائي والتوزيعي للأرِقَّاء في بعض مناطق الهند والصين، ثم تبدلَ الحالُ وأصبح للسفن وجهاتٌ ومهماتٌ أخرى: التجمعات البشرية التي تتخذ من غرب الخليج موطناً لها، فهناك دائماً إلحاحٌ من الأغنياء ومَن يعيش في دائرة نفوذهم لجلب الأرِقَّاءِ ـ وخاصةً النساء ـ لبيوتهم ودواوينهم... ولفُرُشِهم!

كانت السفنُ العربيةُ (والدتي) تُشحنُ بالتمور من البصرةِ والإحساءِ إلى شرق أفريقيا، حيث لعُمان مستعمراتٌ فيها وخاصةً في (زنجبار). أما أثمان شُحنات التمورِ فكانت تُسدد ـ أحياناً ـ على شكل رقيق من الزنوج!

سفنُ تجارةِ الرقيق في تلك الأيام كانت عُمانيةً. والموانئُ التي تتوقف عادةً فيها عُمانية، هذه الأسبابُ جعلت الشهرةَ العُمانية منطقيةً عندما نتحدث عن نشاط هذه التجارة المزدهرة الغريبة والمسكوت عنها منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف أربعينيات القرن العشرين الميلادي، حين ضغطت الحكومة الإنكليزيةُ، المستعمرة للشرق، آنذاك، في اتجاه إنهاء حالة تغاضي الحكومات العُمانية سواءً الإمامية أو السلطانية، لا في مرور ورسوِّ السفن الحاملة (للبضائع) البشريةِ في الموانئ العُمانية فحسب، بل لجعل عُمان سوقاً ووسيطاً للمشترين والبائعين والمسوِّقين للرقيق".

لاح لي أن ما أطرحُه على مسامع والدتي، بدأ ـ وإن متأخراً ـ يُحدث الصدى والتأثير في مكمن عقلها وروحها. لا لشيء سوى أن هذه الطروحات المبعثرة، بدأت تُمهد لإخراج أدقِّ تفاصيل التغريبة البلوشيةِ، التي تمثلها (=هي) خيرَ تمثيل... سؤالها التالي يؤكد هذا:

"أسمعُ منكَ كثيراً، وأنت تتحدث عن تجارة الرقيق، وعلاقة عُمان بها، مفرداتٍ من مثل: أفريقيا، والزنوج، وزنجبار، وشرق القارة السوداء. ولم أسمع ـ قط ـ تفسيراً لعلاقة كلِّ هذا، بالجهة الأخرى

المقابلة لعُمان، والتي أتيت منها وأتت مجاميعُ كثيرةٌ من العبيد والجواري البلوشيات. كيف نربطُ هذا بذاك"؟

كنت أتوقعُ مثلَ هذا السؤالِ؛ لذا رحت أجيبها وكأني ألقي درساً سبق لي حفظُ كثيرٍ من صفحاته:

"نتيجةً للضغوط البريطانية المتعاظمة على تُجّار الرقيقِ ومَن يُسهلون لهم تجارتهم، أخذ طريقُ العبودية الممتدُّ من أفريقيا إلى أنحاءَ كثيرةٍ من آسيا يندثر؛ لهذا راح المستفيدون من التجارة البشرية يبحثون عن مصادرَ إنسانيةٍ أخرى تعجُّ بالحيوية، لأسواق النِّخاسة المتشوقة لمثل هذه البضاعة، والتي لولا بنو البشر المستعبد لبارتْ وأعلنت إفلاسها في الحال!

...المصدرُ الجديدُ لم يكن سوى بلاد بلوشستان في قسميها الفارسي والهندي (= الباكستاني). ومما ساعد على (غنى) وخصوبة المصدر الجديد، المجاعةُ التي حدثت في بلوشستان بين عامي 1323 و1324هـ[1]. في هاتين السنتين أصابَ بلادَ أهلِكِ، يا (أماه)، أهوالُ فقرٍ وبؤسٍ وتعاسة لا حد لها: لم ينزل المطرُ الذي تعتمدُ عليه بلادُكم - كما بلادنا - في أي مكان من بلوشستان... ولا قطرة واحدة! عندها تدفقت أعداد هائلة من سكان المنطقة المنكوبة إلى الضفة الأخرى من الخليج، إلى حيث يعتقد هؤلاء أن الأحوال أفضلُ كثيراً مما يعايشونه في بلادهم. لكنَّ البلادَ الجديدة التي قدِمَ إليها البلوشُ؛ خوفاً على أنفسهم وأطفالهِم من مجاعةِ القحطِ والجفاف، وكنزوعٍ مفهوم للبقاء على قيد هذه الحياة - هذه البلادُ ضاقتْ بهم كلاجئين. وعندما شعُر هؤلاء اللاجؤون بأنهم سيُعادون إلى حيثُ مصيرُهم المشؤومُ؛ طلبوا من أهل إمارات الساحل الخليجي المتصالح، أن يسترقوهم وأن يصبحوا عبيداً

(1) الموافقان لعامي 1905 و1906م.

لهؤلاء العرب المُضيفين المُكْرَهين، بدلاً من مصيرٍ قاتمٍ مميتٍ، سيجدونه حالما يرجعون إلى حيث مناطق سُكناهم الأولى.

كيفَ نسمِّي ما حدثَ؟ وهل هو إنسانيٌ وشرعيٌّ؟ ...لا أعرفُ! ما أعرفه أنَّ لأزمنةِ المحن والشدة معاييرَ (أخلاقيةً) خاصةً، تسوِّغ الظُلم وتُجيزُ ما لا يمكن أن تجيزه أخلاقُ الغاب ووحشُهُ...".

والدتي بكتْ.. نعم لقد بكتْ، لعلَّها الشفقةُ على بني قومِها... لعله الربطُ بين ما حـدثَ من اختطافٍ، وبين يوم وصولها إلى الساحل، الذي شهد امتداده الزَّجَّ بمئات المعذبين القادمين رغماً عن أنوفهم إلى حيث يُستعبدون... عكس أجدادهم، الذين يقال إنهم بادروا من تلقاء أنفسهم بطلب.. استرقاقهم!

استمرت الزفراتُ، وفواصل البكاء لفترةٍ قصيرةٍ في زمنها، لكنَّ هذا الزمن الخاطفَ، كان يحمل في ذاك الوقت دلالاتٍ عميقةً، على عالمية تاريخ الحزن الإنسانيِّ المكتوبِ منذ القدم وإلى ماشاء الله. دموعُ هذه البلوشية اختزلت عذابات كثيرين في أرض الآباء والأجداد، الذين كأنهم استسلموا لمصائر الأيام السوداء.

من جانبي لم أجدْ أنَّ من النافعِ ولا المناسب، التداخلَ مع (جلال) هذا المشهد الإنساني والتشويش عليه. يقولون في أمثالنا العربية: (البكاءُ يغسلُ القلوب!) لكن ماذا عن القلوب التي تريد أن تُعمرَ بالبكاء؟ لأن القلوب، وببساطةٍ، تحتاج إليه بشدةٍ؛ ولأن بواعثَ البكاءِ بقيت على حالها منذ الأزل، وليس في الأفق ما يدلُّ على أنَّ غيومَ الأحزانِ الإنسانية لها موعدُ انقشاعٍ قريبٌ.. هذا إن كان في عمرِ المُنتظِرين بقيةٌ؟!

انسحبتُ إلى زاويةٍ بعيدةٍ من المكان الذي شهدَ بوحَها وشهدَ أواخر قطرات الدَّمْعِ المرافقةِ لهذا البوح، والتي يبدو أنها اختارت السكنَ طويلاً في مدامع بطلةِ روايتي.

وعَنَّ لي، وأنا أشاهد بكائية المشهدِ، أن أغادرَ المكان كله؛ لأنني

اعتقدتُ أن هذا اليوم ليس يوم استماعٍ وتدوينٍ، بل هو يوم حزنٍ. تسببتُ أنا في إشهاره!

وعندما شرعتُ في تفعيل التفكير بالانسحاب، جاءني صوتها الذي يزداد وقاراً ومهابةً، عندما يتخلصُ من عواصفِ البكاءِ والتنهدات...

سمعتها تقول:

"لم يقلْ لي أحدٌ من عائلتي إن الجوع قد دهم بلادنا بهذا الشكل الذي يدفع منكوبيه لطلب حمى عبودية الآخرين، بدلاً من عبودية البيئات والظروف. لم يقلْ لي هذا... حتى (لاشار)"!!

أجبتها، وأنا أبحثُ عن الكلمات المناسبة حتى لا أثيرَ غضَبها:

"لم تصلْ تلك الأنباءُ وتتوارد على مسامع أسرتِكِ؛ لأن الأغنياء عادةً ما يكونون في أمان نسبيٍّ من قهريَّةِ الظروف والتغيرات الطبيعية... ولا أقول السياسية. أما (لاشار) فلم يكن الحدث القديم يعني له شيئاً. ما كان يعنيه هو أن يغلّفَ أطماعهَ بتلك الاحتجاجات على التمايز الطبقي، وبما تعرض له والداه.

...عموماً فتحتْ تلك الاستسلامات الجماعيةُ للعبوديةِ القديمة عيونَ تجارِ الرقيق ومستهلكي (السلع) الإنسانية ـ على مصدرٍ آخر غير المصدر الأفريقي المُراقَب والمَنْهيّ عنه. مصدر يمكن جعلُه رافداً ثرياً لتلك الأسواق النهمة لكل جديدٍ وغريب. خاصةً أن توابع الجفاف استمرت تضربُ مناطقَ مكران وما حولها. وبالتالي استمرّ تدفقُ الرقيق البلوش الذي تحوّل إلى تجارةٍ مربحة، وبعيداً عن المراقبة البحرية لتجارة الرقيق؛ لأن المستعمرَ آنذاك كان مهتماً بمضاعفات الرقِّ على سكان الساحل الشرقي لأفريقيا لا غير. ومما ساعد على الازدهار التجاري الجديد لتلك السلع البائسة البعيدة عن العيون الإنكليزية المستعمرة؛ ما سمعه آباء وذوو الأطفال البلوشيين، من تَنَعُّم للأطفال الأرِقَّاء عند سادتهم العرب، والمقارنة غير المتوازنة بينَ هذا (التنعُّم)، وحياة أشباههم المحليين الذين يعيشون تحت رحمة الظروف الطبيعية القاسية.

...لهذا لم يكن من المستغرب ـ وكما تقولُ المدوناتُ التاريخيةُ ـ سعيُ الأهالي في بلوشستان، إلى بيع أطفالهم للعرب؛ رحمةً بهم ـ كما يقولون ـ من مستقبلٍ بائسٍ غير مضمون. مع أن الطمعَ لا يمكنُ أن نبعده كدافع مهمٍّ جداً، إلى جانب الدوافع المعلنة الأخرى التي لم نعرف حقيقتها ولم نختبِرْها.

...أتعرفين يا (والدتي) أن سرقة الأطفال من الجنسين، ومِن ثَمَّ بيعهم للمشترين، لم يشمل ـ كعمل دنيءٍ ـ العبيدَ الآتينَ من أفريقيا وبلوشستان وبعض مناطق الكرج والأرمن فقط؛ بل امتدت سوءاته إلى حدِّ سرقة أطفال السكان المحليين في الإمارات العربية المطلة على ساحل الخليج، والذين يتم بعثهم إلى الراغبين في تملُّك مثل هؤلاء الصغار العبيد والإماء، من سكان مناطق الجزيرة العربية الأخرى. وتقول الروايات التاريخية: إن تجارةَ الرقِ المحليِّ في الخليج استمرتْ لفترة قصيرة، قياساً بالأزمان الطويلة نسبياً للرق الخارجي. المصادرُ التاريخية ذاتها، تقدر زمن ازدهار الاسترقاق المحلي وعمليات سرقة الأطفال، بأنه امتد ـ فقط ـ من أوائل ثلاثينيات القرن العشرين وحتى خمسينياته".

في تلك اللحظاتِ استأذنتْ إحدى الخادمات في الدخول إلى حيثُ كنتُ ووالدتي، حاملةً وعاءً به رُطبٌ صغيرُ الحجمِ قيل إنه قد جُلب من المدينة المنورة. وحين وقعت عينايَ على ما في الوعاء، توقفتُ عن السرد التاريخي الذي خمنت أنه (بدأ) يثير انتباه والدتي. توقفتُ لأنني أعرفُ ولعها التقليديَّ بكل ما يتعلق بهذه الثمرة المباركة، والذي يثير تلمُّسه بأناملها ذكريات قديمة، حيث كانتْ أيامُ جني الرُطب في بلوشستان بمثابة أيام عيدٍ. أما طقوس توزيعها على الفقراء ترحُّماً على الأموات الراحلين، فهي هناك من المقدساتِ التي لا يمكن إلا أن تُحترم وتُجلّ.

بعد أن تناولتْ والدتي رُطبتين، لاحت ابتسامة باهتة على ثغرها،

واكتستْ ملامحُ وجهها، جديةَ المحاولةِ في استرجاع أشياء ماضية.. ثم قالت:

" رُطب بلوشستان وتمره لا يعادلهما شيء في الدنيا، حتى (هنا) وأنتم تهتمون بنتاج الشجرة المباركة، يبدو أنكم فشلتم في منافسة المذاق المتميز للآلىء المتعلقة بـ(عذوق)[1] نخلاتِ بلوشستان النادرة"!

جاهدتُ في أن أكتمَ ضحكتي؛ لئلا تظن أنني أتهكم ـ وفي ذلك شيءٌ من الصحة ـ على تعصُّبها المعتاد لكل شيء في بلوشستان.. وحتى أخفيَ، كذلك مدى (تعصُّبي) للتمر المحليِّ الذي نعتقد أننا هنا متميزون في استنبات أنواع عديدة منه، ويتحول التعصب إلى تطرفٍ، أحياناً، عندما يتحدث السعوديون عن تفرد وعطاء نخلتهم السعودية... قياساً ببقية تمر نخيلِ العالمِ كله!

بعد محاولات سريعة لإخفاء شوفينية مناحي تفكيري ذاك... قلت لها:

"عندما أقومُ بزيارةٍ لبلاد آبائك وأجدادك، يا (أماه)، سأجلب معي شتلة نخلة بلوشية حتى أباهيَ الآخرين بها هنا عندما تطرح خيراتها؛ لأن كثيرين في بلادنـــا يُسرفون في الاعتقاد بأن التمر السعوديَّ يأتي في المرتبة الأولى عالمياً، كأحسن ما يمكن تذوقه من أنواع الرطبِ والتمورِ في العالم قاطبةً"!

امتقعَ وجهُ والدتي فجأةً، وللحظاتٍ اعتقدتُ بعدها أن إحدى حبات الُرطب قد توقفت في بلعومها، وعندما هَممْتُ بعملِ شيءٍ لم أحددْ، حينها، ماهيته... نطقت المتحشرجة، بتلك الكلمات التي أزالت خوفي عليها، وأزالت غموض الامتقاع:

"أتعرفُ يا (سيفُ) أن آخر شيء بقى لي من بلوشستان قبل أن ننزل

---

(1) العذق: كل غصن شجرة له شعب مُثمرة.

من السفينة التي أقلتنا من سواحل بلاد الآباءِ والأجدادِ إلى بلاد العرب، كان عبارةً عن حبات من الُرطب الذي تحول تمراً. لقد احتفظتُ بتلك التمراتِ البلوشيةِ في مكانٍ آمن داخلَ الأحزمةِ التي تحيط ـ فوق الثياب ـ بجسمي النحيل. كنت أتوقع ألَّا يبقى من الثمرِ والحجرِ والناسِ إلا تلك التمرات المباركاتُ.

نعم...! ثلاثُ تمرات فقط بقين معي، أخذت واحدة ووضعتها تحت لساني لفترةٍ طويلةٍ؛ لأنني كنت أحتاج إلى شيء يعاكس المرارة التي كنت أشعر بها وأنا أجرجر قدميّ على رصيف ميناء مسقط"!

أخذتْ والدتي في بلع ريقها بقوة، ثم رأيت طرف لسانِها يمسُّ في حركات رتيبة شفتها العليا، وكأنها تسترجع بذلك مذاقَ تلك التمرةِ التي أتتْ معها من بلوشستان إلى بلاد غريبة عنها... وإلى حيث المجهولِ.

بادرتُ بسؤالها؛ مخافةَ أن يطول تجوالُ الذكرياتِ الصامت:

"كيفَ وجدتِ مسقط عندَ دُخول سفينتكم بوغاز الميناء"؟

أجابتْ، وهي تُمرر بسبابتها على الخيوطِ الحريريةِ لجلبابها:

"في الليلة التي قيل لنا إننا سنصل في صبحها إلى ميناء مسقط... لم أنم. كنتُ أريد أن أعرف أيَّ نوع من البلاد تلك التي سأرمى بها. ومَن هم أهلوها. وماذا يريدون منا؟ أسئلة كثيرةٌ كنت أعرف أنني لن أجد إجابتها بسهولة. أشعة الشمسِ القوية وغماماتُ الضباب الصباحي، زيادةً على غشاوة النوم المفارق ليلة الوصول، كانت تمنع عينيَّ من الرؤيةِ المتكاملةِ لملامح تلك المدينة الواقعة على البحر، لكن ومع اقترابنا شيئاً فشيئاً نحو الميناء، بدت ملامحُ قممِ الجبالِ المرتفعة المحيطة بالمدينة الساحلية، ثم لمحتُ أسطح بيوتها المتقاربة.

...مدخلُ الميناءِ ضيقٌ وذلك بسببِ لسانِ الخليج غير المتسع والداخل على شكل نتوء في البحر، وكلما تجوَّل النظر في المشهد الخلفيِّ لهذا الخليج، كان مشهدُ الأرض أكثر اتساعاً من المقدمة.

شاطئُ (مسقط) صخري كثير التداخلات المائية. رأيتُ أبنيةً غريبة قيل إنّ اسمها (قلاعٌ) تنتصب على سطح جبل من الجبال الكثيرة المحيطة من الخلف بالميناء والمدينة، حاولت من خلال تجوال الحدقتين، أن أجد نخلاً أو شجراً ـ كما في بلوشستان ـ فلم أجد إلا القليل والمتناثر هنا وهناك. تلالها المرتفعة سوداء جرداء؛ لهذا ـ كما اعتقدتُ ـ برز اهتمام السكان بجعل بيوتهم أميل في طلائها، وخاصة الأسطح، باللون الأبيض المعاكس لقتامة ألوان المنظر الخلفيّ. الجوُّ في صيف تلك المدينة، حارٌ رطبٌ يكادُ يخنق الأنفاس (الطليقة) فكيف بمنْ وعدوا بأن يكونوا عبيداً وإماءً؟!

على يميني رأيتُ في أحدِ جوانبِ المدينة القابعة خلفَ الميناء مباشرةً، بقايا سور قيل إنه (كان) يؤمن نوعاً من الدفاع المؤقت ضدَّ الغزاةِ، الذين يأتون طامعين بتلك الأنحاء القصية من الجزيرة العربيَّة.. بين وقت وآخر. هذا هو موجزُ الانطباعاتِ والمشاهدِ الأوليةِ، للعتبة الأولى في سلم عبوديتي غير القصير".

رنَّ جرسُ الهاتفِ ليقطعَ حبلَ ذكرياتها القديم. وقبل أن أساعدها على الإمساك بسماعة تلك الآلة التي طالما استخدمتها للتواصل بينها وبين مَن تُحب السؤال عن صحته وشؤونه؛ كانت هي قد أنهت شطر المكالمة الأول، الذي يبدأ بالسؤال التقليدي عن الحالِ والولد.

والدتي تعرفُ أن الحياةَ قد تغيَّرتْ كثيراً عن السابق: فلم يعد الكثيرُ يأتي للسؤال عنها حتى ممن ساعدتهم في السابق وأحسنت إليهم. وهي كذلك لم تعد تستطيعُ القيامَ بزيارةِ الكثيرين والكثيرات بسبب بصرها الذي كُفَّ، والقدمين اللتين لم تعودا قادرتين على حمل حتى تلك الأربعين كيلوغراماً من.. العظم؛ لهذا كان الهاتف خير وسيلةٍ لإبقاء (بعض) الآخرين حاضرين في ذهنها، وإبقائها حاضرة في أذهانهم.

... طالت المحادثةُ التليفونية بين والدتي وزوجةٍ أخرى للملكِ

الراحلِ والتي اختارت مكاناً قصياً من مدينة (الرياض) بعيداً عن الأمكنة التي كانت تضمُّ الجميعَ أيامَ (العزِ) السابق!

انشغلتُ، في تلك الأثناء، بمراجعة ما سبق أن قمتُ بتدوينه هذا اليوم. وعندما سمعتُ آخر جُمل التحايا الوداعية بينها وبين من تدعوها (أختها) اقتربتُ منها لأساعدها على إرجاع الهاتف لمكانه ولأهمس في أذنها:

"إنني متأكدٌ أن صلتك الحميميةَ بتلك الزوجة الأخرى (للوالد) ابتدأتْ من أيام مسقط، حيث كانت أولى خطوات الرق... أليس كذلك"؟

أجابت وعلامات الارتياح المتبقية إثر المكالمة ـ التي انتهت للتو ـ تُظلل قسمات وجهها الصغير:

"لا... قابلت هذه (الأخت) بعد نصف سنة تقريباً من يوم رسوِّ السفينة (فُرس) في ميناء مسقط. كان ذلك في إحدى الهِجر التابعة لإمارات الساحل المتصالح، هذا أمرٌ سيأتي ذكره لاحقاً... فلا تستعجلْ"!

لا تستعجلْ.. لِمَ العجلةُ؟! يبدو أنني فقدتُ صبري؛ ولأجل هذا، فأمي تردد هذه الكلمات كثيراً، لعل وعسى هذا التقريع، يُعلمني فن الإنصات والتدوينِ الهادئ الرزين!

لكن هذه الحالةَ من الارتباكِ، من المفترض ألا تأخذ مساحةً كبيرة من الوقت؛ فلطالما أنقذتني منها (نائلةُ)... وهذه المرةَ ليست استثناءً كذلك:

"عندما وصلتْ السفينةُ لميناء مسقط، ظللنا ـ نحن الإماء الصغيرات ـ يوماً كاملاً في (عنابرنا) بالسفينة لا نبرحها، الأخبار تردنا (من مصادر) موثوقة بأنَّ (لاشار) يتفاوضُ مع تجار الرقيقِ، ومع مندوبِ السلطان في كيفية فرز البُنيّات. أيهن صالحة للبيع والشراء في سوق النِّخاسة، وأيهن مُنتخبة للإهداء لأصحاب العظمة والسموِّ!

...في اليوم التالي تم فرزُنا إلى مجموعتين: مجموعتي لم تضمَّ إلا أنا وأربع (أخوات)، كبراهن كانت في سن الخامسة عشرة. والمجموعة الثانيةُ ضمَّت كل البنات الأخريات بمن فيهن (زينب) و (حياة). هاتان الفتاتان اللتان كانت دموعهما وآلامهما وحكاياتهما مع أخريات ـ للمفارقة! ـ خيرَ مُعين لي على تلك الأيام البائسة من أيام السفينةِ (فُرس).

مجموعتي استُبقيتْ في مسقط. هذه المدينةُ الساحليةُ الواقعةُ في منطقة "الباطنة" من عُمان، والتي يحدها من جهة غروب الشمس جبال حجرية ذاتُ ألوانٍ كئيبة. ويحدها شرقاً شاطئٌ تتداخل فيه كثيراً الصخورُ بالرمالِ مكونة جيوباً مائيةً عديدة.

أما المجموعةُ الثانيةُ، والتي انقسمتْ إلى مجموعاتٍ عديدة فقد تم إرسالُها ـ كما قِيل لنا لاحقاً ـ إلى الولايات الأخرى الملحقة بحاكمية مسقط... مثل ولايات: (بركاء) و (السويق) و (صحار) و (شناص). وعليَّ أن أقول لك إنني لم أشاهـدْ (صبيَّة) من صبايا المجموعة الثانية إطلاقاً، بعد يوم (التصنيف) ذاك... أين ذهبن.. وهل مازلن على قيد الحياة أم لا؟ أسئلة في علم الديان وإجابتها لديه"!

كان لابدَّ لي هنا من المقاطعة.. وطرْحِ الأسئلةِ... وليكنْ ما يكونُ:

"أيامُ مسقطَ كيف أمضيْتِها؟ وما هي عدَّتُها؟ وهل رأيتِ السلطانَ وعشتِ في قصره..."؟!

عرفتُ، بعد طرح تلك الأسئلة، أن للعيونِ البشريةِ وظائفَ غيرَ الرؤية. إنها دلالات وإيماءات مؤكدة على ما في داخل النفس البشرية، تجاه سلوك ومواقف الآخرين؛ لهذا لم تحاول هذه المرأةُ الطيبةُ، كفيفةُ البصر أن (تلسَعني) بتلك النظراتِ التي كانت تؤلمني في أيامٍ خوالٍ، كلما أخطأتُ ـ في نظرها ـ وتجرأت على اقتحام قلاع الذكريات الحصينة. وبدلاً من نظرات (التأنيب) تلك، راحت كفها اليمنى الصغيرة

تلوّح في الهواء معترضة ومؤنبة... ولم تتأخر الكلمات المعبرة عن كل ذاك الضيق المتكرر:

"لن أستطيعَ أبداً أن أربطَ شتات ذكرياتِ الماضي، بهذا الشكل المتكرر من المداخلاتِ والأسئلةِ التي تأتي في غير زمانها.. أو بالتحديد قبلَ أوانها، كان بعلمي أنك ابنُ تسعةِ أشهرٍ ولست ابن سبعة"!!

وصلتْني رسالتُها (البليغةُ).. تقول الحكاية العربية القديمة: إن الطفل عندما يُولد في سابع شهر من الحمل ـ وهو أمر يحدث كثيراً ـ فإن نقيصة الاستعجال تُولد معه، على خلاف مَن يُولد (تاماً) في الشهر التاسع. وهؤلاء المواليد من التصنيف الأخير (يفترض) أنني منهم، ووالدتي لا تراني كذلك..!!

كلماتُها تقطع تلك الخلفية من تفاسير الأساطير وموافقتها للواقع..

قالت في لهجةٍ تصالحية:

"ومع هذا.. مازلتَ يا (بني) تملِكُ بعضَ المحاسن.. مثل العودة عن الخطأ! يا ليتني كنت أملك هذه الحسنة.. أتعرفُ لماذا؟ لأنني في هذه الحالة لم أكن لأوجدَ في هذه البلاد الغريبة، ولكنت شيئاً آخرَ في بلادِ بلوشستان!

...ومع هذا فإنني غيرُ نادمةٍ على ما حدثَ... وهل سيفيدُ الندمُ؟ كم كان مقدارُ ندمي وأنا أمشي حافية القدمين على شاطئ مسقط بأطماري البالية تلك.. سيئة المنظر؟! لقد حانت مني التفاتةٌ للوراءِ قبل أن (أساق) إلى حيث المنزل والذي أعد لي أنا ورفيقات الرحلة، وإذا بعينيّ تصطدمان ـ ولآخر مرة ـ بعينيْ (لاشار)... سمسار البشر والأرواح. رأيت في عينيه الطمع والتشفي وراحةَ إتمام رحلة (الصفقة)، التي لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة، عدا أنها تضم بنتاً من بنات (بركة)، العائلة التي يحمل في قلبه عليها ذياك الشرير، ضغينةً.. وأيَّ ضغينة!

...(لاشار) وهو يتسَلّمُ ثمنَ (البضائع) البشريةِ من قِبل تُجار العبيد المحليين في مسقط، كان يتنحَّى جانباً برجل تبدو عليه علامات الثراء والوجاهة، ويبدو أن هذا الرجل هو مندوبُ السلطانِ العُماني آنذاك (سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد بن سلطان)[1]، لقد أتى هذا الرجلُ المميز ليأخذ من (العرَّاب) معلوماتٍ أكثر تفصيلاً عن (نوعية البضاعة الواصلة للتوِّ! وما أنا شبهُ متأكدة منه، أنني قد أخذت نصيب الأسد من زمن محادثة الوسطاء والمندوبين، لا لأنني جميلةُ الجميلات، بل لأنني بنتُ نبيل من نُبلاء البلوش والعُمانيون الوجهاء.

ـ كما قيل لي ـ يريدون ذرية من بنات نُبلاء البلدان المحيطة بهم... إن اقتضت (الضرورة) الزواجَ والإنجابَ من الـ(سراري) لا من الحرائر !

المهمُّ..! أخِذْتُ وبقيةُ مجموعتي إلى منزلٍ لا يبعدُ كثيراً عن الشاطئ... تقريباً مسافة نصف ساعة مشياً على الأقدام. المنزل يقع على ربوةٍ صخرية مطلةٍ على بقية منازل الميناء المحاذية لشاطيء البحر. ومن الخلف تناثرت منازل ليست بالكثيرة كُسيت باللون الأبيض غير الناصع، بسبب سياطِ أشعة الشمسِ والهواءِ المحمَّلِ دائماً بالملْح وبخارِ الماء".

توقفتْ والدتي هُنيهةً عن الكلام، وهذا يعني دائماً أنها تقدم (هدية زمانية لي، مستقطعةً من سياق أحاديثها، التي ستردُ لاحقاً... ماذا سأعمل بتلك الهدية؟ لتكن سؤالاً:

"تلك البيوت العُمانية كانتْ مختلفةً بالطبع عن البيوت البلوشية، في البناء وفي طبائع سكانها. هل لي، والدتي، أن أعرفَ انطباعاتِ (الفتاة) البلوشية عن تلك الأيامِ وأهلِها وبيوتها"؟!

(1) تولى الحكم في عُمان من عام 1932م وحتى عام 1972م.

في حركة عفْويةٍ منها تنمُّ عن الرغبة في جَعْل شطرٍ من طقوسِ السرْدِ، أكثر استحضاراً لوقائعَ مرَّتْ عليها عقودٌ من السنين؛ مدّتْ تلك المرأة المسنة ساقيها الصغيرتين، اللتين ظهرتا أكثر هُزالاً من آخر مرة رأيت صاحبتهما تقوم بمثل هذه الحركة العفوية التي قلَّما فعلتها !

وكأنها شعرتْ بمدى (فداحة) الخطأ الذي اقترفته بحق نفسها وحقي!! لقد دثَّرتْ ساقيها سريعاً بـ(شال) أضافَ، مع جلبابها المنحسر قليلاً، صعوباتٍ لفراستي ـ المتواضعة أصلاً ـ الراغبة في تحديد مقدار الضمور في عضلات ساقيها، ومدى ما فعل الزمن بهذه (البقايا) للطيف الإنساني الواهن الحزين. ولئلا استمر في الافتراضات والتخمينات (الجوانية) لبواقي العمر، والتحسُّرِ بعد ذلك على ما مضى، جاء صوتها قوياً عميقاً دالاً على أن الزمن (يمكن) أن تتحايل عليه أجزاء من الجسم الإنسانيّ، كما العقلُ، مؤقتاً:

"خمسة شهور وعشرة أيام، هي المدة التي قضيتها في ذياك المنزل (المسقطي) النائي. لم يُسمح لنا بالخروج منه إلا نادراً ولعدة مرات فقط، مثل شراء حاجيات النساء الضرورية. لكن، وللحق أقول: كل بشر البيت العُماني الذي (استضافنا) كانوا في منتهى اللطافة والبِشر والتقرب الإنساني. لقد أوصلوا لنا رسالة تعامل غير مكتوبة، بأن هذا ديدنهم في المخالطة والتعاطي معنا... نحن الغرباء، الذين أتى قبلهم كثيرون، وسيأتي بعدهم كثيرون. سلوكهم سيكونُ هكذا ديدنه، مادُمنا نعرفُ حقوق (الضِّيافة)، وأن كل هذا الود سيتحول إلى عكسه، إن حاولت واحدة من مجموعتنا الهروب أو الاختباء أو المناكفة. ومع أن هذا مستحيل بسبب العيون العديدة التي كانتْ ترقبُ تحركاتنا، فإن من المستحسن ـ من وجهة نظر أصحابها ـ أن تصل تلك الرسالة العُمانية ذاتُ الوجهين: الرقيقِ والخشنِ في ذات الوقت. ويعلمُ الله أننا لم نتسلّم من نوعية تلك الرسائل إلا رقيقها، وهذا عائد إلى أن المُرسلَ إليهم، (مضمون) الرسالة... قد استوعبوها تماماً!

. . .مضتْ أيامٌ وراؤها أيامٌ، ونحنُ نتعايش ـ بُنيات المجموعة الجديدة ـ بعضنا مع البعض الآخر. صحيحٌ أن هذا التعايشَ لم يصلْ إلى حد الانفتاح الإنسانيّ العميق، كما كان الحالُ مع (رفيقات) السفينة (فُرس)؛ لكنه في كل الأحوال كان يدخل في نمطية مسمى (تعايش). برنامجنا اليومي يتشكل كالتالي: تحيةُ صباحٍ يومية، يتبعها حديث مكرر محلي عن الطقس وعن أحداث السفينة الملعونة (فُرس) وبين ثرثرة وأخرى تأتي التوقعات والأمانيّ المستقبلية، وأحياناً همساتٌ تتلمس الأخبار الشحيحة عن بقية فتيات المجموعات الأخرى التي تفرقت في الأرض العُمانية. وعندما يغمرنا القنوط من معرفة ما يدور حولنا، نروح نحزر ماذا تريد أن تقول تلك الحمامات البيضاء، التي يندر ألا تهبط عصرَ كل يوم، على سطح المنزل الذي نقيم فيه أو على حوافّ نوافذه؟!

. . .كنا نخمّن أن للحمامِ لغةً، وأننا نفهمه، وأنه ينقل لنا أخبار الناس في الخارج. . . حيثُ عالمُ الأحرارِ الخالي من قيود العبودية. بعدها كنا نضحكُ على أنفسنا وعلى الحياة. . . ثم نُفطر. . ونتغدى. . ولا ننسى العشاء. . ثم تحيةُ المساء والنوم بعد ذلك. . . وهكذا!

بعدَ أكثرَ من خمسة أشهر تقريباً، وفي أحد الصباحات، جاء إليَّ، حيث نقيمُ، ذياك الرجلُ الأنيقُ الملبسِ، صاحبُ النعمة الظاهرةِ، والذي رأيته يقف مع (لاشار) في يوم وصولنا لمسقط. أتى الرجل، لا ليسأل عن أحوالنا وعن كمية الشحوم التي لا بد أنها غطت أنحاء متفرقة من أجسام الفتيات المجلوبات للرق و. .توابعه؛ بل قَدِمَ مُسرعاً ليخبر المشرفين على منزل (تسمين) الإماء المختارات، أن ضيفاً كبير المركز، سيكونُ حاضراً بينهن لأمرٍ مهمّ، وأن عليهن الاستعدادَ لاستقباله. وكلمة (استقباله) كانت تعني: نظافة أكثر، وروائح أفضل، وتنسيقاً لفرش البيتِ وأوانيه، ولا يمكن أن تحدث تلك البراعةُ غير المفهومة في التنظيم، لولا أن الضيفَ الاستثنائي. . . قادمٌ لا محالة ولن يتأخَرَ!

مَن هو الضيف؟ سأختصر عليك يا (بني) الزمن الذي يفصل بين السؤال والإجابة لأقول: الضيفُ كان إنساناً غيرَ عادي. . إنها زوجةُ السلطان. . إنها السلطانة بشحمها ولحمها. لقد شعرت ـ جلالتها ـ أن زيارتها ضرورية، إلى حيث (تُقيم) بنت الأكابر المجلوبةُ لتكونَ (أَمةً) في قصور زوجها السلطان وخادمة في بلاطه. إن مثلَ تلك الفتاة ـ في اعتقاد جلالتها ـ خطرٌ كبير عليها. لقد قيل لها إنها جميلة، وإن نحافتها آخذة في الزوال، ليحلَّ محلَّها جسمٌ ريَّانٌ، مما سيُغري السلطان، ويحركُ شيئاً في قلبه، إن هي حظيت بإعجاب جلالته، وأصبحت في عداد ما تملك يمينه ـ وهن كُثر ـ وساعَتها ستكونُ المحظيةَ المفضلةَ، وستأتي بالبنين والبنات إن كان للسلطان بقيةٌ من نزواتِ الشباب، ولا يُستبعدُ ـ حسب الاعتقادِ النسائيِّ الملكي ـ أن تصبح (البلوشية) لاحقاً سيدة على القصر كله، وهذا لا يمكن أن يحدث. . لو تم تداركُ الخطرِ، وقُمع الشرُّ قبلَ أن ينهضَ ويتمكّنَ"!!

وبلا شعور مني أطلقتُ شهقةً حاولتُ جاهداً ألّا تكون مسموعة. . جداً؛ لأنني أردتُ منها ومن كلماتي التي تلتْها، إشهار خوفي عليها الذي تأخر موعده عقوداً. . . قلتُ لها:

"مؤامرةٌ. . ! إنها ،بلاشك، مؤامرةٌ من السلطانة، ولعل الزيارةَ وتفقد أحوالكنَّ في منزل (الضيافة) ذاك، كانت أولى خطوات تنفيذ المؤامرة السلطانية. . هل دسوا لكِ سُماً في الشراب؟ أم أنهم أشعلوا النيران في حجرتك، أم أنهم أرسلوا قاتلاً ليلاً لخنقكِ. . أم أنهم. . ؟

وبهدوء قاطعتني وكأنها أشفقت على خيالي العليل، وعلى استنتاجاتي الأولية الساذجة:

"لا. . لم يحدث شيء مما ذكرت وإلّا لما وجدتني أحدثك الآن. . ! إزالةُ الخطر القادم تمت بشكلٍ آخرَ مختلفٍ جداً. دعني أقلْ لك إنني قابلت تلك السيدة المهابة التي يشع من عينيها بريقُ ذكاءٍ ودهاءٍ

غريبين؛ غريبين على أمثالي، ممن لم يتعاملوا مع الدُهاة والخبثاء كثيراً.. سوى مع.. (لاشار)!

...جالت (السلطانة) في كلِّ أنحاء منزل الضيافة و(الإعداد). وتحدثت عبر مترجم، للغة البلوشية، يرافقها، مع جميع فتيات مجموعتي. أما أنا فقد تركتني لتتحدث معي منفردة. ولم يكن تأخيرُ الالتقاء معي مصادفةً، بل كان مقصوداً، لأنني كنت أنا ـ فقط ـ المقصودةَ والمستهدفةَ من تلك الزيارة التفقدية..!

احتضنتني (السلطانةُ) بعدَ أن قبَّلتُ يدها اليمنى ـ كما أمرتُ أن أفعلَ ـ ثم احتضنتني لتلمسَ خدي وتتحسَّس أيةَ بشرةٍ هي بشرتي..!

تطلعتُ في وجهها ملياً ـ كما فعلتْ هي بالطبع ـ لم ألاحظْ أيَّ شيء يدلُّ على تميُّزها كـ(سلطانة): أنفها أفطس ووجنتاها غائرتان.. قصيرةٌ سمينةٌ. يمكنني أن أقول: إنني لم ألاحظ جمالاً ولا حُسناً فيها؛ لأنني كنتُ اعتبر نفسي حتى لحظتها، (أميرةً) تنحدرُ من أصولٍ نبيلةٍ في بلوشستان. وغالباً ما يُخرج أبناءُ الطبقةِ الواحدةِ عيوباً قد تكون غير موجودةٍ في الآخرين من أبناء أشباههم في الطبقة الاجتماعية أو المالية.. من قبيل الغيرةِ والتنافسِ المعروفين. وهذا يختلف عن حسد وضغينة الطبقاتِ الأخرى، فلو أنني كنتُ مكان إحدى الفتياتِ الأخريات الفقيرات الآتيات قسْراً من بلوشستان أو غيرها من البلدان، لما أحسست نحو (السلطانة) إلا بشيء واحدٍ: تمني الموت لها أو زوال نعمتها. أما (أنا) في تلك الساعة فلم أرَ منها إلا... سِمنتها وشكلَ أنفِها..!!

...أتعرف ـ يابني ـ أنني تمنيت ساعتها أن أكونَ مكانها، وتكونَ هي مكاني، لم أكن على استعداد لأن يرى الآخرون الذل في عينيَّ. وإن كان لابد أن يقع هذا الإذلالُ حسب سيرورةِ الزمانِ والجبريةِ الكونيةِ، فلمَ لا أكون أنا المُذِلةَ لا مَن يقع عليه الإذلالُ..؟!

لم تغيّر تلك المشاعرُ والأمانيُّ من الأمرِ شيئاً: هي السلطانة وأنا الأمةُ المتهمة (مُسبقاً) بسرقةِ قلبِ السلطان!! سألتني (جلالتها) عن اسمي، ولأيِّ العائلات (الكريمة) أنسب في بلاد مكران، وعن ملابسات اختطافي.. وعن أيام البحر اللعينة.. وعن ظروفِ إقامتي الحاليةِ.. وعن..."؟

أسئلةٌ كثيرةٌ، أجبت عليها باختصار وملل، لم أرتح لها ولطريقتها في استجوابي، لكنها بالتأكيد خرجت بانطباع أنني لست حسنةَ المنظر فقط.. بل ذكيةً أيضاً.. ألستُ ذكيةً حتى الآن يا فتى"؟

وهل يمكن أن تكون إجابتي إلا كالتالي:

"لقد حُزْتِ، في رأيي، كلَّ ذكاء البلوش أجمعين. ومما (علمت) أن المخاطر وعوادي الزمان، تجعل الإنسان أكثر استنباطاً للعلاقة بين الأشياء المختلفة. وهذا أسلوبٌ من أساليب الذكاء! ...وأنتِ ـ أطال الله عمرك ـ قد تَعرَّضْتِ لكمٍّ هائلٍ من المخاطرِ والأحداثِ، ولا أحسبُ هذا إلا زيادةً في الذكاءِ الفطريِّ القديم لديكِ"!

لم تتلقَ والدتي تلك المجاملةَ والإطراءَ المتهافتَ بكثيرِ اهتمامٍ، بل كأنها لم تسمع ما قلت؛ لأنَّها ـ كما يبدو ـ تجدُ صعوبةً (أتفهمها) عندما يتعلق الأمر باسترجاع حدثٍ معين، أو واقعةٍ مؤلمة... من تلك التي رأتها في منعطفات قصتها الحزينة..

قالت وهي تشبِّكُ بين أصابع يديها:

"لقد اختبرت ذكائي وأنا أستمع للسلطانة.. كانت تقول لي: إنني بجذوري النبيلة، وبقسمات وجهي البريئة وبقامتي الميالة للقصر والنحافة، ولرقتي المبالغ فيها كما لصغر سني ـ إنني وبهذه (المواصفات) أنفعُ لكل شيء ـ عدا ـ أن أكون محظيةً في بلاط قصرِ السلطانِ الثاني، حيث تبذل النساء جهوداً مضاعفةً في التنظيف والغسل وشؤون المطبخ، وأنها، لهذه الأسباب مجتمعة، تعرض عليَّ فرصةَ أن

أجدَ مكانا لي (كأمّ أولاد) في بلاط قصور الأمراء والسلاطين الآخرين... حكام الخليج والجزيرة العربية.. مثلاً. إنها تقترحُ أن تُرسلني (= تطردني) إلى بلاد الاحساء السعودية، حيث يحكم تلك المنطقةَ نيابة عن أسرتهِ (آل سعود) رجلٌ ـ كما قالت جلالتها ـ ولا كلّ الرجال!! ثم أضافت: ستعرفين مَن هو (سعود بن جلوي) حاكم المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وستكونين ـ بلا شك ـ محظيته الأولى!!

...السلطانة لم تنسَ أن تقول لي كذلك: إنها تؤدي لي، بهذا، خدمةً لأختها الصغيرة (=لي)؛ لأنني من أصول طيبة عريقة، وأستحق أن أكون جُزءاً من هدية السلطان العُماني (لابن جلوي) رداً على هدية الأخير لزوجها قبل عام، والتي كانت عبارة عن إماء (كُرجيات)؛ وأنني سأجد بلا شك فُرصةً وحظاً موفورين هناك، بدلَ (سوءات) المطابخِ والمخازنِ في مسقط !

لقد عرفتُ، حينها، بذكائي، أنني سأكونُ يا (بني) ضحيةَ سفرٍ وغربةٍ جديدين. كلُّ ذلك لكي لا تشاركَ فتاةٌ مثلي ـ لا تعرفُ السلطانَ ولا ابن سعود ولا ابن جلوي ولا الأحساء ـ السلطانةَ حجرتَها وفراشَها... وقلبَ زوجها!

...تسألني ـ بنيّ ـ هل قبلتْ أمُّكَ العرضَ؟

الإجابة (المنطقية) تقول: وهل لأمثالنا اختيارٌ ومفاضلةٌ؟!

...من الغدِ، ومنذ صباحهِ الباكرِ، وحيث جُهزت قافلةُ الإبلِ والبغال والمرشدين والحرسِ، بدأت مرحلةٌ جديدة من الأسفارِ والتّرحالِ.. والاغترابِ".

الفصلُ السادسُ

الثلاثاء: ... إلى حيث السعوديون

وعلى حالها تدومُ الليالي
فنحوس لمعشرٍ أو سعودُ

المعري

10

"طوالَ الطريقِ من مسقط إلى الأحساء، مروراً بكلِّ القرى والنجوع، قُرْب البساتين والهجر... بين الجبال.. ووسط الصحراءِ.. وغير بعيد من الساحل؛ أخذتُ أحدث نفسي كثيراً وأسألها وأسأل الغيب: لمَ كتبَ الشقاءُ على أناسٍ وكتبت السعادةُ لآخرين؟ أقدرٌ مقدورٌ يجبُ أن ننفذ كل ما جاء في كتابِهِ، أم هو الدهرُ الذي تصنعه الظروفُ والأجسامُ التي من الترابِ وإلى التراب؟ أما كان أجدى لي وأصوب أن أقْنَعَ بعيشٍ ذليلٍ تحت رحمة جبارٍ في بلادِ البلوش، على أن أكون جزءاً من هدايا السلاطين والأمراء بعضِهم لبعضٍ؟! كيف يعرف الإنسانُ خبايا الأيام القادمة، ومغزى ما مَضَى؟ في أيِّ أرض سيكون عيشي، وتحت أي ثرى سألحدُ؟ هل مَن سأقابلهم و(أضْطرُ) أن أخدمهم أو أعاشرَهم أو أتعاطى معهم حياتياً، كلهم على شاكلة أخي و (لاشار) والسلطانة؟ من أين تأتي راحةُ اليقين وسكينةُ الأرواح التي ينادي بها شيوخُ الدِّين ودهاقنة الفلاسفة، ومجاميع من البشر على شاكلتي تعاني ما أعانيه.. بل وأكثر؟! لابد أن هؤلاء الحالمين كانوا أحراراً يعيشون في دَعَةٍ وأمنٍ، ولديهم أهلٌ ومسكنٌ! ماذا عن الآخرين، الذين يفقدون كل ذلك، ويفقدون معها

السلامَ الدَّاخليَّ؛ لأن حروبهم الخارجية ونزاعهم مع الآخرين، لم تترك لهم مجالاً للتفكير، سوى مجرَّدِ البقاء وحفظ أوتار الرقبة، وأحياناً كثيرةً تتقزَّمُ الأمنياتُ حتى تصبحَ: إسكات آلام جُوعٍ ولهفةِ ارتواءٍ...فقط؟!

أتذكر ـ بني ـ أنني حاججتُك مراراً حول كوننا مجبرين أو مخيَّرين، وأنني مِلْتُ للرأي القائل إننا مخيرون، وأن التاريخ الحاضر والمستقبل تصنعه سلوكيات البشرِ والظروف المحيطةُ بهم. إن هذا لا ينفي أبداً، أن لله المعرفةَ الأولى والأخيرةَ مع وهبه ـ سبحانه ـ للعباد حرية العمل والاختيار.

"هذه الفلسفةُ أو الهرطقةُ أو الجنونُ، بدأتْ تترسَّخُ في أعماقِي أول أيام رحلتنا الطويلة من مسقط إلى الإحساء. كنتُ أعتقدُ سابقاً بهذا النوع من التفكيرِ، ولكنني أصبحتُ، ومنذ تلك الساعات الأولى، للارتحال من مسقط أكثر اقتناعاً بها. وأظن أن مذهب العُمانيين والمسمى (الأباظية)[1] والذي أقر الاختيارَ في كل شيء، بدايةً من حساب العباد إلى اختيار الأئمة، كان له في أشهر مكوثي في تلك البلاد، الأثرُ الأكبرُ في بلورة هذا الضرب من الاعتقاد".

الأسطرُ السابقة كانتْ هي مستهلَّ حديثِ (والدتي) لليوم السادس من البوح واسترجاع الذكريات: اليوم هو الثلاثاء. وهذا يومٌ يعني الكثير لوالدتي، وبالتالي لابنها الحريص ـ عادةً ـ على ألَّا تفوته مظاهر هذا اليوم. ولكن هذه المرة تحول الترقبُ لثلاثاء كلِّ أسبوع، إلى خوفٍ من طغيان طقوس هذا اليوم، على مواعيدِ الاستماع والتدوين التي أنتظرها بفارغِ الصبر!.

---

(1) الأباظية: خاصةً أباظية هذه الأيام، هي إحدى فرق الخوارج والتي تميل أفكارهم للاعتدال، وهم كذلك أقرب فرق الخوارج إلى اعتقاد أهل السنة، ويوجد الأباظيون في ساحل عُمان وفي زنجبار وبعض دول المغرب العربي.

في هذا اليوم ـ عادةً ـ تُشرع أبواب القصر كلها لاستقبال الزائرين من موالي وإماء والدتي، كل من سبق أن عمل لديها. فبعد أن تنجب أمة الملك ـ عادةً ـ من (سيدها) تصبحُ (أمَّ ولد) ويحق لها بالتالي أن تسترق العبيد والإماء. أي أنها، وعبر انقلاب اجتماعي مثير، تصبح سيدةً بعد أن كانت جارية تُباع وتُشترى، ويُفترضُ أن يُلحق في منزلها، لاحقاً، أعداد ليست بالقليلة من (بنات وأولاد الناس) وهاتان المفردتان تعنيان الخادمات والخدم وغير المماليك، والآتين في أغلب الأحيان من القرى والنجوع القريبة من الرياض. كما تضم المنازل خدماً من (التكارنة) وهم الذين تعود أصولُهم إلى الجزء الأوسط والغربي من أفريقيا.

كلُّ تلك الفسيفساءِ البشرية، تُخصص لهم والدتي يومَ الثلاثاء من كل أسبوع؛ لاستقبالهم باعتبارهم من الذين (كانوا) يعملون عندها. وفي اليوم الموعودِ، تتفقد والدتي أحوال (الشغيلة) السابقين، ولا تنسى أن تجبر خواطرهم بكلماتٍ مشفوعة بأظرف مملوءة بالمال لهذه المرأة الوفية، وبوعود لذياك الخادم المُقاطع الذي للتو وتحت وطأة الحاجة تذكر سيدته.. وهكذا!

من أجل هذا اليومِ وطقوسهِ، تأخرتُ، مُتعمداً ما يقارب الساعتين، عن الموعد المعتادِ للسماعِ والتدوينِ.. والتسجيلِ.

وقد أكبرتُ في ـ والدتي ـ حُسنَ التصرُّفِ هذا، وكأنها كانت تتوقَّعُ العكسَ!

ولإعطائي مكافأةً على هذه الكياسةِ، استقبلتني في نفس المكانِ الذي تعودتُ فيه أن أنصت بخشوع ـ أحياناً ـ لها. لكن الاستقبال كان هذه المرة أكثر حرارةً وأكثر استعجالاً في سرد بقية القصة التي توقفت عند نهاية الفترة العُمانية من حياة فتاةٍ (بنقلان) الصغيرة:

"مثل كلِّ العجائز الذين يرفضون الأفكارَ الجديدةَ ومضامينها

والأسسَ التي قامت عليها وانطلقت منها؛ رفضتُ في السابق تلك (الأحاجي) القائلةَ إن كلَّ شيء في سلوكنا الحاضر، عائدٌ لأصلهِ النفسانيِّ القديم.. في الصغر.. في سنوات المراهقة والتكوين الفكريِّ والعاطفيِّ الأول؛ لكنني اعترف لك ـ بنيّ ـ الآن، أنني أجد في تلك الرؤى التفسيرية للسلوك ـ والجديدة علينا حينها ـ مقادير كثيرة من الصدق والوجاهة. إنني لا أحب ـ كما تعرفُ ـ السفرَ ولا أخباره، ولا أعرف، ولا أحب أن أعرف، لماذا يسافرُ الناسُ. أتعرف لماذا هذه المشاعر الكارهة للسفر؟ لأنني، ومنذ الصغر، استقرَّ في داخلي شعور بأن السفرَ أو (التسفير) معناه الشعورُ بالضياعِ والبؤسِ والفقدِ..!

"...هكذا كانت مشاعري صباح يومٍ مسقطيٍّ خريفيٍّ".

حين قالت والدتي تلك الكلمات تذكرتُ، كُرهها المتأصِّل للسفر، واسترجعت تلك الممانعةَ الصلبةَ التي أبدتْها تجاه طلب والدي المتكرر أن يراني، عندما كان يقيمُ قبل وفاته في (أثينا) عاصمة اليونان...

سألتها إن كانت تتذكر تشبثها بي، رغم إلحاح (الملك) المتكرر عليها بأن ترسلني إليه.

أجابت وكأن الحادثة قد وقعت بالأمس:

"سافر والدُك إلى خارج المملكة بعد انتزاع مُلكه في خريف 1384هـ[1]. وتنقل بين عدة بلدان قبل أن يستقرَّ في (أثينا). وفي كل تلك الأوقات العصيبة على الجميع، حافظ إخوتُكَ على مواعيد السفر الصيفية إلى عاصمة الإغريق، حتى يعودوا والدَهم العليلَ.. إلا أنت. اتصل بي الملك مراراً طالباً أن أسمح لك بالانتقال إلى حيثُ يقيمُ، وكنتُ في كل مرة أتحججُ بأنك مريضٌ أو أنك خائف من السفر،

(1) الموافق 3 نوفمبر 1964م.

وأحياناً أتحجج بأن شقيقك الأكبر الراحل (مقرن) ينوب عني وعنك لرؤية... طويلِ العمرِ!

...وفي آخرِ مرةٍ وقبل أن يتوفى والدك بسبعةِ أشهرٍ، وتقريباً في صيف عام 1388هـ، لم أستطع مقاومة طلبه وإلحاحه الشديدين على أن يراك. وأصابني الرعبُ عندما هددني بعواقب وخيمة إن أنا رفضت هذه المرة سفرك إليه.. فوافقت مُرغمةً؛ لأنني لا أحب السفرَ ولا أحبُّ لـ(حبيب) أن يسافر. كان هذا إرثي النفسيَّ من جرَّاءِ التسفِير الذي أرغمتُ عليه قبل تلك الممانعة والمماحكة مع والدِك... بأكثرَ من عشرين عاماً. وسأبوح لك ـ بني ـ بسرٍ مضى عليه وقت طويل وهو حبيس صدري.. سأقول لك: إنني ومنذ المكالمة الأولى معك في (أثينا) بعد وصولك إلى الفندق الذي كان ينزل فيه والدُك، قررت أن آمرُك بالعودة الفورية للرياض. أما سبب ذلك ـ إن أنا أزحتُ لهفتي الكبيرةَ عليك ـ فلأنك قد أخبرتني أن سماءَ (أثينا) قد أمطرتْ حال وصولك. وأن أهل تلك البلاد أصابتهم الدهشةُ من تلك الأمطارِ الصيفيةِ غيرِ المعهودةِ. أما أنا فقد أصابني صوتك الفرحُ بالمطرِ وبرؤيةِ سواحلِ بلادِ الإغريق الجميلةِ، بالفزع.. وأي فزع!.

أتعرف لماذا؟ لأنني تذكرت صبح يوم خريفيٍّ عُمانيٍّ، عندما بدأت رحلة برية منطلقة من مسقط إلى الإحساء مروراً بالبريمي.

عندما أشرقتْ شمسُ ذاك اليوم وارتفعت قيد رمح في طرف السماء الشرقي، ذرفت السُحب التي بدأت في التجمُّع مغرب اليوم السابق دموعها؛ أمطرتْ مطراً غزيراً، أصابني منظر الماءِ المنهمرِ ونحن نكادُ نغادر آخر تجمعات المنازل الملامسة للبحر بالفزع، كما هو فزع يوم أمطرت، وخطواتك الأولى تلامس مطار(أثينا)؛ لقد رسخ في قاع نفسي أن ذلك نذيرُ شؤم، سكنني يا (بني) اعتقادٌ بأن السماء عندما تمطر، إنما تبكي راحلاً.. أو تُخبر بغربة طويلة.. وحتى بغيابٍ لا عودةَ منه.

كنتُ خائفة ألَّا أجدك معي مرةً أخرى، وألَّا ألمسَ شعرَك الطويلَ الناعمَ ـ والذي يقالُ لي الآن إنه لم يبقَ منه الكثير ـ أو ألَّا أتمتع بقياس وزنك، في كل يوم من أيام الناصرية القديمة[1] وألَّا أرسلك ـ تحوُّطاً ـ يوماً بعد يومٍ (للحكيم اللبناني) حتى يعطيك حقنة الفيتامينات التعويضية، لحالة الهزال التي كنت تبدو عليها آنذاك.. كنت أخافُ عليك.. ولاأزالُ.

... عندما أخبرتني عن ليلَتك الأولى اليونانية... لم أسرّ، ألم تقُل لي إنّ السماء قد أمطرتْ ساعاتٍ بلا توقفٍ؟! لقد استعدتُ جذور عقدتي الأولى، يوم بؤس رحيل قافلة عُمانية إلى بلاد يحكمها من يقال إنهم... (السعوديون).

في هودجي وأنا أترنح فيه ذات اليمين وذات اليسار، والمطر يملأ السِّكَك، ورؤوس دواب القافلة، ويوحل بأرجل المرافقين والحرس؛ كنت أعيش إحباطاً نفسياً لا مثيل له وأنا أنظر في الفراغ. احترتُ يا (بني) كيف أجيبُ على أسئلةِ عقلي، الأحجارُ السوداءُ المبتلةُ بماء الغدق وموج البحر المتلاطمِ من جرّاء العاصفة ووحشة المكان، فرضوا عليّ ألغازاً متوالدة: كيف سيكون الغدُ؟ ولماذا الرحيلُ والاغترابُ أصلاً وبدايةً؟ لم أرد أن تدهمك في (أثينا) تلك الخواطر ولا أن تستحضرها روحُك؛ لهذا كنت أنوي أن آمرَك بالعودة الفورية خوفاً ألَّا أراك مرة أخرى، لكنني تماسكتُ، بعد جهد جهيد وأزحت ـ ولو مؤقتاً ـ تلك الوساوس التي تشكل جزءاً من سلوكي النفسي. كانوا يقولون : إن أباك جِدُّ مريض، وإن أخباراً طبية مُتكتماً عليهـا، لا تبشر بحياة طويلة للملك العليل؛ لهذا كنت أعزي نفسي، بأنك، وبرغم مخاوفي، لابد أن

---

(1) الناصرية: حي من أحياء الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، اتخذها الملك الراحل سعود بن عبد العزيز مكاناً لسكناه مع عائلته وأبنائه وبناته وحاشيته. فقدت الناصرية مكانتها برحيل صاحبها الذي ارتبط تاريخها به.

تُعايش، وبشكل أكثر حميميةً، الرجلَ الذي أحببتهُ وكنتَ تتمنى لو أنك عشت سنواتٍ أخرى عديدةً مُلتصقاً به، ناهلاً من حبِّه ورعايته. ألستَ أنت القائلَ: لو عاد الزمانُ بوالدي، ومُنحت وغيري من إخواني صغار السن فرصة ملازمته والنصح له لما أطلق عليه اسم الملك السابق..؟!

مسكينٌ أنتَ يا (ولدي)! رؤاك كانت مبسطةً جداً مثل اعتقادات والدتك أحياناً.

... لقد قلتُ يوم الرحيل من مسقط إلى شرق بلاد غريبة، للتو كانت تجاهدُ بقيادة (بطل أسطوري) من أجل وحدة ظن الكثيرون أنها مستحيلة. لقد قلت لنفسي إنني (لو) كنت مكان أخي الظالم في (بنقلان) وعدلتُ، وكانت عريكتي أكثرَ ليونةً، لما شوهدتْ صبيةٌ وهي تُحمَلُ كهديةٍ من سلطانٍ إلى سلطان...

كان المطرُ ـ بني ـ حينها يهطُلُ وكأنه لن يتوقف أبداً، بينما قافلة الإماءِ والعبيدِ تمضي في المسيرِ وفتاةٌ بنقلانيةٌ تُحمل في فراغٍ موحشٍ.

11

للصمت معانٍ كثيرة ومنها ـ كما يوحي بهذا المشهد الذي أمامي ـ أشياء عدا الحكمة والتعقل والأناة. أشياءٌ تجعلنا نصطفيها؛ مثل: الحزنِ العميقِ، والأسى المتثبت في أعماق أعماق بعض الصامتين. لا ريب أن بواعثَ الصمتِ مُتناسقة تماماً مع سلوكيات اللحظة لتلك المرأة المسنة، وهي تسرد حكايتها مع وجع الجرح الإنسانيِّ الذي أحدثه الزمنُ بناسه ووقائعه وبتصاريفه.

ولأن لكل شيء نهايةً ـ حتى الصمت ـ سمعتها تقول وآثار امتقاع وجهها وانقباضِ عضلاته، لاتزالُ بادية بوضوح على ذياك المحيا الصغير:

"ستون يوماً قطعتها قافلة أبناءِ سوقِ النخاسة: عشرة أيام من المسير والوقفات استغرقتها (الحمولة) المسقطية المتجهة للبريمي. وخمسون أخرى ـ كدهر ـ بين البريمي والإحساء الواقعة في شرق بلاد أجدادك... (آل سعود).

... في المرحلةِ الأولى من الرحلة، لم أكلم أحداً، ولم أتعاطَ مع رُكبان القافلة: لا مع رجالها المشرفين عليها، ولا مع نسائها: الجواري منهن أو المراقبات من قِبل السلطان.. أو السلطانة. لم يكن يعنُّ لي أبداً، أن نمر على شاطئ جميل هنا أو وادٍ قد بُللت أعشابه بندى يوم المطر السابق. ولم تكن الصحراء التي تلوح لي كثبانُها بين الحين والحين، أكثر وحشةً من صحراء نفسي وقفار دواخلي".

تنهيدةٌ عميقةٌ ندّت (منها).. أعقبَها كلامٌ:

"أتدري ـ بنيّ ـ أن الصحراءَ تُعلِّمُ التأملَ وتُنمي فلسفة الإنسان الخاصة، حتى بدون أن يكون قد امتلك في السابق مبادئ هاتين الفضيلتين؟

...أنا مثلاً تعلمتُ من السفر، خاصةً في الرحلة القديمة بين مسقط والإحساء، أن الحياةَ تافهةٌ جداً ولا تستحق هذا العناء.. لا تستحق أن يقتل هذا ذاك، ولا أن يظلم فلان علاناً، ولا أن يحارب زيدٌ عمراً لأي سبب كان يدّعيه، ولا أن يكون هناك بالطبع عبيدٌ وسادة. الصحراءُ يا (بني) تدفع الإنسانَ لأن يعلم كم هي مبتذلةٌ رغباته، وكم هي تافهةٌ وسائله لتحقيق تلك الرغبات. ابن التراب يجب ألّا يفارق التراب أبداً ولا يهجُره، حتى يمكنَه أن يعيشَ صادقاً مع نفسه، معايشاً الغير بإحسان، أميناً مع قدرِه وحتميةِ زوالهِ ونهايتهِ".

ابتسامة، ولا أروع، تعلقت فجأةً على شفةِ (العجوزِ) الحبيبة، التي أضافت:

"أحياناً وعندما تقتربُ القافلةُ من الساحل، يهب علينا نسيمُ البحر، عندها يُصابُ صغارُ وصغيراتُ العبيدِ والإماءِ بحالة هستيرية من الفرح والنشوة، وأصاب أنا باكتئاب عظيم، لا لأني أكره هذا الامتداد الواسع من الماء ـ فقد كان حلمي، وأنا صغيرة، أن أراه وأحاكي أمواجه ـ إنما لأن هذه النسائمَ المنعشةَ تعيدني إلى وضعيةِ البلاهةِ والخُواء واللاشيئية. في رأيي المتعة والرفاهيةُ مهما بدتا جذابتين، لا تنبتان تأمُلاً ولا طرائقَ تفكير باهرةً، ولا معرفة بأنك لا تعرف"!

ما أعمقَ وأصدقَ فلسفة (العجائزِ)! وما أروعهم وهم يوظفون تلك الرؤى لحكايات الواقع القريب والبعيد! والدتي ـ لحسن حظي ـ من هؤلاء، ها هي تعود لصلب قصتها بعد أن أعطت دروساً في حب الصحراء وما ترمز له:

" أسهبتُ في الحديث عن فلسفتي الخاصةِ.. أليسَ كذلك؟! أنت تريدُ شيئاً أثمن من هذه الأقاويلِ غيرِ المترابطة في رأيكَ.. إليك ما تريد:

أخذت القافلةُ المكونةُ من ثلاثين ناقةً وجملاً وعشرات من البغال طريقها من مسقط إلى البريمي، والأخيرة عبارة عن مساحة من الأرضِ، شبه زراعية تفصل بين عُمان ومشيخة (أبوظبي) التي أصبحت عاصمةً لدولة الإمارات أوائل التسعينيات الهجرية.

...منذ البداية، سلك قائدُ القافلة العُماني ومساعدوه المتحدرون من أصولٍ مختلفة، طريقَ الساحلِ المعروف. فمررنا على (بركا) و(المصنعة) و(السويق) و(الخابورة) و(ديل) و(صحم)، بعد ذلك انحرفت القافلةُ فجأة يساراً إلى حيث الصحراءُ، تاركةً خلفنا قلاعَ وحصونَ الساحل في منطقة (الباطنة)، في اتجاهنا لمنطقة الحجر الغربيِّ ثم الوقبةِ... وأخيراً إلى البريمي.

عشرةُ أيام استغرقتها تلك الرحلةُ الموحشةُ لنفسي المناقضةُ لروح المرح والحبور، التي سادت أجواء الركب وشخوصَه. كنت أرى بعض الإماء الصغيرات يتجملن ويعملن ضفائرَ لشعورهن بعد تسريحها. لقد وقع في أنفسهن أنهن أصبحن ـ فعلاً ـ جواري، وعليهن الاستعدادُ من (الآن) إرضاء لمالكيهم الجدد، هذا أعطى انطباعاً قوياً بأن الإنسان سريعُ التأقلمِ مع خبايا الأزمنةِ، حتى وإن كان هذا يعني لبعض (المتأقلمين) أسْراً وعبوديةً!

ألستُ، أنا، بنتَ أكابرِ بنقلان دليلاً واضحاً على تأقلم الإنسان مع الواقع حلوه ومُرِه، مهما يُعطي هذا الرضوخ من مسمياتٍ وصفات؟ لقد رأيت عبيداً من البلوش والأفارقة يخدمون ركب القافلة ويعتنون بشؤون المؤن وتجهيز وجبات الطعام، فما وجدتهم إلا مستبشرين فرحين راضين بواقعهم. ويقال إنهم خُيروا من قِبل سادتهم، بين عتقهم واستمرارهم كما هم، فاختاروا الرِّق وطاعة الأكابر...!

أتدري...؟

...لو خيرني والدُك في مرحلةٍ من مراحلِ عيشي معه بين أن يُرْسِلني إلى حيث كانَ موطني الأول، أو أن أبقى معه، حتى وهو يحمل صفةَ ملكٍ سابق محاصر في قصره؛ لاخترت البقاءَ معه بالتأكيد، ولرضيت أن أخدمَه وأخففَ عنه ما استطعتُ، على الرغم من وجود الكثيرين والكثيرات حوله. كنت سأعتني به ـ خيراً من البقية ـ دون أن أنظر لمكانةٍ أو عطاء أو أن أكون محظيته الأولى.. كيف تفسِّرُ هذا؟ سأقول لك وببساطة: إنه الإنسان الذي احتارت معه ومع غموض نفسه واختياراته وقرارته، العلومُ والنظرياتُ".

أكثرتْ تلك المسنةُ الذكيةُ من تجلّياتها (الفلسفية)، والقليلُ من هذه التجليات مطلوبٌ، إلا أن الكثير منها قد يأتي على حساب وصف الوقائع وتسلسل السرد. لكنني أقرّ أنه ليس بالإمكانِ أن تُروى حكايةٌ

كهذهِ، دون التحام وجداني مع كل ومضةِ معاناةٍ واختلاجة حنين. ومع كل إشارة رفض للمقادير.. حتى وإن بدت بدون معنى. ولن يتسنى ذلك إلا بتمترس قوي وراء الصمت والسماع لتلك الآهاتِ الآتية من الزمن الماضي. ومع ذلك وفي كل مرة اعتقدت فيها أن خيوط القصة قد غرقت في بحرٍ من التأملات الفلسفية (الجوانية) لصاحبتها، تنقذني تلك (العجوزُ) الطيبةُ من اعتقاداتي:

"البريمي في تلك الأيامِ كانت محلَّ نزاعٍ بين ثلاثةٍ مطالبين بها: السعوديين وسلطان عُمان... بالإضافة إلى مشيخة أبوظبي. أجدادك ـ مثلاً ـ ومنذ دولتهم السعودية الأولى في الدرعية، أخذوا يتطلعون إلى تلك الأراضي الخصبة نسبياً في جنوبهم الشرقي.. وقد تحقق لهم ما أرادوا. استولوا على البريمي[1] قديماً وأخذوا زكاة مُزارعيها ورُعيانها لصالح بيت زكاة الدولة الفتية في وسط نجدٍ. هذا النفوذُ استطال زمنه لفترةٍ، لكنه لم يلبث أن انكمش بفعل ضَعْف الدولةِ الأولى لأجدادك.

والعجيبُ يا (بني) أن النفوذ السعودي القديم كان لايزال ملحوظاً، حتى وقافلتُنا تدنو من تلك الواحةِ التي شهدت أولى الزيارات الحربية (للإخوان) السعوديين لها، قبل أكثر من مائةٍ وخمسين عاماً".

للحظات ران صمتٌ غريبٌ على المكانِ، ثم تبدد بعد سؤالها التالي:

"لعلّ المروياتِ والكتبَ قد أخبرتك عن عَلاقة السعوديين القديمة الشائكة بتاريخ البريمي... ماذا قالت عن هذا الشأن بالله عليك؟

مهما تكن نوايا والدتي من هذا السؤال، فإنني أحب ـ دائماً ـ لعب دور (ما) في قصتها حتى ولو على شكل حكواتي مسلٍّ:

أرسل الأميرُ (عبدُ العزيز بن محمد بن سعود) ابن مؤسس الدولة

(1) الوجود (السعودي) في البريمي لأول مرة حدث في سنة 1795م.

السعودية الأولى، رجلاً يُدعى (إبراهيم بن سليمان العفيصان) ليكون أميراً على البريمي بعد أن (قيل) إن الأمير (عبدَ العزيز) تلقى طلباً من أهل عُمان المسيطرين على البريمي آنذاك، لِضم بلادهم إلى حركة الدعوة السلفية الجديدة في وسط الجزيرة العربية. حدث هذا قبل أكثر من مائتي عام من الآن. وبالفعل ضُمت البريمي على يد (ابن عفيصان) الذي أصبح أولَ أمير سعودي هناك. ثم شرع في أخذ زكاة أموال أهلها. ولم يكتفِ الأميرُ السعوديُّ بهذا، بل إنه أخذ يوسع نفوذ (إمامه) على طول الساحل الغربيِّ للخليج.

...فكَّر أمير البريمي السعودي الثاني الذي جاء بعد ابن (عفيصان)، في أن يحتلَّ بعد ذلك باطنة عُمان، رداً على تحرشات حاكم مسقط، لكن وفاة الأمير (عبد العزيز بن محمد) في بلاد نجد عام 1218هـ[1] جعلت من هذه المهمة المزمع القيام بها، أكثرَ صعوبةً على أمير البريمي السعودي. وبعدَ سنواتٍ حدث تقارب بين حاكم مسقط (بدر بن أحمد) والأمير السعودي في البريمي إلى حد أنَّ جيشه أخذ يدعم السعوديين في حروبهم مع الآخرين، من أمثال العراقيين والهاشميين في الحجاز. لكن الأمورَ عادت فساءت بين مسقط والبريمي (السعودية) لاحقاً، حيث استنجد حاكمُ مسقط بالإنجليز الذين ساعدوه على طرد السعوديين من ميناء (شناص) العُماني. إلا أن هذه الحادثة لم تَفُتّ في عضُدِ السعوديين، فقدْ شمر الأمير السعودي على تلك الأنحاء حينها والمسمى (مطلق محمد المطيري) عن ساعد الجد وأجبر في سنة 1224هـ[2] الإنجليز ومحرضيهم على الانسحابِ بعد هزيمتهم. وتذكر الروايات التاريخية، أن (المطيري) اجتاز منطقة الباطنة العُمانية وحاصر

(1) الموافق لسنة 1803م.
(2) الموافق لسنة 1809م.

مسقط بعضَ الوقتِ، ثم عاد في وقتٍ لاحقٍ إلى منطلق حملته في حامية البريمي.

... في سنة 1228هـ[1] حاول (إبراهيم باشا) أن يزحزح، بدون طائل، السعوديين عن البريمي، بعد أن هزمهم وكسر شوكتهم في قلب عاصمتهم (الدرعية). وتسهبُ المصادرُ التاريخيةُ في ذكر المقاومة الشرسة للحامية السعودية في البريمي، حتى أن هذه المصادر ادّعت أن تلك المقاومة كانت أكثر من محاولة تصدي عاصمة البلاد السعودية لحملة (الباشا) ذاتها، بدليل السقوط المريع والنهائي للمركز سنة 1233هـ[2]. ولا أدل على منعة وقوة الحامية السعودية في البريمي، من أن خمسة عشر ألفاً من الجنود السعوديين قد فروا إليها قادمين من عاصمة الدولة السعودية الأولى الساقطة (= الدرعية). وتشير صفحاتُ التاريخ إلى أن كثيرين من أبناءِ (آل سعود) وأحفاد الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) قد تحصنوا في البريمي مع قادة وأفراد جيوشهم، بعد أن ضاقت الأرض عليهم وبهم على رحابتها.

وفي سنة 1240هـ[3] وُلدت الدولةُ السعوديةُ الثانيةُ على يد الإمام (تركي بن عبد الله) في (الرياض) بدلاً من العاصمة القديمة المُهدّمة، وما هي إلا أشهر حتى استعادَ هذا الإمام الجديدُ، منطقة الإحساء التي انطلق منها إلى البريمي في سنة 1243هـ[4] لإعادة نفوذ الحكم السعوديِّ السابق على تلك الواحات؛ وأكمل هذا الاتجاه ابنه (فيصل) بعد اغتيال والده... ولعلمكِ ـ أطال الله عمرك ـ فقدْ غزا (محمد علي باشا) نجداً مرة أخرى. وكان من نتائج هذا الغزو المتجدد، هزيمةُ الإمام الجديد

(1) الموافق لسنة 1813م.
(2) الموافق لسنة 1817م.
(3) الموافق لسنة 1817م.
(4) الموافق لسنة 1824م.

(فيصل بن تركي) وحملــه أسيراً إلى القاهــرة. أما البريمي فقد جددت موقفها البطولي السابق، فهي لم تخضع، أبداً، لجيوش (محمد علي) ولا لطائفةٍ من أهالي نجد المتحالفين معه. وفي تلك الأوقات العصيبة ظهر على السطح عامل تفجير جديد.. ألا وهو: اندفاع شيخ (أبوظبي) المدعو (خليفة) تجاه البريمي في محاولة للسيطرة عليها وعلى مواردها الزراعية والمائية. واستمر التماسُّ العنيفُ بين السعوديين وحاكم أبوظبي، حتى بعد أن تغيرت ظروف الطرفين السياسية. عندما تولى أمرَ أبو ظبي حاكمٌ جديد اسمه (سعيد بن طحنون)، بينما الطرف المقابلُ كان يحتفل بعودة الإمام (فيصل بن تركي) بعد هروبه من سجنه في مصر عام 1259هـ[1] ولهذا فقد كان شيئاً متوقعاً تجدد الصدامات مرة أخرى على شكل تبادلِ احتلالٍ للبريمي بين قادةِ طرفيْ المواجهة.

وقبل وفاةِ الإمامِ (فيصل) بعدةِ أشهرٍ (اختلق) الإنجليز من حادثة جنائية حدثت في مدينة (صور) الواقعة في عُمان، أسباباً لتدخلهم المباشر والعنيف ضد السعوديين، ولصالح حاكم مسقط الذي جدد ادعاء أسلافه القديم حول ملكية عُمان لتلك الواحات. جاء التدخل الإنجليزي ضد السعوديين على محورين: محور مساعدة حاكم مسقط لاسـترجاع البريمي من أعـدائه التاريخيين. والمحور العسكري الثاني، هو مهاجمةُ السعوديين قريباً من عاصمة بلادهم... هُوجمت مثلاً (الدمام) و (القطيف) التابعتان للحكم السعودي. أما نتائج الحملة البريطانية في كلا الاتجاهين فكانت الهزيمةَ والفشلَ والإقرارَ بالأمر الواقع السابق.

ثم تعود القصةُ الحزينة في نجد مرة أخرى: اقتتل أبناءُ الإمام الراحل (فيصل) في سنة 1283هـ[2] لتكونَ نتيجةُ هذا النزاع كارثية لأسلافك: ماتت الدولةُ السعوديةُ الثانية، وبالتالي تزعزعَ الحكمُ

(1) الموافق لسنة 1843م.

(2) الموافق لسنة 1867م.

السعودي في البريمي، وهو أمر دفعَ حاكميْ مسقط وأبوظبي إلى اغتنام الفرصة التاريخية المُتاحة، عندما طالب كـلاهما بالبريمي، بالرغم من وجود بقايا للتأثير السياسي السعودي على تلك الواحات. وباستيلاء الملك (عبد العزيز) على الرياض في عام 1319هـ[1] عادت المخاوفُ لحاكمِ مسقط وحاكمِ أبوظبي ـ المختلفيْن على حكم البريمي ـ مرة أخرى لمعرفتهم بمدى تعلق (ابن سعود) بتلك الواحات وما تمثّلُ. وقد حدث ما توقعاه.. وإن بعد حينٍ طويل. فعندما طُرد شريف مكة من الحجاز واستتبّ الأمر للملك (عبد العزيز) تقريباً في الأجزاء الكبيرة من أرض الحلم... أرض آبائه وأجداده ونفوذهم التاريخي القديم، فكر في الحال بأن يعيد سيطرة السعوديين على البريمي. وبالفعل تُرجمت هذه الرغبةُ عبرَ إرسالِ مندوب من (عبد العزيز) لأهالي البريمي، الذين كانوا ينتظرون (ما يمثله) منذ زمن طويل، ثم قاموا بدفع الزكاة له كعلامةٍ على الرضوخِ وتسليم الأمر للدولة القديمةِ... الجديدةِ!

وبحلول عام 1371هـ[2] وقبل وفاة الملك (عبد العزيز) بسنة واحدة ازداد النشاطُ الاستعماريُّ الإنجليزيُّ في منطقة الخليج، الأمرُ الذي خشيه الملكُ ومساعدوه، لا بصفته الكلية ـ لأنهم يعرفون موازينَ القوى وتطلعاتِ الدولة الاستعمارية ـ بل أن يشملَ هذا التطلعَ (البريمي) نفسها حيثُ نفوذُ الدولةِ السعودية في تلك الأنحاء القصيَّةِ من البلاد.

هذه النبوءة من الملك (عبد العزيز) تحققتْ بالفعل. إنما في وقتٍ متأخر، وبالتحديد في عهدِ والدي (الملك سعود). ففي عام 1375هـ[3] احتلت بريطانيا البريمي كلها بعد مقتلةٍ كبيرةٍ للحامية السعودية التي كان

(1) الموافق لسنة 1902م.

(2) الموافق لسنة 1952م.

(3) الموافق لسنة 1955م.

أميرها آنذاك يُدعى (تركي العيطشان). وبالتأكيد لم تفلح الاحتجاجات السعودية في المحافل الدولية، كما لم تفلح الاحتجاجات العربيةُ في قضايـــا أخرى مماثلة. لم تأتِ ـ أطال الله عمرَكِ ـ بنتيجة صيحاتُ الحكومة السعودية، وتهديـداتها العالية البعيدة عن التنفيذ، بأن تجلو القوات البريطانية عن البريمي... وإلا!

بدلاً من ذلك وجد أن دولة (صاحبة الجلالة) تعيدُ بعد سنواتٍ لاحقة، هذه المنطقةَ المتنازعَ عليها لملكية (إمارة أبوظبي) بعد ترتيبات وتنازلات معينة بين تلك الإمارة وعُمان. وترسخَ هذا الواقعُ المفروضُ على السعودية في أوائل السبعينيات، عندما اعترفت المملكة السعودية، بحدود إمارة أبو ظبي وجميع أراضيها التي تسيطر عليها الإمارة، حسب التوزيع الاستعماري القديم، بما في ذلك... البريمي".

لاحت ابتسامة ساخرةٌ على محيا والدتي.. التي قالت:

"شاطر..! لقد تعبتَ في حفظِ كلِّ تلك الصفحاتِ من تاريخِ بقعةٍ من الأرض، لم تكنْ تَعني لي حينَها... وحتى الآن شيئاً، إلا أنها كانتْ محطة استراحةٍ من محطاتٍ كثيرةٍ في تغريبة والدتك. بالله عليكَ ما هو الفرق بين أن تكون البريمي في عُهدة (آل نهيان) أو (آل بو سعيد) أو أنها تُحكم من (آل سعود)؟ لا فرقَ..! فهل كان من الممكن أن يبادر واحدٌ من تلك السلالات الحاكمة، بالاعتراف بأن هؤلاء الصبيةَ والصبايا من العبيد قد عانوا كثيراً، وألّا دين ولا خُلق ولا (شيمة) من الشيم، التي تدّعون في جزيرتكم أنكم حُماتها والقائمون عليها والصائنون لها ـ تبررُ مأساتهم؟!

...هل كلُّ ما أخرجته يا (بني) من مستودع التاريخ هو الحقيقةُ؟ يبدو أنك، وأنت تسردُ تلك الوقائع والأحداث، قد انحزت كثيراً وبدون وعي... للجانب السعودي. للجانب الذي أنت منه وهو منك. دعني أسألك مثلاً: قبل أن يأتي أسلافك للبريمي هل كانت تلك الأنحاء خواء

وبلا تنظيم أو إدارة تُدير شؤونها، حتى ولو كان هذا على شكل قَبلي؟ ..أنت تعرفُ الإجابة، في حال أنك تخلصتَ من عصبيتك وتحيُّزِك"!

عُدنا مرة أخرى للتقريعِ.... لكن لا بأس، ولا بأس، كذلك، من سؤالٍ يفرضُ نفسه:

"هل لي ـ أطالَ الله عمرك ـ أن أحظى بما حفظتْه ذاكرُتك من مشاهدَ لتلك الواحاتِ حين قَدِمت قافلتكم إليها؟ من كان يحكمُها.. بعيداً ـ بالطبع ـ عن تدليسات الكتب التي اتهمتني باختيارها بعناية وحسب ما تقتضيه رغبات عصبيتي[1]"؟!

علاماتُ الجدية والصرامةِ تكسو، مرة أخرى، الوجهَ الصغيرَ.. لتقولَ:

"البريمي عبارةٌ عن واحاتٍ متعددةٍ من البساتين، إن جمعت في وحدةٍ جغرافية واحدةٍ ـ وهي كذلك ـ سُميت بواحة البريمي. هذه الواحة تقع في حصار من كثبانٍ رملية تميل إلى اللون الأصفر الفاتح من جانب، ومن جانب آخر تحاصر الجبال العُمانيةُ الشاهقةُ هذه الواحةَ من الخلف. أشهر جبل مررنا عليه من تلك الرواسي، وقبل وصولنا (للبريمي)، جبل اسمه (حفيت) ينتصبُ بشكلٍ مسطحٍ على بعدِ نصفِ يومٍ من البريمي.

... البريمي ونخيلُها تقعان على سهل من الزلط (= الحصى) ولا يبدو أن نخيلها في عافية وخُضرة مثلما كنت أشاهد نخيل مكران.. مثلاً!!

تسعفني الذاكرةُ لأتذكر ـ مثلاً ـ اسم (المويجعي)؛ لأنها أول قرية (أنخنا) فيها ركائبنا قبل الاستئذان من الحاكم في دخولِ البريمي عبْر أحد أبواب أسوارها.

(1) هذه الكلمة تعني هنا: التحيز للعرق أو الجنس أو للقبيلة.

مزارعُ النخيلِ البُريمية العطشى للماء وللأمان، كان يدير شؤونها في تلك السنة التي مرَّتْ عليها قافلتي ـ قافلةُ العبوديةِ التي لم تكن الأولى ولا الأخيرةُ في ذياك الزمانِ ـ شابٌ من آل نهيان اسمه (زايد بن سلطان).. نعم يا (بني) إنه رئيس دولة الإمارات الحالي؛ أخوه-حاكم أبوظبي (شخبوط بن سلطان) أكبر من (زايد) سناً، وبالتالي فإن نفوذ (شخبوط) ومدينته أكثر طغياناً من نفوذ (زايد) وواحته، بالرغم من ألمعية الثاني وشخصيته الكريمة الجذابة التي رُوِيَ لنا الكثير عن خصائصها في جلسات سمر ما قبل دلوفنا إلى داخل تلك الواحات؛ الكثير. ويبدو ـ كما قيل لنا أيضاً ـ أن الشيخ (زايد)، وإن اعترف بمكانة أخيه الأكبر منه سناً وما يعنيه هذا في الإرث الثقافي البدوي، يرى في نفسه أكثر من شخبوط أحقية حكم أبو ظبي.. إلى جانب البريمي بالطبع. عزز هذا المنحى ما لاحظه الجميع ـ تقريباً ـ في أبو ظبي على شيخهم الهرم (= شخبوطِ) من تقليدية لا مثيل لها، في زمن كان لابد للحاكم الخليجيّ من مجابهة تغيرات سياسية واقتصادية تلوح من أفق منطقة الخليج، إلى جانب أن (شخبوط) كان غيرَ محبوبٍ على الإطلاق من قِبل جيرانه السعوديين والعُمانيين على حدٍ سواء. والذين يرون فيه ـ للمفارقة! ـ إنساناً مغتصباً لحقوقهم في البريمي، وأنه يستعين بالأجنبيِّ الكافر؛ لاغتصاب أرض آبائهم وأجدادهم، في نفس الوقت الذي يرى فيه الأجنبيُّ أن (شخبوط) عقبة كأداء في سبيل التحولات المنتظرة في إمارات الساحل المتصالح. كل تلك المشاعر والتربصات، إلى جانب الخصائصِ الشخصيةِ لـ(زايد) جعلت من المنطقيّ أن يتحين الأخُ الأصغر الفرصةَ للانقضاضِ على أخيه الهرم وما يمثله من جمود. صحيحٌ أنَّ التغيير تأخر كثيراً، ولكنه على أية حال أتى بشكله الانقلابي المثير في سنة 1346هـ[1].

(1) الموافق لسنة 1927م.

قصة تقليديةٌ مكررة لابد ـ يا بني ـ أنك قرأتَ عنها وسمعت به في الخليج والجزيرةِ العربية كثيراً وفي كلِّ مكان... أليس كذلك"؟!

الإيحاءُ واضح في قول والدتي والإسقاط، لكنني على أية حال لن أنجرَّ إلى ساحاتِ الأفكارِ التي تريدني أن (أصارعها) فيها. لابدَّ أن أنجزَ (المهمة) بأقل خسائرَ فكريةٍ وسياسيةٍ ممكنةٍ، ومع أن هذا الهدفَ صعبُ المنال، فلا مناصَ من المحاولة... وعلى الله الاتّكالُ!

كان عليَّ أن أُقاطعها عند مفاصلِ سردٍ معينة، إن أنا أردتُ تحقيق (أهدافي)... .عليَّ أن أطرح عليها ـ إن استطعتُ ـ أسئلةً متلاحقة تحبسُ الأنفاسَ، أسئلة منها ما يقول:

"ماذا كان يدورُ في خلدِكِ ساعةَ الاقترابِ من البريمي؟ وهل وقرَ في نفسكِ ألّا فكاك من المكتوب الذي كانت تتضح سطوره لكِ شيئاً فشيئاً"؟

العجائزُ يفهمونَ دائماً (مقاصد) حديث أبنائهم.. ابتسامةٌ من (أم مقرن) بطريقة معينةٍ، خيرُ دليلٍ على هذا... ودليلٌ آخرُ قولُها:

"تتحاشون كثيراً في جزيرة العرب المصارحة والمكاشفة، وتختارون الوقوف بعيداً جداً عن الحقيقة. كلكم: أنتَ وأبناؤك وإخوانك.. وتشابهون (سعود) و (فيصل) مثلهم ومثلكم مثل (زايد) وأخيه. لم يكن ليحدث ما حدث من الجميع تجاه الجميع، لو أن قيم المصارحة والمكاشفة والاعتراف بالتقصير الذاتي، والإقرار بما لدى الآخرين من جوانبَ حسنةٍ. لو أن مثل هذه القيم فشت، لو كان هذا ديدنُ كل المتخاصمين والمتربصين... لقرأنا تاريخاً عربياً آخرَ مختلفاً!

لم أستطعْ هنا أن أمنعَ نفسي من طرْح سؤالٍ فيه من الاستفزاز والخبث ما فيه:

"وماذا عنكم عائلة (بركة)... لمَ لم تفعلوا هذه الحمائد من الخصال وتتجنبوا ما حلَّ ببعضكم من التشريد والتغريب"؟

كان السؤالُ بالفعل صاعقاً ومؤثراً. رأيت وجهها يمتقع إلى حد أنني أمّلتُ أن لم يكنْ هذا السؤال ولم تكن هذه المماحكة. لكنها وبعد لحظات، استرجعت ـ لحسن الحظ ـ مرة أخرى ملكة الحضور والتألُّق الذهني.. وقالت:

" قبلَ أن ندخلَ الأسوارَ الحقيقيةَ والوهميةَ للواحاتِ، رأيت في ضحى يوم خريفيٍّ غزلاناً برية يُطلق عليها أهل تلك المنطقة ـ كما أنتم ـ مسمى (الوضيحي). رأيتها تقفزُ في الصحراء هنا وهناك، وغير بعيد عن مسار القافلة التي احتلت والدتك هودجاً مميزاً فيها، ساعتها رحتُ أسألُ نفسي:

...هل تلك القفزاتُ لتلكَ الحيواناتِ الجميلةِ علاماتُ حبورٍ ورضاءٍ، على ما تتمتعُ به من حريةٍ، وألّا قيودَ ولا أقفاصَ تجبرها على الانكفاء واليأس، أم أن القفزات مؤشرٌ على نزعاتِ خوف مركوزة في أعماق تلك المخلوقات؟ أم أن الأمر أعمقُ من هذا وذاك: القفزات التي تحسبها (الوضيحي) نجاة أو فرحاً، ما هي إلا إغراءات للصياد الماهرِ لأن يُعد نفسَه وسلاحه لاقتناص ذوات اللحم الطري؟!

... أسئلةٌ بعد أسئلةٍ: هلْ نحنُ البشر نُشابه تلك المخلوقات في دوافع سلوكها ومصائرها؟ أم أن التعقيد الحياتيَّ وتداخلَ المؤثراتِ الخارجية يجعلان الأمر بالنسبة للآدميين أكثر صعوبةً؛ لأن ملفَ أقدارِهم ووقائعَ أيامهم مختلف أشدَّ الاختلافِ"؟

انتظرت والدتي أن أقولَ شيئاً، وتعمدتُ ألّا أقول هذا الشيء. جعلتُها تُكملُ ما قد شرعتْ في محاولة إيصالِه لي:

"في الأيامِ التي قضيتُها في البريمي... قيل لنا: إن القبائلَ البدويةَ التي توجد على مساحات الكثبان الرملية الهلالية هناك، قد أجادتْ، مثل حيوان (الوضيحي)، لعبةَ الفرار من الموتِ في تلك الأراضي غير المتسامحة... إلى أن يختار الأحياء فيها أحد النقيضين دائماً: الموت له.. أو للآخر!

...قبائلُ (نعيم) و(الظواهر) والـ(أبو شامي) ممن يقطنون تلك الأنحاء من الأرض، كانوا يُعطون من يحكم (البريمي) إحساساً بأنهم أتباعه المخلصون، وأنهم بحركتهم السريعةِ قادرونَ على إتعاب الخصمِ وإنهاكه قبل الإجهاز عليه. قالوا هذا للسعوديين وللعُمانيين ولحكام أبوظبي من (آل نهيان). لقد اعتقدت تلك القبائلُ أن نجاتَها واسترزاقها لن يكونا إلا عبر سلوكها الصحراوي ذاك، لكنهم في الحقيقةِ كانوا أيضاً يصابون ويُقتلون في ساحات معارك (الغير) الطامعين في أرضهم. كانت قدراتُهم الصحراويةُ خارقة ـ وقد رأيتُ بعضاً منها ـ في نفس الوقت الذي كانت تلك القدرات والمميزاتُ ذاتها طُرقاً ممهدة لبطولات الآخرين وأمجادهم على حسابهم...".

محاولةٌ جادةٌ إضافيةٌ للتنقيب في حفائر الزمن الماضي، كانت تُجلل الوجه الصغير، الذي أضافتْ صاحبته أسطُراً لسِفر وقائع الأيام الخوالي:

"بعد كلِّ أسئلة من مثل تلك النوعية من الأسئلة، عن معاني قفزات الرعبِ أو الأنسِ التي تقوم بها غزلان (المويجعي) و(البريمي) وعلاقة إنسان تلك الأرض بتاريخ وظواهر بيئته. بعدَ كلِّ تلك الحزمةِ من الأسئلةِ، أعود ثانية إلى الداخل.. إلى داخل نفسي؛ لأقرّعها تعجُباً من تلك (الحشرية) غير الضرورية، التي طالما أتعبتني: ما الذي يعنيني من رقصة الغزلانِ أو نفورِها؟ ما الذي سيتغير إن حكم البريمي (آل نهيان) أو (آل بوسعيد) أو (آل سعود)؟ ما الفرقُ بين أن تحكمَ قبائلُ الصحراءِ نفسها أو أن تستعذبَ هيمنةَ الآخرين على أقدارها؟! كان حريّاً بي ـ وأنا أستفز داخلي حينها ـ أن أبدوَ أكثر حزناً على واقعي، على عبوديتي بعد العيش العزيز عند أسرتي الثرية النبيلة. كان حرياً بي في تلك الأوقات العصيبة من حياتي، أن أفكر، بدلاً من تأمل رقصات الغزلان بأمرٍ آخر: خنجرٍ أغرسه في خاصرتي، أو في قلبي، أو في شريان

رقبتي، لأتخلص مما كنت فيه من الهوانِ والعنتِ وشتاتِ الفكرِ.. وتوقُّع مستقبلِ بدوِ صحراءِ الرُّبع الخالي وغزلانها!

...ليتني كنت حرملةً[1] أو جندباً[2] أو حتى حبيبات رمل تذروها الرياح. هكذا تمنيتُ أن أكونَ، قبل سويعات من دخولنا للبريمي. لقد أصابني يا (بني) اكتئابٌ عظيمٌ، وإحباط لا مثيل له. لأنني تأكدتُ ـ وبشكل قاطع ـ بألّا مناص لي بعد رؤيتي للواحة الصحراوية، من لعب دور الخادمة والعبدة والأمة، وألّا فكاك من تلبية رغبات هذا السيد أو ذاك. تيقنتُ وأنا أضع وجهي بين كفّي، ألّا عودة لجبال (مكران) وأوديتها، ولا لمنزلِ (أم حسين) وشاهدِ قبرها، ولا لحكايا وأساطير البلوش. والأهمُّ من ذلك (والأدهى) أنني لن ألعب ـ في الغالب ـ دور السيدة المطاعـة، إلا وأنا أحمل صفة أم (ولد) لهذا السيد أو ذاك؛ لقد صدق (لاشار جلال) القول، عندما أشار إلى أن الحياةَ تُشابه الدواليبَ والفلك، وألّا شيء يدوم. لم يقل (الزعيم) هذا؛ لأن دواخله تفيض بالحكمة، لكنه ـ بالطبع ـ قالها تشفياً، وهو في كلِّ الأحوال صادقٌ... للأسف".

...لابد لي ـ وأنا استمعُ لتلك الآهات ـ أن أطرح سؤالاً (طليا) أو كما كان يبدو، لابن تلك الأم الرَّاويةِ:

"ألم يَغزُ قلبك ـ أماه ـ خاطرٌ يقول: ليكن الخلاصُ ـ بدايةً ـ في حُضن سيدٍ من (آل نهيان) مثلاً. لتتوقف تلك الرحلاتُ الأخرى المتوقعةُ إلى الإحساء ونجد .. إلى عوالمَ أخرى مخيفة في سمعتها المتشددة دينياً. لتتوقفَ كلُّ تلك المعاناة القبْلية والبعْدية وينتهي كلُّ شيء ـ هنا ـ في البريمي، حيث شيخٌ يشابه الشيوخَ الآخرين؟ ألم يكن هذا المنحى من

(1) الحرمل: شجر من أشجار الصحراء.

(2) الجندب: نوع من الجراد يُعرف أيضًا باسم القبوط.

التفكيرِ رفيقَ هواجسك؟ ألم تراودْكِ رغبة في الزواج وإنجاب الأبناءِ وخلقِ عوالمِ العائلة والتكاثُر؟ أصدقيني القولَ ـ والدتي ـ خواطر كهذه، لابد أنها تدهم عقولَ الفتيات عادة، وخاصة مَن كانت تعيشُ ظروفاً بائسةً مثل ظروفِك في تلك الأيام"؟!

لا يمكن، ساعتها، قياس تداخلات الضيق والضجر من تلك الضحكاتِ البلهاءِ التي ترافقتْ مع سؤالي الذي بدا لها مُلغَّماً ومستفزاً. عرفتُ حينها أنني أخطأتُ، وأنني لم أحقق أيَّ هدفٍ من تلك المشاغبة سوى ـ وفي ذلك خيرٌ ـ جعل حالتها التربصيَّة تلك، تتحولُ إلى مكاشفةٍ تهزُّ دواخل مشاعرِها المتمترسةِ وراء اللاوعي؛ ومن تلك المشاعر الزئبقيةِ التي أجدُّ في الحصول عليها... كانتْ هذه الكلمات:

"أتدري يا (بني) أنه لو قُدر لي ـ حينها فقط ـ أن اختار بين أن أتزوج وأنجب الأبناءَ، وبين أن أكونَ فقط امتداداً طويلاً لروح أيام الصبا في أرض البلوش.. أو في أي أرض، وبدون واجبات أو لهفة لمن نرعاه أو من نحبه، لو قُدر لي أن أنتقي وأفاضل، لاخترت الثانيةَ بدون ترددٍ، ولكان من المنطقيِّ ألّا تكونَ أنت ولا إخوتُك.. ولا حتى عمي[1] (سعود) جزءاً أصيلاً من رسوم حياتي وإطارها.

...أتدري لماذا؟

لأنني ومنذ عَرَفتُ العلاقةَ بين الرجل والمرأة، معنى وتطبيقاً. أشعر أن هذه العلاقة مهما تكن ساميةً وشرعيةً.. وحتى ضرورية، أشعرُ أنها نقيضُ حالة التطهر التي تتلبُسني منذ أن وعيتُ الحياة، وأحطت بما يجري فيها.

..مثلما ترى، أظل في دورةِ المياه طويلاً، بعد كل وجبة دسمةٍ أو

(1) كلمة عمي هنا لا تقصد بها بطلة الرواية معناها القرابي، بل المقصود علو شأن المتحدث عنه، وإلى أنه صاحب النعمة المتفضل.

خفيفةٍ، لأغسلَ يدي مراتٍ كثيرة... أقل قليلاً مما أفعل بعد الحدث الأكبرِ والأصغر. استهلاكي للمنظفات والمطهرات في تصاعدٍ.. وكذلك المياه. كل ذلك ـ وأقسمُ على هذا ـ لا يعادلُ ربعَ ما كنت أقومُ به من اغتسالٍ وتنظيفٍ بعد أن يجمعني مع والدك فراش الزوجية. وهي لقاءات بطبعها قليلةٌ ومعدودةٌ، في كل سنوات ارتباطي... بعمي!

...الأمر السوي أن أبقي آثار لمسات والدك ورائحته في كل أنحاء جسدي... ولمَ لا؟ فهو الملكُ المُهابُ صاحبُ الشخصية الطاغية الذي تحبه النساء؛ لكنني ـ أنا ـ وحدي كنتُ أرفضُ كلَّ هذا، فأغتسل وأغتسل حتى لا تترك تلك اللمسات والتحسسات من (الملك) ... أقولُ من (الملك)... أثراً في جسدي، بل إنني كلما تذكرتُ أنني حملتُ بأختِك ـ التي تُوفيتْ صغيرة ـ وبأخيك الراحل... وبك، وأنني (توحمت)[1] بكم جميعاً، وأنني أيضاً قد نزفتُ دماءً ومُخاطاً كما تفعل كل والدةٍ، وصرت بعدها النُفساء؛ كلما تذكرتُ أنني مررتُ على تلك المراحِل من العلاقة الزوجية، تقززتُ نفسي وأصابتني رعشةٌ. لا أصدقُ ـ وإن كان هذا حقيقة ـ أن لقاء الجسدِ والجسدِ ضروريٌ، وأنه مهمٌ لاستمرار الحياة؛ وأنه تعبير لازم للحب وللانجذاب وللولهِ وللافتقاد.

أيمكنُ أن تتبلورَ تلك المشاعرُ وتحققَ تلك التطلعات، بدون أن يحدثَ بين الرجلِ والمرأةِ، ما كان يحدث منذ أيام أبينا (آدم) وأمِّنا (حواء).. وحتى نهاية الحياة؟

هل يمكن أن يصلَ العلمُ والعلماءُ إلى اختراعٍ ثوري، يُبقي مشاعر الأمومة للمرأةِ كما هي، وحبَّ ما تلدُه أرحامنا، بدون أن (تتسخ) أجساد الأمهات عندما تقذفُ بهن حظوظهن في أحضان الغرباء، الذين سيصبحون آباءً لمن نحبهم بعد ذلك؟!

---

(1) الوحم: الشعور بالغثيان ورغبات أخرى غريبة، تجتاح الحامل في الشهور الأولى من الحمل.

هل جننت... أو تجاوزت خطوطاً حمراء قد وضعتها وأنتَ تحاولُ استنطاقي؟!

أرجو ألّا يكون هذا. أقولها صادقة: إنني، وإن كنت فرحةً بك، ولا يكاد يعادل ولهي وشغفي بك وَلَهٌ ولا شغفٌ عند أحد آخر، أشعرُ بأنَّ الحياةَ بدونِ ارتباطٍ بزوجٍ وأبناء، وبدون مخالطة ـ دنس ـ الوجودِ وألمه، أفضل بمراحل من الحالة المقابلة. أعرفُ ـ يا بنيّ ـ أن اعتقادي الشخصيَّ هذا ستهزمه (واقعيةُ) أكثرِ النساء العاشقاتِ... لكن لا بأس!!

يبقى أمرٌ واحد في هذا الشأن، يبدو أنك لم تلاحظْه.. لقد قلتُ في أول ردي على آخرِ سؤالٍ لك، هذه الكلمات التي لا أدري كيف خرجتْ مني، قلت: لو خُيرت وبهذا خالفت وأنا أنطقُ هذه الكلمة، اعتقادي الأول بأن الإنسانَ مُخير غير مُجبر فيما يفعله خلال حياته؛ وأظن أنني في حادثة الزواج ـ فقط ـ وما يتبعها اعترفُ بأن (الجبر) هو السيدُ والغالب"!

عُدنا مرةً أخرى لمسألة القدر والاعتقادات التي تصل بالإنسان إلى حيث لا يقين. ألا يكفي أن يؤمن الإنسان بـ(إله) واحدٍ حتى يشعرَ بالطمأنينة والراحة؟ ما الذي سيزيد في أمنِ (ابنِ آدم) وطمأنينته، إن هو عرفَ أنه مُجبرٌ أو مُخيرٌ في تصرفاتِهِ وأعماله... إلى أن يموت؟ لا شيءَ بالتأكيد، بل إنه قد يُضيع حتى الإيمان بالخالق نفسهِ، إن هو كوشف بما وراء السُتر والغيوب.

وكأنها تقرأ أفكاري لحظتها.. سمعتها تقول:

" لا... لا يكفي أن يستقرَّ الإيمانُ في قلبك فقط، إنما لابد أن يردفَ هذا معرفة حدود الصلاحية المعطاة لك ـ كإنسان ـ لِتُحقق وجودَك في هذه الحياة، وعلامَ سيكون العقابُ في حياتنا الآخرة: أعلى ما اختاره الإنسان لنفسه من سلوكٍ أثناء قضاءِ أيامه القليلة على هذه البسيطة، أم على ما كُتب له ـ جبراً ـ من مقادير؟

...ذاتَ يومٍ جاءني (صقر) وهو أحدُ المشرفين على قافلتنا ليقولَ لي:

إنني ـ بنيتي ـ رؤوفٌ بكِ رحيمٌ. لقد رآكِ أحدُ تجارِ بيع اللؤلؤِ، الذين يعيشون في أبوظبي، ويأتونَ من حينٍ إلى آخر لتسويق بضاعتهم عند الشيخ (زايد بن سلطان).. ومن النظرة الأولى أعجبَ بك، وهو يفكر في أن يطلب من الشيخ (زايد) أن يكتبَ لسلطانِ مسقط، برغبة (الشيوخ)[1] في جعلكِ من محظياته، ومن ثم يتنازل ـ أي زايد ـ عنكِ لصديقه تاجر اللؤلؤ. أظن أن هذا (قدركِ)، ولعل اللهَ يكتبُ في سطورِه الراحَة والتنعم الآمن لكِ... بنيتي.

قلتُ له على الفور وحتى لا يستمرَّ في عروضه مرةً أخرى:

لا.. سأختار المجهولَ، ولعل فيه الخيرَ الكثيرَ. وأكثرَ مما تظن أنتَ وتاجرُ اللؤلؤ!

...اختارني القدرُ أم اخترتُه؟ الاعتقاد الثاني هو المرجحُ... أحياناً. أتعرفُ ـ بنيّ ـ أن هذا السؤالَ وبنفسِ إجابته المترهلة، طرحتْه ـ مثلي ـ صديقةُ العمر على نفسِها، منذ ولدتْ مأساتُها التي لا تختلف عن فواجعَ أخرياتٍ كثيرات، إلا في تفاصيلَ صغيرةٍ، تُؤلف كلُّها كتاباً عن (استعذاب) عبودية البشر للبشر.

مريمُ الإماراتيةُ التي ستصبحُ بعدها (أمَّ فواز) كانت مرآةَ روحِي التي كنتُ أرى فيها نفسِي وما حلَّ بي، كلما غفلتُ عن نفسي وما حلَّ بها، إنها قرينتي منذ غادرت قافلتنا البريمي متجهةً للإحساء... وحتى الآنَ».

---

(1) تعني هذه الكلمة عند البادية وأهل ذاك الزمان، التقدير والإجلال بالمعنى الحديث.

الفصلُ السابعُ

الأربعاءُ: أَمةٌ و ... ملِكٌ

قد كَبَّلَ القدرُ الضاري فرائسَه
فما استطاعوا له دفعاً ولا حذروا
حار المساكينُ، وارتاعوا، وأعجزَهم
أن يحذرُوه، وهل يُجديهمُ الحذرُ؟
قد أيقنُوا أنه لا شيَء يُنقذهم
فاستسلموا لسكونِ الرعبِ وانتظروا

أبو القاسم الشابي

12

كنتُ غارقاً في التفكيرِ، وأنا أقود سيارتي في ساعةٍ متأخرةٍ من مساء سادسِ أيامِ (الخلوةِ)، عائداً من منزل والدتي إلى حيث أسكنُ في المحافظةِ البعيدةِ نسبياً عن الرياض. جلسةُ الاستماعِ والتدوينِ لقصةِ تلك الفتاةِ البلوشية، التي هرمتْ، كانت في هذا اليوم، الذي يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ، مرهقةً وطويلةً، حتى وإن تخللتْها أوقاتٌ مستقطعة للصلاةِ والراحةِ وتناولِ الوجباتِ الخفيفة.

استرجَاعي لرؤى التفكير الوجوديِّ والفلسفيِّ، التي طرحتها والدتي أثناءَ روَايتها لقصتها المليئة باللّوعات والفواجعِ والانكساراتِ الإنسانية، هذا الاسترجاعُ جعلني أرزحُ تحت وطأة تأمل تلك التقاطعاتِ الكبيرةِ في حياةِ البشرِ.

رحتُ أسألُ نفسي: هل يمكن أن أكون (أنا) ـ مثلاً ـ في هذا الوجودِ لولا هروبُ والدتي من بنقلان؟ وهل يمكن أن تُكتب مثلُ هذه

القصة لو أن (مريم)، التي أصبحتْ (نائلة)، رضيتْ بـحُكم وقراراتِ كبير عائلتها، ثم تزوجتْ وأنجبت.. وربما ماتت في تلك الأراضي الجبلية النائية؟!

في رأيي أنه لا يمكنُ أن يحدثَ مثل هذا، (لو) أن الأمورَ سارت مساراً مختلفاً. ولكن، وفي نفس الوقت، لابدَّ أن أصارح نفسي، بأن السعادةَ والهناءَ والطمأنينةَ، كان من الممكنِ أن تكونَ ألبسةَ تلك الفتاةِ (لو) أنَّها بقيتْ هناك في بلوشستان. ومن المحتمل أيضاً أن أكونَ (أنا) مؤلفاً لقصةٍ أخرى مختلفةٍ، أو حتى مادةً لقصة يكتُبها آخرون؛ رواية لإنسانٍ آخرَ أذِنَ له (القدر) أن يلعب دوراً ثانوياً وقصيراً جداً في مسرحية الحياةِ، التي لم تتوقفْ عروضها منذ الانفجار العظيم للكون حسب روايةِ الفيزيائيين، ومنذ (كنْ فيكون) حسب رواية المؤمنين مِنْ.. أمثالنا.

يا الله..!

الحرُّ والجفافُ وبقايا الأتربة التي تعكسها الإنارُة الصفراءُ الليليةُ لأعمدةِ الكهرباءِ لا تؤثّر عليَّ وحدي كما يبدو، بل إنّ الاضطراب المناخي ـ وكما ألمسه ـ يؤثر على كلِّ شيء في هذه المدينة الصحراوية. الحرُّ ـ مثلاً ـ يدفعُ السائقينَ حولي لأن يتخطوا المساراتِ المخصصةَ لعرباتهم في الشوارعِ، إلى الحد الذي كنت أتوقَّـع فيه أن كل لحظة قادمة ستشهد اصطداماً مروّعاً بين تلك العرباتِ، المسرعة جداً، بعضها ببعض، أو بمركبتي، السارحُ سائقُها!

قاتلَ اللهُ الحرَّ... إنه عذرٌ قريبٌ مبسط لنا عندما نرجع عنفَ أهلِ بلادنا في الشوارعِ، والمدارسِ، والمنازلِ، وأماكنِ العملِ، كسبب مباشر.. له. وكأن بطشنَا بسلوكيات التحضر يختفي في الشتاء!

تسمعُ والدتي عنف (الخارجِ) فيدفعها هذا، للإحجامِ عن الخروج إلى ما وراءَ أسوار بيتها. إنها سجينةُ المحبسين: المنزلِ والنَّظرِ. وهي تقول: إن المحبسَ الثاني هو الأكثرُ إيلاماً لنفسها. لكنه أيضاً منعها ـ

ولحُسن الطالع ـ من رؤية أشياء وأمورٍ وحقائقَ (تؤسس) على أرضِ الواقع السعودي؛ هي بالتأكيد لم تكن ترغبُ، ولا تتوقع، أن تراها، ولم يكن من الممكن ـ في رأيها ـ أن تقعَ، لو أن (عمَّها) سعود لا يزال حياً ويجلسُ على كرسيِّ حكمه الذي سُلب منه...!

يا الله...!

كم تشتتَ تفكيري وسافرَ إلى اتجاهات بعيدة! القيظُ هو السببُ..!! نعم هو السببُ، ولابد أن ألازمَ سريري مـبكراً، بحثاً عن الذي لم تُطل الأعمارُ ولم تقصُر بسببه.. كما يقول (الخيام). لكنني سأخالفُ فتى (نيسابور) هذه المرةَ فقط، لأنَّ عداءَ عدو (الخيام) الدائمَ، قد لا يجعلُني حاضر الذهن وأنا أستمعُ في اليومِ التالي لفتاةِ بلوشستان الجميلةِ!!

...إنما لا يبدو أن تصميمي على أخذ نصيبٍ وافرٍ من النومِ في تلك الليلة قد حالفه كثيرٌ من التوفيق:

تململتُ طويلاً... حاولتُ أن أعُدَّ إلى المئة.. تذكرتُ ما عليَّ وما لي من ديونٍ.. استحضرتُ أيامَ الصبَا والنزقِ، فما استطاع هذا ولا ذاكَ أن يجلبَ ما كنت في حاجةٍ مُلحةٍ إليه.

نهضتُ، بعد ساعاتٍ من الأرق، إلى حيثُ المكتبةُ الصغيرةُ في الصالةِ الملحقة بغرفة النوم، تناولتُ كتاباً عن تاريخ تأسيس الدولةِ السعودية الثانية، وتركته بعد تصفُّحٍ سريع. ثم انتقلتُ لقراءةِ كتاب عن تاريخِ الأميرِ (عبد الله بن جلوي) ودوره في تأسيس الدولةِ السعوديةِ الثالثة، فراعني التناقضُ بين التاريخِ الرسميِّ لبلادنا، وبين ما يعتقد الآخرون أنه تاريخ بلادنا... الصحيح.

تركتُ الكتابَ؛ مخافة أن تؤثر عليَّ أفكارهُ؛ لأنني أستعدُّ في الغدِ لسماع تاريخٍ آخر، ستسردهُ شاهدةٌ على عصرِ ذاك الرجلِ الذي يتكلم عنه الكتابُ. ألم تكن، هي، قاب قوسين أو أدنى من أن تصبحَ جاريةً

لابنه، لولا تلك الزيارةُ التي قام بها (وليُّ العهد) السعوديُّ إلى المنطقةِ الشرقيةِ من المملكةِ في أواخرِ الأربعينيات الميلادية؟ ألم تسمعْ هيَ عن (ابن جلوي) الأب من خلال الأحاديثِ التي كانت تتردد في قصر الابن الذي أخاف أناساً أخافوا آخرين قبله؟!

تركتُ زاويةَ الكتب وبدأتُ في الدورانِ على كل غرفِ أبنائي لتفقدِهِمْ كعادتي في كلِّ ليلةٍ:

رأيتُ ابنتي الصغيرةَ، وهي مستغرقةٌ في النومِ فغبطتُها!

لاحظتُ براءةَ قَسَماتِ وجهها، وتخيلت أن امتداداً لبراءتها قد اختُطفَ قبل يومي هذا بأكثرَ من نصفِ قرنٍ، وأن الاختطافَ ـ هذا ـ هو أنا وهذه الطفلة التي تُشبه بناتِ البلوش!

هل كان من الممكن أن تقاومَ صغيرتي المُدللة أحداثَ الزمانِ، لو أنها واجهت جُزءاً صغيراً من الأهوالِ والغرائب، التي سبق أن واجهت جدَّتها من قبل؟

الذي أعرفُه جيداً، أنني لا أستطيع تحملَ اختفائها من حياتي، يومي الأخير هو عندما ستهرب إلى المجهولِ ومعه؛ إنني أتساءلُ: كيف نامت عيونُ إخوان وأخوات والدتي، عندما غابت عن أنظارهم أختهم الصبية الجميلة ذاتُ الشعر الطويل؟!

نرجسيتي تقولُ: إن تلك القلوبَ التي قُدت من الصخرِ، قد أحسنتْ وهي تقسو ـ حينها ـ صُنعاً؛ فها أنا أتمتع بمركزي الاجتماعي، وامتلك مقوماتِ الحياةِ الهانئةِ، وتحيط بي عائلةٌ محبة.. كما أعتقد! ولم يكن ليحدثَ هذا لو أن الخال (حُسين) قد تملكته مثلُ المشاعر التي تعصف بيَ الآن، وأنا أنظر لطفلتي المستغرقة في النوم..!

يا ربي...! كلُّ هذا من جراء تخاريف الأرق، وأزمةِ قلقي من أوقاتِ الاستماع (الأهم) التي يمكنُ أن تقودني إليها (أم مقرن).. غداً.

لماذا القلقُ..؟!

نعمْ.. مأساةُ والدي (الملكِ) الذي لا يلْتقي مع والدتِي في أيِّ شيء مشتركٍ، إلا أنهم أبناءُ (المأساة)، وإن اختلفتْ في الشكلِ والمضمونِ. لكنَّ دراميةَ حياتيهما وتوابعَ ذلك ـ على الأقلِّ فيما يتعلقُ بي ـ لم يكن بالإمكان فكُّ شفرة الصفة القصصية فيها، إلا بفهم ما جرى لأحد طرفيها... وبلسانِ هذا (الأحد) إن أمكنَ!

أتقلبُ مرةً أخرى في مضْجَعِي بعدَ أن تناولتُ قُرصاً منوماً. إنني أنام.. بل أقاوم النوم، إنني أتذكَّرُ آخرَ وقفات قصةِ (أم مقرن)... إنني على موعدٍ مع (أم فواز).. و(ابن جلوي).. والقافلة.. و...

13

عندما استيقظتُ متأخراً من النومِ، أخبرني (صلاح) عاملُ بدالةِ الهاتفِ في منزلي أن (جمعة) مُربيتي القديمة والمشرفةَ على قصر والدتي، خابرته مُذكرةً بموعدِ اللقاءِ مع (العمة)، التي ستكونُ في انتظاري بعد عصر يوم الأربعاء. يا للروعة..! هذه سابقة لم تحدثْ من قبل: (أم مقرن) تقابل الآخرينَ، حتى ولو كان أحدهم أقربَ الأقربَين لها.. بعدَ العصر مباشرة؟!

...مهما يكن، اعتبرتُ (الأمرَ) مفاجأة سارةً لي لأن إحساساً طاغياً دهمني ليلة الأمسِ، بأن يومَ الأربعاءِ سيكونُ استثنائياً عن بقيةِ أيامِ أسبوعِ الاستماعِ والتدوينِ لقصةِ فتاةِ بنقلان:

استثنائياً في المدة التي ستستغرقُها جلسةُ (استحلابِ) ذكرياتِ ذلك اليوم، وغيرَ عادي أيضاً في محتوى ما ستتضمنه رؤيةُ أحداثِ فترةِ أواخر الأربعينيات و... حتى ما تشاءُ قدرةُ والدتي على الصمودِ السردي!

إنني في غايةِ الشوقِ والتطلع لروايتها عن تلك الأزمنةِ، التي تقابلت فيها مع ولي العهد الذي سيصبحُ بعدها ملكاً، بعد أن وصلتْ أولاً إلى قصورِ (ابن جلوي) في الإحساء قادمةً من مسقطِ مروراً بالبريمي، ثم انتقالها بعد ذلك إلى قصرِ الناصريةِ بالرياضِ، حيثُ يحكمُ ويديرُ زوجُها مملكةَ أبيهِ (الموحد) المُهاب الهرم. في تلك الأيامِ كُتبت صفحة حياةٍ جديدة من كتاب صبية البلوش المختطفة، حقبة سُميت فيها والدتي بـ(نائلة)، بدلاً من (مريم) وحتى قبل أن تصبحَ أمَّ ولدٍ! ولأنني ـ بالطبع ـ لم أعِشْ أوائلَ أحداثِ تلك الانعطافات التاريخية، وما لحق بها من عواصف لأحلامِ البشرِ وأقدارهم؛ فإن شوقي بدا، عصر ذاك اليومِ، مُضاعفاً مع ترقبٍ وتوترٍ عظيمين.

...الغريبُ أنني ساعة وصولي لقصرِ والدتِي في الناصريةِ، وجدتُ، وقبلَ أن أدخلَ البوابةَ الرئيسيةَ له، نوعاً آخرَ من التوتر يحيطُ بالمكانِ وساكِنيه.

لقد أخبرني الخادمُ (بكري) أن والدِتي غاضبةٌ جداً من الروائحِ المنبعثةِ من صناديقِ القمامةِ، التي لم تُفرغْ مُحتواها، شركة النظافةِ المسؤولةُ عن حي الناصرية.. منذُ أكثر من ثلاثةِ أيام!

وبالفعل... اكتَشَفتْ حاسةُ شمي القويةُ، وعلى الفور، تلك الروائحَ العفنَةَ للقمامةِ والمخلفاتِ، والتي تجعلُها حرارةُ الصيف، أكثرَ نفاذاً لخياشيمِ بعض الناس. أما إذا كان هؤلاء (البعضُ) يملكونَ حاسة شمٍ لا تُباري ـ كحالي ووالدتي ـ فالأمرُ يدخلُ في تصنيفِ المصيبةِ!!

سألتُ (بكري) إن كانتْ لتلك الغضبة (البلوشية) أسبابٌ أخرى.. غير الذي ذكر، فنفى ذلك. لكنني أعتقدُ أن والدتِي ربطتْ بين الروائحِ، والأوضاعِ التي تعيشها أحياء، ما كان يُطلقُ عليها (سويسرا الجزيرة العربية).

نعم أنا أعني الناصريةَ...! الناصرية التي لم تكنْ إلا قطعةً من

الجمالِ والحُسن والنظافةِ المبهرة. هذا (كان) في الماضي البعيدِ نسبياً. أما الآن فهي تعيش وبشكل متعمد كما تُخمن والدتي أسوأ أيامها.. لماذا؟ لأنهم ينتقمون بواسطة هذا الإهمالِ المتعمد من عمها.. سعود!

...هكذا كانتْ تعتقد والدتي دائماً كُلما أطلقت تلك المخلفاتُ غازاتِها. والتكرارُ لم يكن استثنائياً يومها، عندما وجدتُها تجلسُ القرفصاء عند أحد أركانِ (مجلس) العصرِ الذي تتناول فيه الشاي عادةً كلَّ مساء.

قالت... وعيناها تحاولان البحثَ عن الطيفِ غير المرئي، الذي لا يمكنها الاستدلالُ على مكانهِ، إلا من خلالِ صوتِ ألقى عليها السلام:

"عيب يا (أبا فيصل) والله عيب"!

...أبناء وبنات الملك سعود تعدادهم فوق التسعين، ويتقاعسون حتى عن المطالبة بترميم شوارعِهم القديمة التي شهدت صباهم.. وأيَّ صبا؟! أتتركون أزقتكم التي أُحرقتْ في جنباتها أطنانُ البخور، وشُمَ من أجساد العابرين عليها روائحُ المسكِ والعنبر والوردِ؟ أتتركون تلك القصورَ والحدائقَ والمرابع ذوات الأُنس والعزِّ والترفِ، في حالٍ من الإهمالِ والقذارةِ مثلما هو حاصلٌ الآنَ.. وحتى قبلَ ذلكَ بزمنٍ طويلٍ؟ ألا تملكونَ قليلاً من النخوةِ والأنفةِ والكبرياءِ؟!

... أنا أجيبُ بدلاً منك ومما يمكن أن يقوله إخوتك: لا نملكها بالتأكيد! وأقول (أنا) إنكم بالإضافة إلى عوزِكم القيميِّ، قد فقدتم أيضاً حتى الإحساس بأن المرضَ قاب قوسين أو أدنى من أمهاتكم وأخواتكم، وأنهن يمُتن ثانية... بعد الكمد والأحزان، من ڤيروسات وبكتيريا... سويسرا الجزيرةِ العربية؟!

لقد تنبأت بهذا الواقع من الخزي والانحدارِ وسوء العاقبةِ (أم فواز) وهي تمسكُ بيدي في أول يوم (أُسكنا) فيه قصور الناصرية، التي (كانت) شامخةً. أتذكر أنها انتحتْ بي جانباً، ونحن نختار في سنة

1377هـ[1] مواقعَ قصورِنا المبنية بالأسمنتِ، بدلاً من الطين الذي كان مادة بنائها الأولى.. قالتْ لي حينها (مريم) الإماراتية، التي أصبحت بعد أن أنجبت ابنها البكر تكنى بـ(أم فواز):

لن يدوم هذا الحلم أبداً، ولن تدومَ أيام أمن الحياة، ولا حياة الأمن... قلبي يقول هذا"!

لم أستطعْ، وأنا استمعُ لهذا الاستهلال المُلتهبَ، أن أتمالك نفسِي من إبداء رأيي حول أقوال تلك الفتاة الإماراتية، التي أصبحت فيما بعد أُمَّ ولد لأحد إخوتي.. قُلت رأيي، واسمته والدتي بدلاً من ذلك (قدحاً) في أعزِّ أَخَواتها...السريات!

ما قلته وبالحرف الواحد:

"إن كانَ لأمي (أم فواز) هذه المقدرةُ على معرفة واستشرافِ الغيبِ فَلِمَ لَمْ تتنبه إلى مكيدة بيع أهلها لها؟ أو لنقل اختطافها من قِبل أحد تجار العبيد المشهورين في تلك الأنحاء؟! ألم تعْلِمْها النجومُ ـ مثلاً ـ بما ستأتي به الأيامُ"؟

أجابت الغاضبةُ على الرأيِ (= السؤالِ) السالفِ، بعد أن وضعتْ أصبع السبابةِ عمودياً على شفتيْها:

"ستستمر توهماتك وآراؤك السلبية حول قوى (أم فواز) العقليةِ، هي ـ والله ـ خلاف ذلك تماماً. يمكن أن يشعرَ مجالِسُها ـ هذه الأيام ـ بأن تركيَزها مشوَّشٌ، وأن ربطَ تسلسلِ الأحداثِ والوقائعِ التي تقولها فيه ثغرات كثيرة، لكنها ـ وأقسمُ على هذا ـ يا بنيَّ، لم تكنْ كذلك وإلى ما قبل وفاة ابنها (فواز) قبل إحدى وعشرين سنة من الآن؛ وحتى في هذه الأيامِ، فأختي بالرغم مما يعتقده الناس، لا يتعدى قولها كثيراً، هامش الخطأ المتوقع من عجائز مثلنا"!!

(1) الموافق لسنة 1957م.

يا لمقادير المحبةِ والصداقةِ والمودةِ المختزنةِ في صدور العجائزِ! وما أقلَّها لدينا.. نحن الشباب!

عليّ، والحال كهذه، أن أُظهرَ لها شيئاً من سلوكيات الفروسيةِ التي تفتقدها أجيال هذه الأيام. جربتُ ـ مثلاً ـ أن أقولَ لها بلغة اعتذاريةِ هذه الكلمات، التي قصدتُ أن تُنطق بصوتِ خفيضٍ:

"لم أقصدْ الاستهزاءَ بملكات الوالدةِ (أم فواز) العقليةِ، فهي قد تبدو في جُبٍ من السرحان أحياناً، لكنني أشاركِ بأن ألمعيتها وحالات عودتها السريعة للوعي مازالت في أوجها.. إن استُحضرت"!

ابتسامة خفيفةٌ سريعةٌ لاحتْ على محيا والدتِي، لكن قولاً جاداً أعاد الأمورَ إلى نِصابِها:

"هذه الأختُ الصديقةُ الوفيةُ، رأيتها لأول مرة، في (البريمي) وشتاء سنة اختطافي.. على الأبواب.

...كانت (مريمُ) الإماراتيةُ[1] ـ وهذا هو اسمها الصحيحُ ـ قد جُلبت للتوِّ للبريمي مختطفةً من أرض أهلها في رأس الخيمةِ.. كما تقول!

(مريمُ) الإماراتيةُ أكبر مني بسنةِ ونصف السنة، لكن بكاءها ولوعَتها على أهلها تتشابه مع تصرفاتِ طفلةٍ في الأيام الأولى لِفطامها، عندما تحن لأوضاعِ الرَّضاعةِ القديمةِ!

فواصلُ من البكاءِ تتبعها.. فواصلُ أخرى. أذكرُ يا (سيفُ) أن تلك الأختَ الإماراتية المولولة، قد أزعجت الجميعَ ـ وأنا واحدةٌ منهم ـ بصوتها العالي الذي لم يفتر دقيقةً! حاولَ الجميعُ التخفيفَ عنها وعنهم مما يعرفون كنهه أو لا يعرفون، لكن الحظَّ لم يحالفْهم ـ بالطبع ـ لأنَّ

(1) لم تكن في تلك الأيام دولة تسمى (الإمارات العربية المتحدة) بل كانت إمارات عربية تحكمها عائلات متعددة، وأشير هنا إلى الإمارات باعتبارها ما سيكون لاحقاً.

محاولاتهم الساذجةَ كانتْ واهيةً وضعيفة، ولا تتناسبُ مع فاجعةِ الفتاةِ بأهلها، وبواقِعِها وغموضِ ما قد تكشِفُ عنه صفحاتُ مستقبلِها.

...تقربتُ منها، حاولتُ بدوري أن أقيمَ معها جسراً من التفاهم والمؤانسة والتخفيف، فلم تسعفْني الكلماتُ العربية القليلةُ ـ التي تأتي في وسط كلمات وجمل بلوشية كثيرة ـ على إخراجِ ما في صدري من شفقةٍ ورحمةٍ حقيقيتين لهذه الباكيةِ أبداً.

كلماتي العربيةُ التي تعلمتُها في أثناء بقائي في (مسقط) وقبلها عندما كنت ضمن ركاب السفينة البائسة (فُرس).. لا تتعدى في مجملها هذه الغوامض: "شوي شوي... بعدين.. إن شاء الله.. شكراً"، وكلُّ تلك الكلماتِ لا يمكنُ أن تُركب جملةً مفهومةً صحيحة، من أمثال الجمل التي تحتاجها (مريم) الإماراتيةُ في ساعاتِ نشيجِها اللافتِ للنظر!

أما العجيبُ في الأمرِ يا (ولدي) فهو ما تلا نُطقي بتلك الكلمات (الخليطِ) غيرِ الواضحةِ ولا المترابطةِ، والمشفوعةِ بكلماتٍ بلوشيةٍ كنتُ أقصد منها، مؤازرة تلك الفتاة الإماراتية. تلك الكلمات (المُكسرة) أحدثت وبشكلِ إلقائِها التلقائيِّ، والتي همستُ بها قريباً من أذن (مريم) الإماراتيـة، ما لم يستطع الآخرونَ فعله!

أتعرفُ ما حدثَ...؟

لقد ضحكتْ مريمُ الإماراتيةُ مني عندما قلت لها بما يشبه العربيةَ: (شوي... إن شاءَ الله)!

سُرّتْ مني هذه الأختُ؛ لأنني قلت شيئاً غيرَ مفهومٍ، لكنها شعرتْ، في نفس الوقت، بأن (أعجميتي) شِبْه الكاملةِ تعني إنسانياً: أنْ كفى حُزناً على الماضي، ولنوفر خزين أحزاننا، الذي يبدو أنه لن ينضب، لقادم الأيام!

... كانتْ هذه الضحكاتُ هي (عربون) صداقةٍ امتدت من تلك اللحظاتِ التي تعثرت فيها لغتي، ونجحت خلالها إيماءاتُ عاطفتي.

...يا (بني) ما كان بيني وبين مريم الإماراتية، لم يكن مجرد رفقةَ سفرٍ أو مشاركةً في رحلةِ أحزان أو همٍّ إنساني. ما بيني وبينها كان أكثر من هذا بكثير. وجدت فيها نوعاً من السلوى لم أجده في غيرها من فتيات الأسر والعبوديةِ والنِّخاسة، ووجدتْ هي في والدتكَ ما وجدْته فيها.. بالرغم من أعجميتي، التي زال قسمٌ كبيرٌ منها، بفضلِ إصرارِ (مريم) الإماراتية على تعليمي العربيةَ المحكيةَ، حتى وإن خالطها كثيرٌ من الكلماتِ والمصطلحاتِ البلوشية، التي لا تزالُ حبيسةَ لساني حتى الآنَ.

تسألُ: ما هو المشتركُ بيني وبيَنها لتصبحَ روحانا بهذه التوأمة الفريدةِ، وكأنني وُلدتُ في بيتها برأس الخيمة، أو كأنها وُلدت في قصر (بركة) الكبير في بنقلان؟

...لا أعرفُ! ولم يكنْ أبداً تفسيرُ الحبِّ والكُره في مطلقهِ، ليتمَّ عندي عبر هذا التشريح في عيادات التفسيرات والنظريات المتنوعة والمختلفة. هذا إن كانت المودةُ والصداقةُ واللُّحمة الإنسانية، خاليةً من الأغراضِ والمقاصدِ بالفعلِ!

الأغراضُ والمقاصدُ... يا للسذاجة المفرطة التي لا تزال تخامرُ والدتي! كلُّ شيءٍ في هذه الأيام دافِعُه الغرضُ والمقصدُ، حتى (أنا) في هذه اللحظات، لا أُنزّه نفسي من هذين السلوكين المعيبين في رأي والدتي. والدليلُ أن صوتاً داخلياً قال لي في صباحِ يومِ أخرِ مواعيد بوحها، بخفايا تلك القصة التي رغبتُ ـ في البداية ـ بالاطلاع عليها فقط: إن القصةَ بكلِّ ما فيها، تصلحُ لأن تكون روايةً تُقرأ وتشتهر.. يتألَمُ منها أُناسٌ كُثر، كما سيسعد بها آخرونَ... قلائلُ!

الغرض المعيبُ نفسه ـ في اعتقاد والدتي ـ هو الذي دفعني لأنْ أطرحَ هذا السؤالَ، حتى تكتملَ جوانبُ (بعضِ) سيرة حياة القرين الطيبِ لفتاةِ بنقلان:

"في الأمر تناقضٌ! كيفَ يستقيمُ القولُ: إن كليكما كان مُكملاً للآخر والشكوكُ التي في نفسكِ حول قصةِ اختطافها قويةٌ.. وتكادُ تكون قاطعة"؟!

ردتْ (المتحفزةُ) على هذا السؤال دون إبطاء، وكأنها قد أعدتْ لكل محاولةٍ مني، لكشف وهن هذا الجزء من قصتها أو ذاك؛ عُدَّته:

"ولهذا أحببتُ تلك الأختَ الصديقةَ، فقد كانت تحاولُ، وهي تقص عليَّ قصة اختطافها، أن تؤكدَ أن أهلها بريؤون من تهمةِ بيعِها لتجارِ العبيد والإماء، لكنَّ دموعَها في كلِّ مرةٍ تأتي على ذكرِ تلك الواقعةِ.. تفضحُ المستورَ.

بلى..! كان ذووها يمرّون بضائقةٍ مالية لا مخرج منها ـ في اعتقادهم ـ إلا ببيعِ فتاتِهم الجميلةِ البضةِ المتذمرة. وساعدهم على تنفيذ هذا القرار العاري من الإنسانية وبواعثِ الفطرة، رواجُ تجارةِ العبيد في تلك الأنحاءِ العربية ـ كما في ديار البلوش؛ ولهذا كان الكثيرُ من المتعبين من الأهالي التعساء يتغاضون عن اختطافِ الأبناءِ والبناتِ، بحجة أنهم سيُضحون بالواحد، لأجل أن يأكل البقيةُ، ولئلا يموتَ الصغارُ! إنها مأساةٌ.. أليسَ كذلك؟ أنت قلت ما يشابهُ هذا القولَ في (بيانك) عن تاريخِ العبوديةِ في هذه المنطقةِ... أتذكرُ؟

أما أنا فلستُ محتاجةً للإقرار بهذا، فـ(مريم) الإماراتية والإماء من خلال مسامراتهن في السفينةِ اللعينة (فُرس)، قُلنَ ذلك ونطق به حالُهن.

... كانتْ تلك المأساةُ ـ إن أُقرَّ بها.. أو لا ـ تُدمي قلبَ صاحبتي في القسمِ السعودي من رحلة النِّخاسةِ، ولهذا كنت أطلبُ منها من حينٍ لآخرَ نسيان الأمرِ... لم أقل هذا صراحةً، بل من خلال شذراتٍ تأتي في ثنايا حديثي المتبادل اليومي معها! كنتُ أقول لها هذه الحِكمة البلوشية مثلاً:

(مردبة نام مريت نامردبة نان)... أي "يموتُ الإنسانُ الشريفُ

للمروءةِ والوضيعُ للخبزِ". وأصارحك ـ بنيّ ـ بحقيقةٍ لابد من الاعترافِ بها الآن: إن هذه الأمثالَ البلوشية كانت تُخطئ هدفها في كثيرٍ من الأحايين... كما يبدو، لأن صاحبتي تروحُ بعدها في فاصلٍ بكائي عنيفٍ!!

ضحكتْ.. وضحكتُ معها من بابِ المجاملة! لأنني اعتقدُ أن والدتي (كانت) تقسو على الوالدةِ (أم فواز) بدلاً من التخفيف عنها. وعموماً... يجب أن نأخذ ما كان يتم بين الفتاتين، وقتها، على أنه ـ رغم عدم صوابيته أحياناً ـ مجردُ أحاديثِ سلوى ومشاركةٌ في همٍّ له ملامح واحدةٌ.. لعلَّ وعسى!

سألتُ والدتي، والحديثُ حولَ المؤانسةِ الطفوليةِ في أوجه:

"وهي كيفَ كانتْ تخففُ عنك قسوةَ الواقع، وضبابية المستقبلِ؟ بالتأكيد لم تكنْ تهمس لكِ بأمثال خليجية مُشابهة"؟

طُرفة سمجةٌ من ضمن (حِزم) الطُرَف السابقةِ واللاحقةِ، التي بلا لونٍ ولا طعمٍ!! قسماتُ وجهها وحركاتُ يديْها.. قالت هذا وإن خلت كلماتها اللاحقةُ من مؤشرات الاستنكار واستصغار هذا السلوك:

"نعمْ.. نعمْ. كانت تعرفُ أن (ورطتي) لا تقلُّ، في أي حال، عن (ورطتها). تسعُفني الذاكرةُ الآنَ، باستحضار أفعالها القديمة، عندما تشعر بثقلِ جبلِ الأحزان والهمومِ الجاثمِ على صدر صاحبتها: فمن فتاة تعيش في بيتِ حكمٍ وإمارة، وأبوها يتحكمُ في رقابِ رعيته وأرزاقهم، إلى أن أصبحتْ بُنيةً تُباع وتُشترى في أسواقِ النخاسةِ، ويتبادلها الحكام والسلاطينُ كهدايا وأعطيات!

(مريم) الإماراتية عايشتْ كمدي وكربي آنذاك؛ ولهذا كنت أراها من وقت لآخر تقتنصُ، ولو ربع الفرصةِ، للتخفيفِ عني في أوقات الكآبة التي أروح أغطس في مياهها، أغلبَ أوقات انتظارِ المجهولِ في البريمي.

... قَدِمَ إلى البريمي، حيث كنا ننتظر أمر تحرك قائد قافلتنا، للاتجاه نحو الإحساء، (سردال)[1] غوص من أهالي أبو ظبي اسمه (محمد بن سيف بن مساعد). سببُ الزيارةِ هو رغبةُ (السردال) في السلامِ على الشيخِ (زايد بن سلطان) ومعاودةِ أيام الصداقةِ القديمةِ بينهما؛ ومن ضمن هدايا هذا النوخذة الكبير للشيخ وأتباعه: أقمشة وأحذية وسجادٌ مصنوعٌ في (بلوشستان)، ويبدو أن تلك (النفائسَ) حُملتْ إلى الضفة الأخرى من الخليجِ، بعد مرورِ سفن (ابن مساعد) على موانئ بلاد بلوشستان وفارس، وفي الغالب يهرع أتباع الشيخ بعد تسلمهم لهداياهم، لسوق البريمي كبائعين؛ لأنهم يعتقدون أن مبيعهم، سيدرُّ عليهم منفعةً أكثرَ من استعمالهم الشخصيّ لهذه الكماليات. أو لعلَّ هؤلاء (البدو) ذوي البيئاتِ المختلفةِ عن البلوش والفرسِ، لا يعرفون كيف تمكن الاستفادةُ من تلك الحاجيات!!

... وفي يوم قدمتْ إلي أختى (مريم)، بعد زيارةٍ لها للسوق، برفقة (إماءٍ) أُخرياتٍ ومراقبين ومراقبات، (صوغة)[2] من تلك المشغولاتِ البلوشية.

رحتُ في الحال أتفحصُ هديةَ (أختي) لأجدها عبارةً عن (سربند) تصنعه النساءُ عندنا كغطاء للرأسِ مادتهُ من المخملِ. أتعرفُ كمْ هو مقدارُ فرَحي وحبوري بتلك الهدية الرمز؟ إنه كبيرٌ. وكبيرٌ جداً؛ لأنها من بلاد الأحبابِ، بلاد الأهل والقوم، ومكانِ مرقد (أم حسين) وزوجِها، وحيث يشعرُ إخوتي بالندم والحسرةِ على فراقِي... كما أظنُّ!

... وتمر الأيام (البريمية) على هذا النحو: مثلٌ، وحكمةٌ، وهديةٌ، ورمز. يتخللُ هذه الأزمنةَ من التراحُمِ، فتراتٌ طويلة من الصمتِ والتأمل الداخلي وجرعاتٌ طويلةٌ من الذهولِ والضياعِ والحسرة.

(1) قائد لعديد من سفن الغوص.
(2) هدية.

لم يتوقفْ هذا اللا (وطن) واللا (استقرار) واللا (معرفة) بكيف ستكون ملامح القادم، إلا عندما أعلمنا أن مسيرةً أخرى للإماءِ والعبيد ستبدأ غداً بعد (استراحةٍ) في البريمي استغرقتْ خمسة عشر يوماً. كلُّها موحشة.. ماعدا أنس صداقةٍ تبثها تلك القادمةُ من قِفار وحشيةٍ ما يفعله الإنسان بالإنسانُ... حتى وإن كان أقربَ الأقربين إليه!

في صبحِ يومِ رحيلنا من البريمي تناهى إلى أسماعنا ونحنُ نحزم (بقش)[1] أسمالنا، متفرقات من الأحاديث منها: أن ركبنا لا يستطيع الوصولَ إلى مقصده إلا بعد خمسين يوماً صحراوياً! حينها بدأتُ أعد: عشرةَ أيامٍ من مسقط إلى البريمي، ثم توقف إجباري.. أو غير إجباري - لا يهمّ - مدته أسبوعان. يتبعه سفر طويل إلى شرقِ موطن مَن تصنع منهم الأساطير مزيجاً من العدالة والجبروت!

يا الله...!

ما أبعد بلوشستان.. وما أكثر أسئلتي.

14

في الطريقِ إلى الإحساء لم يكنْ هناك سوى الرياحِ الشتائيةِ، التي تزمجرُ دائماً، وبحارِ الرِّمالِ، التي لا يتوقف اصطدامها بعينيك، إلا عندما تظهر على استحياء جزيرةٌ صغيرةٌ من النخيلِ والزرع الهزيلِ هنا أو هناك.

(1) بقشة: تعني لفافة كبيرة من القماش توضع في داخلها الملابس وحاجيات السفر الضرورية.

ورغمَ هذا المنظرِ الكليِّ من الوحشة، كنتُ لا أملّ من النظرِ والتأمُّلِ في تلك النباتات والشجيراتِ الصحراويةِ، التي تقاوم طقسَها غيرَ الرحيمِ؛ فلعلِّي أتعلمُ الصبرَ والمقاومةَ والتحدي منها. لكن خاطراً من حين إلى آخر كان يأتيني ليقول لي: إن ما ترينه من مظاهر الصلابةِ والشموخِ لوريقاتِ تلك المجاهل، ليس إلا ترجمةً لغريزةِ البقاء، وشفرةً لسلوكياتِ الاختيار الأعظم: الحياةِ أو الموت.

الخاطرُ يهمسُ لي بما لا أحبُّ أن أسمَعه: تأملي (بائساتِ الصحراء... اعجبي وتمثلي بها. إنما (أنتِ)، وكل موجوداتِ وكائناتِ الحياة.. لا خيارَ لكم، إلا ما تفرضُه عليكمُ قوانينُ قهرية أكبرُ منكم.. وأعلم".

لم يكن يسعني وأنا أستمع لتلك الكلمات العجائزيةِ ـ والتي توقفُها، لثوانٍ، تنهداتٌ مكتومة ـ إلَّا أن أبحرَ معها في قواربَ من الحِكمة والفهم الفلسفيِّ العفويِّ غير المصطنع.

نادرٌ جداً أن يمرَّ شريطُ حياةِ الإنسانِ، بما فيه من وقائعَ وأحداثٍ، وتجدُ في ذاتِ الوقتِ فهماً من أحدِ أصحابِ تلك الشرائط، لجدليةِ عيشه، بل وعيش الآخرين، الذين يلعبون أدواراً قد تطولُ أو تقصرُ في مسارحِ الحياة... والدتي ـ بلا فخرٍ ـ من هؤلاء العارفين النادرين!

... ورغمَ هذا الإعجاب، كان يخيفني في تلك (الحفلةِ) الفلسفيةِ، نسيانُ سببِ الدعوةِ وخلفيةُ الداعي، وأسماءُ الحضورِ، وتفاصيل ما تم في القاعات، وما ردده وقاله المدعوون. ويبدو أن هذا الخوف قد دهم والدتي... ها هي تقول:

"لم أكن وحدي المتأملةَ المتفكرةَ بمعاني وإشارات المكان والزمان ومحيط الواقع، فكل (أسرى) القافلةِ عايشوا، بلا شك، تلك (الخلواتِ) مع النفسِ، حتى وعيونُ الحراسِ ترقبهم، وحتى وإن حاول العبيد والإماء العودة من حينٍ إلى آخر، لأرض الواقع، عبر حفلة

مسامرةٍ أو اقتناصِ زمن فرحةٍ شاردة، أو تخيل بأن ما مرَّ وسيمرُ مجردُ كابوسٍ مزعجٍ، سَرعانَ ما يزيله الاستيقاظُ، وعودةُ وعينا الذي يقولُ: إن الأهلَ والأحبةَ في الأوطانِ متمسكون بنَا، ولا يبادلوننا بذهب الأرضِ وثرواتها!

...أحلفُ بالله أنَّ هذا هو ما كان يدورُ في تلك النفوسِ (المأسورةِ). أنا ومَن أتى معي من بلوشستان ليُباع، ومَن انضمَّ إلينا في هوادج النِّخاسة من الهِجر والقصبات في الركن الجنوبيِّ الشرقيِّ من الخليج.

... هناك شيءٌ آخر أودّ أن أذكرَه لك يا (سيفُ). هذا الشيءُ زاد من حالات الخوفِ والتوجسِ في نفوسِ جمع القافلةِ المرتحلة من مسقطِ إلى الإحساء مروراً بالبريمي. ففي تلك الأيام التي شهدت بداياتِ تداولنا كهدايا بشرية يرسلها العرب بين مناطقِ نفوذهم وسلطانهم المختلفةِ، وكترجمة طبيعية لفهمهم، كيف يجب أن تكون معاني العلاقات العامة بين وجهائهم ـ في تلك الأوقات كانت أزمةُ المنطقة والعالم تنعكس على حياة البشر في تلك المناطق الخطرةِ، والمهيأة لأن تكونَ ـ ولا تزالُ ـ ميداناً لصراع الدول الإقليمية البينيّ من ناحية؛ ومن ناحية أخرى صراع (العالم الخارجي) عليها، هذه العوالم استيقظت على حقيقة: أن ما تختزنه أراضي الملح والصحراء والشمس العربية، هائلٌ في حجم تأثيره على حضارة الغرب، التي بُنيت أصلاً، على استغلال (كلِّ شيء) فوق وتحت أرض المُستعمَرين... مهما تكن أعراقُهم.

هل تصدّقُ ـ بنيّ ـ أننا كنَّا ننام في ليل سفرِنا الطويل بين (البريمي) والإحساء بعين واحدة، والأخرى مفتوحة لمراقبة المجهولِ القادم؟

... بين عُمان وإمارات الساحل المتصالح وشرق البلاد السعودية، كانت تنتشر ـ كما قيل لنا ـ القبائل التي أرغمَها على السكون، حكمُ

(آل سعود) بقيادة أحد أهم أفراد عائلتهم والمسمى (سعود بن عبد الله بن جلوي) والذي أقطِعَ المنطقة الشرقية من البلاد السعودية. لقد أرغم الرجل ـ ووالده من قبله ـ بدو مشرق شبه الجزيرة على المهادنة والتخلي عن حياة السَّلْب والنهبِ والإغاراتِ الوحشية التي كان يعاني منها الداخلُ القبلي الواحد، إضافةً للصدامات القبلية الموسعة الأخرى. وبالرغم من القمع (الجلوي) ما زال يوجد حين يممت قافلتنا وجهها إلى شرق البلاد المحكومة من أسلافك، جماعات من تلك القبائِل، تتحرك بفعل سلوكِها القديمِ غيرِ المنضبط.

ما كان يغذي هذا الانفلات المُدبرَ ـ طبقاً لما سمعناه في البريمي من بعض السكان ـ رغبةٌ سعوديةٌ في جعل شيخ (أبو ظبي) وسلطان (مسقط)، لا يشعران بالأمن والأمان الدائمين، وهذا يعني أن الملك (عبد العزيز) وابنَ عمه حاكم شرق البلاد كانا يدفعان القبائل المستوطنة في صحراء الربع الخالي للتحرش بهذين الكيانين السياسيين. ولن يكون بعيداً عن فطنتك أن قضية منطقة البريمي المتنازع عليها، هي السبب لهذا الانفلات المحسوب بدقة من (الداهية) خارق الذكاء.. جدك الملك (عبد العزيز)!

هذا الحاكمُ الذي سمعنا عنه كثيراً في البريمي، كان يثيرُ في نفوس السكان المحليين ـ برغم الخوفِ من جنده ـ مشاعر الاعجاب الغريب والإضافي به؛ لأنه استطاعَ تطويعَ الجماعاتِ البدوية، التي لم يكنْ أحدٌ قبله يستطيع إخضاعها وجعلها تستقرُّ في الهجر كسكان لا محاربين. الإعجابُ مردُّه أيضاً قُدرةُ الشابِ الطريدِ على تحويل حُلْمه المستحيلِ بإعادة مُلك آبائه وأجداده... إلى حقيقةٍ مُشاهدةٍ. ليس هذا وحسب: بل تحول هذا الواقعُ إلى مملكةٍ مُهابة دينياً، وإن كانت فقيرةً مادياً.. آنذاك.

...عليَّ هنا أن أقولَ لابني العزيز: إن الملكَ (عبدَ العزيز) كان يثيرُ أيضاً في البريمي ـ كمجتمع كما في أواسط الحاكم هناك ـ مشاعرَ

أخرى مُتداخلة إلى جانبِ الإعجابِ بمآثره وأعماله؛ فهو أيضاً مرعبٌ وذو قلبٍ قاسٍ تجاه أعدائه عندما يتعلق الأمر بمناطق نفوذه وحكمه. ولا تختلفُ هذه القسوةُ عند الرجل ـ كما يقول البريميون ـ سواءٌ عندما كان (عبد العزيز) سلطاناً على نجد، أو ملكاً على الحجاز، أو ملكاً بعد ذلك على عموم القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية قبل أن أصلَ الإحساء بأربع عشرة سنة تقريباً".

لم استغربْ هذه المقدمة السياسيةَ لأحداثِ القسم (الأحسائيّ) من رحلة والدتي، المنتزعة من أرضِ آبائها وأجدادِها في بلوشستان، وحتى مستقرِّها هنا... في الرياضِ.

هذه المرأة العجوزُ ليست ككل العجائزِ، فهي منذُ كُفَّ بصُرها، تجد في الإذاعة ومحكيات التليفزيون، وسيلتين مفضلتين للتواصل مع العالمِ الخارجي المختلفِ عن عالمها الصغير. وهي في هذا التواصل، ليست متلقية للرسائل الإعلامية فقط، بل هي متفاعلةٌ جداً. هي عربيةٌ أكثرَ من (بعض) العرب، وإسلامية أكثر من (بعض) مسلمي الأرض التي نزل عليها وحيُ الرسالة المحمدية. أذكر ذات مرةٍ أنني وبعدما يزيد على أربعة أشهر من تدوينِ الصفحة الأولى للتيـه (البنقلاني)، كنت أراجعُ معها ـ بطريقةٍ غير مباشرة ـ تفاصيلَ معينةً من قصتها المثيرةِ، المليئةِ بأوقاتِ الأفراحِ القليلة، والأتراح التي كأنها أبدية لا تنقضي... وفجأةً رحل الحزن الذي في العالم كلِّه، ليستقرَّ على كلِّ ملامح وجهها. والسببُ هو: الخبرُ العاجلُ المرئيُّ الذي يشير إلى تقاريرَ شبهِ مؤكدةٍ بقصفِ القواتِ الأمريكية لـ(كابول) عاصمة أفغانستان. بعد هذا الهجوم (الحزائني) المفاجئ، لم أستطعْ ليلتها، تكملةَ رحلةِ المراجعةِ مع تلك المكروبةِ، حتى بعد محاولة إفهامها أن هذا القصف يأتي رداً ـ حسب المنطقِ الأمريكي ـ على إرهابٍ ترعرع في أراضي المقصوفين، ليتم توجيهه لاحقاً تجاه بلاد (القاصفين) مُزهقاً أرواح آلاف الضحايا. كانَ

هذه التبريرات لم تُجدِ نفعاً مع (العجوزِ) المسكونةِ بحبِّ أرضِ العرب خاصةً، وأرضِ الإسلام عامة. كل تلك الأراضي ومَن عليها ـ في رأيها ـ على حق، وهم بعيدون عن الإرهابِ والعنف ضد الآخرين، مع إقرارها أن هناك إرهاباً وعنفاً ـ لا تستطيع تفسيره ـ موجهاً من (بعض) العرب والمسلمين إلى بني جلدتِهم وملَّتهم!

عبْر هذا الحسِّ العربيِّ والإسلاميِّ المعولم، يتشكل عقلُ والدتي. وعبره تكون ردود أفعالها تجاه أحداث العالم وقضاياه. وأنا متأكد أن مصطلحات من مثل: الاستعمار والمستعمرين، والثروات والاستغلال، والنزاعات، لم تكن تخطر على بال والدتي أثناء رحلتها من البريمي إلى الإحساء. لكنها وعندما تعيد هذا الشريط الحياتي العجائبي مرة أخرى إلى (ماكينة) التشغيل التذكُّرية، فإنها لابد أن تطبع فهمها للحاضر على ما كان يدور في الماضي... حيث مرت وكانت.

... ساد الصمتُ فجأةً، بينما كنتُ أسلك هذا (الزاروب) التفكيري، ولم يطُلْ هذا الامتناعُ الاختياري عن التفكيرِ المسموع؛ لأن صوتها أتى يحمل ما يُشبه المساعدةَ، على انتشالي من هذه الحالةِ (الامتزاجية) بين الماضي والحاضر:

" قلْ لي يا (دكتور): هل ما كان يُثار في قلوبنا من مخاوف حينها حقيقيٌ، أم أنه بفعل تدبيرٍ مُحكمٍ من حراس ومراقبي القافلةِ، الذين يخشون انسلالَ أحد العبيد أو العبدات نحو الصحراءِ، وبالتالي خسرانِ هذا الهارب ـ أو الهاربة ـ وما يمثله هذا الهروبُ من تناقصٍ في أرباحِ تلك التجارة البغيضة؟ هل تعتقد يا (دكتور) أن حشوَ المخاوف في نفوسنا، سبق أن تمَّ التخطيطُ له في مسقط والبريمي، لنكون في المستقبل أدواتٍ قابلةً لتنفيذ ما يُطلب منها، إن نحن أصبحنا عبيداً أو إماء في بلاط قصور (آل سعود) الذين سنحمل عليهم غِلاً، مادمنا نسمع الشائعات عنهم وعن قسوة أفعالهم؟

... ثم أجبني: ما هي حقيقةُ أوضاعِ بلادِ أسلافِك عندما وصلنا للإحساء في (مربعانية)[1] شتاء سنة 1366هـ[2]... إن لم تخنّي الذاكرة"؟!

أخذتُ رشفةً من كأسِ الشاي الأخضرِ الذي أحضرَ لي للمرة الثانية، بعد أن أفسدت عليَّ، برودة مكيف الهواء المُسلط، طعمَ الكأس الأولى. ثم أجبت ـ وأنا سعيد ـ بلعب دور الأستاذ الذي يُلْقي محاضرةً للمرة الثانية، على مستمعين (راغبين) في الاستماع والاستفادة من محاضرته:

"الإحساء التي رأيت قصورَها، للمرة الأولى ـ أطالَ الله عمرك ـ في شتاء أواخر ستينيات القرن الهجري الماضي، كانت عبارة عن واحة، فيها مزارع نخيل كثيفة ومياه جارية. وبالتأكيد فقد لمست في وقتٍ لاحقٍ ـ رعاكِ الله ـ وبعد انقضاء الشتاءِ، الذي وصلتْ في أيامه قافلتكم عند تخوم تلك الواحة الكبيرة، أن صيفَ الإحساء لاهبٌ شديد القسوة، خاصةً عندما تهب في شهوره رياح ساخنة محملة بذرات رمال دقيقة، وتزداد الأجواءُ المناخية رداءة في تلك الأنحاء التي تحيط بها جبال عظيمة من الرمال في بداية الخريف، عندما تهب رياح شرقية محملة بلزوجةِ ورطوبةِ البحرِ غير البعيدِ من الواحة.

تاريخياً يقال إن أول من عَمَّرَ الإحساء واتخذها منزلاً، هو (طاهر الحسن بن أبي سعيد القرمطي) أحدُ قادةِ القرامطة المشهورين، وذلك في سنة 310هـ .

وجغرافياً يحدّ تلك الإمارة، التي أصبحتْ محافظةً فيما بعدُ:

(1) المربعانية: أيام شتائية شديدة البرودة في جزيرة العرب تبدأ من 7 ديسمبر وحتى 16 يناير.

(2) الموافق للأيام الأولى لسنة 1946م.

(الكويت) شمالاً ومن الجنوبِ (قطر) ومن الشرقِ (الخليجُ العربي)، ومن جهة الغربِ صحراءُ الدَّهْناءِ وأراضي الصمان، التي كنتِ تُخيمين[1] فيها أيام الربيع مع.. عمِّك سعود!

وعليكِ يا ـ أماه ـ ملاحظةُ أن الإحساء اسمٌ لمنطقة شاسعة، يدخل ضمن نطاقها الجغرافيِّ الموانئُ (الإحسائية) المطلةُ على الخليجِ؛ ولهذا السببِ كان الحاكمُ السعودي الإداري في المنطقةِ الشرقية من البلاد، يتخذُ من الإحساء مركزاً له لإدارة شؤون المنطقة كلّها.

اضمحلتْ أهميةُ الإحساءِ السياسيةُ والإداريةُ في أيامِ الازدهارِ البترولي اللاحقِ لينتقلَ هذا الثقل للمناطق غيرِ البعيدةِ عنها، والمطلةِ على شواطئ البحرِ مثل (الدَّمام) و (الخُبر). ولعلكِ ستتساءلين ـ افتراضاً ـ عن أهم عشائر الإحساء وقبائلها. إجابتي هي: بأن العجمان، وآل مرة، وبني هاجر، والمناصير، وبني خالد، وآل زايد، هي أشهر قبائل تلك الأنحاء.

ويقال ـ أطال الله عمرَك ـ إن المجوسية كانت دينَ أهل الإحساء إلى أن دخلها الإسلامُ، وبعدها تنازع الإحساء مذهبان أساسيان: المذهب الحنبلي والمذهب الشيعي الجعفري. وبلا شك فإن السعوديين الأوائلَ وما كان يرفدهم من اندفاع وهابيّ إصلاحي، قد هيَّأوا لبذرة الانتشار الواسعِ للحنابلة في الإحساء، قياساً بالأوضاع المذهبيةِ قبلهم. وعلى العموم فسكانُ الإحساء وبمختلفِ مذاهبهم كانوا يشكون ـ قبل الحكم السعودي ـ من غاراتِ البدو الأعراب، الذين (يعشقون) تمرَ الإحساء ومنتوجاتها الزراعية الأخرى. وبالطبع فإن هؤلاء المغيرينَ لا يدفعون مالاً مقابل ما يأخذونه من السكان. وبدلاً من ذلك فإنهم كانوا يُشهرون سيوفَهم، مهددين السكان المزارعين، وإذا لم يجدِ هذا الرعبُ

(1) تخيمين: تعني هنا السكنى المؤقتة في الخيام .. وخاصة في فصل الربيع .

ـ وفي الغالب يُجدي ـ يقطع جنوده الأغراب الرؤوس مخلفين نساءً أرامل وأطفالاً يتامى. ومن أجلِ هذا السبب كان القائمون على حكم الإحساء، يستنجدون في القرونِ الخوالي، بأمراءِ نجد من (آل سعود) أو غيرهم، لردع الأعراب المكررين للإغارة على واحتِهم. أما بعد الحكم السعوديِّ، في طوره الثالث، فإن هذه المظاهر انتفت إلى غيرِ رجعة".

نَفِدَ صبرُ والدتي.. أعرفُ هذا من حركةِ الرأسِ المروحيةِ، وقرعِ الأرضِ عدةَ مراتٍ بأصبع السبابةِ الأيمن. هي تريدُ الحصولَ ـ كما يبدو ـ على معلوماتٍ لبداياتِ الحكم السعودي للإحساء وإرهاصات تلك البداياتِ؛ لعلَّ هذا يجيبُ على كثيرٍ من الأسئلةِ التي حملتْها والدتي في داخل هودجها المقترب من الإحساء أواسط القرن الميلادي المنصرم، ومن الغريب ألَّا تجد فتاةُ بنقلان ما يشفي غليلَ أسئلتها.. حتى الآنَ. وقد تكونُ قد وجدتها وتريدُ فقط.. أن تختبر صحةَ قراءتي وما سمِعتُه من أفواه كبارِ السنِّ. وهناك احتمالٌ آخر، هو أن تجعلني شريكاً أساسياً ومتفاعلاً مع الذي تقوله وترويه... كلُّ الاحتمالاتِ ممكنةٌ، وكلُّ الاحتمالاتِ حملتْها أيضاً أسئلتها اللاحقةُ:

"كان يقالُ لنا إن العثمانيين، بتصرفاتهم الحمقاء وعقليتهم المحافظةِ، قد أفسحوا المجال لنشوءِ الإعصار السعوديِّ الذي هبَّ على الإحساء، وعلى جند (بني عثمان) أنفسهم. هل صحيح أن الإحسائيين ـ كما قيل لنا في مسقط ـ قد استبدلوا مُحافظين بآخرين.. ليس إلا"؟!

... براڤو.. والدتي!

هي تستفزني حتى أصل سريعاً لما تبتغيه؛ لأنها تعرفُ مقدارَ (تعصُّبي) لقومِي وتاريخهم.. لكن لا بأسَ، سأجعلُ أعصابي ـ كما يقولونَ ـ في ثلاجة، وليكن ردي على سؤالها مُغلَّفاً بدهاء مُقابلٍ:

"لا أحد يعادل محتلي الإحساء وبقاعِ العالم الإسلاميِّ إبان تلك الأزمنةِ في رجعيتهم وتخلُّفهم. كان القدرُ والحاجةُ والتاريخُ ـ بالفعل ـ

على موعد مع الجيش السعودي المنقضّ على الإحساء وقصباتها. الأتراك العثمانيون كانوا منهزمين داخلياً ومتقهقرين في كل مكانٍ تقريباً، والرجلُ المريض في (الآستانة) كان يطلب ـ حينَها فقط ـ الأطباءَ التاريخيين مع أمصالهم، وليس وارداً عنده البقاء في مناطق النفوذ والاستعمار القديمين. ولا تنسى ـ والدتي ـ أن النفوذَ السعوديَّ الجديدَ في الإحساء، لم يكنْ وليدَ همة الملك (عبد العزيز) فقط، بل كان أجدادهُ القادةُ من قبله، يهيمنون على مقاليدِ الحكمِ في الإحساء من فترةٍ زمنية لأخرى، قد تطول بالطبع أو تقصرُ، تبعاً لَقوة وعنفوان الحكمِ والحكامِ في الدرعيَّةِ. ولعلمكِ ـ أطال الله عمَرك ـ لم يكنْ ممكناً قديماً أن يطلقَ على (فُلان) أنه حاكم مُسيطر على نجد وتوابعها، إلا وهو يمد نفوذه على الإحساء كذلك.

...كيف طُرد الأتراكُ من الإحساء؟

سؤالٌ لابد أنكِ كنتِ تنوين طرحه لضرورته.. أنا سأجيبُ:

سلالةُ مؤسسُ الدولةِ السعوديةِ الأولى وحاضنُ الدعوة الإصلاحية السلفية، الإمام (محمد بنِ سعود) مدُّوا نفوذهم للإحساء بعد طرد الحكم التركي فيها، والذي بدأ تقريباً من سنة 907هـ[1] وحتى سنة 1080هـ[2]. صحيح أن العثمانيين عادوا مرةً أخرى لحكم الواحة بعد مائتي عام، لكنَّ الصحيحَ أيضاً أن الدلائلَ والمؤشراتِ كانتْ تعطي انطباعاً: بأنَّ العودةَ الأخيرةَ مؤقتةٌ وطارئةٌ، وأن ثمة أعاصيرَ قادمةٌ لقلْع هؤلاء، أصحاب البشرةِ البيضاءِ الممزوجةِ بالحُمرة، الذين لا ينطقون لغة البلاد، ولا يعرفون تقاليدها ولا كيف تُدار.

...عادَ العثمانيون مرةً أخرى واحتلوا الإحساء عام 1288هـ[3].

---

(1) الموافقة لسنة 1501م.

(2) الموافقة لسنة 1669م.

(3) الموافقة لسنة 1871م.

وكانت هذه العودةُ مفاجأة بالفعل؛ لأن الغزاةَ مهددون في سلامة حدودهم وأراضيهم الوطنية على الجبهة الأوروبية، ومن المفروض أن تتركز جهودهم هناك حيث الخطرُ الأكبرُ عليهم، لا أن يتشتت الجهد عبر حملات استعراضيةٍ يغذيها العداءُ لحركةٍ إصلاحيةٍ في داخلِ البيتِ الإسلاميِّ هنا، أو تجمعٌ يريدُ الحريةَ والعلمَ والانعتاقَ من التخلفِ هناك... في داخلِ البيتِ العربيِّ.

...ماقوى عزمَ العائدينَ إلى حيثُ غاباتُ النخيلِ الإحسائي، ليس إلا التَّفرقُ والعداءُ داخلَ بيت أبناء الإمامِ (فيصل بن تركي) ابن مؤسس الدولةِ السعوديةِ الثانية. إنها القصةُ القديمةُ الجديدةُ: نزاعاتُ الداخلِ تساعدُ غرباءَ الخارجِ على الهيمنة والاستعمار والاحتلال. ولم يُغلقْ تاريخُ تلك الصفحاتِ النزاعية، إلا بعودة حفيد للإمام (فيصل بن تركي) وأسرته، من منفاهم في الكويت الذي أجبرهم عليه، حُلفاء الأتراك (= آل رشيد) حكامُ حائل والرياض، وبقية مناطق نجد والإحساء، بعد سقوط وانهيار الدولة السعودية الثانية.

هذا الحفيد، مشهورٌ جداً وتعرفينه بالتأكيد ـ أطالَ الله عمركِ ـ إنه الملك (عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي)، الذي استرجع حكمَ الرياض وهو في ريعانِ شبابه عام 1319هـ[1].

كانت هذه الخطوةُ صغيرةً جداً قياساً بالخطوات الجبارة اللاحقة: توحيد مناطق النفوذ الذي وصله الأعصارُ السعودي الوهابي قديماً إبان الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. ولم يكن غريباً أن يختار القائدُ الشابُّ (الإحساء)، كأولى خطوات تحقيق الحلم القديم. كما لم يكن هذا الاختيارُ عشوائياً كذلك؛ لأن الإحساء مصدرٌ رئيسيٌ للغذاء، وللاتصال البحري مع العالم الخارجي، المهم لنجد... ومَن يحكمون نجد.

---

(1) الموافق لسنة 1902م.

تقول الروايات التاريخية ـ يا والدتي ـ إن الملكَ (عبد العزيز) قد ساعده عاملان على سقوط الإحساء في يديه، وحتى قبل (فتح) المناطق الأخرى المراد توحيدها لاحقاً. هذان العاملان هما: وجود أتباع ومساندين للدولة السعودية الثانية وما تحمله من أفكار دينية في الإحساء أولاً. والعامل الثاني هو هزال الـــدولة العثمانيـــةِ وبدايةُ نشاط المرضِ القاتـلِ الذي يدخل أجســادَ الدول ذاتِ المستعمراتِ ومناطقِ النفوذِ التوسعيِّ. هل تصدقين يا (أمــاه) أن الـدولة العثمانيـة كانت قــادرةً ـ كما تقــولُ الروايات ـ على إنقاذِ ما يمكن إنقاذه من نفوذ لها في الإحساء، لو أنها استطاعت تدبير (85) ألف قرش عثماني لحملتها المساندة التي نوت إرسالها.. كإشارة دعم لجنودها هناك!!.. إنه حظ (عبد العزيز) الذي لا يُنافس! مع الاعترافِ بأن تلك العاقبة السعيدة لم يصنعْها الحظُّ (العزيزي) فقط، بل كذلك خور الدولة العثمانية وتخلُّفها الاقتصاديُّ والعلمي. إضافةً لتكالب الدول الغربية على تركة الدولة التي (كانت) فتيةً قويةً.. وهكذا كان موعد الإحساء مع رايات حكم جديدة قديمة ليست غريبة عليها: إنها رايات الملك (عبد العزيز)، مؤسسِ الدولةِ السعودية الثالثة. حدث هذا (الفتحُ) في عام 1331هـ[1] بعد معركةٍ خاطفةٍ مع الحاميةِ التركية، قُتل من جرائها (35) جندياً عثمانياً فقط؛ لأن الباقين عقدوا اتفاقية مع (الفاتح) الجديد، تتضمن شروط ترحيلهم وتسليم أسلحتهم وأموالهم".

لايبدو أن المللَ من تلك المعلوماتِ التاريخيةِ، قد أصابَ والدتي؛ بل إنني لاحظتُ أنها تطلب المزيدَ منها، ليس حُباً ـ كما يبدو ـ لذاتِ المعلومةِ، إنما لأن تلكَ الإخباريات ستقود (المُنصت) لها حتماً، إلى مفصلٍ حاسم، فيما يتعلق بـ(الآخرين) الذين لامستْ حياتُهم نتائجَ وتوابعَ هذه القصة.

(1) الموافق لسنة 1913م.

سؤالها التالي دليلٌ على هذا التحليل الشخصيِّ، لو أن اسماً مثل اسم (ابن جلوي) لا يمكن أن يعبرَ بين سطور قصة فتاة بنقلان، دون أن تتوقف عنده (المعنية) طويلاً، كدافع داخليٍّ ـ وإن تأخر ـ للكشف عن الكيفيةِ التي يربط بها سفر الحياةِ بين ذياك البعيد، وهذا القريب، ومن ثم تتوالد قصة جديدة.. وهكذا:

"ولماذا ربط المتابعون لتاريخ الملك (عبد العزيز) بين اسم الـ(جلوي) والإحساء، ولم يربطوا اسم تلك الواحة باسم آخر من تلك الأسماء الكثيرة في الشجرة السعودية وفروعها"؟

وكأنني قد حفظتُ إجابةَ هذا السؤال، قبل يوم التدوين الأخير، بعد أن قرأتُ عن الشخصياتِ المعنية الكثير؛ لهذا لم آخذ وقتاً مستقطعاً ـ كالمعتادِ ـ للبحثِ عن كلماتٍ مناسبةٍ، يمكنُ أن أوردها خلال إجاباتي اللاحقةِ عن الحقبةِ (الجلوية) في الإحساء:

"قلائلٌ هم الذين ناصروا الملك (عبد العزيز) ووقفوا معه في أيام الشدة (الكويتية).. أيامَ المنفى والاغترابِ عن بلاد الأجدادِ والآباءِ، أيامَ الغروب المؤقت لشمس الحكم السعوديّ، الذي كان يبدو للبعض أنه ذهب إلى غيرِ رجعة. من هؤلاء القلائلِ: ابنُ عم لمؤسس الدولةِ السعودية الثالثةِ واسمه (عبد الله بن جلوي بن تركي) وجدُّه هو (تركي بن عبد الله) مؤسسُ الدولةِ السعودية الثانية.

يقولُ الرواةُ التاريخيون: إنّ (عبد الله بن جلوي) قد وُلد في الرياض، وشهد بالتالي خروجَ بني عمه منفيين إلى (الكويت) سنة 1309هـ[1] إلا أنه وبعض أفراد الأسرة التي (كانتْ) حاكمةً، فروا إلى الرُّبع الخالي. وهناك تدرب، وبيئة الصحراءِ تحيطُ به، على فنونِ الحربِ

(1) الموافقة لسنة 1891م.

وعلى كيفية العيش في الصحراء، وما يفرضه هذا العيشُ من تأقلمٍ مع الحياة البدويةِ ذاتِ الأعرافِ والتقاليد... والخياراتِ المريرةِ.

ويقال إن (عبد الله) تقابل، ثانيةً، مع الملك (عبد العزيز) في وقت لاحق في الكويت، للتخطيطِ لعمليةِ استردادِ الرِّياض. وهذا ما تم بالفعْل، حيثُ قام الاثنانِ مع بقيةِ شباب الأسرةِ، ممنْ لم يرضوا بفكرة أن (لا) دور يمكن أن تلعبه أسرةُ (آل سعود) مرةً أخرى في تقرير مصير الجُزء الأكبر من الجزيرة العربية.

... جرَّب الاثنان ـ عبد العزيز وعبد الله بن جلوي ـ وبقية أفراد أسرتهم الشباب حظَّهم مع التاريخ. وقع ذلك قبل المحاولة الثانية والنهائيةِ للاستيلاء على عاصمة حكمهم القديم. ففي سنة 1318هـ[1] جرت أولى محاولات استعادة الرياض. ولم تفلحْ تلك المحاولةُ التي مهَّد لها البقاءُ (السري) لـ(عبد الله بن جلوي) في الرياض، في محاولة لكشفِ نقاطِ الضَّعْف في الحامية ولتمهد الطريق لقدوم (عبد العزيز) اللاحق. ويظهر أن هذا الجهد كان اختباراً لا غير، من قِبل فتيان (آل سعود) لتصميم وعزيمة (ابن رشيد) حاكم حائل وكذلك لحاميته في (الرياض) بقيادة (عجلان).

...كرر (عبدُ العزيز) وإخوانه، وبنو عمه، ومناصرون آخرون، محاولة (فتحِ الرياضِ، وتحققَ لهم ذلك، بعد قصة أسطورية تجلّتْ فيها عظمةُ وقيادة (عبد العزيز). ولعل مكمن العبقرية في هذا الرجل، هو اختيار معاونيه في هذا (الفتحِ) والمعاركِ اللاحقة. بل إن هؤلاء المعاونين، بالذات، كانوا لا يقلُّون عن (فتاهم) الجهبذ ألمعيةً وشجاعةً. ومن بين هؤلاء أخٌ لـ(عبد العزيز) اسمه (محمد) وأبناء عم آخرون من

---

(1) الموافقة لسنة 1901م.

أشهرهم (عبد الله بن جلوي)...وهو (صاحبنا) في هذا الجزء من القصة المتداخلة".

... وفجأةً سمعتُ أسئلة غريبة و(خطيرةً) اعتراضية من والدتي، جعلتْني أتوقفُ عن سرْدِ تلك الحكايات الأسطوريةِ، التي صنعت كلَّ الصفحاتِ اللاحقةَ للتاريخِ السعوديِّ المعاصر:

"ما تلك العزائمُ والهممُ والمثابرةُ، التي تنشئ مُلكاً من لا شيء؟! أتستطيعون فتيان (آل سعود)، الذين تعيشون بين ظهرانينا الآن، أن تفعلوا مثل أجدادكم: أن تعيدوا ممـالك، وتوحدوا أوطاناً، وتجمعوا شعوباً لم يكن ممكناً أن تجتمع، لولا اللهُ، ثم أولئك الشباب القادمون من المجهول والساعون للمجهول؟ ثم كيفَ يمكنُ أن تُلحَّ الوساوسُ على (بعضِ) شعبكم القائلة لهم: إنهم أحقُّ بحكمِ البلادِ من هذه (العائلة)، وأن عليهم ـ وتحت سقفٍ منخفضٍ من الرغبات ـ المطالبةَ بحقوقهم المشروعةِ في المشاركة مع (الشيوخ) لإدارةِ دفةِ الأوطان؟! أو ذياك الخاطر ـ الشعبي ـ الذي يريدُ جعلكم مثل ملوك بريطانيا وأسبانيا وهولندا!! ألم يعرفْ هؤلاء الذين يهاجمون (حكامنا)، أن هذا الوطن لو لم يقيض الله له مثلَ شباب شوال 1319هـ، واستبدلت الأقدار بدلاً منهم أجداد (هؤلاء)، الذين يشككون في (عماننا)، لما صُنع (شيءٌ) مماثلٌ نفتخر به، ولأصبحَ المزارعُ ينتظرُ ـ كما كلِّ عامٍ من أعوامِ الرُّعب القديمةِ ـ البدو لاختطاف محصوله من التمور، ولاستمر كذلكَ جزءٌ من البدوِ، في الإغارةِ على إخوانهم الصحراويين الفقراء؛ ليختطف الجميعُ من الجميع، غنيمةً عبارة عن ماعز وماعون؛ ولمـا عرفنا بلداً موحداً، بل إحساء ونجداً وحجازاً، ومقاطعات كثيرة أخرى متفرقة، تنتظر الموتَ كلَّ مساءٍ... إن فاتها هذا (النعيمُ) في الصباح"؟

ظللت مشدوهاً لدقائق، لا أعرف كيف أجيب، ولماذا أصلاً هذه

الأسئلة في هذا التوقيت؟ وبسرعة قررتُ (أمراً)... لقد فضلتُ أن أتجاهلَ ـ مؤقتاً ـ كلَّ هذا الذي سمعتهُ، وأن استمرَّ ـ مع تعليقٍ عابرٍ ـ في الإجابةِ على السؤال، الذي سبق أسئلةَ (الغضبِ) البلوشي غيرِ المبرر ولا المفهومِ:

"دائماً ما تنشب الصراعات على تركةِ المؤسسين للإمبراطوريات المالية، بعد أن يرحلَ هؤلاء العظامُ، تاركين ورثةً متخاصمين، أو مدَّعين لدينٍ لهم على المؤسسين، وقد يظهر أحياناً مشككون في أصلِ الثروةِ وشرعيتها.. وعلى هذا المثلِ يمكنُ أن يُقاس مآل الممالكِ والدول..

...والدتي! لنرجع مرةً أخرى لقصة (ابن جلوي):

بعد الدور الكبير والرئيسي لـ(عبد الله بن جلوي) في فتحِ الرياض، لم يكن من المتوقع أن يكون دوره اللاحقُ في توحيد المملكةِ أقلَّ شأناً؛ لهذا رأيناه يساهم، تحتَ قيادةِ الملكِ (عبد العزيز)، في توحيد المناطق النجدية القريبةِ من الرياضِ... كفعلٍ حربي وسياسيٍّ لازمٍ، يقول للجميع.. ومنهم (ابن رشيد): إن الأيام المقبلة (سعودية) خالصة!

...سنةً بعد سنةٍ سقطتْ تلك البلدانُ النجديةُ في قبضة (ابن سعود) ـ كما يطلق عليه الأجانبُ ـ ومن تلك البلدات: ثرمداء، وشقراء، الغاط، سدير. وجاء بعد ذلك دورُ القصيم التي كانت حامية مختلطة تدافع عنها، من الجنودِ الأتراكِ النظاميين، وجند القبائلِ المساندةِ لـ(ابن رشيد)... وفي (روضةِ مهنا) القريبةِ من بريدةَ تم رفع أحدِ الأعمدةِ المهمةِ للدولةِ السعودية الثالثةِ، فهناكَ قُتل أحدُ قادةِ عائلةِ (ابن رشيد)، وغنمَ السعوديونَ مغانمَ كثيرةً، إلى جانبِ خضوعِ القصيمِ ذاتِ الوزن الاقتصادي والمعنوي للحكم السعودي وإرث أفكاره. كان دورُ (عبد الله بن جلوي) جلياً في كل تلك المعارك كما هو حالُ أسبقيته في الاستيلاء على الرياض. وللدلالة على ذلكَ، نصَّب عبد العزيز ـ الذي أصبح ملكاً

فيما بعد ـ ابن عمه (عبد الله بن جلوي) حاكماً على القصيم، حيث امتد شَغْلُه لهذا المنصب من عام 1326هـ وحتى 1331هـ[1].

... أما بعدَ هذا التاريخِ، فلمْ يكن هناك إلا ملحمةُ (ابن جلوي) مع الإحساء. والملاحمُ تبدأ عادةً من تضحية ما.. تضحية (ابن جلوي) كانت هي عدمُ رغبته في الاستمرار بحكم القصيم نيابة عن ابن عمه، وبدلاً من ذلك انضمَّ هذا القائد الملهمُ، للجيش السعودي المتجه (لفتح) الإحساء. وهناك دارتْ معركة خاطفةٌ مع الحامية التركية، انتهت برفْع علم التوحيد السعودي على الهفوف، ويقال إن أول مَن رفع هذه الراية هو.. (عبد الله بن جلوي).

.. ولأن النزاعات القبلية، والتدافعات العصبيةِ، إلى جانب تفشي الفساد والسرقات وعمليات القتل لأتفه الأسباب؛ منتشرةٌ في الإحساء وما جاورها، لم يجد الملكُ (عبد العزيز) بُداً في عام 1331هـ من إعطاء القوس لباريها. وهذا الباري، وكما هو متوقع، هو (عبد الله بن جلوي)، الذي استطاع تثبيتَ الأمنِ المطلقِ في هذه المنطقة الخطرة. الحاكمُ الإداريُّ الجديدُ كان عنيفاً ومُرعباً.. لكن هذه الوسائل غير الجذابة، عادة، هي التي أزالت من الإحساء ثقلَ أيام المفسدين، والقتلةِ، والسارقين، وراغبي تفشي العصبيةِ والقبلية المقيتين، خاصةً إن حَملتْ تلك العصبيات نقائضَ شرعيةِ إقامةِ الدول، والوعود المُعطاة ـ للسكان ـ من توفير استقرارٍ وأمنٍ وعدالةٍ كانت غائبة عنهم وعن أوطانهم.

وهناك رواياتٌ ضعيفةٌ يا (أماه)، لا أحبذ الأخذ بها. وهي أن تعيين (ابن جلوي) في الإحساء من قِبل الملك (عبد العزيز)، كان دافعهُ رغبةً دفينةً في نفس (عبد العزيز)، لإبعاد (عبد الله) من مركز الحكمِ في

(1) الموافق لعام: 1908م. ـ 1913م.

الرياض، حتى لا يطمعَ أكثر المرشحين حظاً في العائلة السعودية (المحاربة) في تبوّء منصبٍ قد استقرَّ رأيُ الملك (عبد العزيز)، على أنه مقصور على صُلب الملك ومن أتى بعدهم!

...المُهم: حكم (عبد الله بن جلوي) الإحساء منذ عام 1331هـ وحتى عام 1354هـ[1] وكان حكمه لهذه المنطقة، حُكماً شبهَ مطلقٍ لا يرجعُ فيه إلى قائدهِ وسلطانه إلا فيما ندرَ، وهذا يعني اعترافاً من (عبد العزيز) بألمعية الرجل وتميزه، حتى أنه قد أطلق يديه تماماً في إدارة شؤون هذه المنطقة، التي عُرفت مكانتُها الاقتصاديةُ المهمةُ لاحقاً، وعُرف قبل ذلك ما فيها من تجاذب وتعقيد في تركيبتها الاجتماعية؛ وبالرغم من كلِّ هذهِ المخاوفِ على مستقبل الإحساء، ظل الرجلُ يحكمُ باقتدارٍ، المنطقة الشرقية من البلاد السعودية حتى وفاته. وللاعتراف بفضله قامت القيادةُ السعوديةُ بتولية ابنه (سعود) كحاكمٍ على الإحساء والمنطقة الشرقية خلفاً لوالده. ولم يكن الابنُ أقلَّ من والـده في قـوة البأس والتصميم على محاربةِ مكامن الأخطار الأمنية، في منطقة يعتمد عليها، كثيراً، سادة الرياض. بل إنه، وفي بعض الأحايين، تغلبَ الخلف على سمعة والده (العدلية) وشكيمته التي لا تلين، ليضع هذا (السعود) عالماً خرافياً آخر من الأمن والاستقرار، في هذه المنطقة التي يمكن، إذا ضعف القائد فيها يوماً، أن تظهر في اليوم التالي بالتأكيد مطامعُ داخليةٌ متحفزة، وخارجيةٌ طامعة. وعندما أتيت ـ رعاكِ الله ـ إلى الإحساء ذات يوم من أيام سنة 1366هـ[2]، كان هناك هذا الرجل الذي أحبه كثيرون وكرهه كثيرون، لكن الجميع كانوا على اتفاق بأن الأمن

---

(1) الموافق لسنة 1934م.

(2) الموافقة لسنة 1946م.

والاستقرارَ، لم يكنْ لهما حظ في الوجود هناك.. في الشرقِ السعودي، لو أن أقدارَ هذا الرجل ووالده من قبله، لم تتقاطعْ مع تاريخ منطقة الإحساء وما حولها".

هزت والدتي رأسَها للدلالة على موافقتها على ما ورد في أقوالي الأخيرة.. ثم أضافتْ:

"قيلَ هذا من قِبل أهالي الإحساء خلالَ عامِ وجودي في تلك المنطقة. قالوها صادقينَ مع رغبةٍ ملحة منهم، في أن يخفف الرجلُ من ولعِه بالقسوةِ والرعب، حتى وإن كانتْ من أجل أهدافٍ ساميةٍ. لكن جميع هذه الأفكار يا (بني) على ضخامتها مثل: العدل والقسوةِ والرعبِ والأمانِ، وتداولِ الأيام بين (آل سعود) و(العثمانيين)؛ لم تكن تشغلني البتة وأنا أدخل الإحساء من بوابة (الرقيق).

لقد دهمت نفسي أسئلةٌ مكتومةٌ، وبعيري ذو الهودج الكبير المميز، يمرُّ بينَ بيوتِ الأهالي المعدمين الحفاة: إلى أين الآن؟ وما الذي سيُقرأ في سطور التيه اللاحقة، والتي يبدو ألَّا نهاية له؟

... عند بوابة (الرقيق)، كان هناك كثيرون في انتظارِ هدايا السلطان العُماني لوالي (ابن سعود) في الإحساء، وكان هناك تجارُ العبيد الذين ينتظرون (خيراتِ) القوافلِ، لبيعها للقـادريـن على الدفـع مقابـلَ خدمـة فتىً، أو متعةِ فتـاة. ومـن بين هؤلاء (الرجلُ)، الذي أخبرتني أنه كان من ضمن الصورة الجماعية (الإحسائية) القديمة، والمأخوذة لوالدك أثناء استضافة (ابن جلوي) له، شخصٌ أكرهه، اسمه.. (ابن دايل)"!

15

"عندَ آخرِ بيتٍ من البيوتِ الشعبيةِ في الهفوفِ، وقبلَ الوصولِ لقصر حاكم الإحساء المخيفِ؛ كان رجل في الخمسينيات من عمره يقف وسط جمع غيرِ قليل؛ انتظاراً لمقدم القوافل، التي بدأت أولى طلائعها تُرى بوضوحٍ للجمع المنتظر. الرجل لم أعد أتذكر اسمه الأول الآن، لكنّ اسم عائلته مشهور عندي وعند كل عبد وعبدة، سِيقا إلى خدمة بيوت الأكابر وتابعيهم في جزيرة العرب إبان تلك الفترة. إنني أعرفُه باسم (ابن دايل). ذياكَ الشخصُ القصيرُ القامةِ النحيفُ جداً، والذي أخذت ملامحه كل خُبْث الدنيا وسوءاتها. رجل ازدهرت على يديه تجارة العبيدِ في الجزيرة العربية، أو على الأقل في الجزءِ الذي تحتله السيادةُ السعودية. لقد قيل لي: إنه هو الذي وسوس للسلطانِ العُمانيّ بأن شيئاً ما سيخفف من قسوةِ تعامل (منصوب) ابن سعود معه. وسيرسل إشارةً ـ ولو ضعيفةً ـ لهذا الرجل المتوثب في الإحساء بأن (البوسعيدي) راغبٌ في حل ـ غيرِ محدَّد ـ لموضوع البريمي. هذا الشيء هو إرسال (هدية) قيمة من السلطان. ولتكن ـ حسب اقتراح ابن دايل ـ بنتاً مختطفةً من بلاد بلوشستان المشهورةِ بجمالِ بناتها"!!

كان غضب والدتي مبرراً من هذا المدعوّ (ابن دايل)؛ فهو السبب الرئيسيُّ ـ في ظنها ـ لاختطافها. لقدْ أزاحت عوامل أخرى عدة: الاضطرابات في بلوشستان، وكُره (لاشار) لعائلتها المبنيّ على الضغائن الطبقية، والرغبات العُمانية في استمرار تجارة العبيد، حتى تستفيد من الدور الوسيط في تلك التجارة. لقد أهملتْ والدتي حقيقة، أن (ابن دايل) لو لم يكن موجوداً، لظهر شيخ دلالين (آخرُ) للعبيد.

وعنّ لي، ووالدتي تصبُّ جامَ غضبها على (مغتصِب) طفولتها

وأحلامها، أن أوضحَ لها بعض الحقائق السابقة التي فات عليها تذكرُها ـ أو استيعابُها ـ حول تجارة العبيد وتُجّارها. عندما هممت بهذا، توقفت لسببين اثنين أولهما: أن سياقَ حديثها عن (ابن دايل) ورد وأنا أتناولُ طعام العشاء على مائدتها. وحول مائدة (أمّ مقرن) لا يمكنُ للإنسانِ إلا أن يرضخ خاضعاً مسحوراً بما ـ ولما ـ تقوله صاحبةُ الطعام اللذيذِ الذي لا يقاومُ، حتى ولو كان هذا القولُ بعيداً عن الصحة والحقيقة! والسبب الثاني هو: أنني وضعت نفسي في مكانها: تمثلتُ أنني (هي) في خوفِها وحرمانِها وتيهها النفسيّ بعد اختطافها. أكان منطقياً ـ لو أنني مكانَها ـ واقتراحُ (ابن دايل) لسلطان عُمان يتردد بين الإماء؛ أن أستمرَّ مُحايداً، هادئاً، ومتقبلاً لحقيقة أن هذا الرجلَ.. هو السببُ الأولُ والأهمُّ للاختطاف والتغريب؟!

للسببين معاً أزحتُ فكرةَ إعتراضي على ثورتها الموجهةِ لتاجر العبيد المشهور. وانتظرت بدلاً من ذلك أن تهدأ قليلاً هذه (الانتفاضةُ) البلوشية بعد العشاء؛ لنعودَ إلى (رتم) السردِ المتسلسلِ لأحداثِ القصة... وقد صدقَ ما توقعتُه: لقد بدأ حديثُها بعد العشاءِ أكثر انخفاضاً في حدته. قالت، وقد عدنا إلى مجلسها الليليِّ الحميمي المجاور لغرفة نومها:

"أغلبُ الظن، يا (ولدي)، أن (ابن جلوي) وأباك وجدك، لم يكونوا يعرفون أن المختطفات والمختطفين من العبيد والإماء هم أبناءُ عائلاتٍ لم ترضَ ـ بشكلٍ أو بآخرَ ـ باختطاف فلذاتِ أكبادها... لولا (الظروفُ) السياسيةُ والاجتماعيةُ والاقتصاديةُ لتلك العائلاتِ، التي هيأت أوضاعُها المترديةُ، لعمليات الاختطاف الإرغامي. أو التي سمحت على مضضٍ بفراق الصغار الأحبة. لم يكن ـ على الأرجح ـ الحكامُ على علمٍ بأن صغار الرقيق ليسوا أبناء (كفار) محاربين كما صوّر ذلك (ابن دايل) وتجارُ العبيد الآخرون للسلاطين والحكام..

وقد تعترضُ على (ظني) ذاك، فتقول كيف لي أن أُخمن بأن سرقة العبيدِ واختطافَهم كان يصوَّرُ بشكلٍ خاطىءٍ للحكام؟!

الإجابة أتذكرها:

بعد يومين من وصول قافلتنا للهفوف ـ عاصمةِ الإحساء ـ قيل لنا ونحن نسكن ـ كفتيات فقط ـ في قصرِ الضيافة المتواضعِ والمشابهِ للبيوت البلوشية المسماة (الكرجين)، والتي تُبنى هياكلُها من الطين وسقوفُها من سعفِ النخيل والأحصرة.. قيل لنا: إنّ (ابن جلوي) الحاكم سيمرُّ على القصْرِ لأخذ هدايا السلطان العُماني. والهدايا هنا تعني: أنا ولفائف كثيرة من القماش الحريري الهندي، وخناجر مذهبة صُنعت في عُمان، بالإضافة إلى عبوات عديدة لِلُّبان العُماني المشهور.

...مَرَّ علينا (ابن جلوي).. رأيته. هو مثلما تخيلتُه: لحيته كبيرةٌ غيرُ متناسقة، وإن كانت أصغرَ من لحى المتشددين السعوديين الآخرين.. حادُّ الملامح. تنفذ نظرات عيونه الكبيرة إلى أعماق الإنسان لتعريه بسرعة، مربوع القامة، يميل إلى الامتلاء، أما صوته الأجش المدوي فشيءٌ آخر..!!

هرول الجميعُ لتقبيلِ يديه ـ كما أفهمنا دائماً في مسقط والإحساء من قِبل مراسم القصور والتابعين ـ وتصادف أن آخر فتاة تنحني لتقبيل يده اليمنى، كثيرة الشعر، هي أنا.

..عندها دهمني شعورٌ غريب وملح وغير قابل للتعديل: بأن أبكي وأبللَ يده بدمعي.. وقد كان هذا، بكيتُ بحرقة وتشنج ـ مثلما ـ بكيتُ بعد أن انتهى (لاشار) من حديثه المستفزّ معي قبل شهور، على ظهر السفينة اللعينة (فُرس).

رحتُ أبكي.. ثم أبكي وأتوجع؛ اكفهرَّ وجهُ الحاكم ووجَمَ، وراح يسأل النساء المسؤولات عن قصر الضيافة: ما الذي دَهَى هذه الفتاة؟ ولماذا تبكي بهذه الصورةِ؟ هل تأذَّتْ من أحدٍ في القصر؟ هل...؟

لم تستطعْ واحدة من المشرفات على القصر، واللاتي تسلمن الإماء الصغارَ من مسؤولي الإشراف على القافلة ـ الإجابة، لأنهن خِفن من الرجل، حتى وهن بريئات من أسباب بكائي!

... وجاء الفرجُ: تكلمتُ وأنا مستمرة في البكاء المتقطع. استجمعت بقية شجاعة، لأقول له بالبلوشية المضاف إليها كلمات عربية (معجمة) تلك الجملُ التي لم أعرفْ كيف نطقتُ بها أمام ذاك الرجل الأسطوريّ. وأظن أن (المترجمَة) قد خففتْ من شكلِ الأسئلة ـ لا المضمونِ ـ التي أطلقتها مدوية في تلك اللحظاتِ الرهيبة:

... يأيهُا الحاكمُ: لماذا تسرقون أبناء الملوك الذين يماثلونكم في طيب الأرومة وعراقة المنبت؟ أين دينكم وعاداتُكم البدويةُ؟ ثم أين ذهبتم بصديقتي (مريم) الإماراتية التي لم أشاهدها منذ أول أيام وصولنا إلى بلادِكم؟

وللحظات ـ خلتُها دهراً ـ توقفَ كلُّ شيء: بكائي، وأنفاس الفتيات المختطفات، ولم يكن حالُ المشرفاتِ على (الجواري) أفضلَ حالاً!

أما هو فقد كانتْ نظراتُه المحرقةُ تدور تارةً في الفضاءِ الأعلى، ثم تنزل باحثةً عن شيءٍ إلى حيثُ وقفَ الجميعُ.

وبعدَ صمتٍ قصيرٍ، سألني: ما اسمك؟ ومن أين أتى بك الجالبون؟ ومَن هي أسرتك؟ ثم ما هي قصة (مريم) الإماراتية وما علاقتك بها؟

أسئلةٌ تحتاج ـ بالتأكيد ـ إلى موقف أكثَر هدوءاً من هذا الموقف. لكن الإجابة الحاضرة الناجزة لابدَّ منها أمام رجل مثل هذا الرجل..

قلت له وأنا أُتعب نفسي في اختيار الكلمات العربية المناسبة، التي أمكن لقاموسي المتواضع من هذه اللغة أن يضمَّها:

اسمي (مريم). وأنا من بلوشستان. وبلدي اسمها بنقلان وأهلها كلهم مسلمون. و...

...عندما هممتُ بتكملِة الإجابات وما أريد قولَه، تذكرتُ أنني في حاجة مُلحةٍ لمعونةٍ عاجلةٍ من المترجمة، لتنقل للحاكم الكلماتِ التالية التي كنت أظن أنها عصية على الفهم، إن لم يتداركني ربي.. ثم المترجمة:

سبقَ أن أوحى لنا في (مسقط)، أن نقول لك ـ وأنت المحبُ للعدلِ والإنصافِ ـ بأننا (بنات) أكابر طائفة المجوس في إيران، وأن ذلك سيكون مدعاةً لرضاك وابتهاجك المضاعف: بالهدية... وبكسر شوكة أعداء الدين. وحُذرنا من أن نتفوه عندك بما مـرَّ علينا من رزيئة الاختطاف، وعارِ سرقتنا ونزعنا من دفء أحضان أهلنا. كان من المفروض أن يكونَ هذا ردَّنا (الجماعيّ) على أسئلتك للفتيات اللاتي هن الآن في حضرتك. لكنني ونيابة عنهن وعمّن أتى قبلنا وبعدنا، أُناشدُ ما استقر في نفوسِ الناسِ عنك، من أنك العدل والاستقامة تمشي على الأرض. وأنك أبٌ للمظلومين المكلومين والذين لا أبَ لهم. أناشدك أن ترجع من يريد من الفتيات ـ والفتيان ـ إلى حيث أتوا، وإلى حيث ينشأ الإنسان في بيئته الإنسانية الطبيعية، بعيداً عن الاستعباد والسّخرة والقهر. ثم هل لي يا سيدي أن أطلبَ منك شيئاً آخر؟

وبدون أن أنتظرَ الإجابة أكملتُ ما أريد قوله: مريم الإماراتية.. أين هي يا طويلَ العمر؟!

انتظر الجميع وخاصةً المشرفات على قصر الضيافة حدوثَ أمرٍ جَلَلٍ.. مصيبة ـ مثلاً ـ وقطعَ ألسنة... لكنَّ ما وقع كان مُغايراً جداً:

انسدل (ابن جلوي) على كرسي خشبيّ سبق أن هُيّئَ له في أحد أركان القاعة الكبيرة التي احتشدنا فيها، وبشكل أعطى الانطباع بأن الرجل قد (صُدم) من مضامين كلامي، وأن ما سبق أن قيل له عن جذور وأسباب تجارة العبيد و (الهدايا) مخالفٌ للحقيقة... سمعته يقول:

لا واللهِ لا نرضى بما هو مخالف لشرعِ الله وما بينه نبيُّنا ـ صلى الله عليه وسلم. (ابن دايل) ـ قبَّحه الله ـ ذكرَ لي أن (العُمانيين) يريدون أن يُهدوا لي (جارية)، أهلُها (يحاربون) المسلمين في شرق الخليج. إنني يا (بنيتي) لا أرضى باستعباد صغار أو كبار من يخالفون ديننا.. غير المحاربين، فكيف بأبناء المسلمين؟ وخاصة إن كانوا أبناء ملوك.

... واللهِ يا (ولدي) هذا ما قاله (ابن جلوي) بالحرف الواحد. وفي قوله ـ كما يحدثني قلبي ـ صدق وجهر بالحق، على أنني (بنيّ) لا أستبعدُ أن يوجدَ بين أهلك وكبارِ قومك في بلادكم قديماً، من كان يعرف ـ ويتجاهلُ ـ الحقيقة: حقيقة مَن هم ومَن هن العبيد والعبدات، وكيف يُسرقون ويُختطفون ويُجلبون؟

...علمتُ، (بني)، لاحقاً، أن (ابن جلوي) أمرَ مساعديه بأن أضمَّ إلى أهل بيته كضيفةٍ، وأن أعاملَ (كأميرة) إلى أن تتوافر ظروف رَجْعي إلى حيث جئت. حال أن يتأكدَ الحاكم الإحسائي من قولي ومن سريان صدقية حججي على جميع من قابلهم يوم ذاك، من ذكور وإناث، أعدهم (ابن دايل) وأشباهه، لأن يكونوا خدماً وسراري.. للسادة في الجزيرة العربية.

علمت كذلك أن (ابن جلوي) أراد أن يؤدب (ابن دايل) على كذبه وتحايله، وعلى نفخِهِ لروح الغش والتدليس في نفوس تجار العبيد الآخرين، الذين تعلموا على يديه أشياءَ.. وأشياءَ. لكن، ولسوء حظي وحظ من نكبوا عبر أفعال مروجي النخاسة، كان (ابن دايل) هذا قد غادر الإحساء ومعه كثيرٌ من الإماء والعبيدِ ـ ومنهم أختي (مريم) الإماراتية ـ إلى الرياض وجدة، وإلى حيث ينتظره كثيرون"!!

طرحتُ على والدتي بعد أن استمعتُ لـ(أعاجيبها) هذا السؤال:

"كم مرَّ من الوقت عليكِ ـ أطالَ الله عمرَك ـ وأنتِ (مضمومةٌ)

إلى قصرِ حريمِ (ابن جلوي)؟ ...سؤالٌ آخر أرجو أن يكون خفيفاً عليكِ: كيف عُوملتِ ـ كفتاة ـ هناك"؟

الإجابة كانت سريعةً ومرفقةً ببدايات ابتسامةٍ خفيفةٍ:

"عام كامل من سنة 1366هـ[1] وحتى 1367هـ[2] قضيته في قصرِ الحاكم. أما معاملتي فقد كانت مثاليةً مع بعض الاشمئزاز ـ المتوقع ـ من قِبل خدم القصر تجاه هذه الأعجمية المدعية أنها من جذورٍ ملكية!

...عشتُ سنةً كاملة لا أرى فيها الحاكمَ المُهاب إلا نادراً، وعندما أراه أشعر أنه يعاملُني كابنته. لم ألمس منه (رغباتٍ) أخرى البتة. شملني الرجل بشعور الأبوة، المضاف إليها الاحترامُ للنسب الكريم الذي تأكد ـ بطريقته الخاصة ـ أنني بالفعل منه. هذه المعاملةُ وجدتها كذلك عند زوجة الحاكِم... بنت عمه (ابن مساعد) وكل عائلتهم تقريباً.

عايشتُ يا (بنيّ) هذه المساكنة المحفوفة بالتقدير والاحترام لمدة عامٍ كامل. وفي كل يوم، كنت أنتظرُ أمراً من (ابن جلوي) لمساعديه، بأن يعيدوني إلى حيث ملاعبُ الصبا، التي تجاورها كذلك أماكن الأحزان القديمة! وخلالَ انفراطِ أيام وأسابيع وشهور تلك السنة، بدأت الآمالُ المحمومة في العودة السريعة لأرض الوطن تضمحلُّ، وبدا أن سؤالي الملحَّ الدائمَ عن مصير (زميلاتِ) رحلة العبودية ـ ما عدا مريم الإماراتية ـ قد تحول إلى اهتمام بالمصيرِ الذاتيّ.. فقط.

وقبل أن تلفظ تلك السنة (الرماديّة) أنفاسَها الأخيرة، سرت إشاعات أحدثت ضجة كُبرى في الإحساء، ثم أصبحت تلك الإشاعات حقيقة مؤكدة، عندما أمر (الحاكم) يوماً زوجته وبناته الطيبات، بأن يذهبن لقصر الضيافة لإعداده بشكل لائق لاستقبال زائر عظيم، ولم ينسَ

(1) الموافق لسنة 1945م.

(2) الموافقة لسنة 1946م.

الرجلُ المهابُ، التأكيدَ على جاهزية المطابخ ومعاميل[1] القهوة، ثم ذكَّرَ كبير الإحساء عائلتَه بضرورةِ صرفِ كسوةٍ[2] لائقة لساكني منزل العائلة ـ وأنا منهم بالطبع ـ أما سبب كل هذه الأوامر والاستعدادات؛ فلأن: ولي العهد السعودي الأمير (سعود بن عبد العزيز) سيحلُّ في آخر الأسبوع ضيفاً على (والي) أبيه في الإحساء!!

...إذاً فـ(سعود) سيكون هنا.. حيث كنت. إنها بدايةُ كتابةِ صفحةٍ أخرى من صفحات حياتي... بل إنها (أم) الصفحات.

16

أنا.. وهيَ، كنا نحتاجُ إلى دقائقَ.. إلى استراحةٍ، لا تفصلُ بين تدوين نوعين من التاريخ (= تاريخها) فحسْب؛ إنما كذلك ليكونَ هذا الوقتُ المستقطعُ (فرصةً) لكلينا، تُمكننا من شحن (بطارية) شجاعتنا، الموشكة على النفاد .

هي خائفةٌ على أن تتحايل روحُها على عقلها، ومن ثم تخرج أقوالها المحبوسة منذ سنوات وهي باهتة شاحبةُ المعالم، كما هو حال تاريخنا العربي الحديث والقديم، الذي تدخَّلتْ الأهواءُ والأقوال في تفسير أحداثه، والتي لن تخرج عن تخريجات نمطية غريبة تقول: تلك أمةٌ قد خلتْ، وما علينا مما حدثَ وشجرَ بينهم!

(1) معاميل القهوة: معدات حمص القهوة وتقديمها للشاربين.

(2) الكسوة: ما يصرف كمعونة للعاملين في القصور، وتأتي على شكل ملابس صيفية أو شتوية.

هي خائفة أيضاً أن يطغى التاريخ الكليُّ الذي عايشته بوقائعهِ الكثيرةِ وأحداثه؛ على الأهم: انعكاسات هذا التاريخ عليها، بحيث لا يمكن التفريق بين القراءة المسليةِ للإخباريات القديمة، وبين ما كان من المفروض أن يسمع من بين أسطر التاريخ، من تدفقات هائلة، للآهات والدموع البشرية، وما بينهما من ضحكاتٍ قصيرة.

أما (أنا) فكان خوفي أشدَّ وأعمق؛ فكيفَ لي وقد حزمت أمري ــ تقريباً ــ على تحويلِ سردياتِ فتاة بنقلان إلى رواية؟ كيف لي أن أفرق بين الخاص والعام وبالعكس؟ بين رغبتي الطبيعية في إنصاف تاريخ والدي، وبين (الحقائق) التي قد تكون موجعة حارقة (لي) أحياناً، وحيناً آخر تتمثل وكأنها النسيم العليل والهواء المنعش، الذي يعيد لنا رغبتنا في العيش مرة أخرى. الحقائق للباحث عنها، راحةٌ وظلٌ من سعير الأكاذيب. ولكنها في نفس الوقت، قد تكون عندما تبدي وجهها الآخر، ضارة أشد الضرر ــ بالبعض ــ الذين نرتبط معهم برابطة الدمِ والتاريخِ والمصيرِ!!

كانت الدقائقُ الفاصلةُ بين الاستماعِ إلى ما كان من أمرِ والدتي قبل أن تقابل (عمَّها) سعود... وما بعد ذلك؛ ضرورية ــ برغم قصرها ــ لتقرير الكيفية التي ستقولُ عبرَها (أمُّ مقرن) تاريخها. والكيفية التي (سأخرج) بها ــ أنا ــ هذا التاريخ.

لقد عرفنا ــ أنا وهي ــ أننا سنطلق أعذاراً وهمية عندما سرقنا تلك الدقائق: هي اعتذرت بأن ثمة حاجة ستقضيها في دورة المياه اقتضت هذا التوقف. وأنا بدوري تحججت بأنني ذاهب خلال مدة التوقف إلى حيثُ سيارتي التي نسيت على أحدِ مقاعدِها هاتفي الخلويّ...

الحقيقةُ: لا أنا.. ولا هيَ.. كنّا صادقيْن!

عندما عدتُ إلى حيث كان الردُّ، وإلى حيث كنتُ أدوّن وأسجلُ، وجدتُها تُمسك بقطعة (السدو) التي كان من المفروض أن تكون من أهم

موجوداتِ (إرث) جدي لوالدتي. ولِمَ لا فـ(أم حسين) هي التي حاكته توطئةً لأن يكون (مرسالَ) محبةٍ منها لزوجها الذي مالَ قلبُه لامرأةٍ أخرى!

لماذا كانت والدتي حريصةً على وجود هذا الشيء التراثيّ ذي الحكاية القديمة... بين يديْها؟

لا أعلم تماماً السبب، إلا أنه يمكن رَجْع ذلك، إلى أن والدتي قد حاولت ــ مجردَ محاولةٍ ــ إهداء نفس السدو (لعمها) سعود، علَّ هذه الأصواف والأقمشة تستطيعُ أن تقولَ: أشياءَ لا تستطيعُ الصبيةُ (الأعجميةُ) الخائفةُ أن تقولها.

الألسنُ عادةً لا تقولُ ما تريد قوله في حضرةِ الملوكِ. فكيف إن كان هذا (السلطان) أو ذاك مشغولاً عن مرامي القائل المفترض، مرةً بحجة الحُكم وهمومه، ومرةً لأن القلب لا مكان فيه لمزيد من مثل (إشاراتِ) فتاة بنقلان.. ثم مَن تكون هذه (البنقلانية) حتى يهتم الملوكُ بقلبها، ولهفتها.. وسدوها؟!

ولئلا أنشغل ــ وقد كان هذا بالفعل ــ بحكايةِ (السدو) الذي في يديها، بادرتني والدتي بسؤالٍ عما دار في مفصلٍ زماني، بعيد نسبياً عن الزمن الذي رأت فيه والدي لأول مرة:

"تذكرُ يا (سيفُ) ما سبق أن قلتَه لي، عن تلك النظراتِ التي أسركَ بها والدك وأنت تودعه للمرة الأخيرةِ عند باب مصعد فندق (كافوري) بأثينا؟ ذكِّرْني بها ــ لو سمحت ــ مرة أخرى؛ لعلها تكون مدخلاً لحديثي عن أول لقاءٍ لي به"؟

ذكية جداً هذه العجوز! تقود مسار الأحاديث والحكايات إلى حيثُ شاءت. وإلى حيثُ هي قادرة على لعْب الدور الأول والطاغي في الحكاية... لا بأسَ... وليكنْ هذا. فلأجْل إتمام (عملي)، لا ضررَ من إشهارٍ ــ مؤقت ــ للتغابِي والانقيادِ.. أجبتُها وأنا أطلق (نحنحة) مُصطنعة:

"أتذكَّرُ أنني قلتُ لك شيئاً من هذا. وأتذكرُ أنا الآن هذا الشيء مع ضبابية استحضاري له، فللأعمارِ ـ والدتي ـ كما تعرفين.. أحكام!

..كان هذا في أواخر صيف عام 1388هـ[1]. صباحَ ذياكَ اليوم لم يكن مثلَ مسائه؛ فقبل أن ننام، نحن الجيل الشاب من أبناء الملكِ المغترب المملوء بالهموم والانكساراتِ، سمعنا تأكيدات على أن (الوالدَ) اتخذ قراراً مهماً، سمعنا أنه أمر إخواني الذكور الأكبر سناً، ممن قدموا معه منذ (عزله) من الحكم، والذين سبق أن تبوؤوا مراكز حساسة في ديوانه الخاص أو في الجهاز الحكومي السعودي من قبل؛ أمرهم بأن يعودوا إلى (الرياض) حيثُ ينتظرُ عودتهم على أحرٍّ من الجمر (أعمامهم) الذين امتلؤوا غيظاً عليهم؛ لأنهم ـ في اعتقاد الغاضبين ـ قد دفعوا والدهم المُبعد (بشروط) إلى أثينا، حتى يهاجم نظام حكم عمهم الملك (فيصل). ولأنهم كذلك، دفعوا والدَهم لزيارةِ اليمنِ الثـوري، حيث أطلقَ الملكُ السابقُ ـ بتحريضٍ منهم ـ تصريحاتٍ مؤذيةً للكيان السياسي في الرياض. والدي ـ رحمه الله ـ وصلَ إلى قناعةٍ في أواخرِ خريفِ السنةِ الأخيرةِ من عمره، إلى أن الحرسَ القديمَ من أبنائه، قد ضللوه وساعدوا على سرعة زوالِ حكمه.. أكثرُ من ذلك:

هؤلاء الأبناءُ لم يعودوا يلازمونه في أيامِ مرضهِ بـ(أثينا)؛ فهم مشغولون بلهوهم ونزق شبابهم المتأخر، عن مواساتِه والتخفيف من مُصابه في ملكه. ولأجل هذه الأسبابِ كلها وأسباب أخرى، فكَّر (الوالد) بأن يأمرَ الجميعَ ـ الذين أتوا معه من الرياض منذ أولِ أيام الاغترابِ، بالعودة إلى حيثُ المكانُ، الذي لم يظنوا أنهم عائدون إليه مرة أخرى.. إلا وهم أمراء يأمُرون ويُطاعون على مستوى الأمة مثل

(1) الموافق لسنة 1968م.

السابق، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن الزمان غير الزمان، وكراسيّ الحكم لم تستبدلْ ملوكاً بآخرين!

...تطلَّعنا ـ نحن الجيل الشاب ـ إلى لعبِ دورٍ أكبر ومؤثرٍ في حياة والدنا، تبدد مع إشراقةِ شمسِ اليومِ التالي لـ(إشاعات) الإقصاء والاحتواء. القرارات (الثوريةُ) للملك تحولت في أقل من اثنتى عشْرة ساعة، إلى إقرارات تعترف بالأمر الواقع والحنين إلى السلوك المبهم القديم المستمر للأبناء كبار السن، والذين تستطيع وسوساتهم، قرْب أذنِ أبيهم ـ المشتتِ التفكير والمشاعر ـ قيادةَ دفة مسيرة الحياةِ، لمن كان ملءَ السمعِ والبصر، ثم أصبح بعد ذلك غريباً مُقصى من بلاد الآباء والأجداد ـ والتي قام بجهد لا يُنسى في توحيدها ـ إلى بلاد الإغريق المليئة بأخبار فلاسفة العصور القديمة، والشارحين كيف تقوم وتسقط الأمبراطوريات والممالك!

...في الصباح جاء الأمر (الملكي) بأن على كل الجيل الشاب من الأبناء والبنات ومرافقيهم، العودة اعتباراً من صبيحة يوم نفير المغادرة للرياض. كما شملَ مضمونُ الأمر، تذكيرَ (الآخرين) الذينَ سيبقون مع (الوالد)، أنَّ عليهم إعدادَ أنفسهم لمغادرة اليونان برفقة الملك السابق إلى القاهرة، حيث ينوي ـ طويلُ العمر ـ عقد اجتماع عاجلٍ مع الرئيس المصري (عبد الناصر)، بعد أن بلغَ (الوالدَ) خبرٌ غيرُ مؤكد، بأن الملك فيصل أبلغ الرئيس المصري، أثناءَ انعقاد مؤتمر قمة اللاءاتِ الثلاثِ في (الخرطوم) بأن الشكوكَ ستحيطُ بقرارات القمةِ الحاسمةِ المزمع اتخاذها من قِبل الزعماء العرب، وبأنه في حلٍ من عقد أي مصالحة أو حتى غفران للتاريخ العدائي بينهما. وأنه (= الملك فيصل) لن يستطيع إقناع حكومتهِ بدفعِ مبالغَ للدول العربية المتضررة من العدوان، ومنها مصر، ما لم يَقُم الرئيس (عبد الناصر) والخارج من هزيمةِ حزيران، بتحجيم دور

الملك (سعود) السياسي، ويوقف إزعاجه المتنامي للحكم في الرياض، عبْر اتصالاتِ الملكِ السابق ـ واللاجىء حـديثاً للقاهرة ـ بالمعارضين السعوديين في الداخل، على أملِ العودةِ عبْرهم للحكم مرة أخرى!!

كيف انعكست تلك الإشاعاتُ على الخريف السعودي في أثينا؟

الانعكاسُ كان واضحاً على الأبناء الفتيان الحالمين بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراثِ الحكمة الغاربِ عند الملك (سعود). لقد فهمَ هؤلاء، ألّا أدوار مُتاحة يمكن أن يلعبوها بجوار والدهم. وهذا يعني، كذلك، أن يبقى الحالُ على ما هو عليه: ملك سابق يبحث عن قطعةِ خشبٍ عائمةٍ لإنقاذ تاريخه أولاً، ولمساعدته، ثانياً، للعودة إلى جنة الأضواء.. إن أمكن هذا. لكن القطعة الخشبية كانت ضعيفة جداً؛ لأنها لم تكن سوى هذا وذاك من الأبناءِ المخضرمين والذين لا يملكون حلاً يقدمونه للملك الطيبِ المخدوعِ!

...تقبلنا الأمرَ الملكيَّ بالقبولِ، لأنه لا بديل أمامنا سواه. أسفنا جداً على أنفسنا.. وعلى والدنا الملك السابق. لكنَّ آمالاً جديدة بـ(صحوة) قريبةٍ، خففت من تلك الأحزان والإحباطاتِ، إلى جانب انشغالنا بعدِّ المساعدةِ الماليةِ المجزيةِ التي تسلَّمْناها من أمين صندوق الملك!

قبل العصْرِ من يومِ مغادرة العاصمة اليونانية، وبينما كان صغارُ الأبناءِ والبناتِ يتجمهرون عندَ البوابة الرئيسيةِ الداخليةِ للفندق الأثيني (كافوري)؛ انتظاراً لعودةِ والدهم من عيادة فحصِ وعلاجِ الأسنانِ، دهمني شعور غريب، بأنني لن أستطيعَ مرةً أخرى رؤية الرجلِ شبهِ المقعدِ الذي أحبيته بجنونٍ!

يا الله...!! كم هي صعبةٌ مشاعرُ الفقدِ والحرمانِ في المجمل، فكيف إن كان الأمر يتعلقُ بالمحبين.. أسبابِ وجودنا؟!

تعمدتُ أن أكون آخرَ واحدٍ من أبنائه المودعين، وعندما هممت بتقبيل يده اليمنى مودعاً، جذبني من ذراعي ليحتضنني بشدةٍ...

اغتنمتُ هذه الفرصَة ـ التي لا تتكررُ كثيراً ـ لأقبل جبينه وخديه، طلبتُ باكياً السماح والإذن بالسفر، ودعوت له بطولِ العمرِ والتوفيقِ والسؤدد!

لم يترك يدي بسهولةٍ.. رمقني بنظرةٍ مازلتُ أحفظ تفاصيلها في ذاكرتي مهما توالت السنون وتعاقبت الأحداثُ...

...تلك النظرةُ كانت تفشي خليطاً من مشاعرَ عديدة فيها: الأسى والإحباطُ وفقدانُ الأمل، والعجزُ عن معرفةِ ماذا يدور.. وكيف سيكونُ قادمُ الأيامِ. نظرة فيها الاعترافُ المكتومُ ـ المتأخرُ ـ بالأخطاءِ، والذعر من فيضانِ الحقدِ والقسوةِ، هذا الفيضان القاسي الذي فتح سدوده عمداً (الأهل) والإخوان في الرياض، وآخرون لطالما صفقوا وهتفوا.. لأبي فهد[1].

...من خلال التياعي ذاك، رأيتُ ـ والدتي ـ دمعةً حائرة في عين (الملك) يجاهد ألّا تفضحَ ضعفه.. لكنه لم يستطعْ. انسابت بهدوء.. وسمعته يقول لي كلمات لا أنساها أبداً ما حييتُ:

"بلغْ سلامي لوالدتِك، واحرصْ على نفسك... والله خيرُ حافظٍ وهو المُستعان"

استمعتْ والـدتي، لتلك الحكاية القـديمةِ بإنصاتٍ وتركيزٍ شـديدين. وكم كان تَعجُّبي كبيراً؛ لأنني لم ألاحظْ، وهي تصغي لتفاصيل وقائع لقائي الأخير مع والدي، أنها استدعتْ ـ مثلَ المعتادِ ـ

(1) كنية الملك سعود. وفهد هذا أكبر الأبناء الذكور للملك سعود بن عبد العزيز وسبق أن شغل منصب وزير الدفاع والطيران في عهد والده ولايزال فهد حياً حتى كتابة هذه الرواية.

تلك الكميةَ الكبيرةَ من الأحزانِ، التي تهطلُ كلَّما جاءَ ذكرُ محنة السنواتِ الأخيرةِ لوالد أبنائها .

لكن تعجُّبي زال حالَ تعقيبِها على (حكايات) الزمنِ الماضي. كان ما تريدُ قوله يخالفُ تماماً الأجواءَ المأساويةَ لذلك اللقاءِ الوداعي:

"يا للْفرق...!! شتان بين كآبة لقائك الأخير بوالدك، وبين الأجواء الاحتفالية التي قابلت والدك تحت خيمتِها في الإحساء.

...إنني أتذكر:

منذ الساعةِ الأولى لوصولِ والدك إلى الهفوفِ بدأتْ احتفالاتُ الأهالي بقدومه، كانت احتفالات عفوية، فيها رقصات شعبية لأهالي الإحساء من الشيعة، ورقصات العرضة النجدية التي يؤديها رجالُ القبائلِ النجدية عماد الجيش الحاكم السعودي في المنطقة الشرقية. الموائد المتواضعةُ ـ فقط ـ وحّدتْ أنواع التعبير الترحيبي للأهالي. لقد مدت تلك الموائد على طول الطريق الذي سيسلكه والدك، بعد أن يدخلَ من أحد أبواب سور الهفوف والمسمى... (باب الرياض)، إلى أن ينتهي مسارُ الموكب عند عتبات قصرِ الضيافة.

...وكأنني ـ يا ولدي ـ أرى الآنَ تلك الميزات[1] التي كانت تحوي: تمر (الخلاص) الإحسائي الشهيرِ والألبان وشحم النخلِ، إنه كرمُ الناس الفقراء من كل شيء، إلا من المحبة والمودة اللتين يبديهما البسطاء تجاه الضيف الكبير المشهور بكرمه ولطفهِ وتواضُعِه.

...كانت سمعةُ والدِك يا (سيف) تسبقُه في داخلِ المملكة حيثُما وأينَما حلَّ ركبُه واتجـه. فمنذ أن أوصى جـدُّك الملك (عبد العزيز) بتوليةِ ابنه الأكبر (سعود) ولاية العهد، بعد أخذ موافقة جميعِ أفراد الأسرة المالكة، مع وجود تحفظ للقِلّة من الأمراء المنافسين النافذين،

(1) الميزة: كلمة غير عربية تعني السماط الذي توضع عليه الأطعمة.

لهـذا الاختيار؛ مُذَّاك التعيين والذي أعتقد ـ إن لم تخني الـذاكرة ـ أنه كان في منتصف عام 1353هـ[1] ـ ووالدك يحقق ارتقاءات في سنم قلوبِ الرعية؛ لأنه أولاً يشبه والده العظيم المُهاب، ولأنه كان يوزع الصدقات والأُعطيات على الضعفاء والمساكين ـ وما أكثرهم في بلاد العرب! ولأن النـاس كـانـوا يشعـرون بأن الرجل يقف وحيداً ضد المنافسين الآخرين فقد أحبوه، وخاصة بعد وفاة عضده وشقيقه الأكبر (تركي)، من جراء مرض يسمى (الحمى الأسبانية) الذي دهم عموم جزيرة العرب في عام 1339هـ[2]. وجدان العامة كان دائماً مع الضعيفِ ضدَّ القوي. والجانبُ الضعيفُ كان يتمثل في والدك الملك (سعود). أما الجانب القوي فقد كان يضم أمراء لا يجمعهم سوى كُره هذا (السعود) الذي اختصه والده الإمام بحبِّه ورعايته. مع أنه ـ في رأي المعارضين الأمراء ـ لا يستحقُّ أن يكون ولياً للعهد؛ لما أشيع عبر (حاقدين) عن ضعفه السياسي وميله للدعة، ورغبته في إدخال وسائل الترف والتحضر سريعاً لبلاده المحافظة.

الرعيةُ التي شعرت بما يحاك ضدَّ أبيك، فرحتْ بتوليته للعهد؛ لأن ذلك في رأي البسطاء كان أمراً منطقياً؛ فـ(سعود) لا تنقصه الخبرةُ السياسيةُ ولا العسكرية، فحروبه وفتوحاته مع أبيه تارةً، وتارةً منفرداً، تشهد له بذلك. أما إشاعة ميله للدعة، فلم يكن أمرَ تسويقها منطقياً، في بلاد لا يتوافر فيها مظهر واحد من مظاهر الترف والزيـادة عن الحاجة. وهناك شيء آخـر خطف إعجـاب رعيـة (ابن سـعود) تجاه ولي عهدهم المقبل: إنها قصةُ افتداء الابن والدَه الملك (عبد العزيز) عندما هَمَّ انتحاريون يمانيون، أرسلهم (إمام اليمن)، لقتلِ الملكِ المؤسسِ أثناء

(1) الموافق لسنة 1933م.

(2) الموافق لسنة 1919م.

طواف الجمع الملكي حولَ الكعبةِ المشرفة. هناك مـال (سعود) بكتفه نحـو يدِ (الزيدي)[1] الحاملةِ سكيناً قاتلاً، حتى يحولَ بين القاتل والقتيل ـ المفترض ـ العظيم. وبهذا نجا (عبد العزيز) بفضلِ فداء وشجاعةِ والدك، مع عدم نكران فضائل الحماية الربانيةِ التي وقفتْ مع الملك المؤسسِ كثيراً. وهكذا أشيع خبر المحاولة والبطولة، وهكذا أيضاً كسب والدُك درجة محبةٍ إضافيةً عند الناس... المحايدين!

...شخصياً، لم أكن أعرف بالتأكيد تاريخَ الصراع على الحكم في السعودية إلا عندما علمتُ كثيراً من أسراره، أثناء مكوثي في بيت (ابن جلوي). لكنني لم أفاجأ بحدوثه في هذا البيت العريق؛ لأن الصراع على الهرم القيادي سمةٌ شائعة في كل الممالك والإمارات.. حتى عند البلوش. وأكاد لا أغالي إن قلتُ إنها عادة شرقية، نراها في بيوتنا كما في قبائلنا، وفي أي تجمع سلطوي شرقي على بساطته.

ما فاجأني في شكلِ وهويةِ هذا الصراع (السعودي) هو اللغةُ المؤدبةُ الخجول التي يتكلم عبْرها أحد الفرقاءِ عن موقفِه ومواقف الآخرين، وأظن أن الجانب الآخرَ يشارك مقابله في هذه الخصلة الحميدة!

...ما حدثَ لوالدك في الإحساء خيرُ مثالٍ على ما أقول:

بعد أن هدأتْ الانفعالاتُ والأهازيجُ المرحبة بولي العهد، قاد (سعود بن جلوي) ابن أخيه وليّ العهد إلى قصر الضيافة، حيث من المقرر أن يستريحَ الزائرُ الكبيرُ من وعثاء السفر. في خلوة تمتد من ظُهر ذاك اليومِ وحتى إلى ما بعد العصر. وكان من المفروضِ، كذلك وبعد الاستراحة المخطط لها، أن يوجد الزائر الكبير في الساحة الشعبية لمدينة

(1) الزيدي: نسبة لمذهب الزيدية، وهو أحد المذاهب الشيعية. والذي يقال إنه أكثر المذاهب الشيعية قُرباً للتصور السني لأحداث التاريخ الإسلامي .

الهفوف؛ وذلك لحضور مراسم احتفـالات الأهالي المرحبةِ به.. والتي منها الخطبُ والقصائدُ النبطية والتقليديةُ والرقصاتُ المختلفةُ.

وعند الوقتِ المحددِ لخروج ولي العهد لساحة الاحتفالات، مرَّ عليه مُضيفه، حتى يصحبه مُكرماً إلى حيث تنتظرُ الجموعُ المنتظرة..

لكنَّ شيئاً (ما) كان يشعرُ به المقربون، ويعطي إحساساً بالضيق، هذا الشعور لم يكن خاطئاً... ما السبب؟

أثناء خلوة ليلةِ قدوم الزائر المحتفى به، قالت لي إحدى بنات الأميرِ (سعود بن جلوي) من زوجة أخرى إن توتراً عارضاً قد شاع في القصر. وإن التوتر جاء على خلفية برقية تسلَّمها ولي العهد من أبيه الملك في الرياض. وأن البرقية فيها أمر لوليِّ العهدِ بتسليم أحد القصور المتواضعة العائدة له في جدة، إلى الأمير (فيصل) الذي كان نائباً لوالده على الحجاز. لم تكن البرقيةُ تشير إلى أن هذا التسليمَ يعني غضباً من الملك المؤسسِ على ولي العهد، لكنها (= البرقية)، وكما يبدو، جاءت بهذا الشكل، بعد أن تذمَّر (فيصل) من عدم وجود قصرٍ لائق له في جدة، وشعوره بأن ولي العهد يمكنُ أن يستغنيَ عن هذا القصر لنائب والده هناك... ولو مؤقتاً.

شعر والدك بضيقٍ كبيرٍ، وانتقلت عدوى التوتر (لابن جلوي) كذلك، لكن الاثنين أسرعا بالمضي في إتمام طقوس الاحتفالات إلى نهايتها قبل صلاة عشاء أول أيام الزيارة، حتى لا تنتقل الأخبار وصيغ البرقيات بشكل مغلوط إلى المحتشدين في الخارج.

...عند المساءِ ـ وكما أخبرتني الابنةُ الوسطى لحاكمِ الإحساء نقلاً عن والدها ـ تداول الضيفُ والمضيفُ الآراءَ حول ما يجري:

قال ولي العهد الأمير (سعود): إنه يشعر أن (فيصل) لا يبادله المحبة والمودة اللتين تغمران قلبه تجاهه. وإنه ـ وأقسمَ على هذا ـ لا

يرى أن المنافسةَ بينهما ستعودُ بالفائدةِ على استقرار الحكم، وخاصةً أن الملك (عبد العزيز) بدأ يشكو من أمراضٍ عدة، وأنه (= الملك عبد العزيز) أخذ يُقرِّب ـ كما يفعلُ كبار السن عادةً ـ نساءه الأصغر سناً، وبالتالي أبناءهن عديمي الخبرةِ والتجارب؛ مما يجعل من كلِّ هذه الأسباب مخاوفَ تاليةً لما ستصبح عليه الأوضاع بعد ازدياد علل الملك، أو ـ لا قدر الله ـ عندما يرحل عن هذه الدنيا. لهذا فـ(سعود) يرى أن انسجام ولي العهد مع ولي عهده المقبل ونائب الملك في الحجاز، ضروري للإعداد الهادئ للفترة الانتقالية المقبلة بعيداً عن كل العواطف. لكن الجانبَ الآخر (= فيصل) كان يقوم من حين إلى آخر ـ في رأي ولي العهد ـ بإثارة زوابع من التوتر داخل العائلة، آخرها هذه البرقيةُ التي نصت، عبر أمرٍ من (والد الجميع)، على تنازل الأخِ الأكبرِ للأخ الأصغر عن منزله الخاص في جدة. ويعتقد ولي العهد، أن الملك (عبد العزيز) صاغَ هذه البرقية بحُسن نية،لم تكن متوافرة عند من أوحى ـ من وراء الستار ـ بشكلِ ومضمونِ التوجيه الملكي. ولي العهد يظنُّ أن الأمر من الممكن معالجتُه لو أن (فيصل) طلب، مباشرةً، من أخيه التنازل عن القصرِ، الذي يريده كمسكن لائق له أثناء وجوده على رأس عمله (قائم مقامية) جدة، وفسر ولي العهد ـ أثناء بوحه بتلك الهموم لمضيفة ـ تحركَ (أخيه النائب) هذا، بأنه امتدادٌ لما مضى، واستباقاً لما قد يأتي، من تصرفات يوحي (فيصل) بها للجميع ـ وهو غيرُ صادق ـ بأنها تتم برغبةٍ من (الوالد الملك) وعبرَ أوامِره.

الأدهى من ذلك ـ وكما نقلته الأميرةُ لي ـ أن ولي العهد الأمير (سعود) لديه شك عظيم فى أن محاولات عمه (محمد بن عبد الرحمن) وابنه (خالد) المتكررة لدى الملك (عبد العزيز) لإقصائه من ولايةِ العهد... كان وراءها (فيصل). ويعتقدُ ولي العهد، المحبط دائماً من تصرفات أخيه، أنه لولا وفاة (خالد بن محمد بن عبد الرحمن) في سنة

1358هـ[1] ووالده (محمد) في سنة 1363هـ[2] لاستمرت أعمالُ (فيصل) التحريضيةُ عليه، وعلى المنصب الجديد الذي تبوأه. وأن التشويشَ على منصبه وعلى كل مستقبله في القيادة، قد يؤدي في المستقبلِ لأعمال سوف تهددُ حياته السياسية، إن لم يصل الأمرُ إلى تصفيةٍ جسديةٍ بمعناها الحرفيّ.

...ابنة (سعود بن جلوي) نقلتْ لي حسبما أخبرَ والدُها الدائرَةَ الضيقةَ من أهل بيته انزعاج ابن عم ولي العهد مما سمعه من إرهاصات خلافات مستقبليةٍ، قد تعصف بالبيت المالك الذي سيقوده بلاشك الثنائي (سعود) و (فيصل) بعد فترة من الزمن لا يعلم مداها إلا الله. ومهما تكن مدُة الانتظارِ، فستلي تلك الحقبة حقبةٌ ثانية اسمها (الثنائية القيادية) التي سيتعامل الداخلُ والخارج معها. وحتى تدق ساعة حقيقة الخلافة والخلاف؛ ستُبقي ـ مؤقتاً ـ هيبةُ الملك (المؤسس) والطاعةُ التقليديةُ له، جمراتِ الخلاف بين الأبناء، غيرَ واضحةٍ، وتحت رماد الأيام، إلى أن تحين ساعة الحريق التي لا يرجوها المخلصون. الانزعاج (الجلوي) من هذه النبوءات، ومحاولة إبطالها، تُرجم على شكل فاصل طويل من النصائح والتهوينات، لعلها تجعل ولي العهد ـ الطيبَ ـ أكثرَ استعداداً للمهادنة، وترغبه في تمرير عاصفةِ التحدي القادمةِ من غربِ البلاد.

...الحاكمُ ـ كما روتْ لي ابنته ـ قال للأمير (سعود بن عبد العزيز): إن حالة الشكوك فى سلوك أخيه (فيصل) لا تستند إلى حقائق ملموسة، وليس هناك براهين سوى الاعتقادات والتوهمات، أن هذه البرقية أو ذاك الأمر، أو حتى كل هذه التصرفات، تعني بالضرورة أن

(1) الموافق لسنة 1938م.
(2) الموافق لسنة 1943م.

طابوراً خامساً يحاول زعزعة ثقة ولي العهد في نفسه، أو أن هناك مجموعةً معينةً من الأمراء المنافسين يقومون بتخطيطٍ محكمٍ مدبرٍ لإزالةِ (أبي فهد) من المكان الذي يستحقُّه في قلبِ أبيه وقلوبِ الرعية، توطئةً لزحزحته عن منصب ملك البلاد المستقبلي بعد ذلك.

... الحاكمُ أشار، كذلك، إلى أن إحساس ولي العهد، بأنه وحيدٌ، لا شقيق ينصره، ولا والدة[1] تهمس في أذن زوجها الملك ليلاً بقصص عن فضائل ومحاسن ابنها، كما تفعل نساءُ الملك صغيراتُ السن اللاتى مازلن في ذمته. هذا الإحساسُ عائدٌ ـ كما يبدو ـ إلى أخبارٍ مشوشةٍ ومعلوماتٍ مغلوطةٍ فيها دسٌّ واضحٌ، وتفوحُ منها رائحةُ المكائد النسائيةِ، والأحقادُ الرجالية، التي لا تُستغرب في قصور الملك والأمراء المتنافسين"!

عندما روت والدتي أخبارَ أولِ أيام وصولِ زوجها المستقبليِّ للإحساء، فإنها، وبدون أن تدري ـ بالطبع ـ قد أوضحت ليَ الفوارقَ الكبيرةَ بين كمية التصارُح والشفافيةِ التي كانت جزءاً من شخصيات الماضي. وبين انتشار ثقافة (المسكوت عنه) والتغاضي عن المكاشفة والتناصح، والنهي عن منكر القول أو حتى للاستماع له، هذه الصفات الأخيرة هي ركيزة ثقافة كل أطياف مجتمعنا المحلي في هذه الأيام... والتي يترجم سلوكياتها الهرم والسفح على حدٍ سواء!

أنا متأكد بأن والدي قد أخذَ كلام ابن عمه على محمل الجد، وأنه عمل به.. وإن مؤقتاً. وأنا متأكد أيضاً أن حاكم الإحساء آنذاك لو لم يُهمش ـ وأمثاله من الاستثنائيين ـ من قِبل طرفي صراع أوائل الستينيات، ويقرب بدلاً منه، مَن كان يُغذي تلك الخلافات، ولو أن

(1) وضحى بنت عريعر والدة الملك سعود بن عبد العزيز وأخيه الأكبر (تركي الأول) انفصلت عن الملك عبد العزيز بعيد ولادتها لابنها الثاني بقليل..

أيدي الخيرين ـ مثلَ حاكم الإحساء ـ لم تمنع عن جلبِ الماء المساعد على إطفاء حرائقِ التنازع الأخوي المشهورِ في الستينيات؛ لو لم يحدث كل هذا، لما وقعَ الخلافُ بين الملك (سعودِ) وأخيه ولي العهد الأمير (فيصل). ولما كان من الممكن أن تغرقَ سفينةُ الأسرةِ المالكة السعودية والبلادُ كلها.. لو لم تصنعْ ظروفٌ تاريخيةٌ وسياسيةٌ وحتى نفسيةٌ معينة (قاربَ) نجاةٍ بمواصفاتٍ معينةٍ، استطاعَ إنقاذَ الدولة كنظامٍ، والبلادِ ككيانٍ موحَّدٍ... في آخر لحظةٍ من عمر الأمةِ السعودية!

ولأن لكلِّ تسويةٍ ضحايا، جاء الإنقاذُ المنتظرُ للدولة السعودية في أواسط الستينيات، على حساب غريب اليد واللسان العربيِّ المنفيِّ في أثينا!!

...هناك شيءٌ آخرُ أثار تعجُّبي، وأنا أستمع لحكاياتٍ ومماحكاتِ الأسوارِ الداخلية للقصور الملكية: لماذا لم يأتِ الحديثُ المعنعنُ، على ذكر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يعانيها القسم الشرقيُّ من البلاد السعودية، والذي هو صورةٌ طبقُ الأصل للواقع المضطربِ لبقية الأجزاءِ الأخرى للمملكة؟ لماذا مثلاً لم يَدُرْ حديثُ الأميرين النبيلين، عن الكيفية التي سيتعاملُ بها النظامُ في المملكة مع حقيقة أن هناك تنافراً مذهبياً حاداً بين السلفيين السُّنة من أهل الطبقة الحاكمة للإحساء والقطيف، وأتباعِهم من جندٍ وموظفين ومُسيِّرين للخدمات العامةِ، وبين جُل السكان من الشيعة الجعفرية الاثنا عشرية؟

ولماذا ـ مثلاً ـ لم تنتقل (الراويةُ) عن (الراويةِ) الأخرى أحاديث يستشف منها قلق القيادة السعودية، ممثلةً في ولي العهد، ونائب والده في المنطقة الشرقية، للأحوال المتردية الاقتصادية التي وصلت لها البلاد السعودية من جراء الأزمة المالية الخانقة آنذاك، وتأثير ذلك على الملك (عبد العزيز) ومعاونيه، بعد أن انقطعت تقريباً التدفقات المالية لخزانة

الدولة الفتيةِ، المُحتاجة لكل (ريال) عزيز، قد يساعد على إقامة هياكل طرية، لمؤسسات دولةٍ أنشئت من العدم تقريباً؟!

سؤالي الأخير الذي طرحته على نفسي، يجيء متفقاً مع تسلسل الأحداث العالمية في تلك الأوقات. والتي أجبرت (= الأحداث) الدولةَ السعوديةَ على التكيف معها. فسنواتُ الحرب العالميةِ الثانيةِ التي امتدت من سنة 1939م وحتى 1945م جعلت الإنتاجَ السعوديَّ من النفطِ والذي اكتُشف فقط في سنة 1938م، ينحدر من 14 ألف برميل يومياً إلى مستويات متدنية وصلت في بعض أوقات الحرب إلى أقل من 2000 برميل يومياً.

كان هذا التقليص مدمراً لبلاد أمِلت سُقيا عائدات تلك البراميل، لعطشها المزمن للتحضُّر والتقدُّم والنماءِ. وعندما أثرت الأوضاعُ العالميةُ السياسيةُ وسلامة الممرات المائيةِ على تدفق البترول السعوديِّ لأسواق الولايات المتحدة وأوروبا، فإنها بلا شك قد حطَّمتْ أيضاً آمال القيادة السعودية، في انعتاق سريعٍ من شبه الاعتمادِ الكامل على المساعداتِ من دولٍ أخرى... وخاصةً بريطانيا، تلك الدولة التي كان ـ ولايزالُ ـ ينظرُ إليها السلفيون السعوديون، على أنها دولةٌ كافرة. وحتى عندما عاد البترولُ السعودي إلى مجاريه ومصبِّه، ووصلتْ كمياتٌ كبيرة منه للأسواق الدولية الخارجة من حرب ضروس عالمية يتبعها (عادةً) جوعٌ إلى هذا المصدر من الطاقة؛ فإن هذا لم يكن كافياً للتخفيف من قلق الملك (عبد العزيز) وخلفائه المنتظرين بعده. فالبدو المتلهفون للمساعدات الحكومية، والمشاريع البدائية المعلقة، وأهل الحجاز الذين ازدادت عليهم الضرائب في محاولة لتدعيم الخزانة الفارغة تقريباً؛ كل هذا كان يزيد من وطأة المخاوف التي يمكن قراءة عناوينها التالية: إعادة الأمجاد السابقة قد حدثت، توحيد البلاد بالسيف تحقق، وتقديم دولة جديدة للعالم

الخارجيّ لا صعوبات تواجهه؛ لكن ضمان استقرار الكيان السعودي الوليد غيرُ ممكن بدون المال، الذي يصنع الاستقلالَ الفعليَّ، ويخلق للأوطان نفوذاً على الجوار السياسيِّ، ويستطيع كذلك تغطية أخطاء وزلَّاتِ أزمنة التوحيد والتأسيس!

ألم أكن مُحقاً في استغرابي بألَّا يتضمَن الحديثُ المسائيُّ بين حاكِم أهمِّ منطقةٍ بترولية في العالم، وبين ولي عهد بلادِ العملاق البترولي الجديد.. مثلَ تلك المخاوف؟!

... الحقيقةُ أنَّ هذه الحيرة لم يكن لها مكان عند والدتي؛ لأنها ـ دائماً ـ تعطي الأعذارَ لـ(عمِّها) وأقرباء عمِّها.. القريبين. ولديها ـ دائماً ـ التسويغاتُ المجيبةُ عن الأسئلةِ التي تبقى بدون إجابةٍ.. عند أمثالي. هي مثلاً عندها إجابة لمثل تلك العلاماتِ الاستفهاميةِ السابقة، والتي (خمنت) أنها تدور في ذهني... قالت:

"بالتأكيد الاثنان تباحثا حول شؤون الحكم والأمة الأخرى، لكن (راويتي) الأميرة لم تخبرْني بمثل تلك المناقشات الجافَّة، أو أن والدها أشار إليها إشاراتٍ عابـرة عنها بحيث لم تُثر انتباهها. وعلى العموم فهي (= الأميرة) لم تفهَم حينها شيئاً مما يقال عن الشيعة والسنة، وعن احتياج دولة جدّك للمال والرزق.

لكن ألم يخطر في بالك ـ بنيّ ـ أثناءَ فترةِ صمتِك، أن والدَك يمكن أن يطرح على مُضيفه في تلك الأمسية ـ التي وردتْ أثناء نهارها أخبـارٌ مزعجة للضيف ـ سؤالاً مخالفاً لكل مساراتِ الحديثِ الذي وصلتْنا شذرات منه، أو الذي لم يصل إلينا شيءٌ من محتواه على الإطلاق، سؤال طريفٌ ظريفٌ من مثل: ألا يوجدُ في الإحساء زوجةٌ تناسب وليَّ العهد، وتكون جزءاً من طقوس تاريخ الزيارة وأحداثها"؟

دهشتي لم تمنع جوابي العاجل:

"بلى.. محتملٌ أن يكونَ هذا السؤالُ قد طُرح، وأكاد أجزمُ أن

الذي أثاره ليس إلا رجلاً (مزواجاً).. مثل عمك (سعود). العرب عموماً يحبون الحديث في هذه الشؤون. ويترجمون ـ غالباً ـ أحاديثهم تلك، إلى واقعٍ سريعِ التحقُّق"!

واصلتْ سردها وكأنها لم تنتظر مني جواباً على سؤالها السابق المفروغ من إجابته:

"رأيتُ والدكَ خِلْسةً وهو يخرجُ مع (ابن جلوي) في الليلة الأولى لوصولِه منفرَج الأسارير، بعد الحديث التفاؤليِّ مع حاكِم الإحساء، الذي أزاح ـ مؤقتاً ـ مخاوفَ والدِك مما يعتقد أنه يحاكُ ضده. لم يرني والدُك لحظتَها بالتأكيد، لكني رأيته.. وأعجبت به"!

صمتتْ والدتي هنيهة ثم أضافت وقد تقرمز لون وجهها:

"في الليلةِ التاليةِ، وقعتْ عينايَ عليه بدون حُجُب. خُيل لي، ساعتها، أنني أعرفُ الرجلَ منذ زمنٍ طويلٍ، شعرت بأن شيئاً ربطني قديماً بهذا الزائر، وسيربطني به أكثرَ عندما تتحدد الطرقُ التي ستسلُكها أيامي بعد ذلك. نعم.. في لحظةِ اللقاء الأولِ المباشر، نقش اسمي واسمك في سِفْر حياةِ ضيف الإحساء الكبير، وبداية (النقشة) الأولى كانت: كلماته التي اختصَّ بها.. أميرة بنقلان".

17

"لا أعرف،حتى الآنَ، إن كانت رؤيةُ (عمي) الملك سعود لي، تمتْ بطريقِ الصدفة البحتة، أم أنها بترتيب مسَبقٍ من الأمير (ابن جلوي)، بعد أن يَئِس من إيجاد طريقةٍ مُثلى تعيدني إلى حيث أهلي في

بلادِ بلوشستان، وفكر بدلاً من الرجْع ونتائجه غير المؤكدة، أن (يسوقني) للضيف الكبير المضطرب سياسياً، والقلقِ نفسياً.

... عموماً لقد أدى ـ أحدُ ـ الاحتماليْن، إلى أن تقعَ عينُ ولي العهد على تلك الصبية، التي لم تكنْ تعرفُ، حتى ساعة اللقاء الأول بضيف الإحساء المهم، كيف ستكون ألوانُ المستقبل، و على أي بر سترسو سفينةُ أيامها القادمة"؟!

بتلك الكلماتِ التي تتسربلُ بالتشويقِ والغموضِ، كانتْ والدتي ـ قطعاً ـ تعذُّني نفسياً، لمعرفة الأحداثِ المهمة اللاحقةِ، التي احتفظتْ في داخلها ـ طويلاً ـ بوجهة نظرِها الخاصةِ نحوها... ثم تبعَ تلك الإشاراتِ الاعدادية ـ المفتعلةَ ـ فترةُ صمتٍ غريبة.

لم ترقْ لي تلك اللحظاتُ من السكونِ. وبلا شعورٍ مني بدأت مظاهرُ ابتسامة ماكرة ترتسم على شفتيّ ـ وإن لم تشاهدها بالتأكيد والدتي ـ لكنها على الأغلب، استشفَّت (مكرها) من خلال سؤالي التالي:

"لابد أن الحبَّ، الذي (يقالُ) إنه ـ أحياناً ـ يقع من أول نظرة، قد دهم قلب جميلتي البلوشية! هل شعرتِ ـ أطال اللهُ عمرَك ـ أن الرجل الشهيرَ المحبَّ للنساء، قد وجد فيك ما يسترعي انتباهه المشتت، مثلما نشعر ـ نحن محبِّيك ـ بتفردك وجاذبيتك"؟!

بالرغمِ من حرارةِ الجو وأثقالِ الصيف، لاحظتُ أن والدتي راحتْ تحاول زيادةَ التفافِ (شالها) الأحمرِ الكبير حول نحْرها الرقيقِ وصدرِها الضئيلِ، وتتبع ذلك ـ وبشكل سريع عفوي ـ بمحاولات أخرى لإبعاد قطعةِ الحريرِ تلك، إلى حيثُ استقرتْ سابقاً. كانت ـ كما يبدو ـ تشعر بالبردِ تارةً، وتارةً أخرى بتدفُّقِ الدماء الحارةِ في كلِّ أنحاءِ جَسَدِها الناحلِ المعروق.

رحتُ أراقبُ حركاتِها اللاحقةَ: بدأ نصفُها العلويُّ ينثني نحو

الأرضِ لعدةِ مراتٍ متتالية، ثم تروح تمد جذعَها بصورةٍ مستقيمةٍ... مع رَفْع الرأسِ إلى السماء. إنها بتلك الحركات اللا إرادية ـ والتي تشبهُ ما يفعله دراويشُ الصوفيةُ في حلقات ذكرهم ـ تدللُ على بركانٍ داخليٍّ يحاولُ استحضار واقعةٍ قديمةٍ، لعلَّ الذاكرة تقتنصُ ملامحَ معينةً منها!

ولم تكنْ دموعُها الغزيرةُ غريبةً عن ذاك المشهد الذي لن أنساه. كما لن أنسى تلك الكلمات التي قيلت في حضرة الأبعاد الوجودية الثلاثة، التي لا يستطيع الإنسانُ الفكاك منها أبداً: تاريخٌ مضى، وحاضرٌ معيش، ومستقبل يرقد في غَيْهب المجهول.

"رأيتهُ.. نعم رأيته، وشعرت بأنفاسه الحارةِ، وأنا أقدم له ـ منحنية ـ مدخنة البخور التي تعتبرُ من طقوسِ الترحيب عند عرب الجزيرة. وتكرر التحديق ونفثاتُ الأنفاسِ الملكيةِ مرةً أخرى، عندما سألتُ (الأميرَ) عن كمية السكر الذي يرغبُ في إضافتهِ لكوب الشاي، الذي قدمته له وُلمضيفه (أمة) بلوشية أخرى.

...ضحك (عمّي) من كلماتي العربية المخلوطة بالبلوشية، ذلك عندما سألته: كم تريد ـ أتال الله عمرك ـ من خاشوكة شُكر؟!

"أتال.. وخاشوكة.. وشُكرًا!!

يا لها من كلمات غريبة مضحكة! إلا أنها ولدت ـ ولحسن الحظ ـ قهقهات متتالية صاخبة أطلقها (أبو فهد).

لقد رأيتُ نفسَ صفاءِ ضَحِكات الأمير ـ الذي أصبحَ ملكاً فيما بعد ـ كثيراً. ولطالما تمنيت ـ برغمِ كلِّ شيء ـ أن أراها، ولو لمرات قليلة، في تلك الأيامِ التي (عُزل) فيها والدك وتم حصاره في الناصرية.. لكن هيهات!".

أضافت والدتي، ومزيدٌ من دمعها يُسفح:

"التفتَ عمّي (سعود) إلى الأمير (سعود بن جلوي)، وهو لايزالُ يقهقهُ وسأله:

سعود..! هناك شيئان جديدان في قصرك: أكوابُ الشاي التي يبدو أنك حصلت عليها من الخارج[1]. والثاني والأهم: هذه (الجارية) الظريفةُ الجميلةُ التي لم أرَها من قبلُ في منزلك. أهي هندية أم فارسية؟ متى ـ بالله عليك ـ جُلبت لك؟

أفاضَ حاكم الإحساء في الإجابة. الحبورُ ـ وهو يتحدث ـ كان واضحاً على محيّاه، ونغمات صوته الأجش. وهنا تقع إحدى الأعاجيب؛ لأن تلك العلامات من السعادة، تدخل في تصنيف (المحظورات) التي قلما نشاهدها أو نسمعها من حاكم الإحساء إلا نادراً. ومن ذلك النادر.. تلك اللحظات؛ والأغلب أن سيد الإحساء القوي لم يظهر بهذا (الضَّعْف!) إلا لأنه رأى ولي العهد في حالة انشراحٍ كاملٍ. ولأن (جوَّ) المؤانسة تم في دار النساء الداخلية، حيث الحميميةُ بين الرجلين المتحابين، اللذين يأمرُ كلٌّ واحدٍ منهما ـ عند زيارته للآخر ـ أبناءه الصغار من الذكور والإناث بالاستئناس بعد السلام الحار مع ضيفه المبجل.

...شيءٌ آخرُ أرجعه إلى نادر (ابن جلوي) في تلك الليلة، وهو أن الرجل أراد أن يوضحَ لضيفه الكبيرِ قدرَته على الحصول على الأشياء القيّمة، متى أراد ذلك؛ لأنه من المعروف عن ناسك الإحساء السياسيّ، أنه قلما يريد الحصول على شيء من فريد ذاك الزمان.. أشياء قيمة مثل: أكوابِ الشاي.. والإماءِ البلوشيات الجميلات!

من إفاضاتِ (الحاكمِ) الكلاميةِ، التي مازلتُ أذكرها قوله:

أكوابُ الشاي يا (سيدي) جاءتني هدية من الأمريكان الذين يعملون هنا كمنقبين عن البترول، لقد جلبوا عند عودتهم من زيارة

(1) الخارج: كلمة يستعملها السعوديون بكثرة، للدلالة على ما وراء الحدود الوطنية من أفكار وماديات.

أهلهم، تلك (الكماليات). ويعلم الله ـ يا طويلَ العمر ـ كـم أكـره أن آخـذ شـيئاً من أحد، حتى لو كان هذا "الأحد" من (جماعتنا). وحتى لو كان الشيء المهدى بيالة[1] فكيف بهدية من هــؤلاء الأجانب.لـكنَّ للضرورة السياسية ـ كما تعرفون سيدي ـ أحكاماً!

...أما هذه الصبيةُ التي أعجبتك ـ سلَّمك الله ـ والتي أشهد الله أنني أهديك إياها الآن... هدية لا تُرد، فإنني ـ ويعلمُ الله ـ قد حزنْتُ جداً عندما حكتْ لي عن قصتها المليئة بالغرائب والمآسي. إنها بنتُ عائلةٍ وجيهةٍ في بلاد بلوشستان الفارسية. لقد سُرقتْ في يومٍ مشؤوم من قِبل قطّاع طرق ظَلَمةٍ. إنها ـ يا طويلَ العمر ـ من عائلة كريمة (سُنية). ليسوا في حربٍ معنا، وليسوا أعداء لديننا. وهي بهذه الصفةِ لا تستحق أن تكون (جارية). لكن مادام ما حدث قد حدث، وأصبحَ من الصعوبة إرجاعها إلى عُمان، حيث أرسلت إلى هنا بعد (وصولها) من بلوشستان. وكلفتةٍ للصداقة وحسن النوايا، من سلطان عُمان إلى شخصي الذي يمثل (أبو تركي)[2] ...مليكنا ـ مادام كلُّ هذا قد حدث فإنني أصبحت مجبراً، وصعوبات مثل هذه ماثلة أمامي؛ أن أبقيها في منزلي الخاص، لعلي أجد طريقةً توازن بين (رفضنا) لإخضاع مثل هؤلاء الناس للعبودية، وبمثل هذه الطريقة (غير الإسلامية!!)، وبين التسليم، بأن هذه الصبية في استطاعتها، تدبيرُ أمرِ العودة الطويلة إلى حيث أتتْ، وبدون مخاطر وقوعها في أتون شرور عظيمة غير أخلاقية؛ لهذا فإن إعجابَ طويلِ العمرِ بهذه الصبية (مريم) وتنازلي عن ملكيتها؛ لتكون في ملك (ولي عهدنا) وفقه الله؛ قد حقق التوازنَ الذي كنت مشغولاً في إيجاده.

---

(1) بيالة: كلمة فارسية تعني كوب الشاي الصغير.

(2) أبو تركي: كنية الملك عبد العزيز. وتركي هذا هو أكبر أبناء موحد المملكة العربية السعودية.

إن مريمَ الآن ـ أضافَ الأميرُ ابنُ جلوي ـ في منطقةِ أمانٍ محققٍ. وستكونُ مصونةً ومبجلة، ومحاطة بكل ضروب العناية، مثلما من المفروض أن تكون وهي في كنف أهلها وذويها... ولمَ لا؟ أليس حلمُ كل فتاة أن تحظى، ولو ليوم واحد، بقرْب (أبي فهد) وبينبوع عاطفتهِ الجياشة؟!

يا ربي..!! ما الذي أستطيعُ قوله بعد حديثِ الأمير (ابن جلوي) المليءِ بالمديحِ والحقائقِ، مثلما هو مليءٌ كذلك بالاستخفاف بالعقول الواعيةِ المدركة أن مثل ـ بعض ـ تلك الأقوالِ غيرُ حقيقيٍّ ولا معقولٍ؟!

...أمرٌ واحدٌ كانتْ نتائجه باهرةً، بعد حديث حاكم الإحساء ذاك: إنها الإيماءاتُ المتتاليةُ لوليِّ العهد والمؤمنة لكل أقوال الحاكم وابن العم".

عرفتُ أن تلك الإيماءاتِ التي أشارت إليها والدتي لم تكنْ مجردَ رموز لموافقات واستحسانات فقط، بل هي في الواقع كتابة مسار جديد لحياة بنت بركة المختطفة. ولم يبقَ بعد تلك الإيماءات إلا معرفةُ (متى) وليسَ (كيفَ) تُرجمت معانيها.

سألتها مقاطعاً استرسالها في حديثها السابق:

"متى كان الرحيلُ من الإحساء"؟

غمغمتْ ثم أجابت :

" استمرتْ زيارةُ والدِك للإحساء أسبوعاً، في شتاءٍ كان استثنائياً في تلك البلاد الجافة. لقد استمرَّ هطولُ الأمطارِ واحتجابُ الشمس طوالَ أيامِ الزيارة. ولهذا لم يسـتطعْ حاكم الإحسـاء ـ إلا نادراً ـ أخذَ ضيفهِ الكبيرِ إلى أرجاء مدن المنطقة الشرقية، التي استعدت منذ زمن لمثل هذه الزيارة. ولكنَّ ولي العهد استطاع بسببِ هذا التغييرِ في برنامج الزيارة، أن يرانيَ ويداعبَني ـ بصورةٍ لائقةٍ عموماً ـ في ساعات زيارتهِ المتكررةِ، وغير القصيرةِ لمنزلِ عائلةِ الحاكم.

...بعد أسبوعٍ من بدايةِ زيارةِ وليِّ العهدِ السعوديّ، أخبرتني زوجةُ حــاكمِ الإحســاء بأنَّ موعدَ رحيلي من منزلهم قد أزِف، وأن زمن أن أكون (أمةً) لولي العهد الأمير (سعود بن عبد العزيز) قد أزف أيضاً. وأخبرتني تلك السيدةُ الكريمةُ الطيبةُ، والتي تعاملتْ معي كابنةٍ لها... إلا قليلاً؛ بأنَّ ولي العهد لن ينتظر في (الرياض) طويلاً حتى (يدخل) عليّ. وأنني ـ كفتاة كاملة الأنوثةِ ـ لابد أن أستعدَّ لذلك اليومِ... راغبةً وخانعةً!

سألتها: ما معنى أن يدخل عليَّ؟

لم تجبني، بل تركت ابتسامَتها العذبةَ تعطيني عدةَ إجاباتٍ محتملة، يستطيع عقل صبية بالكاد بلغت الرابعة عشرة من عمرها، (فرزها) استعداداً لاختيار إحدى تلك الإجابات!!

وقبلَ ساعاتٍ من رحيلي برفقة موكب ولي العهد، بعد أن (تنازل) حاكم الإحساء من خلال صك مكتوب عن (ملكيتي) لضيفه، انخرطتُ في طقسٍ لمْ ولن أحبَّه أبداً : إنه الوداع!

إنني لا أحبُّ الوداعَ حتى لمن كانوا رمزاً - من حيث لا يشعرون - للإذلال وخطف الحريات، ولرفضِ منحِ العيشِ الكريمِ غيرِ المقيدِ بالأغلال المعنويةِ قبل الحسية .. للآخرين.

ودَّعْتُ أهل بيتٍ، لم يمانعوا في تأكيد ـ عبوديتي ـ برغمِ سُخطهم على وسائل الاستعباد. لكنهم - وأُشْهِدُ اللهَ على ذلك - كانوا نعمَ الأهل في وقتٍ احتجتُ فيه للأهل وللدفء الإنسانيّ مهما يكن نسبياً. كانت أيامي معهم، والتي امتدت لسنة كاملة تقريباً، تظللها سحائب الاحترام والمودة والإحسان.. نعم مودةٌ وإحسانٌ. وماذا يريد الإنسان ـ بُنيَّ ـ بعد هذا الاحتواء، في أزمان تقلَّصت فيها كلُّ الأمانيِّ الأخرى، إلا رغبة في وجود القليل من تلك المشاعر عند من نُضْطَرُّ لمعاشرتهم والتعامل معهم؟!

عائلة (ابن جلوي) في الإحساء لم تُبدِ لي (قليلاً) من حسنات التقرُّبِ، بل بذلت الكثيرَ منها، وإن بقيت حدود السيد والمسود بيننا واضحةً لا تختفي .

... أنا متأكدة يا - بنيّ - أن تلك العائلةَ الكريمةَ قد رأت في إحدى عينيّ لحظة وداعي لهم، علامات الشكر والعرفان، والحزن والإحباط، والانكسار والخيبة. أما العينُ الأخرى فكان فيها بلا شك: الأملُ بحياةٍ جديدةٍ مليئةٍ بكل نقائض الأيام الخوالي. والأهم من كل ذلك أن تلك العين فيها .. ألف سؤال وسؤال"!

18

لا تسألْني ـ سيفُ ـ عن وسائط الرِّحلةِ من الإحساء إلى الرياض. وعن الطقس، والناس الذين رافقوا وليَّ العهد في رحلته تلك. فتلك أسئلةٌ فيها تهميشٌ لما هو أهمُّ من كل ذلك:

إنها مشاعرُ أمك التي انتابها كثيرٌ من مشاعرِ الوحشةِ والإحباط في أيام الانتقال من أسرٍ إلى أسرٍ، ومن انكساراتٍ عبودية لها صفات معينة، إلى خيبات عبوديةٍ أخرى، تبقى مضامينها لا تتغير، مهما كستها الأيامُ من حرير المظاهر، وجواهرِ الدعةِ والترفِ.

تتمتعُ والدتي بحسٍّ روائيٍّ عظيم؛ قدمتْ عبرَ تلك الكلمات السابقات، رؤيتها لأهمِّ فصول سيرةِ حياتِها. وهي بالكلماتِ اللاحقة تريد تعميقَ تلك الانطباعات:

"أمك ـ بنيّ ـ وهي تغادر الإحساء متجهة، إلى الرياض بمعيةِ

ركبِ والدك حقدَتْ على نفسها كثيراً. نعم... كنت متلهفة في البداية إلى أن أصحب الرجل المشهور، وأن يظللني سقف وجاهته وسلطانه، لكنني، وبعدَ أن زال رحيق اللهفات والتشويق الصبياني؛ تذكرت أنني مازلتُ أحمل صفة (الأمة) التي تُهدى وتُعطى، ويتم التنازل عنها مثل جمادات الأشياء والحيوان.

حقدتُ على نفسي لأنني أيضاً نسيتُ صَبيات الرحلة الأخريات، واللائي اشتركن معي، في أيامِ ولحظاتِ العذاب، والقهر، والدموع، والحسرات.

يا للعار...!! لم أعدْ أسألُ عن مصائر (بُنياتي) طوال بقائي اللاحق في المنزل الرعوي الأميري. أنساني برزخُ الراحة وبياتُ السكونِ، أن أسأل عن هذه أو تلك ممن رأيت في عيونهنّ رجاءات كثيرة. لقد سهوتُ ـ للأسف ـ أن أتحدث عنهن وعن مأساتهن المشابهة لمأساتي.. لصاحب الشأن، لعلَ وعسى أن يُطلق سراحهن أو أن (يُعتقن) من عبوديتهن، وإن لم يحدث هذا ولا ذاك، فَلْيُضْمَمْنَ ـ مثلي ـ إلى بيتِ الحاكمِ، بدلاً من بيعهن في أسواق نخاسة بلاد العرب.

لكن والدتك (خانت) تلك النظرات المؤملة والراجية. بالله عليك: ماذا عساي أن أفعل يا (سيفُ) أكثرَ من أن أرشو عقلي، عندما أقول له: بأنني وحدي في أمان... وليتدبر تُعساء الأزمنة أمورَهم"؟!

وكأن ما حدث في الماضي البعيد قد حدث الآن. علامات الجدية الممزوجةُ بالحزنِ ولوم النفسِ، تتشكل، وبتداخلٍ عجيب، على محيا وجهها الصغير. إنه موقف يدعو للإعجاب؛ لمثاليته. لكنه أيضاً موقف يدعو أيضاً للضحك والسخرية عندما يتم تحميل النفس ما لا يُحتمل، وممن لا يستطيع دفعاً ولا نفعاً لنفسه.. فكيف لغيره؟!

ولئلاً يطغى باعث التفكُّهِ ـ القويُّ ـ على باعثِ الإعجابِ، قلت لها مُستغلاً توقفها القصير عن استحضار الذكريات القديمةِ:

"لا تثريبَ عليك ـ والدتي ـ البتة ففي كلِّ الأحوالِ، أنت في تلك الأيامِ لم تكوني قادرة حتى على نفع نفسك الأسيرة. ألم تتساءلي ـ مثلاً ـ كيف ينقذُ الغريقُ الغريقَ؟ هو قدرُك وقدرُهن، ولن يستطع أحدٌ ـ حتى ولو غضبتِ من قدريتي المفرطة ـ أن يغيِّر تلك الأقدارَ ويشكِّلها حسب رغباتهِ وأمنياته".

قالت، وقد وافق قولي هوىً في نفسها... وإن لم تُقرّ ـ كعادتها ـ بجبرية وسلطوية ما قُضي علينا ـ كبشر ـ فعله:

أمر (خميس بن رويشد) خوي[1] ولي العهد والمسؤول عن ترتيب رحلاته، بأن يعد (ملاحتين)[2] خُصصت واحدة لي، إضافة للنساءِ من العاملاتِ في ترتيبِ ملابس وعطورٍ وشؤون والدك الخاصة. وأولئك النسوةُ يا (بني)، يفترض أنهن قد (دخل) عليهن الملكُ، باعتبارهن (سريات)[3] سابقاتٍ، لم يعجبن السيد الكبيرَ المطاعَ لسببٍ جسدي أو لآخرَ، أو لأنهن لم ينجبْنَ!

الملاحةُ الأخرى كانت مُخصصةً لـ(لإماء) من جذورٍ مختلفةٍ، شاء حظُّهن أن يرسلْن من الإحساء ـ التي أصبحتْ ممراً مُهماً لتلك التجارة النكدة ـ إلى الرياضِ، حيثُ ينتظرهن الأسيادُ من الأمراء الكبارِ أو الوزراءِ والنبلاء.

وهنا لابدَّ لي من الإشارةِ إلى العلاقة القديمة الجديدة التي تربطني بالعرباتِ المتحركةِ ...قد تفيد هذه (المعلومةُ) في شيءٍ ..وقد لا تفيد:

... المرة الأولى التي استقللت فيها سيارة في حياتي كلها كانت هناك... في الإحساء. بالتأكيد رأيت السيارة من قبل – وإن في النادرِ من

(1) خوي: يقصد بها هنا المرافق شديد الإخلاص والإخاء.

(2) ملاحة: عربة نقل الركاب الكبيرة.

(3) سرية: يقصد بها الأمة التي يعاشرها سيدها.

المرات - تزور (بنقلان) عندما كان يقصد كبار (البلوش) وخاصة المتعاونين مع الفرس، أو مع الإنجليز أو السوفييت - أسياد أجزاءٍ كبيرة من إيران آنذاك - والدي كبير (بنقلان). كان هؤلاء يملكونَ السيارات الإنجليزيةَ والأمريكيةَ الفاخرة، التي كنت أراها وهي واقفةٌ أمام منزل العائلة الكبير. لكنني لاحظت أيضاً أن زياراتهم لا تمتدُّ طويلاً؛ لأن والـدي وهو المقصود بالزيارة، كان يرفضُ تلقائياً محاولة استمالة أصحاب تلك السيارات الفاخرة له، لأنه (يعتقد) أنَّ كلَّ هؤلاء الزائرين، ومهما تبلغ مظاهرُ البذخ البادية عليهم - ومنها سياراتهم - مجرد عملاء متواطئين مع المهيمنين على مقدرات ديار بلوشستان من الفرسِ، أو مع المستعمرين (الكبار)، محتلي إيران والشرقِ الإسلامي بكامله تقريباً في تلك الأزمنةِ.

كان والدي، وهو يقفُ رافضاً، إغراءتِ (الزائرين)، أصحابِ العرباتِ التي تندفعُ بقوةِ الزيتِ المسروق، من الأرضِ التي يتفاوضون من أجل ما يعتقدون أنه تحضر وتقدُم لها ـ كان والدي، يكررُ مواقفَ والده الصلبة تجاه المستعمرين وأذنابِهم، وأنه ..

آه ...!! نسيت.

علينا أن نعودَ ثانية إلى قصةِ الملاحات!!

..أقول: المرةُ الثانية التي رأيتُ فيها السيارةَ، كانت في ميناء (جاه بهار) حيث (شُحنّا) بعد أيامٍ من وصولنا لذلكم الميناء إلى مسقط؛ ولمرة أو مرتين رأيت مرة أخرى، تلك الآلة التي تمشي على عجلاتٍ في مسقط، حيث كان يستعملها السلطانُ وزوجتهُ في رواحهم وغدوهم من وإلى قصر عظمته.

ومن الغريب ـ يا ولدي - أنني كلما ركبتُ السيارةَ، بدءاً من (ملاحة) ابن رويشد التي انطلقت من الإحساء في شتاء عام 1367هـ[1]،

(1) الموافق لعام 1946م.

وحتى الآن، ـ أمعنتُ في الأفكار المصطبغةِ بفلسفتي الشخصيةِ التي انتقيتها من رحم الحياة ومكابدة الناس. أتذكر - بنيّ - أن جارتي التي لم أعد أذكر اسمها الآن سألتني في بداية الرحلة بين الإحساء وعاصمة أجدادك وآبائك: لماذا كل هذا الشرود الذي أبدو عليه حينها؟ هل هو الخوفُ من المجهولِ القادم، أم هو الحنينُ إلى الأهل وأرضِ المولدِ والطفولة؟!

لم أجبها، والسيارةُ، التي تُدْعى (ملاحة)، تذْرع الطريق الترابي بين شرق البلاد السعودية ووسطها. ما أخفيته عن جارتي في تلك الرحلة المريحة، قياساً برحلات السفن والإبل، التي قطعتها قبل أكثر من سنة وعدة أسابيع من إيماءات والدك لابن عمه حاكم الإحساء؛ ما أخفيته لم يكن فقط إجابة الـ(نعم) عن كل أسئلتها. بل كان السؤالُ الكبير الذي طرحتُه على نفسي قبل أن تحـشر تلك المرأة نفسها في خزين أفكاري. سؤالي الداخلي كان يقول: أتستحق تلك الأراضي الجرداءُ، التي كنتُ أمرُّ عليها بدايةً من الهفوف إلى الرياض، كلَّ تلك الحروب، والاقتتال، والتناحر القبلي، وكلَّ أودية الدماءِ والدموعِ، وآهات القهر، وأنات الأرامل، وبكاءَ اليتامى؟ هل يمكن أن يأتيَ اليومُ الذي تتوسدُ فيه هذه البلاد الأمانَ وتلتحفُ الأمنَ من غائلةِ الفقرِ والجوع؟ كلُّ المعطياتِ كانت تقول آنذاك - ولا تزالُ - بأن (عبد العزيز) وخلفاءه من بعده، استطاعوا تحقيق تلك المعادلة الصعبة.. لكن رحمَ الغيب دائماً ما يكون ولّاداً للمفاجآت، التي تنسف المعطيات والمعتقدات، خاصة إذا كانت مادة حضّانة رحم الغرائب ذاك: ثقافةَ مجتمعٍ شديدِ المحافظةِ، عظيمِ الخوفِ من الانفتاح على الغيرِ والجديد"!

ماذا تقول عجوزتي؟ هل تمدح أو تقدح؟ هل تقدم بشائر أم نُذراً؟

ما أستطيعُ قوله رداً على تلك الأسئلةِ، التي لم تطلع عليها - لحسنِ الحظ - صاحبةُ الحكايةِ؛ هو أنني لم أشعرْ بالارتياحِ لمضامين

(التأملات) التي صنعتها هزهزات سيارةِ النقل، المقلة للإماء من الإحساء إلى الرياض. وكان من الضروريّ أن أنقلَ شعوري ـ المُخفف ـ بعدم الارتياح ذاك إلى مسامعها:

"لم تحدثْ مثلُ تلك المفاجآت - والدتي - بشكلها المُضخم الناسف، وانتظارها على هذا النحو كما يبدو... سيطولُ. والأفضل من كل هذه التوجسات، أن أعرفَ منك عن آخرِ الغرائب (الإحسائية) التي كشفت عنْ نفسها، لمن هام بها وليُّ عهد بلادِنا في ذلك الوقت"!

ما أجملَ ابتسامةَ والدتي، حتى وإن كشفتْ تلك الابتسامةُ عن قلةِ ما بقى من الأسنان، أما دلالاتُ الابتساماتِ البلوشيةِ، فتلكَ قصةٌ أخرى!

قالت والدتي ـ و(توابع) تلك الابتسامةِ تُشاهَدُ:

"في مرحلة من عمر الإنسان - أيِّ إنسان - لا يمكنُ تلمس الفروقِ بين المفاجأة والمتوقع.. بين الحلم والمعيش.. بين الأمسِ والغد.. إن أمكن الوصول إليه.

على كُلِّ حالٍ إن كنتَ تريد ـ فقط ـ أن تعرفَ أبرزَ أحداث الأيام الأخيرة قبل (نقلي) من الإحساء إلى الرياض، وقبل أن أصبح (سرية) بكل ما تحمله الكلمة من معنى لوالدك فيمكنني القول: بأن أبرزَ الأحداثِ الغريبة، تمثَّل في مُشاهدتين لـ(ابن دايل) تاجر الرقيقِ المشهور في ردهات قصور (الشيوخ)[1] بالإحساء. قيل لي في تلك الأيام: إن الرجلَ (الخطيرَ) قد عاد إلى الهفوفِ؛ لأنه قد حظي بأمان من الحاكم. وإن الأمانَ ذاك قد جرى للتاجر بطلب من ولي العهد لابن عمه؛ لأن حاكم الإحساء سبق أن توعَّد (ابن دايل) بالويل والثبور إن رآه مرة

---

(1) الشيوخ: جمع كلمة شيخ وهي تعني أيضاً التعظيم للشخص المعني، والذي غالباً ما يكون من العائلة المالكة. وقديماً كان يقال للملك عبد العزيز إنه (الشيوخ).

أخرى، بعد أن عرفَ - كما قيل - مُتصرف المنطقة الشرقية، أساليبَ ابن دايل في جلب الرقيق للبلاد السعودية. تلك الأساليب التي وصفت بأنها غير إسلامية ولا إنسانية. وكأن الرقيق وتجارتهَ يمكن السماح بها إن اتبع في نشاطاتها أساليب (إسلامية) تخالطها الرحمة!

وقيل لي إن ابن دايل أوضح لابن جلوي في حضور الأمير سعود، أنه غيرُ مسؤولٍ عن منبع الرقيقِ.. بل عن المصب. هو - في رأيه - لا يوافقُ على طُرق الخطفِ والسرقةِ وبيع الأهالي لأطفالهم، لكنه - وأقسمَ على هذا كاذباً! - أنه خُدع كما خُدع أمراؤه وملوكه؛ لأنه أبلغ بأن الرقيق - بجنسيه - هم من أسراء الحروب بين المسلمين وغير المسلمين في أقطار العالم، وأن هذا يبرر ـ في نظره ـ استعبادهم! وذكَّرَ (المخادعُ) الرَجُلين المُهمّين، بألَّا يصدقا في كل الأحوال أقوال الصبيانِ والصبيات من المخطوفين والمخطوفات، عن الظلم الذي وقع عليهم؛ لأنهم قد يكذبون من أجل حرياتهم المنشودة أو استعطافاً لأسيادِهم".

قاطعتها متسائلاً، بعد أن مللتُ الهجومَ على شخصِ (ابن دايل) وكأن الرجلَ يتحمَّلُ، وحده، وزر تجارة العبيد التي ابتدأت قبله بقرون طويلة. وستستمرُّ بعده، كذلك، لقرون لا يعلمُ عددها إلا الله. مع الاختلاف المفترض لأشكال الاستعباد والسُخرة:

"والمفاجأة الأخرى، والدتي، كانت ماذا"؟

الابتسامة الذكية بزغت على شفتيها بكل وضوح... وهي ترد:

"المفاجأةُ الثانية (المخجلةُ) هي أنني اكتشفتُ قبلَ أيامٍ من رحيلي من الإحساء إلى الرياض، وقبل أيامٍ من (تنازل) ابن جلوي السريع عن (ملكيتي) لوالدك، اكتشفت أنني أصبحتُ (امرأة) ترى الدماءَ شهرياً ويتعكر مزاجها شهرياً. ويرفضُ (عمُّها) الاقترابَ منها شهرياً.

... امرأة لا علاقة لها بعالم الصبا والأحلامِ والضحكاتِ اللاهية.

تلك العوالمُ التي - عبثاً - تحاولُ كل فتاةٍ التمسكَ بها، عندما تكتشف أنها أصبحت أنثى تنزف شهرياً حتى لمن لم تعِشْ حقيقةً، تلك العوالمَ السحرية الطاهرةَ ... مثلي.

...أكبرُ المفاجآتِ التي اكتشفتها، وآخر معالِم الإحساء تختفي عن ناظري، هي أن ذاكرتي لم تسجلْ ملامحَ (زوجي) الذي سأرتبط به لاحقاً. وعندما أجهدتُ تلك الذاكرةَ عرفت أنها - فقط - احتفظتْ بتلك الملامحِ البارزةِ لـ(مليكي). بذياك الوجهِ الطويلِ الممتلئِ الذي ينصفه أنفٌ عربيٌ مثالي، وباللحية الجميلةِ المشذبةِ عند الذقن والممتدة على طول عارضي الوجه؛ بالفم الصغير نسبياً قياساً بكبر مساحةِ الوجه، وبما فيه من أسنان طويلة بيضاء لامعة؛ بمنكبيه العريضين، واللذين يروحان يهتزّانِ بشدة كلما ضحك صاحبهما؛ بهاتين الكفين الناعمتي الملمس والمتناثر عليهما زغب ليس بالقليل. برائحة البخور ودهن العود الهندي الشذيّ الرائحة. بتلك الملابس الثقيلة: ثوبٍ، وغترةٍ من الصوف، و(دقله)[1]. وبشت من الوبر[2]. استرعى انتباهي أيضاً قامةُ والدك الطويلةُ جداً[3]. المشابهة لقامة والدي وإخواني. إن ذاك الطول الفارع يزداد سحراً كلما اعتمر - طويل العمر - العقالَ المقصَّب فوق غترةٍ بيضاء.

...هل لاحظت - بنيّ - أنني قلت: بأن ذاكرتي التقطت ملامح والدك البارزة فقط، ولم أذكر شيئاً عن أهم ملمح للإنسان، قد يعطي الآخرين المتفحصين، موجزاً عن التاريخ العاطفي والعقلي لصاحبِ الملمح؟!

عينا والدك، لم أستطع في أول مشاهدتي له بقصر (ابن جلوي)

(1) معطف طويل وبنفس لون الثوب تقريباً.
(2) صوف الجمال.
(3) قامة الملك سعود تقدر بـ 205 سنتيمتراً.

العائلي، سبر أغوارهما، بحثاً عن مكنون ذاك الرجلِ الطويلِ البشوشِ. لكنني وفي وقت لاحقٍ من انضمامي لـ (حريمه) الكُثر، حاولت كثيراً أن أعرف ـ ولو بشكل مبسط ـ موجزاً لمكنوناته النفسية التي تفضحها عادةً العيون البشرية. وفي الحالات التي نجحتْ فيها محاولاتي، استطعت أن أبني بيتاً صغيراً من الأفكار عن والدك، بعيداً عن فعله وردود فعله على الأحداث الجارية تلك الأيام:

والدك يا (سيف) طيبٌ محبٌ للخير، كريم معطاء، يتمنى أن ينجز أعمالاً عظيمة، وأن يشار إليه بالبنان بعد إتمام تلك المهام. المشكلة هنا أن والدك لا يعرف - كما تفضحُ ذلك عيناه - كيف يتمم تلك الواجبات التي يريد أن يرى تقدير الجمهور لحجم إنجازها عندما تتحقق. هو تقدميٌ بمقياسِ عصره... أياماً، وأياماً أُخَر شديدُ المحافظة والخوفِ مما وراء بابِ التحديث. شَكَّلَ ذات يوم مجلس وزراء أغلُبه من الشبابِ المتحمسِ لأفكار التطويرِ ـ التي لم أحبها شخصياً، بالذات، منهم ـ وبعدها بأشهر، إن لم تكن أسابيع، يضع - نفس الشخص - العراقيل لهذه التشكيلة عندما يُدخل عليها الشيوخ والمحافظين من عائلتك والرعية.

...عيناه المصابتان بقصرِ النظرِ، يمتلئ فيها دائماً الشك والريبة، من تصرفات (نسائه). ويرتقي والدك سلَّمَ شكوكه، إلى أن يصل إلى مستوى تعامله مع القيادات السياسيةِ في بلاده وفي محيطهِ العربي، أو حتى على المستوى الدوليّ. لم تستطعْ العينان ذاتُهما إخفاءَ عدم المقدرة على التحكم بمجرى الأمور، عندما تُنذر عواصف السياسة بمطرِ القلاقل والفتن. لكن لا تظنّ يا (بني) أن والدك قد فشل في كلِّ إعصار سياسيٍّ واجهته بلادك. فلقد كان - بحق - منافساً سياسياً لشخصية عربية قيادية، ظن الجميع ألّا أحد قادرٌ على مواجهة جاذبيتها وسحرها الشعبيين ... إنها شخصية الرئيس المصري (جمال عبد الناصر). لقد استطاع والدك

مشاغبة تلك الأسطورة وحتى هزيمتها في بعض الأوقات، كانت أخطاء (عبد الناصر) أحياناً، تساعد والدك على التألق السياسي والبروز. حدث هذا، مثلاً، عندما توحدت سوريا مع مصر ثم انفصلا في أوائل الثمانينيات الهجرية[1]. وعندها رد الزعيم المصري: مما شكل بداية حقبة من الاصطدامات والتوتر في العلاقات العربية. ويتذكر (العجائزُ) أن أشدَّ الخلافات العربية آنذاك، هي التي حدثت بين مصر والسعودية، وتسببت تلك المكايداتُ السياسيةُ في تخندق دول الجامعةِ العربيةِ خلف خندقين: من يسمَّون بالرجعيين. والخندقُ الآخرُ الذي يقفُ وراءه من يَدَّعُون بأنهم تقدميون!

عندما رد (البكباشي) على هجومِ والدك، لم يستطعْ (عمِّي) أن يخفيَ عن الجميع ما فضحته عيناه من الحيْرة وعدم اليقين في اتخاذ الخطوة المقابلة، ومنها تفادي تأثيراتِ الرسائل الهجوميةِ الناصرية على بلاده، التي تتوقف حيناً من الدهر ثم تعيدُ تشكيلَ نفسِها مرةً أخرى عبْرَ محاولاتٍ انقلابية واعتداءات تصنع في مكاتبِ ودوائرِ المخابراتِ الناصرية، إلى جانب شتائمَ إعلاميةٍ من الوزن الثقيلِ. وأعقبَ ذلك طامةٌ كبرى: الثورةُ اليمنيةُ وما تبعها من إرهاصات تداعى لها الداخلُ السعوديُّ.

الرجلُ ذاته - غيرُ المحظوظِ سياسياً - واجهَ عواصفَ أخرى إضافية: منها ثورة (قاسم) ضد العائلة المالكة في العراق. وانقلابات مشرق العالم العربي الأخرى. إلى جانب سوء التعامل الأمريكي معه، لأنه أظهر للعالم - قليلاً - من بوادر لفظة (لا) الموجهة لسيدة العالم (= أمريكا) رداً على هيمنتها وطلباتها الابتزازيةِ التي لا تتوقف من دول وزعماءِ العالم الثالث. فهو مثلاً رفضَ أن يُعادَ تجديدُ عقدِ بقاء القاعدةِ

(1) الستينيات الميلادية.

الأمريكيةِ في شرق بلاده. ورفض كذلك أن ينخرط في حِلْف بغداد. فكان جزاء هذا التمنع، خطوات أمريكية أدت إلى (موت) الرجل معنوياً وسياساً قبل الموتِ الفعليِّ.

خلال كلِّ رياحِ السمومِ السياسيةِ العربيةِ والدولية تلك، كان والدك عندما يعودُ لقصرهِ في (الناصرية)، نرى دائماً في عيونهِ الانكسارَ المعهودَ وقلة الحيلةِ. ويمكن أن نَرْجع حيرةَ (عمِّي) إلى أن الرجل لم يكن يريدُ الشرَّ والإضرار بالآخرين. لم يكن عدوانياً بفطرته، ولم يكن يحبُّ المجابهة الداميةَ كما تملي عليه ذلك أخلاقياتُه. ولكن هيهات أن يكون الإنسان سياسياً وقيادياً ويتخلى عن الشرور والظلم والإضرار بالآخرين في نفس الوقت. فالأخلاقُ والقيمُ والمُثل لا تصد المخاطرَ عن الأممِ والمكاناتِ، ولا تصنعُ البطولات القتالية التي يحبها دائماً العامةُ"!

بُهِتُّ من ذاك التسلسل الجميل في أفكار والدتي الأمية. وخُيِّل لي حينها أن تحليلَها النفسانيَّ لِكتاب الشخصيةِ الإنسانيةِ الذي تفضح عيون البشر مكنونات سطوره، يعادل في عمقِهِ، تحليلَ كبار المحللين النفسيين أصحاب الاختصاصِ.

ما لم تتبيْنه (أم مقرن) وتلاحظه، هو أن الرجل القيادي الذي حاولت والدتي نبش خبيء عينيه، لم يكن، فقط، يواجه ظروفاً سياسية غير طبيعية، أو أزماناً صعبة من النوع الذي تتعرضُ له، عادةً، هذه الدولةُ أو تلك، بل إنه - بحق - كان ضحية التغيراتِ الضخمةِ التي حدثت في العالم بعدَ الحرب العالميةِ الثانية.

كيف يمكنُ أن تُخفي العيونُ - حتى الملكيةُ - البراكينَ الاجتماعية والسياسيةَ والاقتصاديةَ التي كانت ترمي بحممها في كلِّ أقطارِ العالم عامةً والدولِ العربيةِ والإسلاميةِ خاصةً، بعد أن توقفتْ آخرُ قذائفِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ، وبعدَ أن قُسمَ العالم إلى مناطقِ نفوذٍ، وبعد أن

برزت إلى الوجود حركاتٌ شعبيةٌ تنادي بالاستقلالِ والتحرُّر واقتسامِ الثروات؟

وماذا باستطاعةِ والدي أن يفعل حتى لا ترى (النساءُ) في قصرهِ علامات القلقِ في عيونه، وهو يشعرُ أن التهديدَ لا يأتيه من الناصريين أو من المدِّ الشيوعيِّ أو البعثيِّ المتكاثر في دولِ الجوارِ، بل حتى من الداخل، حيث الإرثُ القديمُ من الجمودِ أو أحقادِ التنافسِ على المراكز؟ هل كان مُتاحاً (لوالدي) أن يحجبَ وميضَ القلقِ في عينيه، وهو يلمُس - متأخراً جداً - حقيقة أنه اعتمد في معركته الأخيرة من أجلِ البقاء على سدة الحكم، على ذريةٍ وحاشيةٍ عابثةٍ لاهيةٍ، جُلُّ أفعالها غيرُ سويةٍ ولا تتناسبُ مع الخطورةِ المحدقةِ بربِّ البيت ومستقبلهِ؟

السؤالُ المهمُّ هنا يقول أيضاً: كيف تُفسرُ العيونُ المتطفلةُ، التي تراقبُ دائماً الميولَ الملكيةَ والأهواءَ السلطانيةَ الضاريةَ الملتهبةَ؛ صراعاتِ الوسواس الداخليِّ للمعنيِّ بالأمر، مع الشائعِ من المعتقداتِ في المحيطِ، خاصةً أن صاحبَ الأمرِ يحكمُ بدونِ رُقباء ومحاسبين، سوى روادِع التقوى والضمير والأخلاقِ، وهي روادعُ ثبتَ، على مدارِ الأيامِ والأزمنةِ، أنَّها روادع ثلجيةٌ تذوبُ مع كلِّ سياطِ أشعة شمسِ الأهواءِ والدوافع الحارةِ؟!

ثم أين موقعُ الأحزانِ، والكدرِ، والكربِ، وإشكاليةِ الوجودِ والفناءِ، والحبِّ والكراهيةِ، والتفكيرِ بإرثِ دولةِ الآباءِ والأجدادِ، ومقارنته بمتغيرات الواقع المعيش ـ أين موقعُ هذا عندما تبحثُ - بلا كَللٍ ولا مللٍ - عيونُ لصوصِ الوجدانِ، عن المخزونِ الإنسانيِّ ... الملكيِّ؟

أيِنَ المعقولِ أن يجلسَ الملكُ سعود بن عبد العزيز، وهو يحكمُ بلاداً تتعرض للأمواج السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتلاطمة؛ على

الشاطئِ الذي تُغرقه مياه فيضانِ القلاقلِ، ثم يجعلُ عينيه تمران بهدوءٍ على سطورِ (الماوردي) صاحب الأحكامِ السلطانيةِ والقائلة: (يُحجر على الإمام عند نقصِ التصرفات، ويستولى عليه من أعوانه من يستبد بتنفيذِ الأمورِ من غيرِ تظاهرٍ بمعصيةٍ ولا مجاهرةٍ بِمُشاقّة)؟!

تعمقت أسئلتي وطالَ صمتي. لكنَّ والدتي لم تحاول قطع تلك الفراغات من السكون والسرحان. وكأنها تعرفُ ماذا يدور في صدري، ومقادير اعتراضاتي - المفهومة - على الأقوالِ الشاردةِ التي تبحثُ عن شيءٍ ما في تاريخ الملك سعود المبهم.

كان في مقدورِها أن تساعدني على التوفيقِ بين الحقيقةِ والأعذارِ التي نُعطيها لمن نحب، إن هو أخلَّ بمهامه ووظائفه. كان بمقدورها، بما تملكه من أسرار وأخبار، أن تساعدني على فهمِ ما كان يجري حينها. ما منعها عن القيام بهذا - في ظني - هو رغبتُها في أن تكونَ هذه الرغباتُ دافعاً لي وبالتالي لها؛ لمزيد (عطاءات) البوحِ والتدوينِ، ولمزيدٍ من الإثارةِ والتشويقِ، لما يمكن أن تكشفه ساعات (الكشف) ودقائقُ تعرية الحقائقِ القادمة. وسأكون مصدوماً ومحبطاً، إن كان صمتُها لمجردِ الصمتِ، أو أنها، فقط، تعاقبني على تقوقعي الداخليِّ.

ولأني لم أستطعْ بمفردِي الخروجَ من قيودِ تفكيري الصامتِ والحيرةِ المزدوجةِ .. قالتْ:

"الغريبُ يا (بني) السارح! أنك لم تسألْني عن بريقِ الحبِّ: هل رأيتُه في عيونِ والدك أم لا"؟

كان السؤالُ يدعو للتبسّم والإعجابِ بتوقيتهِ ومضمونه. وهي - بالتأكيد - قد عَرفتْ ردَّ فعلي المتوقع هذا. وعرفت، كذلك، أنها في غنى عن أيِّ إجابةٍ وتعليقٍ منِّي على سؤالِها الطريفِ، ولهذا واصلتْ حديثها:

"لم أشاهدْ، شخصياً، هذا النوع من الوميضِ إطلاقاً في عيون والدك. ولم تخبرْني واحدةٌ من (أخواتي) أمهات العيال[1] أنها شاهدْته في عين (أبى فهد). نعمْ شاهدتُ وشاهدتْ (أخواتي) ذياك النداء الذي تطلقه العيون الراغبة في ترجمة نداء الغريزة، وهذا يختلفُ كثيراً عن البريقِ الذي تبحث عنه المرأةُ وبما يعادل أو يزيدُ عن النداء الغريزيِّ. لا تقلْ لي يا (سيفُ) إنّ خلطة المهامِ الملكيةِ وهمومَ الحكمِ والخوفَ من وعلى المستقبل، تشتت البريقَ وتجعلُه مريضاً... لماذا؟ لأن غالبيةَ الرجالِ الشرقيين: الملوك منهم، وحتى الذين يعملون في الجزارة، يفتقدون ـ تقريباً ـ لهذا الامتياز. وقد يملكه بعضهم ويستطيع إحياءه، لكن ما الفائدة وفترات كمونه، تطولُ وتطولُ إلى ما لا نهاية؟!

...بحثتْ عن البريق - إياه - والدتي مع جدك. وبحثتُ عنه أنا. والأكيد أن زوجك تبحثُ عنه أيضاً. ولن يجديَ الجميعَ البحثُ نفعاً؛ لأنهم لم ولن يجدوه. وأصدقك القول: إن البريقَ - إياه - نادرٌ جداً كذلك، عند فتيات الشرق هذه الأيام، بعكس أمهاتهن وجداتهن. فالعيونُ القديمةُ كانت تشعُّ بريقاً من الحب المتجددِ الذي يبعثُ في الأحباب والأزواج ذياكِ النشاط الذي يظهر ربما في اللقاءاتِ الزوجيةِ الحميمةِ، أو اندفاعيةَ الإنتاجِ في الحقلِ، إلى أن يتشكل في الميدان الأهم: مناجزةِ العداءِ والدفاعِ عن الأوطان والأعراض".

في تلك اللحظاتِ من (التجلِّي) البلوشي، جاء إبريقُ الشاي وبيالته. وأكاد أقسمُ أن مذاق الشاي عند (أم مقرن) لا يمكن أن يعادله مذاق آخر في أي من أصقاع العالم المحب للمشروب السحري ذي التأثير المزدوج. ومن المفيد، وأنت تتناول الشاي من يد (جمعة) أو (ياسى)

(1) أمهات العيال: اللقب الذي يُطلق على الإماء اللاتي ينجبن أبناء من أسيادهن. تُصبح الأمة بعد ذلك أم ولد، و(العيال) كلمة تعني هنا الأبناء.

ألّا تخلطَ بين العمل الجادِ - مهما كان - وبين طقسِ تناولِ ذياك المشروبِ المُعزز بوريقات النعناع. وقد عملتُ بتلك النصيحة. وإن كنتُ، ساعتها، في شوقٍ شديدٍ للاستماع لحديث (كنزي) التاريخي. ومما خفف عليَّ مشاعر الضيق، والإحساس أنني أضعتُ زمناً ثميناً كان كافياً لمعرفة الكثير من تاريخ (شاهدي) على عصر مضى، هو أنني لم أكن قادراً - والأصحُ أنني لم أكن راغباً - على إقناع والدتي بأنَّ (زمن) الشايِ يذهب عبثاً.

قالت والدتي بعد انتهاء تلك (المراسم)، وهي تخفف مما يبدو أنه نوبة تحسُّر أصابتني:

"الشايُ يساعدُ على التركيز والنطق بالحقيقة. ولِزاماً عليَّ أن أقول - وأنا أتحدث عن الحقيقة - إنني صدمت من ممارسة (عزيز) سائق الملاحة التي أقلتني مع أخريات من الإحساء إلى الرياض. لقد قام السائق يومَها بتصرفٍ أعطاني انطباعاً أوّلياً عن تناقضات - بعض - أفراد المجتمعِ السعوديِّ، وفقدان مصداقيته أمام الله ثم أمام الناس ونفسه.

حدثَ هذا بالقربِ من سعد، ونحن ننتظرُ الملاحةَ الأخرى، وبعض السياراتِ الصغيرةِ المرافقة، التي تأخرتْ عن عربتنا المسرعة بما لا يقلُّ عن ساعةٍ. وقفتْ (ملاحتنا) يومَها بجوار غدير ماءٍ صغير، خلفته ليلةٌ مطيرةٌ سابقة. قبل أن يبتعد سائقنا عن النساء اللاتي نزلن من الحافلة لأداءِ الصلاةِ وقضاءِ الحاجة.

...ومن بعيدٍ، شاهدتُ السائقَ يؤدي صلاةً سريعة ليس فيها خشوع. وما لبثَ، بعد الانتهاء من تلك الحركات المتلاحقة، التي فقدت معناها؛ أن مدَّ يده وبسرعةٍ إلى جيبه الأيمنِ وأخرج شيئاً أصغر من السواك. كان هذا الشيء عبارة عن لفافةٍ بيضاءَ، أشعل السائق أحد طرفيها من عودِ ثقابٍ كان يخبئه مع تلك اللفائف الدخانية. اللفافةُ ذاتها

تتشابه مع ما كان يحمله الرجلُ البريطانيُ الذي شاهدتهُ عند ساحلِ بحر بلوشستان. لكنَّ الرجل الأوروبي كان صادقاً مع نفسه، ولم يقمْ بتلك المناوراتِ والاختباءات التي قام بها سائق ملاحتنا. السائقُ أوحى لي أنه كان يفعل خطأً ومحظوراً هو لم يرغبْ أن يراه الآخرون إلا وهو يصلي، أما التدخينُ - الذي عرفت معناه لاحقاً - فهو الشيءُ المخفي غير المرغوب الاطلاع عليه.

ولم يكن هذا كل شيء. فلقد قام (عزيز) بحركات مريبة مع إحدى الخادماتِ المسافرات معنا من الإحساء للرياض. وفي نفس الحافلة التي أقلتنا.

الرجلُ والمرأةُ - كما لاحظتُ - بينهما رابطٌ معين لا أعرفه. أكدت لي هذا نوعيةُ النظراتِ والإشاراتِ التي ينظرها كلٌّ منهما للآخر... هذا لا يهم، لو أنهما أخرجا حبهما - المفترض - للعلن وأعلناه شرعياً، وإن لم يستطيعا ذلك فليوقفا هذه المهزلة فوراً. لكنهما لا يرغبانِ إلا في إشهار الأشياء التي يريدها منهم مجتمعُهم المحافظ. لقد نسيا، بالتأكيد، شجاعتهما الأدبية، وفوق ذلك الخوف من الله. وقدَّما بدلاً من ذلك كلَّ ما يطلُبه المحافظونَ الكُثر حولَهما".

أعادت مرة أخرى الشالَ الهنديَّ الناعمَ الذي كان يغطي منكبيها الصغيرين، إلى موضعه الذي انسل منه، بفعل الانحياز الحماسيِّ لِحُرمة الأخلاقِ التي فرط فيها سائق أكثر من نصف قرن!

ولم تدر - رعاها الله - أن تصرفات (عزيز) الخرقاء القديمة تلك، أصبحت طرفة من النوادر، قياساً بما يحدثه الآنَ أجيالُ التحلل من كلِّ شيءٍ، أو الأجيال الأخرى التي تغلو في كلِّ شيء. وخطر لي حينها أن أداعبَ تلك الـمحامية عن أخلاقِ الملوكِ والرعية .. قلت لها:

"المسكوتُ عنه دائماً والمتواري خلفَ جدران مساكنِ الشرقِ، أو خلفَ (ملاحاته) أو الساكن داخلَ الصدورِ إلى حين مواعيدِ فيضانه هو

أكثرُ بكثيرٍ من المعلن والمتفق عليه؛ لكن بهذا السلوك، شاء أهلُنا أن يعيشوا ازدواجية حياتهم، سواء في (الرياض) أو في (بنقلان). ألم يكن أبو حسين - مثلاً - عادلاً أمام الناس، وعنيفاً دموياً، بعيداً عن العيون. والدليل هو (لاشار جلال) ... وليد عنف الأقبية والزنازين في بيت بركة"؟!

ارتسمتْ علاماتُ الغضبِ والألمِ مما حسبته والدتي طُرفة مزجتها بشيء من التذكير (بعولمة) التناقضاتِ في السلوكِ البشري. وبلا شك فقد أفلحتُ - كالمعتاد - في الحصول على النتائج العكسية التي لم أردها!!

شيئاً فشيئاً بدأ ذاك المظهر المُزدوج على محياها يختفي، ليسكنَ بدلاً منه الهدوءُ والسكينةُ اللذان عرفتُ والدتي أنها في حاجة ملحة إليهما؛ لأن المفصل الرئيسي لقصتها بدأ يلوح ويقترب؛ ولأن ابنها، مدون تلك القصة، تنقصه - دائماً - فضيلة الحكمة واختيارِ الكلماتِ المناسبة... في الأوقات المناسبة!

رأتْ تلك (الحكيمةُ) أن العودة للتسلسل السردي لحكايتها، يكمل محاولتها العنيدةَ للتمسك بالصبر في مواجهة طيش المقابل. ولهذا قالتْ، وكأن شيئاً، قبل لحظات من لغو الكلام، لم يحدث:

"رحلتنا في (الملاحة) بين الإحساءِ والرياضِ استغرقتْ نصفَ يومٍ كاملاً، اثنتي عشرة ساعة قطعناها بين القطاعين الشرقي والأوسط للبلاد التي وحَّدها رجل خارق في همته وفكره .. وحظه.

يا إلهي ..! من كان يستطيعُ - غير عبد العزيز - أن يوحِّد تلك الأصقاعَ التي تتنوع تضاريسُها، بين سِباخ أو مجاهل من تراكمات الرمال المتحركة، وبين تلك الجبالِ الشاهقةِ والنجودِ المتبوعة بالسهول؟ كلُّ تلك التضاريس أو بعضُها التي رأيتها بين الإحساء والرياض، أو بين الرياض والحجاز، أو في أثناء خروجنا مع والدك (الملك) إلى رياض العشب في الصحراء أثناء سنوات الربيع الطيب وأعوام المطر الغزير؛

كل تلك التنوعات في أشكال الأرض السعودية، تعطيني دليلاً على أن (أرضكم) و(تاريخكم) وُلد من جديد بعد الدقيقة التالية (لقرار) الملك عبد العزيز فتح الرياض.

عبقريةُ الرجلِ وتفرُّده، لا يبرزهما تطويع مالا يطوَّع من الأرض، بل الأهم والاعمقُ والأكثر استدامة: تطويعُ إنسانِ هذه الأرض، الذي كأنه قذف به قديماً في تلك الصحراء المقفرة الموحشة، ثم نسيه الجميعُ، أو تناسوه... سيَّان. والعجيبُ أن إنسان الجزيرةِ - ما قبل عبد العزيز - قد عاقبَ من نسيه، بأن زاد من عزلة نفسه ومعاقبتها عبر التخلف الذي لا مثيل له، والدموية التي لا حد لها بين مجاميع بشرية معدمة تسكن أرضاً تُذكِّرُ بالفناء قبل أوانه.

جاء (أبو تركي)، وكأنه المنقذ الأسطوري الذي تنتظره منذ أحقاب أحداث السابقين قبل المعايشين له. دعك - بني - ممن يقول إن الرجلَ كان يبحثُ عن مُلكٍ وإقطاع، إن توسع وازدادت رقعته، فلن يتعدى بلاد نجد وما حولها فقط. وإنه - حسَب أقوال المبغضين للموحِّد - وجد نفسَه فجأةً أمام التاريخ وأمامَ الفعلِ الذي لا تكرره السنونُ كثيراً: إما لأن القُوى السياسية الدولية حينها، أرادت رجلاً يوحد بلاد جزيرة العرب ليستطيعَ تمريرَ رغباتها وخططها، وإما لأن الناسَ في الجزيرة العربية وصلوا إلى حالة من اليأسِ والقنوط في أن تمتد لهم يد من الداخلِ أو الخارجِ، لتأخذهم إلى أنس التحضرِ وظلالِ الأمن وأمنياتِ التوحد. وحسب هذا المعتقد (رضخوا) لعبد العزيز وانقادوا له، خلاصاً مما هم فيه من التردِّي والكرب.

...كلُّ تلك الأقاويل يا - دكتور - هُراءٌ ودجلٌ. فعائلتك لم تكن - كما علمتَ - طارئةً على هذه البلاد. وليست مغمورة، أو أنها طفت على سطح الأحداث بفعل فاعل، ثم أعطيت تبعاً لذلك الحُكم والسيادة والنبالة. هي (= العائلة المالكة) بمقوماتها ومزاياها الذاتية لم يكن

مستغرباً أن يظهر منها شاب خارق العبقرية والنبوغ والطموح. حتى وإن ظن الكثيرُ أن شمس الأسرةِ السعودية قد التهمها ليل شتائيٌّ طويل.

...إنني أعني ما أقوله: عبدُ العزيز، هو سليلُ أسرةٍ خلقت للزعامةِ والقيادةِ، لم تخلقْها بريطانيا، حاكمة عالم صبا (عبد العزيز). ولم تقدم ظروف الدنيا السياسية الماضية مفاتيحَ السؤدد والظفر، للشاب المنفيِّ في الكويت، والغاضب لغياب الأمل في صدور أهل بلاده في قيادةٍ تنقذهم مما هم فيه. المفاتيحُ الحقيقية لوحدة البلاد السعودية كانت في شخصيةِ جدك وجهادهِ، وشجاعتهِ، وخارقيته للثوابت السياسية لهذه البلاد، التي يبدو - والله أعلم - أنها لم تكن لتستطيعُ أن تتحرك أبداً لولا بروزُ هذا الرجلِ الأسطوريِّ.

...أما الأمرُ المضحكُ الآخر، فهو القولُ، إن (إحباطَ) مجتمعاتِ الجزيرة العربية كان السببَ في رفعه راية عبد العزيز المنصورة. أتساءل بصدق هنا: لِمَ لَمْ يتقدمْ مثلاً أحدُ المحبطين - وما أكثرَهم - في نجدٍ والحجاز والإحساء، ليصبح رجلَ الساعة، والقائدَ الضرورةَ، والموحِّد الأملَ؟!

الحقيقةُ أن لا أحد يستحق أن يكونَ الفائزَ الأولَ في أيِّ سباقٍ إلا مستحقه. المتدرب جيداً وصاحب النفسِ الطويل، والأكثر احتمالاً وقوة، وهو وحده الذي يترك للآخرين فقط الحسرةَ والتشكيكَ ببطولاتهِ وجوائزه. ليتفرغَ (المنتصرُ) وهو مبتسمٌ، لبطولةٍ لاحقة له، ولإعجاب النظارة المنصفين وتصفيقهم، وما سيضعون على رأسه من أكاليل النصر، وحتى ما سينسجونه من أساطير وحكايات عنه. وبالرغم من كل الأخطاء اللاحقةِ يا (بني) التي اقترفتها عهود ما بعد الملك عبد العزيز، والتي - في ظني - لم تكنْ ضرورية لتحدث، فإن كل قُبلة يطبعهـا ـ الآن ـ رجلٌ على شفةِ امرأته في السعودية وهو آمن في بيته، صحيحٌ في بدنه، يملك قوتَ يومه ـ لعبدِ العزيز الفضلُ الأولُ ـ بعد الله ـ في إتمامها.

وعلى كل زارعٍ في مزرعتهِ أو تاجرٍ في متجره أو صانع في مصنعه... وحتى البسطاء، عليهم جميعاً - في رأيي - أن ينحروا في كلِّ سنة قطيعاً من الخرفان والأبقارِ والإبلِ، مثوبةً لروح الراحل العظيم".

ماذا عساي أن أسمعَ من أحكامٍ غير التي سمعتها للتوّ، من سليلة بيوت الحكم والزعامة؟

والدتي منحازة، بحكم تكوينها الطبقي وتربيتها ونظرتها للأمور، لعبد العزيز وما يمثله عبدُ العزيز. وهي لن تهتمَّ بمن قُتلوا في حروبِ عبد العزيز .. معه وضده. ولن تسأل عن مصائرِ من أضيروا من رايات عبد العزيز المنصورة. ولا كيفيّة تعويض من ينتسبون لهم بالقربى أو مشاعر المحبة، من جرّاء اختفاءِ كل الأسماءِ المشهورةِ ونصفِ المشهورة .. إلا اسم عبد العزيز، وكأن التاريخ المعاصر للجزيرةِ العربيةِ قد بدأ بـ (الشيوخ) فقط!

لكن، ومن الجانب الآخر، لم أجدْ - وأقسمُ على هذا - وبرغم كلِّ حيدتي - المؤلمة لي - تهافُتاً في معظمِ حديث والدتي عن جدِّي لأبي!

من يُعطيني تصوراً لمستقبل الأراضي التي يرمزُ لها في خرائط العالم بأنها (المملكةُ العربيةُ السعوديةُ)، لولا صيحاتُ الانتصار (العزيزي) في يوم اقتحام الرياض؟! ومن الذي يقدِّم دليلاً (ملموساً) بأنَّ الملكَ عبدَ العزيز هو صنيعة هذه الظروف السياسيةِ، أو أنه ربيب ذاك القطبِ الدوليِّ، أو أنه مجرد الحظ يمشي على رجلين؟

لا أحد ..!

يقولون - مثلاً - إنّ الدولة السعودية الثالثة - انتقاصاً من عبد العزيز ونتاج ما قام به - هي الدولة الوحيدة في العالم التي بدون مؤسسات. ويمكن أن ترد (والدتي) عليهم: بألّا وجود - أصلاً - عند البدايات الأولى لإنشاء الدولة الوليدة، لأي هيكل يمكن أن يطلق عليه

اسم (دولة). ما كان ليس إلا وسطاً اجتماعياً ...
والتخلف والانعزال. ولا ترى من أنظمة إدارية ...
الأغنام لأغنامهم ... هزيلة الضروع!

ولئلا يتحول الحديثُ عن الملكِ (عبد العزيز) ...
به والدتي مرةً، وأنوب عنها في ذلك مرات أخرى ...
من حين إلى أخر عن نفس الموضوع، قمت ...
لأطرحه على والدتي، حتى نعود - أنا وهي - ...
هي مع الحياةِ وما فيها من أمكنة وبشرٍ، لا إلى حكايات ...
وملاحمهم:

"ألم يأخذك التفكير إلى منحى آخرَ و(...) ...
الإحساس إلى الرياض تهزهزكِ مع الأخريات، ...
مثلاً؛ أو إلى ما يمكن أن تثيره في نفسك من ...
الأرض العربية، بصحرائها الملامسة للجبال ...
تخبرينني عن أشياء من هذا القبيل، خلال رحلات ...
الأسر والاغتراب"؟

تواكبتْ رعدة بسيطة غزت حنكها الضامر ...
الكلمات التي أرادتْ نبراتها أن تُلقى بشكل مسرحي:

"أعرفُ أنك مللتَ أو أصابك الضيقُ من حيتي ...
الموحد، والذي سأكرره مراراً وتكراراً على ...
اعتراضاتك الخفية. لكنني أريدُ أن أقولَ لك شيئاً غريباً ...
السابق:

لم يذهبْ تفكيري كثيراً وأنا متجهة من ...
الرياض، إلى ما يمكن أن يكون قد حلَّ بأهلي ...
ولا اختبرتُ مشاعري كما كنت أختبرها سابقاً. ...
والعبيد.. إخوتي في رحلةِ تصدير البشر للبشر... ...

التفكير خلال تلك الرحلة في وعن (عبد العزيز) وبلاده، وماضي ومستقبل ما عملته همةُ وشجاعةُ هذا الرجل؟

...أتعرفُ يا (سيف) أنني رحت طوالَ رحلتي تلك بين الهفوف والرياض، أتساءل بعد أن طرحت على نفسي السؤال الأول الذي يبحث في ماهية تلك العبقرية للمؤسس، عن مستقبل (السعودية) بعد عبد العزيز وبعد أن ينتهي تأثير جاذبيته ويضمحلّ تراثُه الذي صنع دولة ومجتمعاً موحداً؟!

...عندما رأيت أنوار الرياضِ الخافتةَ، ونحن نطلُّ عليها من خلال مرتفعات (العرمة)، كان (عبد العزيز) لا يزالُ له فرصة عيش في الدنيا تقدر بست سنواتٍ. كانت تلك السنواتُ مرفهةً قياساً بما مضى من عمر (الشيوخ)، لكنَّها - في رأيي - لم تكنْ أفضلَ أيامِه. بل إن عبد العزيز فيها لم يكن عبد العزيز الذي يفتح البلدان ويوحد المناطق، ويقمع الفتن ويرسم على الرمل ثم على الخرائط حدود بلاده. كان رجلاً مُختلفاً مُقبلاً على مُتع الحياة - حسب المفهوم السعوديّ للمتع - المتمثلة في تعدد الزوجات وكثرة الأبناء والبنات. بالطبع جدك كان لا يزال حتى آخر يوم في حياته متديناً مخلصاً لعقائده، لكنه كان أيضاً شيئاً فشيئاً يتخلص من رداء الفارس، ليلبس رداء الاستقرار الملكي ويتطعم مذاقاتِ ما بعد النجاحات والانتصارات. هناك كثيرٌ من الملوك والسلاطين يفشلون ويغرقهم طوفان ترف (البعدية) بعد أن كانت (القبلية) العصبية، هي الركيزة وعَمُود خيمةِ الولايةِ والحكمِ.

...حق لي يا (بني)، وأحلام عبد العزيز تتحقق، بل وأكثر مما ظن أنه الممكن والمتاح ـ أن أعيد السؤال المركّب الآن وبصيغة تختلف - في الشكل فقط ـ عما سبق أن تحدثت به مع نفسي قبل ثلاثةِ وخمسين عاماً:

أتستطيع أجيالُ (ما بعد) التأسيس، عادة، أن تحافظ على قوة

الاندفاع، وفتوة انتشار الممالك؟ تلك مواصفاتٌ اسمع منك ومن غيرك، ومما يُعرض في التليفزيون ويذاع في الراديو، أنها صفات الدول في أول قيامها... لكن ماذا بعد ذلك؟

عندما يأتي حفيد لعبدِ العزيزِ - مثلاً - ليحكمَ هذه البلاد، وقد تعلَّم في الغرب، وأموالُه في الغرب، ومشاعره في الغرب، كيف يمكن أن يوائم بين مكوناته الشخصية الـمُغرّبة والواقع السعودي؟ هل يمكن أن يوازن بين أن يكون شيخاً للقبيلة، وبين أن يكون ملكاً يأخذ بلاده إلى التحديث والتحضُّر؟ هل سيستطيع أن يحقق التواؤم الصعب جداً بين القديم والجديد، وأن يقارب بين البداوة والتمدُّن؟ أيكونُ في مقدوره استبدالُ امتهانِ الغزواتِ، بالانسجامِ - النسبيِّ - بين أشكال الطيفِ: الاجتماعي، والمذهبي، والقبلي، السعودي؟

أسئلتي مشروعةٌ ... أليسَ كذلك؟

وقد تقول لي يا (بني) إن بناءات الدولة الحديثة ومؤسساتها، تختلفُ في مراحلها اللاحقة ـ ذاتِ المواصفاتِ الخاصةِ ـ عن المراحل الزمنية القديمةِ، والمتمثلةِ فقط في استقطاب جاذبية القائد وهيبته، لقلوب البسطاء من شعبه. وأستطيع أن أرد على هذه المقولة: بأن مجتمعاً صحراوياً ذا تقاليد من نوع خاص، وضاربة في أعماق تركيبته النفسية؛ لا يمكنُ إلا أن يكون له قائد ذو خاصية متفردة. مجتمع الجزيرة العربية يا (بني) يرى أن السمعَ والطاعةَ في المكرهِ والمنشطِ لإمامه، جزء من نقاء الدين والتقوى. ثم لاحظ أن تراثه السياسيَّ لا يعرفُ ضرباً من ضروب الاستماع للرأي الآخر، إلا المثال الشورى غير الملزم؛ هذا المجتمع - وحتى بوجود مؤسساتِ المجتمع المدني وقبلها أنظمة الحكم الحديثة - لابد له من قائد وقيادة مركزية تمتلكُ تلك التي تسمونها (جاذبية).

...سيظلُّ الأفرادُ هنا يذهبون للحاكم ليحكوا له مُشكلاتهم، حتى

ولو أسسوا في هذه البلاد ألفَ نِقابة وجمعية. لكنْ هيهات أن تكون شخصية الحاكم مثل (عبد العزيز). والأهمُّ، من أين يأتي الناس بمثلِهِ؟!

...انس يا (بني) ماسبق أن غمرني بالحيرة خلال الرحلة (الملاَحِية) قبل عقود ودعنا نطرح، أنا وأنت، الآن، هذه الأسئلة التي تختلف في الشكل والمسميات عن هواجسي السابقة، مع أن المضامين تبقى كما هي:

هل يمكنُ أن تكونَ الشخصيةُ المقبلةُ، التي ستديرُ شؤون هذا البلد العربي الأصيل المتدين والمحافظ؛ على شاكلة من (نراهم) من أبناءِ عمومتك الذين هم نسخةٌ مُنقحة لآبائهم الذين عاصروا أيامَ نكبةِ والدك؟!

هل يمكنُ أن يكونَ (خادماً للحرمين الشريفين) بعدَ عقودٍ لا يعلمُ مداها إلا الله، من يحوز في نفسِ الوقت - بالإضافة إلى الشرفِ الديني الذي يرمزُ له لقبه - على النسبة الكبيرةِ من ملكية محطات تليفزيون فضائية، يقول لي المبصرون عنها، إنها تتعدى بتحررها الأخلاقي المحطات الغربية؟

ثم ألا يمكنُ أن يصبحَ - من جهة أخرى - الملك السعودي الآتي من مجهول الأزمنة القادمة، مُغالياً، ومتطرفاً دينياً، ويشابه، ولو من بعيد، ما كان عليه (جهيمان)[1] واتباعه، من طرق تفكيرٍ، وأساليب مقترحة منهم لإدارة شؤون الحكم والمجتمعات؟!

كلا النموذجين لا يعكس (عبد العزيز) ولا شخصيته ولا سلوكه ولا ما يتمناه. إنما قد يحدث هذا، ويمكن أن يحدث هذا أيضاً في خضم تغيرات دولية. الأمر الذي يجعلُ المستحيلَ حقيقةً ملموسة.

(1) جهيمان: متطرف ديني اقتحم الحرم واحتله لأيام، في محرم عام 1400 هـ/ نوفمبر 1979م.

صدقني ..! تلك المخاوفُ التي تتصاغر، مقابل مخاوف اليوم، لم أكن أرغبُ في أن أفكر فيها - كما الآن - أو أن أتصور أبعادها و(الملاحة) الإحسائية، تأخذني مع أخريات إلى الرياض. حيث سأصبح (سرية) لوالدك ... ولي عهد السعودية آنذاك.

...ها هي ذي الرياضُ بأنوار مصابيحها الخافتة في تلك الأيام تقتربُ شيئاً فشيئاً لنا... أو أننا نقترب منها. إنها مدينةٌ قيل لنا في الإحساء ونحن نُساكن أسياد قصر (ابن جلوي) إنها ستكونُ مدينةً عصرية ولا كل المدن في المشرقِ. وإن النية متجهة لإعادة مجدها السابق. هل صحيح يا (سيف) أن للرياض كما يقولون مجداً سابقاً غير أنها شهدت التبدلات السريعة للراغبين، في حكم تلك البساتين شبه الجافة والمحاصرة مع أصحابها البائسين المنتظرين أقدارَهم، داخل أسوار العزلة الطينية"!

يا للذكاء..!! والدتي، تريد بسؤالها الأخير الذي جاء كخاتمة لجملها الكثيرة المسرحية، ألّا تسمع رأيي وردود فعلي على (مشروعها) المستقبلي لحكم بلادي. إنها تعتقد بأنني إن (لجَمَني) سؤالها الأخير، وانشغلتُ بالإجابة التالية عليه، فإنني سأعطيها (شيكاً) على بياض، يمرر تلك الأقوال (الخطيرة) التي تفوهتْ بها عن الأجيال القادمة لـ(آل سعود) عندما يحكمون الأرض، التي حكمها من قبل آباؤهم وأجدادهم... بطرقٍ مختلفة، وفي وسط ظروف وأوقات مغايرة _ في كل شيء _ للأوضاع الحالية.

لا بأسَ..! سأمرر (رغبات) والدتي الدفينة تلك، لكن وعندما ستحين فرصة قادمة - وما أكثرها - لن أتوانى عن عرض موقفي الجليّ، رداً على آرائها القاطعة في أبناء جيلي من (الملوك) المنتظرين لحكم المملكة العربية السعودية.

عن سؤالِها الخاص بالرياضِ أجبتُ وأنا أستعجلُ تلك الإجابة

مخافة أن تغزوني مشاعرُ لا أريدها... خلاصتها: أن مخاوف والدتي وأسئلتها حول مستقبلِ وطني وأسرتي، فيها جوانب حقيقية وجادَّة... ومعيشة:

"من الأخطاءِ الكبيرةِ، التي يقترفها واضعو تواريخ بعض المدن العربية والإسلامية غير المنصفين؛ إصرارهم يا (أماه) على أن بدايات تلك المدن كانت مع الحدث أو الانتصار الأول، الذي قام به هذا العَلَمُ أو تلك الشخصية الأسطورية. وما قبل ذلك، لم يكنْ إلا أدخنة تاريخية من الأحداث والوقائع تطير في كل اتجاه. وبهذا لا يمكن الركونُ - حسب الرأي السابق - إلى غير المستمسكِ تاريخياً ولا الموثق.

قليلون هم الذين يعرفون تاريخ مدينة الرياض، هم يعرفونها ـ مثلاً ـ عندما تقول لهم كتب التاريخ المصوغةُ تحت التأثير الرسمي والحكومي: إن هذه المدينة سُكنت وتحضرت، مع ولادةِ وقائع صنعتها - شخصية أو شخصيات معينة - اختارتها توجهات من (صَنعَ) تاريخنا الإعلامي والإسلامي. اسم (الرياض) يختفي من كلِّ الأسفار تقريباً، إلى أن نراه فجأة يبرز مع بروز اسم أميرها المشهور الذي بنى أول قصورها وأسوارها، أعني (دهام ابن دواس). وذلك قبل منتصف القرن الثاني عشر الهجري[1]. وهنا يتعجبُ المرءُ - والدتي - كيف أن رجلاً واحداً تبدأ معه قصة مدينة؟ بالطبع هذا غيرُ صحيح! فالرياضُ مدينةٌ تاريخيةٌ قديمةٌ قامت على أنقاض مدينة (حجر) التي سكنها أقوامُ طسْم وجديس، حجر هذه هي المركز الرئيسي لإقليم اليمامة ومنذ القدم، كانت مركزاً تجارياً بالغ الأهمية يتوسط الجزيرة العربية. وتختاره القوافلُ المشرِّقةُ والمغرِّبةُ للمكوث فيه، وللتزود بما تجود به حدائق (حجر) المروية بالينابيعِ والعيونِ القديمةِ.

---

(1) الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي.

اسم الرياض - أماه - مشتق من اسم (الروضات) العشبية الموسمية التي تحيط بمدينة الرياض الحديثة. لكنَّ هذا الاسمَ لم يتردد في كتب التاريخ إلا في وقت متأخرٍ، وبالتحديد في عهد (دهام ابن دواس) وقبل ذلك عرفت هذه الأنحاء بعد اختفاء اسم (حجر) بأسماء مثل (مقرن) و(معكال) و(منفوحة) التي يُعتقد أنها مدينة الشاعر (الأعشى). كل تلك القرى، والمدن الصغيرة، عرفت لاحقاً بعد اجتماعها داخل سور واحد.. باسم (الرياض).

...دهام ابن دواس هذا، انخرط في صراع دموي مع مؤسس الدولة السعودية الأولى الإمام (محمد بن سعود) وابنه (عبد العزيز) واستمرت حروب الفريقين ثمانيةً وعشرينَ عاماً تقريباً، كما تقول المصادر التاريخيةُ، التي تضيف أيضاً أن قتلى المعارك بين الرياض والدرعية قد فاق أربعة آلاف ضحية، كلهم قتلوا في أثناء خمسةٍ وثلاثين هجوماً متبادلاً بين المدينتين. حاكمُ الرياض القديم كان يخشى نفوذ الدعوةِ السلفيةِ وقوةَ الدولةِ الجديدةِ الحامية لها. وما كان يخشاه الرجلُ قد حدثَ بالفعل: قتل اثنان من أبنائه، الأمرُ الذي اضطره للهرب مع أسرته من الرياض. وبعد أيام قليلةٍ دخلها (عبد العزيز بن محمد بن سعود). وبالرغم من سقوطِ الرياضِ في قبضةِ السعوديين، وما دلَّ ذلك عليه من تبدل في ميزانِ القوى في نجد؛ إلا أن الرياضَ لم تأخذ دوراً قيادياً. لأنها ظلَّتْ مجردَ تابع إداري (للدرعية) عاصمةِ الدولة السعودية الثانية، والتي وصل نفوذُها الفعلي لكل أنحاءِ نجدٍ والإحساء وحتى الحجازِ وعمان".

تساءلتْ والدتي وهي تقاطع حديثي الحماسيّ عن مدينتي الحبيبة:

"ومتى احتلتْ (الرياض) مكاناً هاماً عاصمة للحكم السعودي في طوره الثاني"؟

أجبتُ وأنا فرحٌ برغبتها في معرفةِ تاريخِ الآباء والأجداد:

*بعد انهيارِ الدولةِ السعوديةِ الأولى، بعد هجمات جيوش محمد علي باشا وابنه (إبراهيم)، قامت الدولة السعودية الثانية بعد برزخٍ زماني يقدر بست سنوات فصلت بين الدولتين.

...مؤسسُ الدولة السعوديةِ الثانيةِ هو الإمامُ (تركي بن عبد الله آل سعود) الذي كان من ضمن قلائل من آل سعود استطاعوا الفرار من القبضة الحديدية لجيوش الباشا.

استطاع هذا المؤسس الجديدُ أن يطرد الأتراك من (الرياض) ليتخذها عاصمة لدولته؛ لأن الدرعيةَ (العاصمة القديمة) قد خُرِبَتْ بالكامل من قبل الجيش الغازي.

...ثم ماذا بعد هذا؟!

قتل الإمامُ (تركي) بعد اثنى عشر عاماً من حكم الرياض وما وقع تحت يدها من مناطق نفوذ مثل الإحساء والقطيف. وتولى بعده ابنه (فيصل) الذي تعرض في وقت لاحقٍ من حكمه لأزمةٍ حادة أطاحت بسلطانه. كانت هذه الأزمة غريبة جداً. لا لأن جيوش محمد علي قد عادت مرةً أخرى لغزو قلب الجزيرة العربية، بل لأن هذه الجيوشَ قد جلبت معها - وعبْر طريقةٍ مستحدثةٍ - أميراً من آل سعود، ليتحكموا من (خلاله) في مصائر نجد وأهلها. مخططُهم كان مغايراً للغزو الأولِ، الذي أطاح بالدولة السعودية الأولى. فبدلاً من الحكم المباشر، ها هم أولاء يأتون بمن ظنوه منفذاً لأطماعهم. وفي نفس الوقت يمثل هذا الحاكم الجديد مرجعيةً عاطفيةً، تنتسب للأسرة التي ارتضاها الكثيرون للحكم والولاية في بلادهم قبل ذلك.

هذا المخططُ لم يستمرّ إلا لسنوات قليلةٍ. حتى والإمام (فيصل) يُساق أسيراً إلى القاهرة؛ لأن (خالد بن سعود)، حاكمَ الرياض (المعين)، لم يستطع الصمود في وجه انتفاضةِ أهل الرياض وأسرته التي ينتسب إليها.

الجميعُ رأوا في التعس (فيصل) عميلاً لقوى أجنبية. وهو بهذه الصفة لا يمثِّلهم ولا يمثل التراثَ السياسيَّ والدينيَّ والثقافيَّ للأسلافِ المؤسسين، ولا ما وافق الرعية أن يُحكموا تلك الأسرةَ على أساسِهِ.

...ولاحقاً عَرف الأهالي اسم زعيم التمرد وقائد الإطاحة بصنيعة الأجانب الغرباء، القائد (الظرفي) هو: الأميرُ (عبد الله بن ثنيان بن سعود) الذي حكم الرياض، ومدَّ سيادته، كذلك، إلى المناطقِ التي كانت خاضعةً لأمراءِ وأئمةِ الدولةِ السعودية الأولى.

...بعد مرورِ أربعِ سنواتٍ عاد إلى الرياض الإمامُ (فيصل بن تركي) بعد فرارهِ من سجنهِ في مصر. وشهدت الرياضُ، نتيجةً لعودةِ الحاكمِ السابقِ، شهوراً من الصراع بينه وبين ابن عمه البعيدِ (عبدِ الله بن ثنيان)، الذي ارتقى سلَّم حُكْمِ الرياض أثناء (ثورة) الأهالي على الغرباءِ والعملاءِ.

انتهتْ كلُّ تلك الأيام العصيبة المغموسة بالدَّمِ والقلاقل؛ بفترةِ حكمٍ ثانيةٍ (لفيصل بن تركي)، الذي ركز في البدايةِ على عودة الأمن والاستقرارِ النفسيِّ لسكانِ المنطقة. وتقول الروايات التاريخية: إن ذلك تحقق، كما تحقق رخاءٌ نسبيٌ للاقتصاد المحلي. وشهدت التجارة بين مناطق نجد من بادية وحاضرة بالإضافة إلى تجارةِ المرورِ من الشرقِ للغربِ عبْرَ نجد ـ ازدهاراً لم تشهده هذه الأصقاعُ منذُ أزمانٍ طويلةٍ.

...وبوفاةِ ابنِ مؤسس الدولةِ السعوديةِ الثانيةِ (فيصل بن تركي) في عام 1282هـ[1]، بعد حُكم متقطعٍ دام ثلاثين عاماً[2] انهار كل شيء: في الرياض وفي نجد وفي داخل الأسرةِ السعوديةِ الحاكمة ذاتها كذلك. إذ دخل ورثةُ الإمامِ (فيصل) في نزاعٍ مريرٍ دمويٍّ عبثيٍّ على الحكمِ.

(1) الموافق لعام 1865م.

(2) تمّ احتساب سنوات الأسر في مصر... على أنها امتداد لفترة حكمه.

ولأن الأمرَ السلطويَّ أصبحَ نزاعاً بينَ فُرقاء ضعفاء، لم يتبنوا المصلحة العليا لبلادهم وأهلها، ناهيك عن انقسامِ الأسرة الحاكمةِ نفسها، فقد طمِعَ الطامعونَ الكُثر في ميراث (آل سعود) السلطوي.

...لم يكن مستغرباً، والأمورُ تجري هكذا، أن تعودَ الفتنُ والحروبُ العصبيةُ بين القبائل في نجد إثر انهيار الحكم المركزيِّ في الرياض. وكان من المنطقيِّ أيضاً أن يُفلتَ زمامُ الأمن والاستقرارِ في تلك الأنحاءِ من نجدٍ. هذا الاستقرارُ الذي تحققَ من قبلُ بوجودِ زعامةِ مثل زعامة الإمامين (تركي) وابنه (فيصل). وزادَ الطينَ بَلَّةً، دخولُ الدولةِ العثمانية في أتونِ الأزمةِ النجديَّة؛ بِزعمِ مناصرةِ أحد الأخوينِ المتصارعين على الميراثِ السياسيِّ الذي اختفى.

عاد العثمانيون تحتَ الحُججِ الواهيةِ؛ ليحتلوا عام 1287هـ[3] الإحساء والقطيف اللتين كانتا تابعتين للدولة السعودية. ولم يتوقف الأمرُ عند هذا الحد، بل احتلتْ بريطانيا عمان، التي كان الحكم السعوديُّ ينشرُ نفوذه القويَّ عليها. وقدَّمتْ الدولةُ الكبرى - آنذاكَ - أسباباً لم يكن عسيراً دحضها، أسباباً واهية مثل أنها أقدمتْ على احتلال عمان، كعلامةٍ مساندةٍ للأخ الثاني (السعودي) الذي تناصبه الدولة العثمانية العداء. أو لأن عُمان أصبحت، بخلوّ مؤثر سلطوي يدير شؤونها، خطراً على مصالح بريطانيا. ولم يكن في المقدورِ - حسب الزعم الإنجليزي - أن تقفَ بلادُ صاحبةِ الجلالةِ مكتوفةَ الأيدي، في ظل استمرار الفراغ السياسيِّ في عُمان، وفي مركزِ البلادِ التي (كانتْ) تتحكمُ فيها.

في تلك الأيامِ - والدتي - برزَ اسمُ أسرةِ رسم القدر تداخلاً عجيباً بينها وبين الأسرة الحاكمةِ السابقة، والتي (كان) بالمقدورِ استمرارُ عقود حكمِها، لولا التنازعُ الذي يصبغ سلوكَ العرب دائماً.

(3) الموافق لعام 1870م.

...الأسرة التي أعنيها، والتي أنا متأكد أنكِ قد خمَّنْتِ اسمها... هي: أسرة (آل رشيد).

...أول من عَرَّفَ التاريخ بهذه الأسرة، هو (عبدُ الله بن رشيد) صديقُ الإمام (فيصل بن تركي) والذي انخرطَ في سلكِ المناصرين، عندما كان (فيصل) يحكمُ الرياضَ. وكان "عربون" الصداقة بين الرجلين، هو تعيين (فيصل)، لـ(عبد الله بن رشيد)، أميراً على (حائل). الجميل - كما تقولُ الروايات - لم يُردّ بأفضل منه أو حتى بنفس مقداره. ما حدث هو أن (ابن رشيد) طمع في الإرث السياسي للأسرة التي كان يَحسَبُ أنها أصبحت في ذمة التاريخ. هذا التصرُّفُ، على بشاعته، لم يكن مستغرباً أن يقع، وبهذا الشكل الذي يُخالف التصرُّفَ الإنسانيَّ السوي؛ لأنه تبلور في وسطٍ سياسيٍّ طامعٍ متربص، صبغ تصرفات مَن بيدهم مقاليدُ أمورِ الناسِ المتردية في تلك الأيام.

ما قام به الابن بعد ذلك (= محمد بن عبد الله بن رشيد) كان أمراً أكثر بشاعةً. فبدلاً من محاولةِ إصلاحِ ذاتِ البين أبناءِ صديق والده، والذي لوالدهم فضل على أسرته؛ بدلاً من ذلك أخرج هذا الفتى (الرشيدي) عنوةً ما بقى من أفراد الأسرة الحاكمةِ السابقةِ من الرياض بعد احتلالها وضمِّها لإمارته (= حائل). ولم يكتفِ (محمد بن رشيد) بفعله ذاك، بل حاول أيضاً التخلصَ اغتيالاً، من (عبد الرحمن ابن فيصل بن تركي)، والد الملك عبد العزيز. وعلى الرغم من أن محاولاته تلك لم تنجح؛ إلا أن نتيجة كل تلك الوقائع المتسارعة، هي هجرة (حمولة)[1] آل سعود ـ وبشكل ظُنَّ في أيامها، أنه نهائي ـ إلى الربع الخالي، ثم إلى قطر التي أقاموا فيها مدة شهرين، انتقلوا بعدها إلى البحرين، وإلى أن حطوا رحال التغرب فارين بحياتهم، في الكويت؛

(1) حمولة: تعني هنا العائلة.

ليبقوا هناك وبقيادةِ كبير العائلة (عبد الرحمن بن فيصل) زُهاءَ عشْرِ سنوات. ويقول المؤرخون لتلك الفترة إن جميع عائلة (آل سعود) رأتْ أن هذا المُقام يعني انتهاء عهْدهم بأزمنة الحكم والقيادة، إلا صفوةً من هذه العائلة... رأوا العكس، وكان من بينهم شابٌ متوقدُ الهمّة والذكاء اسمه (عبد العزيز بن عبد الرحمن).

...لو أن هذا الشابَّ - والدتي - رَكَنَ للسائر من أنماط التفكير، واستسلم لمغريات السلامة والعيش - شبه المرفَّه - غيرِ الكريم، ولو أنه أسلم نفسه لمنهجية التعايش مع الواقعِ والاعترافِ بقهريته؛ لو أن كل هذا حدث، لما كُتبَ في التاريخ ملحمة ذياك الشابِّ الذي (استولى) قبل مئة عام[1] من الآن، على الرياضِ.

ما حدثَ هو أن تصميمه على إعادةِ كتابةِ التاريخِ وتصحيح مساره الذي ضل، كان هو الطاغي على سلوك (زيْن) شباب آل سعود المُطارد.

قَدِمَ هذا الشابُّ إلى الرياض، وليس معه ومع الأربعين مُعدِماً الذين رافقوه في رحلة المغامرة والحلم، ما يرمز لأيِّ نصر قادم، سوى غِنى الاعتقاد بالله، وبأن (الهدفَ) الذي يحملون أرواحهم على كفوفهم من أجله، يستحق تلك التضحيةَ؛ ومن أجله وحده قفز (المغامرون) في خَواء الظلامِ والمجهول.

ما نتيجةُ هذه القفزةِ؟

النتيجةُ: دولةٌ اسمها المملكة العربية السعودية بما لها وما عليها.

وأخيراً ... قولي لي يا (أماه) هل أحسنتُ حفظ تلك المقاطع من تاريخنا؟ هل كنت مُقنِعاً؟ وهل تحولتُ إلى مُروّجٍ لحسناتِ ذلكم

---

(1) عند كتابة هذه الرواية، حَسب التقويم الهجري، يكون قد مضى على دخول الملك عبد العزيز الرياض وإعادتها لحكم آبائه وأجداده، أكثرُ من مائة عام؛ أما بالتقويم الميلادي فلا بدّ من الانتظار سنة أخرى لإكمال عقد المئوية.

التاريخ، الذي يعتبره البعض ناصعاً ولا يمكن تصور مصادر الأمتين العربية والإسلامية بدونه، ويعتقد البعض الآخر أن مستقبل هاتين الأمتين، كان يمكن أن يكونَ أفضلَ بكثير، لو أن رحلة عبد العزيز تمت - ومن معه - فشِلتْ وخاب سعي المهاجمين"؟!

ابتسمتْ والدتي من طول (مرافعتي) التاريخية. ومن حماستي التي كنت أطلب منها سابقاً صراحةً أو خفيةً... التقليلَ منها. ثم قالتْ بنبرةٍ لا تسمعُها عادةً إلا من العجائزِ أهلِ الحكمة:

"لقد أحسنتَ العرضَ والاختصارَ. لكنني أتساءلُ وأخالُكَ تتساءل أيضاً:

أين البسطاءُ من الناسِ وسوادُهم، في وسط تاريخ النزاع على الحكم والإمارة؟ لم يذكرْهم المؤرخون والتاريخ بالطبع، كما لم يذكر أمثالهم.

لابد أن أقوامَنا الذين بَليتْ عظامُهم، شهدت مجتمعاتهم أزمنة من الدموع والأفراحِ، وأياماً أخرى من الآهات وما يقابلها من ابتسامات. كما شهدت أنواعاً من قصص الحب والنزاعات. إنها حكاياتُ نعمة والناسِ البُسطاء في كل مكان وزمان. لم يرد إلى أسماعنا، ولم تقرأ عيوننا ـ للأسف ـ قصة عن كلِّ ذلك... ولو حكاية واحدة مسلية أو محزنةً. ما ذُكر عنهم أنهم ـ فقط ـ بايعوا أو هاجموا، نكثوا أو رضخوا...، الخ.

في اعتقادي يا (بني) أن هذا لم يكن صحيحاً البتة! الصحيحُ لم يُسرد علينا إطلاقاً. وهذا يعطي دليلاً على أن أراضي المشرق ومن عاش فيها، مفتونون دائماً بالأبطال وصُنّاع التاريخ والاستثنائيين من القادة. ولا شيء غير ذلك. وستستمرُ تلك النمطياتُ من التفكيرِ طويلاً جداً... والله أعلم.

عندما وصلتُ إلى (القصر الأحمر) في منطقةِ (المربع) في الرياضِ بعد مغربِ يومِ رحلتي بالملاحة من الإحساء إلى عاصمة الدولة السعودية الثالثة؛ لم تكن الأجواءُ مغايرةً لما أقوله لك الآن. كانت أحاديث (البوابين)، والسائقين، الوصيفات، والسراري، وكلٍّ من في القصر: تدور... عن عبد العزيز. وما ألَمَّ بصحةِ عبد العزيز"!!

19

طلبتْ والدتي ـ بعد أن قطعتْ حديثَها ـ من إحدى العاملات في القصر، أن تأتيَ إليها (جمعة) بسرعة؛ لمساعدتها في الذهاب إلى بيت الراحةِ المجاور لِجناح نومها. لكن الخادمةَ أخبرتْ والدتي بأن (جمعة) غادرت القصرَ صباح هذا اليوم، ولاحقاً أخبر عامل الهاتف من قبل بناتها؛ أن (أم الجميع) تشكو من التهاب حاد في الصدر. وأنها لا تستطيع العودةَ (للناصرية) بقيةَ هذا اليوم. ويحتمل أن تظل طريحةَ الفراشِ - كما أخبرهم الطبيبُ - لعدةِ أيامٍ أخرى... لخطورة حالتها.

جزعتْ والدتي للنبأ. فهي تحبُّ (جمعة) وتسميها (أم الأولاد)؛ لأنها أرضعت أخي الراحلَ (مقرن) مع أحد أبنائها الكبار، وأرضعتني مع ابنها الأصغر (سلطان)؛ وغدوتُ وغدا أخي، عبرْ رضعات كثيرة من تلك السيدةِ السمراء الطيبة، إخواناً لأبنائها، وقبلَ ذلك أبْنَاءً لها.

همستُ في أذن والدتي، وهي تخطو بصعوبةٍ وتثاقُلٍ إلى حيثُ وجهتها:

"لا تخافي - سلَّمكِ الله - فستكون (أمي) جمعة، بخير وسأرسلُ

لها العديد من الأطباء للكشف عن حالتها. وإن اقتضى الأمرُ، فسننقلها إلى إحدى المستشفيات الخاصة.

زادتها تلك الكلماتُ خوفاً على خوفِها. فـ(جمعة) كبيرةٌ في السن وصحتها في تدهورٍ مستمر منذ وقتٍ ليس بالقريب. وتخشى والدتي أن تزيدها هذه النوبة الجديدة من المرض، ضعفاً وعجزاً عن المقاومة و...

يا إلهي...!

إن حدث الأسوأ، فما الذي سيبقى لوالدتي من الذكرياتِ وأطيافِ الماضي؟

من أين ستأتيها ـ بعد انقضاء كلِّ هذا العمر ـ كلمات المؤانسة والتعاطف وحكايات الأيام الخوالي؟ ومن سيذكِّرها بِقصصِ (الملك) السابقة وأيامه الزاهرة؟ من سيعيدُ حبكَ سرديات (المربع) و (الناصرية) وما بينهما، والتي يُزاد فيها وينقصُ كلَّ يومٍ حسب قوة ذاكرةِ صويحباتها العجائز! من سيُضحِكُ والدتي مرة أخرى، و(جمعة) طباخة الملك سعود، عاجزة عن إعادةِ أحاديث ما كان (الملك) يحبه ويكرهه من أصناف الطعام، وكيف كان يُلِحّ على (جمعة) أن تكثر من الطعام (المفلفل) و(الماسخ)[1] للضيوف الثقلاء غير المرغوب فيهم، حتى لا يعيدوا الكرة مرة أخرى ويأتوا لتناول الطعام على مائدتهِ الخاصة؟!

ثم من يستطيع أن ينصحَ والدتي مراراً وتكراراً، بأن تجرى فحوصاً لدمها ووظائفِ الجسمِ الحيوية الأخرى... غير جمعة؟!

والدتي المكروبةُ والجزعةُ مازالت تخطو بصعوبةٍ نحو بُغيتها وهي بهذا التثاقل المتزايد - حتى بدون الأخبار المزعجة - تؤكدُ لي يوماً بعد يوم بأن صحتَها ـ هي الأخرى ـ ليستْ على خير ما يرام. فهي تذهب لدورة المياهِ كثيراً وهذه علامةٌ - في حد ذاتِها - غيرُ جيدة لمن كان في

(1) الماسخ: القليل الملح.

سنها. وتلك الأوجاع في ظهرها وساقيها، تزداد وطأة وانكشافاً كلما توغلت أيامها في المسير. لكن هذه (المرأةَ) عنيدةٌ جداً ولا تحبُّ الأطباءَ والحكماءَ، ولا حتى أدواتهم ومختبراتهم. امرأة واحدة فقط كانت تستطيعُ إخافتها من المرضِ القادم المقعِدِ تماماً للجسم. امرأة واحدة كانت تربط الإعراضَ عن إجراءِ التحاليل البسيطة، وما يمكنُ أن يؤدي إليه ذلك من أمور لا يعلمُ مداها إلا الله.

لكن أينَ هذه المرأةُ الآنَ؟ إنها تحتاج لتلك الوصايا والتنبيهات التي كانت ترددها مراراً لوالدتي!

ياليتني تذكرتُ في هذه الساعةِ، وفي هذا الشأن، تلك الكلمات التي تخافها ولا تحبُّها والدتي، عندما ينطقُها المشارقة مع شيء من الفلسفة: القدرُ.. والقسمةُ والنصيب.

ما جعلني أحجمُ عن ذكرِ تلك الكلمة ومرادفاتها. هو شعوري بأن والدتي لن تستقبلَ تلك الكلمةَ استقبالاً طيباً؛ فهي ترى فيها العجزَ الكاملَ، والشماعةَ التي نُعلّق عليها تقصيرنا. وهي أيضاً - في اعتقادِها - الملاذُ الأمنُ، عندما تعوزنا تفاسير الأشياء، وانحناءات الأيام.

جمعة لم تتدهور صحتُها - في ظنِّ والدتي - إلا لأن مليكها (سعود) قد ماتَ. ولأن ذِكر (سعود) قد خفت بالتالي، ولأنَّ الأعمالَ الصالحةَ لأبنائه وبناته، لم ترَ النور أبداً.

جمعة - في رأي والدتي - تعتقد أيضاً أنَّ (سعود) لا يستحقُّ ما جرى له من قبلِ دولة إخوانِه، ولا ما يجري لسمعته وسيرته الناصعتين.

صحةُ (أمِّ الأولاد) تدهورتْ أكثر - كما تخمّن والدتي - لأنَّ أهل بيتها من الأبناء والبنات وأزواجهم وزوجاتهم وأولادهم، قد سحبوا بطلباتهم المتكررةِ ومشاكِلهم العائلية، التي لا تحصى، كلَّ أوراق العُمر المُتبقية لهذه السيدة المسنةِ المعطاء. ولأن (البعضَ) من الأبناء قد اختار (الفنَّ) مهنةً وحِرفة. والفن ليس من الأعمالِ المجيدةِ ولا المشرفة التي

يُفاخِرُ كبار السنِّ بها في بلادنا. ويأنفون أن تكونَ مصدراً لِخُبز بيوتهم وزيتها.

والدتي تعتقدُ أنَّ القدرَ، كما يفهمه القدريون، لا علاقة له بـ(جمعة) وصحتها... كما هو حال صحة والدتي كذلك!

طالَ شُرودي وحملقتي في أسقفِ قصرِ والدتي بالناصرية. وعَرفتُ، من خلال التجربة، أنني إن لم (أنقذ) نفسي من هذا الشرود الطويل المُعذِّب ـ لاسيما أنَّ والدتي ستتأخر كعادتها في دورة المياه ـ فإنني سأرتاب بما لم أشُك فيه من قبل: بالمفهوم الشعبيّ البسيط.. للقدر .

...كان سبيلُ الإنقاذ، الذي اقترحته على نفسي، ليس إلا مشاوير في شوارع ونواحي (الناصرية) القديمة، بعدما أخبرتُ الخادمَ (بكري) بأن يُبلغَني حالَ عودة والدتي مرة أخرى لمجلسها، وحال استعادتها لهدوئها النفسيِّ المساعد على تكملة أوقاتِ البوحِ والاستماعِ والتدوين.

بعد خمسٍ وأربعين دقيقة، وبعدما سِرتُ أميالاً جيئة وذهاباً في وسط تلك الطرقات العتيقة، أتاني (بكري) ليخبرني بعودة والدتي إلى حيث كنا مع كثير من الهدوء. لكنه وجدني ـ لا أحد غيري ـ في حالة من يبحثُ عن الهدوءِ والراحةِ النفسيَّة.

هالَ الرجلَ الحبشي دموعي وآهاتي، تلك الخوافي التي اكتشفها على حين غِرةٍ مني. لم يسألني ـ بالطبع ـ عن أسباب ما أنا فيه، ولم أكن ـ بالتأكيد ـ مستعداً للإفصاح له عن دوافع الدموعِ والآهاتِ، التي أنا متأكدٌ أن والدتي وجمعة، هما (فقط) من سيعرفُ مصدرَ انبعاثها.

منذ سنوات طويلة وكلما سِرتُ في شوارع الناصرية القديمة أعود (للوالدتين)، أو لإحداهما، مهموماً دامعاً مُكتئباً؛ أما في يوم بوحِ والدتي ذاك، فإن أحزاني القديمة، ما لبثت أن تدثَّرتْ بأحزانٍ جديدةٍ تعبِّر عنها تلك الأسئلةُ وعواصفُ الحيرةِ التي تبقى بلا إجابات شافية:

لماذا كلُّ هذا الإهمال من أصحاب الشأن وقيادة البلاد، تجاه تلك

المرابع التي شهدت أياماً وليالي من الأنس والجمال ونضارة الحياة؟ إن كان السخطُ على الملكِ (السابق) لا يزالُ يتغذى من بقايا مآخذِ الماضي، عند من بيدِهِ إصلاحُ ما ألحقته عواملُ تعرية الزمن، بالأسمنت والأسفلت... والأرواح ـ فكيف يُفسر تقاعس ساكني الناصرية وذرياتهم، عن النهوضِ والدفاعِ عن حقوقهم وأملاكهم، أو على الأقل، المطالبة بشيءٍ من الاحترام والذوقِ السويِّ عند التعاطي مع التراثِ الماديِ للملوك والزعماء السابقين، مهما تكن مواقفُنا سلبيةً تجاههم وتجاه تاريخهم؟!

لقد أنجب (الملك سعود) مائة وتسعة من الذكور والإناث. لم يفكرْ واحدٌ منهم في أن يقيم لوالده الراحل - كثيرِ الحسناتِ - جمعيةً خيريةً أو مؤسسةً باسم راحلهم، تُعنَى بالأعمال الإنسانية والفكرية! أيعقل ألَّا أحد من هذه (الكتيبة) عقد العزم على تأسيس منشأة واحدة تُبقي ذِكر راحلهم، حياً في أذهان الأجيال الشابة للأسرة المالكة، ورصفائهم من الجمهور الذين لم يعاصروا حقبة الملك الثاني للسعودية؟ وعلى الرغم من أن سلالةَ (الملكِ سعود) هي أكثر سلالات وفروع البيت المالك السعودي عدداً، الآن، إلا أنهم لم يقيموا لوالدِهم مسجداً أو مكتبة أو مستشفى خيرياً.. مع أن (بعضهم) من أعلام الأثرياء! أما حالة العوزِ والفاقةِ التي تحيط ببقية أسرة (صاحب) الناصرية، وما تجره الحاجة للآخرين من وانكسارات نفسية، فإنها لم تُثر الحمية والغضب في نفوس هؤلاء (البعض) الغنيّ، حتى يقوموا بمحاولات تذكير (الرُعاة)، بخطورة التغافل عن إصلاحِ ما أفسدته الأيامُ والنفوسُ التي لاتغفر!

كل هذه (التأوهات) عن الناصرية وما يجري فيها خطر لي، للحظاتٍ عند المراجعةِ النهائيةِ لهذه الرواية، أنها من الأفضل أن تحذف من النص المفترض أن يقدم للقراء. لكنني فضلتُ، بعد ذلك أن يبقى الحيز المكتوبُ عن تلك المنطقة التي (كانت) آية في الحُسن، موجوداً

كما سبق أن كتب عنه؛ لأنه لا يمكنُ فصلُ الأماكنِ عن الأشخاصِ، وتلك.. عن الأزمنة التي تردُ في البناء القصصيّ.

كيف نفهمُ - مثلاً - ما جرى (للرشيد) إن نحنُ طمسْنا من سيرة حياته: بغدادَ، والبرامكة، وأبا نواسٍ، وزبيدة، وعهدَ الأمين والمأمون الذي عُلق على الكعبة؟!

لا يمكنُ بالطبعِ أن يستقيمَ فهمُ السياقِ القصصيِّ لحياةِ الخليفة العباسيِّ المشهور، أو غيره، بدون ربطِ كل تلك الرموز ومعانيها، بالشخصية المحورية للقصة.

قصورُ ونخيلُ الناصريةِ - مثلاً - شهدتْ ولادة نجمِ سعد الملك سعود. كما شهدتْ أرضُ الأحلامِ أيضاً أفولَ النجم وابتلاعَ ثقوب التاريخ السوداء له .

لم يسكن الأميرُ الصغير - كما أخبرتني والدتي من قبل - الناصريةَ وهو يعود مع والدِه من الكويت إلى الرياضِ، بعد أمر الملك عبد العزيز جميع عائلته، بالعودة من المنفى القسريِّ إلى حيث المدينةُ، المرادُ جعلها عاصمة للدولة الوليدة. ما روته الاخباريات أن الرضيعَ سكنَ مع والدِهِ في قصرٍ مؤقتٍ اتخذه (عبد العزيز) مقراً عائلياً له. كان القصرُ المتواضع هذا يقعُ في منطقةِ (دخنة) جنوب قصر الحكم العتيد الحالي. وقد انتقلَ الأميرُ سعود مع والده بعد ذلك للسكنى في قصرِ الحكمِ وذلك في عام 1330هـ[1]، ثم ارتحل الجميعُ إلى حيث مقر سكناهم الجديد في قصورِ المربع شمال مدينة الرياض القديمة في سنة 1357هـ[2].

---

(1) الموافق لسنة 1911م.

(2) الموافق لسنة 1937م.

وأعتقدُ - كما كثيرون - أن الأميرَ سعود، فكر، بعدَ أن شبَّ وبدأت شخصيته الأميرية في النضوج، في أن يعيدَ لوالدته (وضحى بنت محمد بن برغش بن عريعر) شيئاً من الطمأنينةِ والكرامةِ المهدرة. فهذه الأمُ، وبعد أن أنجبتْ في سنة 1317هـ[1] ابنها البكرَ الذي لم يُعمر طويلاً (= تركي) من زوجها الملك عبد العزيز، وابنها الثاني (سعود) في يوم الاستيلاء على الرياض في سنة 1319هـ؛ هذه الزوجة والأم، جُرحت أنوثتها جرحاً أليماً. فقد طلقها الملك عبد العزيز بعد عودتها بسنواتٍ قليلةٍ من الكويت إلى الرياض بصحبة بقية الأسرة. وزاد جرحها النفسيُ نزفاً، عندما سمعتْ بأن زوجها السلطان، قد تزوج قبل أن يجف حبرُ ورقة طلاقها من (طرفة بنت عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ) والتي أنجبت منه الأمير (فيصل). وما لبث أن تزوج الزوج أميرة من بنات عمه أنجبت له (محمد) و (خالد) و (العنود). ثم تزوجَ من عائلةِ (السديري) المشهورة اثنتين، أنجب من إحداهما (سعد) وأشقاءه، ومن الأخرى: الملك (فهد) وأشقاءه. لقد تناقلت أنباءُ القصور الملكية أخبار ولده (عبد العزيز) بزوجاته الأربع اللاتي تعاقبن على قلبه إثر انفصاله الزوجيّ عن أم تركي وسعود. وقبل ذلك تناقلت النميمةُ النسائية أخباراً عن الصدود القديم الجديد للسلطان، تجاه زوجته الأولى وأم أولاده الكبار.

... مازلتُ أعتقدُ - ويعتقد الكثيرون - أن الملك سعود عندما كان أميراً شعر بحزنٍ كبير تجاه ما لاقته والدته من والده؛ ولهذا أراد تعويضها في أقرب فرصة عن سنوات الحزنِ والحرمانِ، وترجم نيته تلك بأن شرع في إقامة مسكن لائقٍ لوالدتهِ بعيداً عن جرح الكرامة الدامي، المتمثل في (غُرف) نساء السلطان، المهيأة للمطلقات المهمَلات.

---

(1) الموافق لسنة 1900م.

...في منطقةٍ تقعُ غربَ مدينةِ الرياض، وبالتحديد في (الناصرية) التي هي عبارةٌ عن روضة منخفضة من الأرض، تصب فيها عدةٌ من الشعاب ذاتِ الجريان المطريّ الموسمي. ترجم الأمير سعود قراره بتعويض والدته... وعلى طريقته، أراد الابن البارُّ بخطوته تلك، إزالة بعضٍ من آلام الفترة القاسية على قلب كل امرأة يهجرها زوجها ويختارُ أخرياتٍ بدلاً عنها.

هناك بنى الأميرُ قصراً مَنيفاً من الطين، وزرع حوله مئاتٍ من أشجار النخيلِ الباسقةِ، بعد أن حفر مئات الآبار المائية وشقَّ السواقي. وعندما تم الانتهاءُ من إتمام مشروع الناصرية السكنيّ، نقل ولي العهد والدته من سُكنى الإقصاء والعزل في قصر المربع وجاره القصر الأحمر، إلى حيث الأماكنُ المرادُ أن تكون رسالة للجميع: بأنه الملكُ القادم، وأنه لم ينس ما فُعل تجاه والدته من قبل، ولن ينسى للآخرين ما فعلوه، عندما تسببوا في سفر قلب والده إلى موانئ نسائيةٍ جديدةٍ. ولن يغفل، كذلك، عن نتائج أخرى: أن النساء المختطفات لقلب والده، قد أنجبن من سيزاحم ملك المستقبل في المكانة والحظوة عند (الشيوخ) ... وربما أكثر، فالأبناء سِرُّ آبائهم ... وأمهاتهم كذلك!

استمر الملكُ سعود في سُكنى بساتين الناصرية التي أقطعه إياها والده قبل وفاة الملكِ المؤسس بسنواتٍ. وفي أحدِ الأيام، ونزولاً على رغبة ولي عهده، قام (الشيوخ) بزيارة الناصرية. وتقول بعض الروايات: إن الملك عبد العزيز لم يستحسنْ ما شاهده من توسُّع (وأبهةِ) أبنية الناصرية، وما ألحق بها من أراضٍ مزروعة تستهلك مياهاً كثيرةً لا يمكن تعويضُها في بلاد نجد الجافّة بسهولةٍ.

ويضيف غير الثِّقاة، أن الأب نبهَ الابن، إلى مخاطر الإسراف في مشاريع كهذه، خاصةً والبلاد تمرُّ بأزمةٍ مالية حينها، بسبب الرغبةِ في

دفع عجلة تنمية الدولةِ، في حين أن مداخيل البلاد من البترول محدودة ومتذبذبة، لاسيما أن العالمَ خرج لِلتوّ من حرب كونية طاحنة. ويقول نفس الرواة: إن وليَّ العهد أظهر مجاملةً متوقعة عند سماع توجيهات والده الأبوية الملكية. لقد أقر ولي العهد بخطئه أمام والده، إلا أنه في قرارة نفسه، ومن خلال ما رشحَ منه للأقربين الخُلص، أشار إلى أن أوامرَ الترشيد هذه تطاله لوحده، وأن البقية في (المربع) وفي (الحجاز) بعيدون عن اللومِ والتقريع، وأنه يعرف الأسبابَ الحقيقية، التي ليس منها الشك في الود والتقدير، اللذين يغمران قلبَ والده تجاهه. هذا الوالد المهاب الذي لا يخفي تفاؤله بـ(سعود). والدليل على ذلك اختياره لاسم المولود الذي يرمز لمعانٍ كثيرة عند العرب، ولِمَ لا..؟ فيوم (دخول الرياض، هو نفس اليوم - كما يقول الرواة - الذي شهدت فيه إحدى دور الكويت المتواضعة، ولادةَ الأمير سعود[1] فيها.

الناصرية التي أسير في طرقاتها أثناء الوقتِ المستقطعِ من ساعات البوح (البلوشي)؛ هدمتْ وأعيد بناؤها في عامي 1955م، 1956م، أي بعد وفاة الملك عبد العزيز وتنصيب ابنه الأكبر ملكاً على البلاد بحوالى سنتين. إعادة البناء تلك كانت علامة لانقضاء عهد الطين كأسس للبناء، واعتماد الأسمنت بدلاً منه، كما كانت علامةً أيضاً، على انقضاء عهدٍ وبزوغ عهد آخر. عهد ظنّ صاحبُه أن مقره في الناصرية سيعطي دليلاً للآخرين على قوة العهد الجديد، وعلى المسالك التي سينتهجها في الشأنِ التطويريّ التحديثيّ لبلاده. لكن الرجلَ فاته أن يقرأ المثل العربي الشهير القائل: (تجري الرياح بما لا تشتهي السُفن).

سفينةُ الملك سعود سارت، في السنواتِ الأخيرةِ من حكمه، خلافاً

(1) سعود: اسم مُشتق من السعادة والفأل الحسن.

لرياح تفكيره ومنهج إدارته لبلاد محافظة كبلاده. ومن سخرية القدر - الذي تخافُ ذكره والدتي - أن قصورَ الناصريةِ المُترفة كانت أحد الأسباب الـمُعلنة- لإقصاء الملك سعود من حكم البلاد السعودية.

لمـــاذا؟

لأن جولةً سريعةً في داخلِ الرياضِ، وعند أطرافها، تبيّن لك أن الناصرية القديمةَ بكلٍّ ما قيل فيها وعنها؛ لا تمثل في حُسنها وضخامتها عُشر ما شُيدَ في السنوات الأخيرةِ من قصورٍ في بلادنا كالأحلام ... أما قصورُ المستقبلِ فلها قصة أخرى!

يا للطرافةِ... أليسَ كذلك؟!

تزاحمَ في عقلي السُخطُ والذكرياتُ، مع السخرية والإحباط؛ لأعود حيثُ كانتْ والدتي تنتظرني، خائرَ القوى مُشتتَ الذهن، غيرَ عازم على إتمام ما قد بدأتُ به هذا اليوم، من استحضار المرحلة (السعودية) لحكاية فتاة (بنقلان)، المنتزعة من أرضِها وتاريخها وبقايا دفءٍ أسريٍّ غابر.

لم تفاجأْ والدتي بحالتي تلك؛ فهي قد تعودتْ مني في كل مرة أجول فيها داخل أماكن الصبا، أن أنشر عدوى الإحباط والتشاؤم اللذين سيكونان من (نصيبِ) أول شخصٍ أقابلُه وأثق فيه، بعد مشاوير الألم والتساؤلات العريضة التي تبقى دائماً بلا إجابة!

...وفي العادة تكونُ والدتي أولَ من أقابله وأثقُ فيه عندما أريدُ أن أنقل عدوى مرض الناصرية المزمنِ... للآخرين.

وفي العادة، أيضاً، تتركني (أم مقرن) بدون تدخُلٍ منها، في محاولة لمعالجتي من تلك العدوى... إلى أن أعودَ إلى حالتي (السوية) وتمامِ صحة النسيان أو التناسي!!

فقط... في يوم الأربعاء ذاك، شعرتْ والدتي أن مؤثراتٍ وملابساتٍ حياتيةً عديدةً أعيشُها، قد زادت من حدة العدوى والانتكاسة الدائمة.

وخالجها شعور آخر - فيما أعتقدُ - بأنني لن أستطيعَ، بقية اليوم، تكملة مشوار الاستماع لبوحها الذي طالما أغريتُها بالإفصاح عنه وإشهاره!

ولئلا تُترجم تلك المشاعر إلى حقيقةٍ وواقعٍ، بادرتني بسؤال:

"أنت حزينٌ كالعادةِ... كنت تتمشى في شوارع الناصرية... أليس كذلك"؟!

وبدون أن تنتظرَ إجابتي، التي لم أكنْ أنوي - وأنا أعاقر الغمَّ - البحثَ عن أجزائها المبعثرة، قالتْ وكأنها تجيب عني:

"لا يمكنُ أن نفهم كلَّ أحداثِ الزمن، بل حتى إننا لا نستطيعُ أن نحيط بجزءٍ صغيرٍ من أسرار التاريخ؛ لأننا نعيشُ عُمراً قصيراً جداً على هذه الأرض. وبالتالي فمقدرتُنا على الفهم واستخلاص العبر والاتعاظ، جـدُّ ضعيفة ومحدودة. الكلُّ، حكاماً ومحكومين، من طينة مادتها الأنانية والحقدُ والغفلة. لو كنتُ قادرةً - بني - على المشي، مثل السابق، ولو كانت عيناي تستطيعان مشاهدة الأشياء مثل السابق، ولو كنت في نقاهة من تراكمات الأحزان مثلما تمنيت، لأخذتك إلى كل مدن العالم وأحيائها، التي شهدت، أكثرَ بكثير جداً، مما شهده حبك المكانيُّ هذا الذي هِمْت به، وارتبطتَ معه بحكايةِ عشقٍ طويلةٍ، لا تزال تتذكرها ولا تنساها.

كلُّ تلك الأماكن، مرّتْ عليها - مثل الناصرية - أيامٌ أثارتْ ملكة الشعر، ورغباتِ الهوى، والاعتقادات الخاطئة بأن الحياة، دائماً هانئة سعيدة كريمة بقصصِ الحبِّ والعشاقِ والأخيلةِ المحلقة في سماوات اللافناء، واللاشقاء، واللامعاناة ثم تعود الأشياء إلى طبيعتها... إلى حقيقتها، ليعمَّ الموتُ الأرجاءَ التي كانتْ تنبعثُ منها أصواتُ الحياةِ... وتتوالى الأيام ويعيش أهل الأزمنة الجديدة وينسون، وكأن ما كان لم يكن. ثم يتغلب الواقعُ على الحلـمِ. الفرقُ الوحيدُ بين (حالةِ) الناصرية،

وما مر على الآخرين وجمادهم، هو أن هناك جهات رسمية، وغير رسمية ـ عند المحبين لماضيهم ـ تقوم بمحاولة ألّا يغيبَ التاريخُ. وألّا يذهبَ ما تبقى من عبق الأزمنة الخالدة. أما في (حالتك) فالجميعُ مشاركٌ في (الجريمة) التي تدلل عليها جدران وأعمدة الناصرية المتداعية، وشوارعها التي بُقرت بُطونُها وأخرِجت أحشاؤها. وإلى هجوم تلك الملامح البشرية المتبخترة في طرقاتها؛ مجاميع غازية (غريبة) عن كل ما له صلة بالماضي... لا أقول التليد فحسب، بل الجميل الساحر الذي لا يُنسى.

...ألم تفكر لحظة، يا (سيف)، أن أهلك القادرينَ وغيرَ القادرين، أصحاب المخالب أو المستأنسين منهم، يودون - خفية - من محبي الناصرية (القلائل)، أن ينسوا القديم، عندما يُهملون ما لا يجب أن يُهمل؟!

...أنا في هذه اللحظةِ، فقط، أريد أن تنسى، ولو لفترة محدودة من الزمن، (الناصرية) وما تعنيه لك. حاولْ أن تَرجعَ معي إلى حيث اليومُ الأولُ لوصولي إلى الرياض... أترغبُ في هذا"؟!

أوافقُ على رأي والدتي القائلِ ضمنياً: ليس هناك دواءٌ للأحزانِ إلّا أن نُبحر في الحياةِ، بحثاً عن.. مزيدٍ من الأحزانِ!

"صدقتِ يا (أمي)! أنا، الآنَ، راغبٌ في سماعِ بقيةِ القصةِ؛ لأنها قصتُك أولاً؛ ولأنها سلوى ما بعدها سلوى"!

...هكذا قلتُ لها. بعدها، رأيت هجوماً صغيراً من السعادةِ على محياها، عبّرت عنه تلك الابتسامةُ الخجْلى، التي قالتْ صاحبتُها:

"في يومِ وصولي ووصولِ غيري من الإماء إلى الرياض. أُخذنا إلى (القصر الأحمر) الذي كان يقع جنوب قصرِ المربع، وغير بعيدٍ عنه. في تلك الأيام لم يكن هذا القصر - الذي لا يزال موجوداً الآن كما قيل لي - قصراً ولا أحمر كما يتبادر للذهن. كان عبارة عن حُجيرات طينيةٍ

رُصّت في ممرات. وعند بعض أجزاء ما كان يدعى بـ (القصر) بُني دور علوي مشابهٌ للدورِ الأرضي، ولاحظت أن الحجرات العلوية والسفلية، صُبغت بلون أحمر قرمزي رديء.

والدُك بنى هذا القصرَ بعد سكن الملك عبد العزيز قصرَ المربعِ بثلاث سنوات تقريباً[1]. ومنذ الوهلةِ الأولى اتضح أن ولي العهدِ أرادَ من تغييرِ مقرِّه، الافصاحَ عن انزعاجه لفكرةِ الإقامة في القصرِ الرئيسيّ. لأنه كان يشعرُ أن (المربع) بدأ يضيق بسكانه، وأن أجواء القصر بدأتْ تتغير، كلما أخذ الرجل المهاب بعزل نفسه عن الآخرين. فهناك (= في المربع) بدأت سراري الملك الكرجيات[2] وغيرُهن، في الاستئثار بقلب الملك المؤسس، الذي كان يشعر وقتها بالمرض المُقعِد يغزو بنيته القوية، وبأن أوقات الراحة بعد جهد التأسيس والتوحيد، وإعلان الدولة، والقضاء على التحديات السابقة ـ قد حان أوانها؛ وأنه لا ضير للفارس، أن يترجل عن جواده ليستريحَ تحت ظلٍّ شجرة برفقة زوجة جميلةٍ صغيرة، تُروِّحُ عن الـمُتعَب، وتجعلُ أيامه الباقيةَ سعيدةً هانئةً هادئةً!

وليُّ العهدِ لم يكنْ معترضاً على كل هذا. وهو بتكوينهِ النفسيّ ينصحُ به. لكنه يعترضُ - خُفيةً - على تحكم تلك (السراري) بأمور القصر وصاحب القصر. ونفاذ رغباتهنّ - أحياناً - إلى ما وراء القصرِ، حيث شؤونُ الحكم والإدارة والصرفُ المالي. فهن ينصحْن المؤسس يوماً بأن يضع ابنَ هذه (الأمة) مستشاراً، حتى ولو كان صغير السن، وبالكاد

(1) في هذا التاريخ الذي ذكرته والدتي شكٌ كثير. والصحيح أنه بُني قبلَ سنواتٍ قليلة من وفاة الملك عبد العزيز، وقبل انتقال ولي العهد للإقامة في الناصرية.

(2) الكرجيات: اسم يطلقه العرب على الإماء المجلوبات من أرمينيا وجورجيا، أو حتى من مناطق معينة في سوريا.

يُصلح ثوبه وغطاء رأسه، وفي يوم آخر يقترحن توزيع المال على جماعة مُقربة منهن، ويحجبنه عن جماعة أخرى... وهكذا.

الأكيدُ أن (الشيوخَ) لم يكن يجاري أولئك النسوة إلا في الشكليات! فابن هذه المحبوبة من الزوجات، يعين مستشاراً لكنه لا يُستشار، والبيوت المحرومة من المال في النهار، يأتيها رزقُها في الليل!

لكنَّ هذه المجاملات والمسايرات لم تعجب وليَّ العهد. كُلُّ المناخاتِ الداخلية لقصرِ المربع كانت تزيد يوماً بعد يوم من ضيق والدك وتبرمه. ولم تنحصر تأثيراتُ ما يجري في قصر المربع على حدودهِ الداخلية، بل تجاوزتها، وفي أحيان كثيرة وبسرعة، إلى (القصر الأحمر) المجاور وإن لم أبالغ.. إلى القصور الملكيةِ في جميع أنحاءِ البلاد".

عند آخرِ كلمةٍ لوالدتي حول البُعد (النسائي) وتأثيراته المختلفة في تلك الحقبة، لاح لي خاطرٌ ما كنتُ أستطيع كتمانه، حتى ولو كان في الإشهار شيءٌ من الخطورةِ:

"يبدو أن التاريخَ، دائماً، يكررُ نفسه. فالناصريةُ شهدتْ نفس ما كان يحدثُ في قصور (حريم) المربع. والتدخلُ النسائيُّ وسماع الرجل المثقل بالهموم والأمراض، للهمسات الناعمةِ (الناصحة!)، يتكررُ وكأن الزمنَ قد توقف، وكأن الناس لا يتعلمون من التاريخ البعيدِ ولا القريب"!

اربدَّ وجهُ والدتي، مُنذراً بردٍ لا أعرف كنهه، إلا أنه سيكونُ بالتأكيد غيرَ مريحٍ لي:

"عندَ الحكام مناعةٌ من استحضارِ العبر. فهم يعتقدون أن ما مرَّ على الآخرين، يستحيلُ أن يتكررَ معهم. وأنهم في منجاةٍ من الوقوع في الأخطاء والزلل. ويعتقدون أيضاً أن الظروفَ بأشكالها المختلفةِ تتغير وتتبدلُ سريعاً؛ بحيثُ يستحيلُ تكرارُ المأساةِ مرةً أخرى. وفي خضمِّ

تفكيرهم هذا (ينسون) أن الذين يصنعون التاريخَ والظروفَ المصاحبة لصناعته، هم البشر وتصرفاتهم. وأنه عندما تحين مواعيدُ الضعف الإنسانيِّ للقادةِ وما يصاحبها من ملابسات ووقائع معينة، حتى ولو بدتْ صغيرةً، فإن ما كان يتم انتقاده ويُسخر منه سابقاً، سيخرج مرة أخرى عفريتاً من القمقم للمنتقدين والساخرين؛ ليعصف بالعقول وأحلام أولي النُّهى.

...يا بني: والدةُ هذا المراهق من الأمراء في عهد جدك، هي مع اختلاف السماتِ والمواقع والمكانات، أمُّ هذا المراهق من إخوتك في عهد والدك. لست أعني أن نسوة العهود متشابهات في كل شيء؛ لأن هناك فروقاً ملموسة كبيرة تمس شخصيات الحقبتين، لكنني أعني أن السمع الـمُصغي (لنصائح) حريم القصور، هو واحدٌ؛ على أن هيبة عبد العزيز وما اختزنه تاريخه من (مُنقذات) للسقوط بمختلفِ أشكاله، جعلَ سماعَه للهمسات النسائيةِ - مع بعض الاستثناءاتِ - مجردَ إمتاعٍ للرجل المسنِّ لا أكثر. وهذا في الواقع - للأسف - لم يحدثْ في حالةِ والدكِ وعهده. وبين الإنصات والإنصات كان هناك فاصل زمني، شهد ما شهد من تغيراتٍ، ليس أقلها إجراءات (خلع) أبيك من الحكم، الذي حمل صفة الملك (السابقِ)، بدلاً من أن يكون ملكاً حتى الآن... لو أن شخصيات وحظوظ الآباء والأبناء... تناسخت.

... المهمُّ، ما يجري في قصر المربع كان يصل بسرعةٍ لداخلِ ومحيطِ القصر الأحمرِ حيثُ وصلتْ ملاَّحتنا القادمةُ من الإحساء ذات مساءٍ مبكرٍ من أواخر شتاء سنة 1367هـ[1]. كانت الإشاعاتُ تنقل معاناة الملك عبد العزيز، من أمراض المفاصل الموجعة. وزاد النمَّامون من عندهم كثيراً من الأقاويل، كلاماً يوحي بأن (الشيوخ) لم يعد قادراً على

(1) الموافق لسنة 1946م.

المشي الطبيعي من جراء آلام الروماتيزم، وأنه أصبح شبه مقعد. وبدا أن الأمرَ جدٌّ خطير، عندما اهتز القصر الأحمر لآخر الإشاعات المتتالية ليلتها، تلك الإشاعة التي (أكدت) أن الملك سقط من فوق كرسيّ الإعاقة على الأرض، وأنه تضرر كثيراً من هذا السقوط.

ضجَّ الناسُ في القصرِ الأحمرِ وانفعلوا، وساد الهرجُ والمرجُ بينهم خوفاً على (الشيوخ) وصحته .. ولمَ لاَ، وعبدُ العزيز هو كلُّ شيءٍ في هذه المملكة: موحد، ومؤسس، وركيزة استقرار؟! إن بُسطاء هذه الأرض، كانوا يعتقدون ـ تلك الأيام ـ أن الأرضَ كلَّها حدودها الجزيرة العربية، وهذه الجزيرة كلها عبد العزيز. ولهذا فإن ذهب أو اعتل ساكنُ (المربع)، فالأرضُ التي يعشون عليها كلها، ستزولُ أو على الأقل ستتبدل غيرَ الأرض التي يعرفونها!

الأبسطُ من هؤلاء البسطاء، هو (أنا) ومن معيَ من الإماء (المستوردات) من خارجِ البلادِ السعودية، للاستهلاك المحلي في قصور الملوكِ والوجهاء!

عندما بكى وولول الجميع في القصر الأحمر، بكيتُ معهم وولولتُ... لماذا؟ لأن عبد العزيز مريضُ جداً.. وليكنْ. ما على فتاةٍ من البلوش، فقدت الأهلَ والوطن وحق تقرير المصير الذاتي الإنساني؛ في أن يمرض عبد العزيز أو حتى يموت؟! وجدتهم يبكون... فبكيت، ووجدتهم حزانى... فحزنتُ، ووجدتهم مثل اليتامى... فتيتمت، ثانية، معهم بعد يُتمي الأولِ!

كان يبدو أنني نسيتُ آلامي وأحزاني وقهري وحيرتي، لمصلحة أن أحزن وأتألم من أجل الآخرين... أسيادي وآباء أسيادي. كان يبدو أيضاً أنني كنتُ أخطو الخطوات الأولى - والأهم - نحو (كمال) الرق والاستعباد. خطوة سحق ذاتِك وخصوصياتِك، وأن تبقى مشاعرُك الداخليةُ في صندوقٍ مُقفل صعبِ الفتحِ لا يدخلهُ حتى ضياءُ التفكيرِ.

ليس هذا فحسب، بل أن تجعل غَدَكَ هو غد سيدك ومالِكِ أمرك. تمامُ صحتك.. أن تراه (هو) صحيحاً في بدنه وعقِله. وفتاتُ ماله وثروته.. هو عيشك الكريمُ، وعليك أن تتذكرَ ـ دائماً ـ الدعاءَ له بمزيد من الغنى والسؤدد. الماضي لابدَّ من تناسيه بخيره وشره، وعليك - فقط - أن تركز انتباهك على إجادة عملك الخاصّ، من أجلِ الترقي في سلم الخدمةِ إن كُنتَ رجُلاً عبداً، والإمتاع والإنجاب إن كنت أمةً أنثى.

والغريبُ يا (بني) أنني لم أجد في قصور (آل سعود) كلِّها، أحداً من العبيد والإماء، يريد أن يتحرر وتُعتق عبوديته. ولعلك لاحظت يا (دكتور) أنني كررت ادعائي هذا مرةً أخرى؛ لأنني (صُدمت) بسعادة العبيد هذهِ، وهم يقومون بخدمة سادتهم و (أعمامهم)، الجميع فخورون بحمل هذا اللقب الذي تنتهي به أسماؤهم... السعود. فيقال مثلاً: رشيد السعود. أو نائلة السعود. أي أن تكون عائلتك وما ترمز له جذورك، هم أسيادك الحـاليين.. ولا شيء أخر.

كيف نفسِّر هذا الرضا؟

في اعتقادي أن السببَ يرجعُ إلى أن العبيدَ من الجنسين، وجدوا أن مالكيهم وسادةَ بيوتاتهم التي يعملون فيها بالسخرة - وخاصةً في قصور الأسرة المالكة - يعاملونهم معاملة حسنة، وكانوا يعتقدون أن هؤلاء المالكين لرقابهم، خيرُ عوضٍ لفقدانهم أسرَهم الأصلية في بلادهم. تلك الأسرُ التي فرّطت فيهم أو باعتهم. أو التي تواطأت مع الظروفِ الاجتماعيةِ ضدهم. ومادام الفقد والاغتراب قد حدث، فلِمَ - في اعتقادِ العبيد - لا يكون الالتحامُ النفسي والمادي، نابعاً من القلب ويُسعى له مع تلك (الجذور) الجديدة، التي لا أمل في مفارقتها، إلا بالموت أو الهروب نحو مستقبل مجهول غير مضمون. لاسيما بعد أن (تعوّدَ) العبدُ على حياةِ الرضوخِ والاستسلام، والشعورِ بألّا ذاتَ له إلا ذات أسياده!

أما السببُ الآخَر - في اعتقادي - فهو أن مناكفة الواقع وعصيان السائد، لن يعود على المعاند والعاصي المعترض من العبيد، إلا بمزيدٍ من فقدان الأمل بـ(عتقه)[1] في المستقبل، ويمكن أن يظلَّ إلى الأبد - في حال ما إذا ركب رأسه - كما هو... عبداً يُباع ويشترى.

...أنا وأخريات خطونا الخطوةَ الأولى والأهمَّ نحو العبودية، في الساعات الأولى من مساء (رياضي) بارد. لم يكن حاضراً في أذهاننا عندما سمعنا ضجة الدعاء (للشيوخ) بالصحة وموفورِ العافية، إلا أن تكون شائعةُ مرضه غير صحيحة. عقولنا شُلَّت، إلا من بقايا تفكير فحواه: كيف نشاركُ الآخرين دعاءهم وتضرعاتهم، بأن يحفظ الله الملكَ؟!

لقد نسينا يا (بني) كلَّ شيءٍ مرَّ بنا في الأشهرِ الماضيةِ، إلا الحوقلة والاسترجاع والبكاء"!!

سألت والدتي وأنا معجبٌ بروحِ الفكاهة المُتهكِّمة والمنتشرة في حديثها:

"أكان صحيحاً ما سمعه الجميعُ عن مرضِ الملك عبد العزيز وسقوطهِ من فوق الكرسيّ المتحركِ الذي يستعملُه في تنقُّلاتِه"؟

أجابتْ وبشكل قاطع:

"نصفُ الإشاعة صحيح. ونصفُها الآخر كان يحمل صفتها: غيرَ صحيحٍ!

...جدُّك وقبل ثماني سنوات من وفاته تقريباً، كان يشكو من علل أمراض المفاصل. وزاد من حدة المرض ثِقل وزنه وعدم انضباطه عندما

---

(1) العتق: هو الانفكاك من العبودية ليصبح العبدُ حُراً، إما بإعلان صريح من المالك والسيد، وإما بأن تنجب العبدة من سيدها ابناً أو ابنة فتُصبح هذه الأمة حرةً، لكنها وحتى بعد الإتيان بالأبناء والبنات، لا ترث زوجها بعد وفاته!!

يأكل الأطعمة الشعبية المليئة بالدسم. أما غيرُ الصحيح في القسم الآخر من الإشاعة، فهو أن (الشيوخ) لم يسقط أبداً من فوق الكرسي المتحرك الذي أهداه له من قبل، الرئيس الأمريكي (روزفلت) ذلك، عندما تقابل الرجلان على ظهر سفينة مُبحرة في البحر الذي تسمونه أحمر. الكرسيُّ المتحرك الرئاسيُّ الأمريكي لم يكن مهيأً أن يسقط الجالس من عليه، إلا عند حدوث حركة عشوائية غير متوقعة ولا مبرره. وجدك ليس من هذا النوع من أصحاب المفاجآت الـمُضرة بالنفس وبالآخرين، المتعلقين بحبل الود والمستقبل المشترك مع صاحب النفسِ... عاليةِ الهمةِ الذكيةِ والمجربةِ".

مازالت الاسقاطاتُ (البلوشية) الذكية... مستمرةً، وكان عليّ أن أستغلَّ وضعية (التجلّي) هذه، لأطرح سؤلاً مهماً محورياً:

"لتصبحي (سرية) للملك ومحظية له فلابد من دخول[1] الملك عليكِ.. متى حدثَ هذا"؟

سرحتْ طويلاً، كأنها تحاول ببطء إبعاد هوامش الأحداث والوقائع الكثيرة، لتصل إلى محور الحكاية وروحها. إنها تحاول نبش الأتربة - المفيدة - التي تغطي الكنز وتمنع اكتشافه:

"تم توزيع العبداتِ القادماتِ من الإحساء على غرف مختلفةٍ من غرف القصر الكُثر. تـم التوزيع بصورةٍ آليةٍ جبريةٍ وبدون مراعاة لمشاعر القادمات المتعبات، أو سؤالهن عن مواقع السَّكنِ المفضلة التي يمكن أن تختارها هذه أو تلك. أما الامتيازُ الذي لم تكن الإماء اللاحقات يحلمن به بعدما رأين ما رأين، فهو اختيارهن - المفترض - لمن يُعتقد أنهن أكثر قُرباً لقلوبهن، من نزيلات القصر السابقات.

على أيةِ حال.. تـمَّ (تفريقُنا) على غرف مختلفةٍ. وكان حظي غرفة

---

(1) الدخول: كلمة ترمز للمعاشرة الزوجية.

واسعة يسكنها ثلاث (سراري) هن أمهات إخوتك: (سلطان) و (ثامر) ـ رحمهما الله ـ و(منصور) الحي، الذي لايزال حياً يرزق... مع والدته حتى الآن!!

شريكاتي في الغرفة كنَّ قد أنجبن أو في طريقهن للإنجاب. أي أنهن كن كبيراتٍ في أعمارهن نسبياً مني، ومجربات للحياة الزوجية وطقوس الإقامة والخدمة في القصور الملكية. أما أنا فكنت غريبة جاهلة بكل تلك المتطلبات والشروط، مع بعض (خبرات) المعايشة الملكية والأميرية القليلة، والتي اكتسبتها من بيوت الإعداد والانتظار في العمانية، كما في قصر حاكم الإحساء.

شريكاتي في الغرفة استقبلنني في البداية، بشيء من الفتور والغيظ، الذي لم يصل إلى حد الإقصاء والحقد والمكيدة... وهي أسلحة نسائية معروفة! فأنا - فقط - رقمٌ جديد مزعجٌ لهن في السكن، الذي أخذت (أخواتي) مع أولادهن، النصيب الأكبر منه. أنا كذلك رقم جديد كذلك في اقتطاع جزء من وجباتهن الثلاث، التي تقوم الأخوات بإعدادها بأنفسهن، في ملحق تجهيز الطعام المجاور (لغرفتنا) المشتركةِ، التي يتوسطها مجلس واسع.

مشاعرُ ساكناتِ الغرفة التي شاء نصيبي أن أشاركهن حيزاً صغيراً منها؛ كانت متذبذبة. ففي بداية الأمر نُظر إلي، على أنني وافدةٌ جديدةٌ ستقتنص ليلة من ليالي السنة التي يمكن أن يحصلن عليها - على قلّتها - مع ولي العهد. لكنهن كُنَّ متأكداتٍ أيضاً من أنني إن لم أفذ عليهن الآن، فستأخذ بالتَّأكيد إحداهن دوري لاحقاً. ثم لا تنْس يا (بني) أنهن كُن أعلى منزلة منّي قبل أن أشاركهن السكن. فهن قد أنجبن، وبعضهن تبدو عليها علامات حمل جديد. وبهذا فهن قد أصبحن (حُرات)، أعتقهن ـ ثمرات حملهن ـ بعد لقاء ليلي (أميري) بهن.

...بعد أيام، بدأت (أمهات العيال) يُقربنني منهن وبشكل تدريجي.

ولعل السببَ الرئيسي لهذا (التودد) هو أنهن كنَّ يُردن الراحة كثيراً، من جهود النظافة والطبخ والغسيل المشترك. ولأنني كنت ممتلئة صحةً وعافيةً، فقد أعطاهن هذا الانطباع البصريُّ إحساساً بعدم تبكيت الضمير المفترض، عندما يرينني أقوم بجميع واجباتهن الرتيبة المتعبة. في المقابل قدمت (أخواتي) خدمة (جليلة) لي. كُنَّ يقمْن بتدريبي، على كيفية مقابلة ولي العهد. وكيفية التصرف الزوجي الأول معه. وماذا يريد - طويلُ العمر - ويرغبه من عبدته. وما هي المحاذير التي يجب عليَّ أن أبتعد عنها، حتى لا أغضبَه وأجعلَه ينفعلُ من جراء سقطات يمكن تجاوزها، إن أنا عقلت وتأدبت .. وتغنجت!

العائق الكبيرُ بيني وبينهن، أو على الأصح بيني وبين ما تخشاهن (أخواتي) عليّ من اللقاءاتِ الأولى مع (أبى فهد)، هو لُغتي الأعجمية البلوشية، التي لم أستطع أن أتخلص منها، حتى وأنا أتحدث بالعربية المُهجنة، التي تعلمتها أثناء رحلتي التي انتهت هنا.

كنت أمزج ثلاثَ جمل بالعربيةِ، بجملتين من اللغة البلوشية. نتاج هذا المزج، لغة أخرى مُضحكة، ليست عربية ولا بلوشية... إنها بين هذه وتلك!

استمرَّ بي هذا الحال أسبوعين كاملين؛ أيامي ومن معي في تلك الغرفة كانت تمضي هكذا: نصفُ اليوم لإراحة أخواتي من أعمالهن الشاقة. والنصف الاخر تدريبات يُقدمْنها لي، حتى أكونَ (جاهزةً) ومعدةً كعروس استثنائية قادمة لولي العهد، والتي لا يعرف كم رقمها، في لوائحِ الفتياتِ اللاتي (دَخَلَ) بهن طويل العمر.

هنا يا (سيفُ) لابد أن أنبهك لأمرٍ هام!

لا تشعر أبداً بالخزي والصدمة، عندما يخبُرك التاريخ. وأخبرك أنا وغيري، عن أعداد (السراري) المحظيات الكثيرات في قصورِ والدك... إلى جانب النساء الأربع الشرعيات.

هذه لم تكن نقيصةً عند العرب، بل هو أمرٌ محمود، ويتفاخر به كل الرجال في بلادنا الشرقية. كل أهل الرياض في تلك الأيام، بل الجزيرةُ العربية تقريباً، كانوا يُعددون في الزواج، ولا يقتصر الواحدُ منهم على زوجة واحدة إلا الضعيفُ مادياً.. وجسدياً. حلم الجميع كان اقتناء الجواري الجميلات. وما يمنع الكثيرين من اقتنائهن ليس الورعُ والصدودُ عن معاشرتهن لهذا السبب الديني والدنيوي أو ذاك، بل لأن هؤلاء الممتنعين غير قادرين على (شراء) مثل تلك النسوة الجالبات للمتعة في الفُرش. والمريحات لبنات الحمايل[1] من مشقات الخدمة المنزلية. أما والدك - وأمثاله - فعلى النقيض من المحرومين يدفعون المال الكثير ليتزوجوا ويدخلوا بالنساء الحرائر وبمن ملكت يمينهم أيضاً.

المطاوعة[2] كانوا ينصحون الملوكَ والأمراءَ بتعدد وكثرة امتلاكِ الإماء، لأنه بهذه السلوكيات - وحسب اعتقادهم - تحفظُ العفةُ ويسلمُ الشرف من الدنس، الذي قد يقترفه الـحرُ السيد النبيل، إن لم ترتو - حلالاً - غريزتُه الجنسية!!

والدك وجدك وأعمامك وكبار القوم في المملكةِ وغيرهم في دول الجوار، كانوا مثل والدك.. أو أكثر. لم تكن يا (بني) الممارسات الجنسية المتعددةُ، تثير اعتراضاً أو تبرماً أو تشكيكاً في صوابها عند العامة والخاصة. لأن ثقافة المجتمع المحلي آنذاك تبارك هذا وتدعو إليه، مادام هذا الفعل، يقع تحت مظلة الشرع وما أجازه.

أود أن أقول لك شيئاً آخر قد تستغرب سماعه:

والدك لم يكن مِزْواجاً فيما يتعلق بنسائه الحرائر، لمجرد أنه يملك فقط فحولة غير عادية. الأمر أكثرَ تعقيداً من هذه الاستنتاجات الساذجة.

---

(1) بنات الحمايل: أي النساء الحرائر ذوات الأصل والنسب المعروف.

(2) المطاوعة: رجال الدين.

فهذه ـ مثلاً ـ يتزوجها؛ لأنه يجامل أسرة كبيرةً سبق أن تزوج جد والدك منها لينجب درة آل سعود . وهذه لتطييب خواطر قبيلتها التي سُحقت مقاومتها واندثرت هيمنتها أثناء فترة تأسيس المملكة. وهذه الزوجة لتقوية مراكز والدك المستقبلية عندما يشتد الصراعُ على السلطةِ مع القوى العائلية الأخرى المنافسة في المملكة، عبر كسْب ود هذا التجمع العائلي ذي الثقل الاقتصادي والديني والاجتماعي.. وهكذا.

أمرٌ أخير أودّ أن ألفت انتباهك له يا (بني) وأنا أحاول الدفاع عن والدك، في وجه اتهامات له بالغرائزية الشبقية: ولي العهد سعود والأمراء الآخرون وسادةُ المجتمع في المملكة، لم يكونوا يملكون - في تلك الأيام - وسائلَ تسلية وترويح عن النفس المجهدة في وسط شديد التدين والمحافظة، إلا من خلال (التسرر) الكثير واقتناء العبدات والعبيد.

طبعاً هذا الشكلُ من الدفاعِ عن سلوكيات الأقدمين، سيكون غريباً ومستهجناً الآن. لكن مقاييس الحكم على الأشياء، وبشكل علمي - كما تقولون - لا تُؤخذ هكذا اعتباطاً، إلا عندما تعرض حسب ظروفها التاريخية المعيشة حينها".

أثناء همساتٍ من والدتي في أذْنِ إحدى الخادمات، فكرت بما قالت على النحو التالي:

هذه العجوز يزداد إعجابي بها كلما توغل سير تاريخ قصتها التي أحاول تدوينها. فمنذ بدايةِ بوحها، قررت أن أكون محايداً في انطباعاتي وأحكامي المُسبقة عن شخصيات الأحداث التي صنعت تغريبة الفتاة البنقلانية. لكن دفاعها (الذكي) عن عمها (= زوجها) جعلني أكثر ميلاً لتمحيص أكثر الأقاويل والإشاعات التي حامتْ أو ألصقت بشخصيات تاريخية معينة، سبق أن لعبت أدواراً في التاريخ السعودي المعاصر. وأكثرُ الأشياء المساعدة على فرز المعلومات الحقيقية أو ضدها، والتي وردت في الإخباريات السعودية المشوشة، هو مزيدٌ من الإنصاتِ (لمثل) تلك الدرر الكلامية البلوشية:

"في أثناءِ انتظارِ القصرِ ومن فيه، لعودةِ والدك من رحلته للإحساء والقطيف ومدن الساحل الشرقي الأخرى، أتيحت لي فرصة اكتشاف المكان الذي سأقضي فيه رَدحاً من زمن العبودية، والتي لا أعرف متى يطول:

في القصر الأحمر الذي كان يخلو من الترف الكماليّ وجمال المظهر الإنشائي، كانت هناك مجاميعُ من العبداتِ اللواتي تعود أصولهن: لليمن وللخليج، والشام، وإيران، وبلوشستان... إلى جانبِ بعض الكرجيات. والغريب أنني لم ألحظ إماءً من أفريقيا إلا حبشية أو اثنتين، بالرغم من أن الفقر والقلاقل الاجتماعية والسياسية التي كانت - ولاتزالُ - تعصف بالأفارقة وأحلامهم بلا هوادة، وقد تعادلُ تلك العواصف - إن لم تَفُقْ - زوابَع الحرمان الممطرة شقاءً لا مثيل له على مناطق يسكنها تُعساء آخرون كثر".

والدتي تواصل الحديث بعد أن جففت بمنديلٍ مزدوجٍ، حبيبات عرق تمددتْ على جبينها:

"كان القُرب والبعدُ من جناح ولي العهد الذي يقبعُ في الطابقِ العلوي من الجهةِ الشرقيةِ للقصر، يعني أن هذه (السرية) أو تلك، لها حظوة عند طويل العمر. ومن المفهوم والطبيعي أن تكون زوجاتُ ولي العهد (الحرائر) أكثر قرباً لجناحه من الأخريات. وبعد ذلك تأتي مكانات صاحبات الحظ السعيد. ثم تتدرج المكانةُ إلى أن تصل إلى (سريات) قصرَ عنهن الحظ.. مؤقتاً!

لماذا قلتُ مؤقتاً؟

لأن المكانات ليست ثابتة.. بل تتغيرُ، فمن كان (أداؤها) قريباً للجودة، ارتفع سعدُها واقتربت (غرفتها) من الأمل الهدف. ومن وقعت في أخطاء تعاملية مع وليّ نعمتها أو مع أخواتها (السراري) الأخريات. أو لاحقتها إشاعة عن سلوك معين قامت به، هذه التعسةُ ستعود حتماً -

إن لم تُقْصَ - إلى أخر صفوفِ الغرف، والبعيدةِ عن جناح صاحب القصر المبجل.

والدة الأمير (منصور) مثال على دفع الحظ (السعيد) للشخوص، حتى يرتقوا مرة أخرى، سلم المجد والرفعة والقيادة البعيد المنال. فهذه (الأختُ) كانتْ معي في غرفةٍ واحدة قصيةٍ مع أختين أخريين، عندما كان السعدُ مُدبراً أو أنه لم يحن وقته بعد وعندما أقبل، كانت (أم أخيك) مشاركةً في صنع الأحداث التي شهدتها بلادُك في أواسط الثمانينيات الهجرية[1].

أنا على سبيل المثال بقيتُ بين منزلتين، لا مقصاة ولا مقرَّبة، وبالتالي كانت هذه مكانتك ومكانةَ أخيك عند والدك... والحمدُ لله على كل حال"!!

صمتت العجوزُ الطيبة... لبرهة، تناولت خلالَها رشفات من عصير البرتقال الذي ساعدت الخادمةُ يدها المعروقة الصغيرة على الإمساك بكأسه.

ثم قالتْ بعد أن أمرتْ بكأس أخرى من العصير لـ(المنتظر) على أحر من الجمر.. لبقية الحكاية:

"بعيداً عن الأعين... ماذا كان يدور داخل المجمع السكني الذي عرفت فيه والدك كزوج؟

سؤال لابد أنه مرّ على خاطرك يا (بني) وألحّ عليك لمعرفة جوابه. واختصاراً لوقتك الثمين، وعوضاً عن صياغة غير موفقة لسؤال قد يغضبني، هأنا أطرح ما في خلدك على نفسي بدلاً منك. أما إجابتي فلن تكون سوى (تصور) شخصيٍّ! فيه من المجاملات والهنات المفهومة، بحيث يمكن للراغب وللباحث عن الإثارة الخالصة عدم أخذه مأخذ الجد:

(1) أواسط الستينيات الميلادية.

حشرُ تلك الأعداد غير القليلة من النساء في مكان واحد، ولخدمة وإرضاءِ رجلٍ واحد، سيؤدي - لا محالة - إلى سلوكياتٍ منحرفةٍ من هذه الأمة أو تلك. لكن الانحرافات الأخلاقية توجد في كل التجمعات البشرية بلا استثناء، في عصرنا أو في الأزمنة الماضية... وفي المستقبل أيضاً.

هذا الرئيس الأمريكي الذي اسمه (كلينتون) وبعد عشرات السنين من أحداث قصة والدتك، هذا المشهور كان يمارس الانحرافات مع موظفة في مقر الرئاسة الأمريكية. ثم ينكر هذا على الملأ. لم يكن هذا الرئيسُ يعيشُ في قصر مشرقي للحريم... ولا موظفته كذلك.

...الإنسان رجلاً كان أو امرأةً، تتشابه رغباته ونزعاته في كل العصور. المنحرف يبحث عن الانحرافِ في الرياض أو في واشنطن. وفي مكةَ المكرمةِ كما في طوكيو. نعم كان هناك منحرفات قليلات، في القصر الأحمر وفي الناصرية. وكُنَّ يُعلنَّ - على الأرجح - عبْر انحرافهن ذاك، عن احتجاجاتهن (الجماعية) على إشراكهن في علاقة مع شخص واحد. وعن الحرمان الذي يسوطهن في أوقات كثيرة. لكن وفي المقابل - وأشهدُ الله على هذا - كانت الأكثرية العظمى من (أخواتي) صائمات قائمات راضيات بالذي تسمونه (المقسوم)[1].

...كُنّ سعيداتٍ بوجودهن لخدمة ملك المستقبل. وكُنَّ قد تخلينَ عن أحلامهن في العودة إلى حيث الوطنُ والأهلُ، ولأن الأمرَ على هذا النحو، فجمعُ الإماء ذاك، كان مصمماً على ألّا يرى منه سيده المبجل إلا كلَّ ما يُرضي العين، وألّا يسمع منه إلا كل خير، وألّا يكتب عند الله - قبل تقارير حسن السير والسلوك التي ترفع دائماً لوالدك - إلا حسناته.. حتى ولو كان الله غفوراً رحيماً للسيئات والسقطات!

(1) المقسوم: كناية عن القضاء والقدر.

...آه!! لقد نسيت، والدك لم يكن يعتمد فقط على أخلاقيات ودين سراريه، فهو وباعتباره (ربّ) هذا التجمع النسوي الكبير، كان ينشر العيون، ويتقصى الأخبار، ويتابع الحركات. كانت المعلومات عن (حريمه) تأتيه أولاً بأول. ومن ثمَ تُقوم هذه المعلومات. أما النتائج فكانت: إما علوَّ مكانةِ هذه الجارية، وإما انخفاضُها الآخر.

العقابُ يا (بني) ينزلُ عنيفاً، عندما تقول التقاريرُ (السرية) إن أمراً جللاً قد حدث لأخلاق بعضٍ من نسوة القصر الملكي. ويتصادف كثيراً أن تكون المعلوماتُ والأخبارُ مغلوطة، أو أنها فُهمت على نحوٍ غير صحيح. لكن الفيصل في المصداقية أو ضدها، يبقى (إحساس) ولي العهد الذي أصبح ملكاً بعد ذلك. والأحاسيسُ دائماً يا (ولدي)، ما تكون عرضةً للأهواءِ وأخطائها.

الأمرُ الجيد في كل تلك الأشياء السيئةِ، هو أن والدكَ حتى ولو قسا على واحدة من نسائه، فسرعان ما يأتي التعويضُ الماديُّ للواقع عليها عذابُ عقابه. أما التعويض المعنوي فيترك للزمن. ويقاس هذا الزمن بقياس مدى وخطورةِ الخطأ النسوي. على أن التسامحَ يبقى مرهوناً ببعد (صاحبة) الهفوةِ، عن الأخطاءِ الكبيرةِ الفادحة، التي لا يمكن لحامي حمى الإسلام والمسلمين التغاضي عنها، وترمز وتقود إليه؛ لأن تمريرها بدون إشهار العقاب المناسب، لن يؤدي إلا لمزيدٍ من الانفلات الخُلقي، واضمحلال الهيبة الملكية".

قلت لها وأنا أتجرع آخر قطرات عصير البرتقال، الذي كان لذيذاً كلذةِ طرائفِها، التي تأتي في سياقات عروضٍ جافة، لحكايات (تاريخنا) المسكوت عنه:

"إلى الآن لم أسمع منك - أطالَ الله عمرَك - عن تفاصيل اللقاءِ الزوجي الأولِ مع ولي العهد. متى وكيف؟ ولن تبخلي عليَّ بالتأكيد بعد ذلك بذكْر انطباعات ما بعد اللقاء.. أليس كذلك يرعاك الله"؟!

عند مناطقَ محرمةٍ وخطوطٍ حمراءَ من التفكير، تعلو - عادةً - قسمات وجه والدتي هيئةٌ غايةٌ في الصرامة والحزم... مع شيءٍ من الغضبِ المكتوم.

رأيتُ هذا مراراً، وكان من بين هذه المرات، وقت طرح سؤالي الاستفزازي (ذاك)، الذي لو خُيرّتُ، مرةً أخرى، بين أن أطرحه أو أسقطه، بعدما رأيت اكفهرار ملامح وجهها الصغير، لاخترت الإسقاط... ولتذهبُ الرغبةُ في مزيدٍ من المعرفةِ.. إلى الجحيم؛ لكن (عجوزي) البلوشيةَ المحبةَ للشفافيةِ والصراحةِ كان لها رأيٌ آخر:

"عاد والدك بعد أسبوعين من الغياب عن العاصمة وعن مليكها الذي يعاني أمراضَ الشيخوخة المتعبة.

عاد وليُّ العهدِ ليتحوَل القصر الأحمر إلى خلية نحل لا تهدأ. وفي أول ليلة بعد إياب والدك من أداء فروض الطاعةِ وعبادةِ (سيد الجزيرة) في قصر المربع، لم يتم استدعاءُ أحدٍ من (السراري)؛ وذلك جرياً على العادة المتبعة، فالأمير يخص زوجاته الحرائر، بأول ليالٍ تعقب عودته، من كل زيارة تفقدية لمناطق البلاد أو رحلة خارجية تقتضيها مصلحة الأمة.

هكذا علمتُ. وعلمتُ أيضاً أنني مرشحة لأن أكون أول (سرية) محظوظة يقضي معها ولي العهد ليلةَ ما بعد ليالي (الحرائر). لهذا تعاقب عليَّ صباح وضحى وعصر (اليوم الموعود) أخواتي اللواتي يشاركنني سكن الغرفة رقم(47).

...كما أظن، لكن تلك الليلةَ الموعودةَ مرت بدون أن يطلبني (عمي)، وفهمت أن (فطيمة الدبلى) قد استدعت حسب أمر والدك (أختاً) أخرى، لم يظن أحدٌ أنها ستختار للمرافقة الليلة - لطويل العمر - وللتخفيف عنه، من وعثاء سفر مضى عليه عدة أيام!!

سُبحة الليالي كرَّت.. ثم كرَّت ؛ وأنا لا أستدعى، ولا يمرُّ اسمي

غيرُ المعروف جداً على (أجندة) المدعوة (فطيمة الدبلى)، بل وقيل لي إن احتمالية استدعاء هذه البلوشية الجديدة ليراها ولي العهد مرة أخرى، لم يتم تداولها إطلاقاً، في غرفة الاستدعاءات التي تديرها هذه.. الفطيمة!

وأصارحُك يا (بني) القول، بأنني في كل عِشاء يوم يمر، بدون أن تقرَعَ فطيمةُ الدبلى باب الحجرة رقم (47)، كنت أعيش لحظاتِ فرح وسعادةٍ وانتشاءٍ لا توصفُ. أنا يا (سيف)، وكما قلت لك سابقاً، أكرهُ الملامسةَ وأكره احتكاك الأجساد، حتى عندما تفرضُ ظروف الحياة العملية حدوث مثل هذه الحركات الضرورية؛ فكيف إن ولّدَ الاحتكاكُ والملامسة.. فعلاً جنسياً؟! ستقول لي: إن هذا الفعل (ومقدماته) من ضروريات الطبيعة التي خلقها الله، وإن سنة الله في التكاثر والاجتماع الانساني يوجبان مثل هذا. وإن الله العليم، وعبر شرائعه ورسالته، أحلَّ التزاوج وحثَّ على الممارسة الجنسية المشرَّعة والتي أكبر دلائلها وظواهرها الملامسةُ الجسديةُ بين طرفي العملية الغريزية.

سأجيب: إنني أعرفُ كل هذا، وأعرف أن أبي وأمي أنجباني، كما انجبهما والداهما من خلال (احتكاك) الأجساد بعضها ببعض. لكني أقر أيضاً أن (العملية) برمتها مقززة لنفسي وتثير بعد الانتهاء منها في داخلي مشاعر شتى... من بينها: الاحساس بأن قذارات العالم كلّه قد حطَّت على جسدي. وأن أنهار العالم لا تكفي لنظافة بدني ولا لإطفاء براكين النفور التي تغلي داخل أحشائي.

أأجعلك تبتسمُ؟!

تمتلئ الأخوات في الحجرة رقم (47) دهشةً وهن يشاهدننى أعود إلى صفاء وبهاء الطفولة، كلما مر يوم وأنا لا أطلب إلى جناح (أبى فهد). وبدوري كنت أسترقُ السمعَ وأدقق النظر في أي أخت عائدة إلى مخدعها، صباح ليلة مقاسمتها لفراش سيدها. كانت هذه الأخت المِثال

- وغيرها - بعد الليالي الاستثنائية، تعيش صفوةَ النشوةِ والسعادة، بما حصلت عليه (المحظوظة) من مُتعة حلال.. ومال مُكتسب من هذا الحلال، دائماً أتساءل بعدما أشاهد تلك العلامات من الحبور، بعد صباحات المبيت في داخل جناح ولي العهد: لأي سبب تبدو (أختي) فرحةً، تكاد تخرق الأرض وتبلغ الجبال طولاً؟!

عندما تشاهد الأخواتُ في الغرفة رقم (47) وغيرهن هذا السؤال يلوحُ في عينيّ، يرحْن يضحكْن ويتغامزْن، ويقلن - وإن بصوتٍ خفيض - لِنَرَ ماذا ستفعل (الجاهلة) بعد اللقاء الأول؟!

بعد خمسة وعشرين يوماً من وصولِ والدِك من رحلته التفقدية للمنطقة الشرقية. مرت صباحاً (فطيمة الدبلى) على الغرفة رقم (47) لتسأل عني أخواتي الباقيات. وعندما حضرتُ لمقابلتها بعد خروجي من الحمام.. قالت لي: هل طهُرتِ يا (مريم) من دورتِك الشهرية؟

قلت لها، وأنا مصدومة من سؤالها الاستفزازي المباشر: إن (العذر)[1] عندي مُتذبذب في أوقاته بحكم صغر سني. إلا أنني أشعر بأنه سيدهمني قريباً؛ مع عدم قدرتي على تحديد موعده بدقة. ثم سألتُها بصيغة التوبيخ:

لماذا تسألين؟

لم تجبْ (فطيمة) بل وجهت لي أمراً هذا نصه: سأمرُّ عليك بعد أذان عصرِ هذا اليوم. ولابد أن تكوني (مستعدةً) تماماً للقاء (عمي سعود) فأنت سريته ومملوكته، وعليك السمعُ والطاعةُ.. وزيادة!

ثم انصرفتْ!

إذن ستقع الواقعة! في هذا المساء، ستتبخر بقية آمالي الواهنة بألّا أكون أبداً لرجل يملك جسدي بعد أن امتلك مستقبلي. وبدلاً من تلك

(1) الدورة الشهرية عند النساء.

الآمال السرابية، تأكدتُ بعد أمر (فطيمة) القاطع لي وضحكات شريكاتي في الغرفة، بأن المراسمَ (العملية) للعبودية والأسر قد بدأت، وهي في الحقيقة إعلانٌ بأنني أصبحت، واقعاً ـ لا توهماً حالماً ـ خادمةً وأمةً، أعطي، ولابد أن أعطي من نفسي، وذاتي، وجسدي، لسيدي ووليّ نعمتي. وألّا خيارَ ولا مهربَ بعد ذلك من هذه الحقيقةِ... وليفعلِ اللهُ ما يشاء"!

قلتُ لوالدتي وأنا أستغل توقفها عن الكلام، الذي أوجبته تنهيدة عميقة، تناهت إلى مسامعي، وكأنها قادمة من مكان قصيٍّ في داخلها:

"لم أكنْ أعرفُ أن لـ(فطيمة)، رحمها الله كلَّ هذا النفوذ؛ وما عرفته عندما كنتُ صغيراً، أنها كانت سرية لم تنجب من طويل العمر، وأنها رجتْ (عمها) أن تظل بجواره، حتى بعد ظهور عيبها (الخطير) ذاك. توسلت له حينها – كما يقولون – ليبقيها فقط لتخدمه وترعى شؤون ملابسه، مع تأكيدها له أن في ذلك شرفاً كبيراً لها لا يعادله شرفٌ"!

غمغمت والدتي وهي تقول:

"فطيمة الدبلى، وصويلحة، وسعدية السعود، نساء مثلهن مثل الباقيات اللواتي، جُلبنَ إماءً لقصر والدك. لكنَّ حظهن العاثر جعلهن لا ينجبن بعد (دخول) والدك عليهن، وبالتالي كُنّ بعد أن تبين عقمهن، أمام وضع آخر؛ وهو أن يتنازل (عمهن) عنهن لأتباعه الذكور، ليصبحن بعد ذلك عبدات لعبيد الأمير ووالده الملك. وذلك لعمري نكوص في المكانات لا يعادله نكوص!

بعد أذان عصرِ يوم (النفير) ذاك. سمعت دقاتٍ متواصلةً على باب الغرفة رقم (47). كانت دقاتُ قلبي المتسارعةُ تعادل تلك الإشارات القائلة: بأن عليَّ أن أمضي بدون إبطاء مع تلك الـ (فطيمة) إلى حيث طويلُ العمر...

شيعتني نظراتُ أخواتي وابتساماتهن (الخبيثة)، عندما حاولت، عند

باب الغرفة، الاستنجادَ بهن، عبر تمتماتي غير المفهومة والمشفوعة بحركاتِ اليد المستفسرةِ عما سيحدث. وكدتُ، من اضطرابي وخوفي، أمزق (كرتتي)[1] عندما أغلقت الباب على جزءٍ منها، وأنا أهمُّ بالخروج مسرعة على أثر فطيمة.

بعد خمسِ دقائق من المشي السريع على (الزل)[2] والحصائر التي تغطي (السيب)[3] ودرجات السلم المؤدي إلى جناح عمي وصلت أنا و(فطيمة) إلى حيث باب خشبي مزخرف بعنايةٍ وهناك أومأت لي المحظية المُقربة من (الشيوخ) برأسها أن عليّ أن أجلس على مقعدٍ خشبيٍّ طويلٍ وأن أنتظر إشارة منها لاحقة.

بدت الغرفةُ التي أجلستُ على أحد مقاعدها، غيرَ فسيحة، وخاليةً من النوافذ إلا من كوةٍ صغيرة. إحساسي كان يقول لي إنها معدة لانتظار أشخاص معينين للدخول إلى مكان أكثر أهمية.

في زمن الانتظار الذي جعلته مشاعري الداخلية طويلاً جداً، وإن لم يتعد – حسب الوقت الكوني الممعن في الجريان – خمس دقائق فقط. لاحظت مدى تطابق (زحمة) الأشياء التي وضعت في غرفة الانتظار، مع الأشياء المتزاحمة والمتشابكة داخل نفسي المشوشة والمذعورة.

كنت خائفةً و(متقززة) من المجهول الرجالي، ولكنني كنت أيضاً وفي نفس الوقت أتطلعُ إلى أن ترفعني تلك الحالةُ من (الملامسةِ) مع الشيوخ، إلى مرتبة (أم الولد) والتي بعدها تصبحُ الواحدة منا – نحن

(1) الكرتة: الجلباب النسائي القديم.
(2) الزل: السجاد المصنوع يدوياً.
(3) السيب: الممر الطويل.

السراري – حرةً لا تباع ولا تشترى، بل يحق لها أن تملك العبيد والعبدات، وتحمل – أي أنا وغيري – صفة: أم أبناء ولاة العهود.. والملوك!!

لم تكنْ (فوضى) المشاعر تتوقفُ عند حدود ما أخافه وما أرجوه. بل كنت أفكرُ، لحظتها، في أيامِ (أم حسين) ووالدي، وفي إخوتي (الأشرار... الطيبين)، في جبال وأودية بنقلان. سرحتُ في البحر، وفي القراصنة، والمختطفين لأحلام الطفولة والبراءة. في عُمان وما حدث فيها، وفي البريمي وأيامها التعسة. في (مريم الإماراتية) وشوقي إليها. في أسطورة (ابن جلوي) وعام برزخ الانتظار في قصره الإحسائي، الذي جعلتني معاملة قاطنيه الحسنة، أتكيف مع حقيقة أن الحياة فيها السادةُ والرعاةُ، وأنني انتقلتُ من الطبقة الأولى إلى الثانية بِرضا تعاطيته وأنا أسمع (منهم) دائماً تلك الكلماتِ المهونة: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم"!!

...لم يكن القدرُ والفعلُ الإنسانيُ يغيبان عني لحظتها، مثلهما مثل، جدب الحياة ورخائها، والموت ونقيضه.

كنت أفكر في كلِّ الذي حدث والذي سيحدثُ... إن حدث!

...وبينما كانت الأفكارُ والمشاعرُ والخواطرُ تتصارعُ في داخلي، سمعت صوتاً ذا نبرات مُضخمة ينادي: مريم البلوشية... ادخلي.

فدخلتُ...!

وجدتهُ..! وجدت والدك يجلس على مقعد وثيرٍ مخمليٍ وضعَ له عند إحدى زوايا الغرفة شبه المعتمة، والتي غطى كل جزيئات هوائها، دخان محترق من خشب العود المعطر.

عندما فتحتْ (فطيمة) باب غرفة النوم لتخرجَ، تسللتْ حزمةٌ من أشعة الشمس للداخلِ، مما أعطاني فرصة اختلاس نظرات سريعة للمكان ومن فيه:

(الشيوخُ) كان يلبسُ ثوباً صوفياً (مُجبعاً)[1] وقد أدخل في قدميه العاريتين من الجوارب نعالاً (زبيرية)[2]. والدكُ – كما تعرف – كان رجلاً طويلاً جداً وذا بنيةٍ ممتلئة قوية، وهذا يعطيه مهابةً وشكلا جذاباً، لا يمكن بسهولة أن تستبدله الذاكرةُ (النسائية) بهيئةٍ رجالية... أخرى. لكن مما أضعف جاذبية الرجل قليلاً – على الأقل عندي – تلك الفراغاتُ الكبيرة التي غزت مناطقَ الشعر في مقدمة رأسه، كما امتداداتها الخلفية، مُحدثةً صلعاً واضحاً، لم تنج منه إلا مناطق متناثرة بجوار وحول العارضين!

حقيقةً: لقد فاجأني منظرُ والدك وهو (مُفرع)[3]. لم أكن أتخيل أن أراه بدون ارتدائه لغطاء الرأس والعقال، اللذين لم أكن قد رأيته بدونهما؛ وفاجأني أكثر هذا (الصلع) المبكر. الذي كنت أعتقد سابقاً أن – طويل العمر – لا يشكو منه، لأن صوره الفوتوغرافية القليلة في البحر الأحمر التي أخذت له عندما كان يافعاً، تُظهر – كعلامة للفروسية – جدائل شعره الطويلة متدلية على كتفيه.

...عندما بدأ دخان العود يتبعثر شيئاً فشيئاً، أخذت معالم الغرفة التي غطيت أرضيتها بالسجاد العجمي الفاخر... تظهر واضحة:

سريرٌ عريضٌ طويلٌ، أخذ المساحة الكبرى من الجدار القبلي للغرفة، ويساراً وغير بعيد من السرير، كان هناك المقعد الوثير الذي يجلس عليه والدك. وعند أقصى اليمين حُشرت تسريحةٌ بمرآةٍ، على منضدتها قواريرُ عطرٍ شرقي وغربي، بالإضافة إلى أمشاطٍ وفُرش شعر.

---

(1) الثوب المُجبع: ثوب واسع بأكمام قصيرة، يلبس في أثناء أوقات الراحة المنزلية أو عند النوم.

(2) خُف مفتوح يُصنع في مدينة الزبير، التي اشتهرت به، وبصناعات حرفية صغيرة أخرى.

(3) مفرع: بمعنى أنه لا يرتدي على رأسه شيئاً.

الغرفةُ كبيرةٌ جداً على شخصٍ واحدٍ ... وواسعةٌ بغيرِ جدال، وحتى وإن شارك صاحبها ثلاثة آخرون، مثلما هو حادث في الغرفة (47)!

أعجبني، ونظراتي لا تزالُ تدور باحثةً عن تفاصيل الغرفة الحُلم ـ التي تقول إشاعات نساء القصر الأحمر عنها الكثير ـ تلك النقوشُ من (الجص)[1] التي ترصعت بها الأعمدةُ الأفقيةُ الخشبيةُ المكونةُ بتلاحمها سقفَ الغرفة، ولا يمكنُ أن أنسى تلك المنمنمات النُحاسية المستوردة من الخارج، التي تزين جدران الغرفةِ الأميرية. أما اللونُ الأحمرُ - الرديء - الذي صبغ الجدران كلَّها، فكان شيئاً فريداً، في وسط بيئة لا ترى إلا اللونَ الأصفرَ، وشيئاً من (خوارق) اللون الأخضر.

ما أثار تعجُّبي كثيراً، تلك الظلمةُ النسبيةُ التي تلفُّ الغرفةَ، بالرغم من وجودِ نافذةٍ أو نافذتين - لا أذكر - وبالرغم من وجود باب جانبي آخر يُطل - كما هُمس في أذني - على ممرات تؤدي إلى أجنحةِ... الحريمِ الحرائر!

لاحقاً عرفت أن تعتيم المكانِ كان مقصوداً؛ فـ (البردايات)[2] القماشية المتنافرة، الألوان والتي تحجب دخول أشعة الشمس، والباب الآخر المغلق بإحكام، وعدم وجود استعدادات لإضاءة قريبة للسرج والأتاريك[3] المعلقة في وسط وزوايا الغرفة؛ كل تلك المؤشرات، كانت تدلُّ على أن ولي العهد، وبسبب مضايقات مرض (التراخوما) المعاودة عينيه بين فينة وأخرى، يأمر محظياته دائماً عند حدوث فترات

(1) الجص: يماثل الجبس في البناء العصري.

(3) البردايات: الستائر.

(3) السرج والأتاريك: مفردات تعني كلها - وإن اختلفت أحجامها - المصابيح الزجاجية القديمة، التي تنار بواسطة فتائل الكيروسين. وهذا يدل على أن المولدات الكهربائية لم تكن قد بدأ تشغيلها في الرياض أثناء أحداث هذا الجزء من القصة.

العدوى - وما أكثرها - أن يقللن ما استطعن من تسرب الإضاءة القوية، المنعكسة من أشعة الشمس... إلى حيث يكونُ. مع العلم يا (بني) أن والدك كان يشكو أيضاً من ضعف حادٍ في البصر، يجعلُه يختار (عوينات)[1] سميكةً سوداء، حتى يتفادى توابع أمراضِ العيونِ المزدوجة.

...كان بودي أن أستمرَّ في تجوالي النظريِّ، المستطلع لأرجاءِ الغرفة التي طالما سمعتُ عنها، وعن أجوائها الأسطورية من أخواتي. تلك الغرفةُ التي تبدو لمخيلتي (الآن)، وكأنها إحدى حجرات خانٍ عتيقٍ، قياساً بأجواء الأحلامِ التي توفرها أجنحةُ الفنادقِ والقصورِ الباذخة في بلادنا.

كان بودي هذا، لولا صوتُ والدك الأجشُّ، الذي قال شيئاً لم أتبينه بدايةً، لا بسبب صعوبة مخارج الحروف لديه، وهو يمضغ لباناً عُمانياً تُسمع (طرقعاته) بوضوح مزعج؛ بل لأنني، وأنا أقترب منه وأتبين ملامحه أكثر، كنت أشعر وكأن حمى فجائية غزت كل أطراف جسدي... ثم راحت رجلاي تهتزان... رأسي يدور... عرق غزير غزير تخرجه مسامات جسدي... يداي ترتجفان... رأسي يبدو وكأنه يطير:

"أتذكر أن اسمك مريم، وأنك قلتِ لسعود بن جلوي إن أصولك تعود لوجهاء قوم في بلوشستان. وأتذكر أن سعود قال لي: إنك دائماً ما تحتجين على مبدأ استعباد البشر للبشر... أليس كذلك"؟

...هكذا سألني والدك، وضحكته المكتومة في عنفوانها، واللبان لا يزال يمضغ، وأنا مازلت في حالةٍ من انعدام توازنٍ كامل!

ولأن سياق الحديثِ جرى وأنا أكاد يُغمى عليّ، فمن المنطقي ألا أستطيعَ أن أجيبَ (عمي) على تساؤلاته، حتى ولو استمر بالكلام وإلقاء الأسئلة حتى فجر اليوم التالي!

(1) عوينات: النظارات الطبية أو الشمسية.

...ولعلَّ والدك يا (بني) قد تبين حالاتِ خوفي وترددي، والبلاهَةَ (المؤقتة) التي كنتُ أمرُ بها وهو يوجِّه حديثه لي. لهذا أخذ - جزاه الله خيراً - خطوةً معنويةً تجاهي، حتى ينتشلني من مرض الذهول ذاك... قال:

اسمكِ سآمُر بتغييره اعتباراً من اليوم... من مريم إلى (نائلة). فاسم مريم مكرر هنا. وتُنادى به كثيراتٌ في قصري. أما أن أصولكِ كريمة! فللأسف فلن يفيدك هذا الأصل بشيء هنا. حياتك هنا تختلف - ولابد أن تختلف - عن ماضيك.. مهما يكن هذا الماضي. طبعاً لا يرضيني ما أصابَكِ.. إن كان صدقاً ما تقولين، لكن الأكيدَ هو أنني لم أتسبب في اختطافك، ولم آمُر به، ولم أخطط له أو لغيره. كل ما كان يقال (لنا) إن العبيد والعبدات، قد فرط فيهم ذووهم: بيعاً ... أو إهمالاً. وإنهم يعيشون في ضائقة اقتصاديةٍ خانقةٍ، ولا منجى لهم إلا حياة الاستعباد، المطعمة خُبزاً، والمُسقية ماءً قُراحاً، والمعطية أماناً ورعاية. ثم إن تُجار العبيد كثيراً ما يقولون (لنا) إن صغار العبيد يشاركون كبارهم الاعتداء على (المسلمين). وعند هذا التبرير (فقط) أقف مُتشككاً. تبقى مسألة أنكِ تحتجين على أسس الاستعباد ذاته. هنا أحذرك من مغبة الاستمرار في نشر مثل هذه الآراء بين أخواتــك الســراري! فأنتن (الآن) عبدات تُملكن، ويحق لأسيادكن بيعكن أو الاحتفاظ بكن؛ لذا فعليكنَّ الاهتمامُ - إن رغبتن في الخروج من ضيق العبودية (المزعوم) الذي تشعرن به - والإكثار من عروض الخدمة المُتقنة بأشكالها المختلفة، وأن تتخلقن بالأخلاق الإسلامية الحميدة، وأن تضعن الله نصب أعينكن. وهناك أمرٌ قد يفوت عليكِ أنت وأخريات، ممن يتكلمن عن الاستعباد والسخرة. هذا الأمر هو أن المتكلمين والمتكلمات يُثرن بأحاديثهم الغريبة بعض (المطاوعة)[1]، الذين يعتقدون أن التخفيف وعتق العبيد والعبدات، أمر

(1) رجال الدين.

مُستحب وجائز ويثاب [illegible] في [illegible] لكن أن يسقطَ حقُّ تملُّك العبيد و[illegible] العبدات هكذا.. [illegible] شيء آخر؛ إنه تعدٍّ على الخطوط الحمراء الدينية. [illegible] (الزندقة)! لكنني وفي المقابل [illegible] أن أزف [illegible] الحسَّ الإنسانيَّ لديكِ: الشيوخ [illegible] الملك [illegible] ستجد حلولاً وسطية بين (هؤلاء) المنتقدين [illegible] في الجزيرة العربية، وبين الواقع الديني هنا... لكن ليس [illegible]

آه...!! هناك بُشرى [illegible] جميلة!!

بني...!

لا تسألني بعد [illegible] مع والدك، فهذه أسرار بين الرجال وأهله. [illegible] من الأبناء.. وخاصةً الأبناء الذين يبحثون في أكوام [illegible] عن إجابات متوارية. ثم إن ما سيروى عنك حول [illegible] - بعد أن تعرفها - سيحسب عليك.. لا [illegible]

هل ذاكرةُ والدتي [illegible] تحفظ تفاصيل اللقاءِ الأولِ وما دار فيه؟ جائز... [illegible] انتزعت (قليلاً) من المحاسن. أو أنها [illegible] لمصلحة عمها. لكنَّ الواضح أن كثيراً [illegible] حسبما أسهبت فيه الروايات ونقله [illegible] تلك الكلمات التي سمعتها والدتي من [illegible]

"لم يكن توقعكِ في [illegible] أنوي أن أسألكِ عن تفاصيلَ أكثر عن [illegible] أريد أن أعرفَ، صدى ما سمعتِه من (طويلِ [illegible] القصرِ الأحمرِ"؟

لحظتَها لمحتُ [illegible]، ولأنها شعرت بأن (جبرية) الحزنِ - [illegible] - [illegible] إلى منحنى عاطفيٍّ، كثيرِ الشجنِ قليلِ الفائدةِ.. [illegible]

•لا تعادلُ نعومةُ ملمِس جلد والدك، إلا روحه وطويتُه. لم أجد كائناً محباً للخيرِ المطلق، وللإنسانية بمفهومها الواسع مثل والدك!

لكن وفي المقابل، لم أجد إنساناً صادفته مُهلكاتُ سوء الحظ... مثل والدك. ولم أجد كذلك أكثر من اختار القرار الخطأ في الزمن الخطأ، وهو قادرٌ على أن يوفق في اختياراته... سوى والدك.

خلال (لياليّ) معه - والتي يمكنني أن أعدها بسهولة - لم أشعرْ أن الرجل يحمل كراهيةً لأحد، حتى لـ(عبد الناصر) الذي أرسل المتفجرات والرسائل الإعلامية الأشدّ فتكاً له ولبلاده. كان هذا الشعور من التسامح يشملُ حتى الأقرباءَ ممن تسببوا في محاولات إقصائه. إنما وفي نفسِ الوقتِ فـ(عمّي) لم يشعرْني لحظة واحدة - وأشهد الله على ذلك - بأنّه كان قادراً على قيادة بلاده، التي عاشت طوفانَ التغيرات بعد وفاة والده الملك المؤسس، مع أن نشأته قد أوحت له - بالتأكيد - بأن بلاده في حاجةٍ لقيادة أبوية حازمة، لا يمكن إلا أن تكون محركاً لكل الأنساق في مجتمعٍ محافظٍ تقليدي مثل المجتمع السعودي. ولعلي أستثني (فقط) السنوات الثلاث الأولى من حكم والدك، والتي خالجتني فيها أحاسيس بأن مشاعري السابقة كانت كاذبة!

أكان والدك مفطوراً على السلبية؟

لا... وألفُ لا.

...كان (عمّي) إيجابياً، لكنَّه لم يضع لهذه الإيجابية آليات مناسبةً حتى ترى النور وتُفعل. واحتمالٌ كبير أنه وجد الآليات المناسبة، إلا أنه أوكل (تشغيلها) لأناسٍ: إما مخلصينَ جهلة. وإما عارفين فطنين في نفس الوقت ولكنهم كارهون له ولأسرته. وإما لا هذا ولا ذاك، بل لمجرد (مساعدين) تعمدوا إظهار سقطاته وتضخيمها. ليقولوا بعد ذلك إنه بمثل هذه الزعامات ستُقاد البلاد إلى المجهولِ والانهيارِ.

أكان والدُك غيرَ محبٍ لقوميته العربية؟

واللهِ ثم واللهِ، لم يكن (ذاك) الرجلُ إلا خُلاصة العرب تمشي على الأرض. كان مُشتاقاً لأن يرى العربَ يسودون ولا يُسادون. ويقودون ولا يقادون. هو من الأوائل الذين وقّعوا على ولادة ميثاق الجامعة العربية. وهو المبادرُ دوماً لنصرةِ القضايا العربية، حتى وهو يعيش خلافاتٍ مُستعرةً مع الذين ينشدون نجدة... التي هي مجرد كمين له. أتصدق أنه وهو يسعى إلى عرقلة الوحدةِ المصرية السورية، لم يكن منطلقه - كما رُشح لنا في الناصرية - إلا الخوف على العروبة ذاتها من هيمنة الفكر الثوري الذي قاد البلاد العربية كلها - كما أثبتت السنوات اللاحقة - إلى الفشل في كل المجالات: من صناعة الخبز، إلى عدم إجادة إطلاق رصاصة واحدة، على العدو الأجنبي الراغب في احتلال الأرض واستباحة العرض وسرقة الموارد؟!

ما كانَ والدك غيرُ موفقٍ فيه ـ بالرغم من هذا الكم من عشقٍ بني قومه ـ هو عدمُ تقديمِ نفسِه، وبرنامجِه، وفكرِه المختلفِ عن الفكر الاعتباطي الثوري، للجماهير العربية التي تؤثر فيها الألفاظُ الرنانة الساحرةُ للعقول، والخاطفة للقلوب. لا بأس - في رأيي - من استخدام أساليب غير عقلانية، للوصول إلى العقلانية. لا بأس - مثلاً - من التنويم المغناطيسيِّ، لإعطاء الرافض الكشف الطبيَّ العلاج المنقذ لحياته! على أنني أعتقدُ أن والدك لم يكن (أصلاً) يمتلك مثل تلك الشخصيةَ الجذابة (جماهيرياً) المماثلة لما يمتلكه عبد الناصر وغيرُه من (ثوار) العرب الذين زيّنوا الواقعَ المر، وحسنوا الفالج صعب العلاج. ويمكن أن أردَّ هذا الضعفَ في جاذبيته الجماهيرية، إلى عدمِ وضوحِ مخارجِ الكلامِ عند (عمّي) والقصورِ الشديد في قوةِ إبصاره؛ وإلى عزوفه عن تعويضِ نفسه وملكاته من جراء فقرِ التعليم المحلّي، الذي ترعرع والدك في محيطِه وتحت هيمنتِه. كان يمكنُ عبر قراءات في تعليم

الأخرى الإنسانية والسياسية، أن يقدم شخصيةً أخرى (منافسة)، مُقابل المُفوَّهين الآخرين من الزعماء العرب أصحاب الشعارات والنظريات والمفردات المُنتقاة بعناية. أما صداقةُ أمريكا والتعاون مع الغرب عموماً فلم يعودا عليه، إلا نقصاً في شعبيته المنخفضة أصلاً عند دَهماء العرب والخاصة على حد سواء ولا أدري هل كان هؤلاء يعلمون.. أم لا، بأن أولَ زعيمٍ عربي يوقفُ البترولَ عن أمريكا في حرب السويس عام 1376هـ[1] هو والدك. وأنه ـ ولا أحد غيره ـ فتح المطاراتِ السعوديّة للطائراتِ المصرية الهاربة من القصف حينها؟! الأكيدُ أنهم لم يكونوا يدركون أن (الملكَ سعود) في تلك السنوات، قد (تنازل) عن جزيرة تابعة للسعودية[2] لصالح مصر، حتى يمكنَ أن تراقبَ مصرُ حركة مرور السفن الإسرائيلية في خليجي العقبة والسويس، لقد تجاهل هؤلاء - قاصدين - على الأرجح أن الملك سعودَ قد رفضَ تجديدَ اتفاقية (الظهران)[3] في أوائل الثمانينيات الهجرية[4] مع حكومة الرئيسِ الأمريكي كينيدي. لم يعرف العرب عن الملك سعود - وحتى عن الزعماء السعوديين الآخرين أيضاً - إلا الزياراتِ المتبادلة بين حُكام الرياضِ والرؤساء الأمريكانِ. ولم ينطبع في ذواكرهم إلا صور الضحكات الدبلوماسية بين القيادات السعودية والأوروبية. وتناسوا - عمداً - ما وراء الكواليس، والمجابهات غير المتكافئة بين دولةٍ ناشئة ـ كالمملكة ـ وقوى عالمية مسيطرةٍ ـ ولازالتْ ـ على مقدرات الكرةِ الأرضيةِ وبشرها. ومن المضحكات المبكياتِ، أن يتدافع زعماءُ العربِ

(1) الموافق لعام 1956م.

(2) جزيرة صنافير.

(3) اتفاقية الظهران: اتفاقية عسكرية فنية بين السعودية وأمريكا تنص على وجود قوات أمريكية جوية في قاعدة الظهران، الواقعة شرق المملكة.

(4) الموافق لأوائل الستينيات الميلادية.

(الثوار) لطلبِ الصداقة الأمريكية (لاحقاً) كما شاهد وسمع ذلك العالمُ كُله، بعد عقودٍ من اتهامات العمالةِ، التي وجهت لوالدك وخلفائه.

أكان والدُك لا يملكُ فكراً تقدمياً حضارياً؟

كيف يمكن أن تنطلي على الكثيرين تلك الدعايةُ السيئةُ التي ألصقتْ بتاريخِ وشخصيةِ الملكِ سعود، إلى حد أن نسأل مثل هذا السؤال السابق؟!

ألم يكن هو رائدَ التعليم - وخاصة النسائيَّ - في المملكةِ؟ ألم تبدأ أولى خطوات المشاريع الجبارةِ في مجالات البنيةِ التحتية للمملكة في عهده؟ وكيف يمكنُ أن تكونَ الرياضُ سوى عاصمةٍ قبلية منعزلةٍ، لولا اللهُ ـ أولاً... ـ ثم (أبو فهد)؟ ألم يُقرأ في صفحات سِفْر عمارة المسجدين الحرامِ والنبويِّ اسم (الملك سعود) الذي وضع أولى لبنات توسعة الأماكن المقدسة، بعد قرون من التجاهلِ والتقاعس الإسلاميين في إصلاح الأحوال المعمارية المتدهورة التي حاقت بأهم مسجدين يشد إليهما الرِّحالُ[1]؟!

ألم يكن هو ـ ولا أحدَ غيره ـ من أصدرَ قراراً بتحرير العبيدِ في المملكة. ومنع وتجريم هذه التجارة التَّعسة؟ أقول ذلك حتى لو ادعى أحدٌ، بأن هذا تم تحت ضغوطِ المجتمعِ الدوليِّ ومؤسساته. هذه الضغوط كانت فقط رافداً ومعيناً - فقط - لوالدك في إشهار القرار الصعبِ، والمبيّت منه قبل المناشدة الدولية للسعودية بأن تقر تشريع تحريم الرق. لقد أصدر والدك إعلاناً تاريخياً غير مسبوق، إلى درجة أن كثيرين كانوا لا يعرفون - ومنهمْ أنا - كيفَ مرَّرتْه المؤسسةُ الدينيةُ في هذه البلاد دون ردودِ فعلٍ عنيفة متوقعة منها؟!

ثم مَنْ هو الذي اكتشف أن البلاد تحتاجُ إلى دماءٍ شابةٍ في هيكلها الإداريّ .. أليس هو والدك؟

(1) نسيت صاحبة القصة مسجداً ثالثاً... هو المسجد الأقصى!

لقد مرتْ على هذه البلادِ وزارة أسميتْ بـ (وزارة الشباب) في أوائل الثمانينيات الهجرية[1]، خطا من خلالها والدك خطواتٍ غيرِ مسبوقةٍ في الرؤية الإصلاحية للبلاد، بل إنه وفكَّر.. ثم قرَّر، أن تكون الغالبيةُ من أعضاء مجلس الوزراءِ من (العامة) وليس من الأمراء. هؤلاء الوزراءُ الخبراءُ، لم يكن في الإمكان معرفةُ أسمائهم وأشكالهم، لولا مليكُهم (التقدميُّ) الذي اختارهم. ولم يكتفِ والدُك بهذا فقط، بل أوجد حراكاً غير مسبوق: في الابتعاث للخارج، وفي الإصدارات الصحفية، وفي الشأن الاجتماعي، وفي العلاقة بين الدين والدولة، وإلى غير ذلك من الهموم الوطنيةِ، التي لا يزال بعض منها جاثماً على صدوركم.. حتى الآن!

وستقولُ لي: مادام الأمر كذلك فأين المشكلةُ؟ ولماذا فُتحت على الملك سعود أبوابٌ ونوافذُ لا حصر لها، أتت منها الأعاصيرُ والعواصفُ؟

السبب، يا (سيف) أن والدكَ كان يملِك هذه النظرةَ الإصلاحيةَ وكان راغباً بالفعلِ أن يشاهدَ بلاده تخرج إلى عوالم التحضُّرِ والرقيِّ المؤسسيِّ، لكنه كان – كما يبدو – لا يملكُ وسائلَ تحقيقِ الرغبات، ولا الكيفيةَ التي يمكن أن تفعَّل عبْرها رؤيتُه الخاصةُ بنهضةِ أمته.

بلادُه – حينَها – أكثرُ سكانِها كانوا بدواً رُحَّلاً غيرَ متعلمين. وكانت البلادُ موحدةً بقوة بأسِ الحكِم المركزيِّ، الذي تمثل في (الملك عبد العزيز). ولمْ يتأتَ توحيدُ البلادِ عبْر تنازلاتٍ من هذا أو ذاك. ولا عبْر توافقاتٍ سياسيةٍ مثل البلادِ المجاورة. ولا عبْر تاريخ وتراثٍ حضاريين يوحدان أطيافَ هذا المجتمع ـ المحظوظ ـ أو ذاك. بل أقيمت هذه البلادُ عبرَ عبقريةٍ جمعتْ البأسَ والرحمةَ، والسيفَ وكيسَ المال، إلى جانب معرفةِ التوازناتِ القبليَّةِ والمناطقية وأحوالِ السكان. كلُّ تلك

(1) 21 ديسمبر 1960م.

(المعرفةِ)، ولسبب غير معروف عند كثيرين ـ ومعروف [illegible] ـ [illegible] عنها والدُك ولا عن فوائِدِها، لو أنها طُبقتْ من خلال [illegible] للتطبيق.

والأدهى من هذا أنَّه أتى برجالٍ كانوا يقولون [illegible] في مساعدتِه لتحقيقِ الآمالِ التطويريةِ للبلاد، لكنهمْ [illegible] ولشياطينهم، فإنهم كانوا يدبرون أمراً جللاً: كانوا [illegible] على ساكنيه، وبناء بيت آخر ترتفع أعمدتهُ على [illegible] بلاد بالكاد رأت النور، بعد تناحرٍ وعزلةٍ وفقر.

...مثلاً: يأتي والدُك بمتحمس يسمى (الطريقي[1]) [illegible] البترول، إلا أن (الملكَ) لم يعرفْ – وكان يجبُ [illegible] هذا الشخصَ لم يكنْ متحمساً فقط (لسعْوَدةِ) قطاعِ النفطِ [illegible] كان العمالُ السعوديون الذين يعرفون القراءة [illegible] الأصابع؛ بل كان أيضاً شديدَ الرغبةِ في رؤية بلادٍ [illegible] ومجتمع شيوخ القبائلِ والعشائرِ، نسخة من البلادِ [illegible] تختلف في كلِّ شيء عن ثقافةِ وتاريخ البلاد السعوديةِ. [illegible] يريدُ هذا و(غيره)، بتصرفاتِهم الخرقاءِ الجاهلةِ، [illegible] عن طريقِ دسِّ السمِّ في رحيقِ العسلِ المُصفى.

يا ربي..!

لقد أخذتُ وقتاً طويلاً وأنا أتحدثُ عن [illegible] أليسَ الموضوعُ ـ مدار الحديث ـ يستحقُّ كلَّ هذا [illegible]

...اسمــع:

(1) هو عبد الله حمود الطريقي: وزير بترول سعودي دخل التشكيل [illegible] 1960م، ليعزل عن منصبه مع بقية وزراء وزارة الشباب في [illegible] هذا الوزير في عام 1998م، ويحسب (الطريقي) على الاتجاه [illegible] في السعودية.

قبل أن أجريَ محادثةً تليفونيةً مع المشرفِ على بيتيَ في الطائف، لسؤاله عن آخرِ الاستعدادات التي تسبق ذهابي للمصيف الذي أحبه؛ لأنه يشبهُ بلاد البلوش ـ دعني أقُلْ لك شيئاً عن الماضي الذي نحاول سوياً تركيب صورته الكلية:

في صباح اليوم التالي (لدخول) وليِّ العهد عليَّ، جلستُ على رصيف الممرِ الطويلِ المقابل للحجرة رقم (47)، وأنا أفكرُ بعد أن (أفنيتُ) ساعةً من عمري مستمعة للأسئلةِ الكثيرةِ من أخواتي في الحجرةِ، عن انطباعاتي عن الليلة الأولى مع والدك، أفكر في غرائبية هذه الدنيا. لم أكن أصدقُ أن سنواتٍ قليلةً فقط حولتني إلى مخلوقٍ آخرَ لا يرى، ولا يسمعُ، ولا يتحدثُ، إلا في شؤونِ القصور وحياتِها النهاريةِ والليلية، التي أتقززُ منها مهما تكن شرعيةً وحميميةً. مخلوقٍ لا يفكر إلا في الملابسِ والعطور وحيلِ النساءِ وكيدهن؛ وعن أمراض الشيوخ ومطامعِ خلفائهم؛ وعن تأخر نزولِ المطرِ والربيعِ النجديِّ وريالات الفضة!

رحت أتساءل أين أنا من كلِّ هذا وأين موقعي؟ أين أجدُ نفسي وكيف ألملم أجزاءها المبعثرة؟ هل قُبرتْ أحلامي - على بساطتِها - ونشأتْ أحلامٌ أخرى تافهةٌ على أنقاضها؟

20

كان بالفعل (ماراثوناً) كلامياً، نجمتُه وبطلتُه والدتي، في ميدانٍ لا متسابقين فيه - تقريباً - إلا هي.

لم أرِدْ أن أقاطع استرسالها في الحديث عن زوجها وأبي أولادها؛ دهمني شعور بأنني أفعل جُرماً، لو أن مثل هذهِ المقاطعات السخيفة قد رأت النور! فليس بعد (واقعة) الاختطافِ من حدثٍ يمكنُ أن تبني عليه والدتي قصَّتها مع الأيام والحياة، إلا لقاءها مع (الرجل) الذي سلمته (قسراً) جسدها؛ لأن الشرعَ والضرورةَ يفرضان هذا، وسلمته، راضيةً، من جهة أخرى، روحها المبهورةَ بكل شيءٍ يرمز له بطل لقائها الأول، مع عالمِ ما بعدَ الطفولة والشبابِ المبكر.

علاقة والدتي بوالدي لم تقمْ، في يوم من الأيام، على الحب، بمعناه الذي ينتشر بين الناسِ هذه الأيام. ما فهمته من القادمةِ من أرض بلوشستان، أن علاقتها بـ(عمِّها) هي نوعٌ مزيجيٌّ، بين ما تُحتمه سلوكياتُ الطاعةِ والانقيادِ للزوج وهي سلوكيات نابعة من صميمِ ثقافةِ نساء (الماضي) في بلاد بلوشستان، وحتى في مثيلتها في البلاد النجدية المحافظة ـ وبين ما تخلقه أجواءُ الاندهاشِ والإبهارِ والدونية، من تغيُّرات سلوكيةٍ لدى غالبيةِ الناسِ، وخاصة النساء، عندما يتعاملون بصورةٍ مباشرةٍ، مع أجواء قصورِ الملوك، والسلاطينِ، والنبلاءِ الأثرياء.

هي بكلِّ هذه التوليفةِ من المشاعرِ والسلوكياتِ، تُجلُّ الملْك سعود، وتخافُهُ، وتحترمُه، وتغضبُ له، وتُتاكف عنه، وتُشْهِرُ العداءَ على من يشهر العداء عليه، حتى ضد من اختلف معه في الرأي والموقف فقط. هو ماضيها بعد أن نسيت ـ أو تناستْ ـ تاريخ ما قبل اللقاء الأولِ معه. وهو حاضرُها؛ لأنها تعيشُ (الآن) في نفس الأماكن التي قضتْ سنواتٍ طويلةً تسمع فيها، عن هيلمان وعلوِّ مكانةِ الملك المتربع على عرش بلاد أغنى دول العالمِ في احتياطيّها النفطي. وهو (مستقبلُها) المتمثلُ في هذا الابنِ الذي بقى لها من (تماسّات) رجلِ اللقاءِ الأول.. في القصرِ الأحمرِ.

ولأن نيتي كانت (مبيتةً) في جعلها تتحدثُ بسخاءٍ عن الذي تحملُ

له كلَّ هذه المشاعر؛ فإنني لم أجد من العدلِ والإنصافِ، الاعتراض والتشكيك في بعض ما ورد في حديثها الطويل عن.. عمِّها، حتى ولو كانت مُداخلاتي - المفترضة - سبباً في إزالةِ كثيرٍ من اللبسِ وسوءِ المعلوماتِ، التي من المعقولِ أن والدتي حصلت عليها (سماعياً)، بين جدران أماكن لم ترغبْ ـ كالعادة ـ إلا للإنصاتِ لوجهةِ نظرٍ واحدةٍ، في أوقات كانت القلاقلُ تعصفُ بهذه الأماكنِ تحديداً، وبالمملكة عموماً.

كنت سأعترضُ - مثلاً - على مقولتها بأن سوء الحظ قد أسهم إسهاماً كبيراً في سوءِ مُنقلب حياة والدي السياسيةِ، إلى حد أن أول ملكٍ للعربيةِ السعودية بعد فترة التأسيسِ والتوحيدِ السابقة لعهده، مات غريباً في بلادٍ غريبةٍ، وبعيداً عن وطنهِ وأهلهِ.

لقد عرضتْ والدتي رؤيتَها في أسباب سقوطِ نجم الملك سعود. وكانت تلك الرؤيةُ صادقةً وموفقةً في الأغلب؛ لأنها بُنيتْ على الوقائع والتحليلِ المنطقيِّ لمعطيات ذاك العصر. لكنني لا أستطيع فهم إصرارها على إدراج (سوء الحظ) ضمن أسباب نكبةِ زوجها. فقميصُ عثمان هذا، لم يكن له دورٌ - حسب العرضِ المسهَبِ لوالدتي - في سوء اختيارات والدي. ولا للبُعد عن التعمق في دراسةِ الظروفِ والتعقيداتِ المحيطة. ولا للعزوف عن الاعتماد على الكفاءاتِ البشرية، التي يُعتقد أنها أقربُ من غيرها في فهم ثقافةِ الأمةِ وتاريخها، ومعرفة بؤر الصراعات والتماسَّاتِ المرهقة، للقيادةِ والعامةِ على حدٍ سواء.

أين مكانُ سوءِ الحظِّ، عندما يتم توزيعُ المناصبِ على أبناءِ وإخوةِ صغار السن قليلي المعرفةِ والتجربة؟ وكأن (أبا فهد) بعملهِ ذاك، وعمله الآخر في استبعاد إخوته وبني عمومته، أصحاب التجاربِ والخبراتِ، ومالكي أوراق اللعب السياسي، المرتكزِ على معرفةِ مراكز القوى المختلفةِ في المجتمع السعودي؛ وكأن أبا فهد كان يدعو بذلك

إلى نشوءِ مملكةٍ مُغلقةٍ على الأبناء الأقربين عديمي الخبرة، في داخلِ مملكةٍ لها نظامُ حُكم عائليٌ خاصٌ موسَّع، تلعبُ فيه الأعرافُ والتقاليدُ والقيمُ المتوارثةُ الأدوارَ الرئيسةَ. حُكم فريد يجعلُ الخارجَ عليه منبوذاً وخارجاً على الإجماع العائليِّ .. ويمكنُ التضحيةُ به مهما يكنْ. وهذا ما حدثَ لوالدي .. للأسفِ!

(عبد الله بن حمود الطريقي) الذي أوردت اسمه والدتي، وهي تفسر إخفاقات والدي الداخلية؛ مثالٌ ليس على سوءِ حظ الملكِ في اختياره؛ لأن الاختيار كان موفقاً في رأيي. الخطأ أتى؛ لأن هذا الشابَّ لم يُحتضن من جانب القيادة آنذاك. لتتم إعادة صياغة فكره، وتُشذب اندفاعاته. وتُقنن تطلعاته. الشابُ (الطريقي) الذي ولد في مدينة (الزلفي)، ودرس في (الكويت) و(القاهرة)، وأرسل في الأربعينيات الميلادية من قبل وزارة المالية، إلى تكساس لدراسة الهندسة البترولية، كان هذا الشاب مفيداً جداً لبلاده عندما اكتشف سرقاتِ الأمريكان المهيمنين، يومَها، على شركةِ أرامكو. والذي دفع ببلاده، بعد اكتشافات تلك السرقات، أن تطلب تعديل سِعْر البترول المبيع من قبل الشركة للأسواق العالمية. كما كان (الطريقي) مُحسناً جداً لبلاده، عندما قام بجهودٍ ضخمةٍ لإقناع حكومته وحكومات الدول الـمُنشئة (للأوبك) بفائدة إقامة مثلِ هذا التجمُّع البترولي، والذي أصبح له شأنٌ عظيمٌ في حركةِ الاقتصادِ العالميِّ بعد عقدٍ ونصفِ العقدِ من إعلانِ الولادةِ الأولى. وكان يمكنُ أن تزداد تراكماتُ فوائدِ أعمالِ وجهودِ (الطريقي)؛ لولا أن والدي أهملَ إعادةَ (عبد الله) إلى حظيرةِ الاعتدال السعوديِّ، بدلاً من جرِّه من قبل الآخرين، إلى حظيرةِ حركةِ (نجد الفتاة) اليسارية. تلك الحركةُ المحظورةُ التي هدفتْ أولاً وأخيراً لتقويض الأسس السياسيةِ والدينيةِ التي قامت عليها المملكة. وكان هذا الإهمالُ مفهوماً - إلى حدٍّ ما - والشابُ (الطريقي) الصاخبُ يعمل في شبه الظلالِ الوظيفيةِ كمديرٍ

لمديرية البترول. أما عندما تمّت تسميته وزيراً لوزارة البترول في أواخر عام 1960م، فإن الخطأ، كل الخطأ، جعلَه يستمرُّ - ولو من بعيدٍ - عضواً مُزعِجاً في تلك الحركةِ التخريبية.

تجربةُ السعوديةِ أيام الملك عبد العزيز والملوك الذين أعقبوا حكم الملك سعود، أثبتت نجاحَ الممارسةِ السعودية في احتواء المعارضين وتحويلهم إلى مدافعين أشداء عن المواقفِ وأساليب الحكمِ السعوديّ. فلماذا لم يستَفدْ (الملك سعود) من هذه التجارب وتراثِ التعامل مع الخصوم، الذي لا يوصِي فقط بتحييد الخصوم المحليين، بل جعْلهم يشعرون أنهم مسؤولون عن سلامة السفينة التي يركبون هم وآخرون على سطحها. وأن من السلامة لهم كذلك، المحافظةَ على (قيادة) السفينةِ، المطلعةِ على كلِّ مفاصلِ القوةِ والضعفِ في الوسيلةِ التي يقودونها؟

...وبدلاً من سياسةِ الاحتواءِ المفترضةِ، تُرك (الطريقيُّ) الذي كان مثالاً صارخاً على حالاتٍ أخرى لتحتويه حركاتٌ مثل (نجد الفتاة) و(الأمراءُ الأحرارُ) وغيرُ تلك من التجمُّعاتِ سيئةِ الصيت خبيثة المقصد. ويمكن رجْع سبب الفشلِ الذريعِ ذاك إلى عدة أسباب. وفقت والدتي للإشارة إلى أغلبها، عدا أن يكون من بينها .. سوءُ الحظ!

من النقاطِ التي (رغبتُ) أن أزيلَ حيرةَ والدتي حولها، ما أشارت إليه، من عدم فهمها لانتفاء رد المؤسسة الدينية العنيفِ والمتوقع، ضد تشريع إبطال تجارة الرقيقِ في المملكة. كان يمكنني أن أقول لها - لولا أن رغبةَ الاستماعِ للتفاصيل الجانبيةِ لليلتها الأولى في مخدع عمِّها وانطباعاتها عن ذاك اللقاء - أن التشريع الإسلامي حدَّد قواعدَ لتلكَ التجارةِ ومن ذلك:

أن العبيدَ بصفةٍ عامةٍ يحملون هذه الصفة، عندما يقعون أسرى حربٍ وقعت بين المسلمين و(الكفار). وتصبحُ الأنثى عبدةً عندما تلدها أمة مملوكة ويكون والدُها عبداً. وتصبح الأنثى كذلك عبدةً عندما تُؤخذ

شراءً من أسواق الرقيق عن طريق النَّخاسين سواء أكانت مسلمةً أم كتابية!

الحكومةُ السعوديةُ في أواخر عهد الملكِ سعود، قامت - بكلِّ بساطةٍ - بسد منافذ أسواقِ الرقيقِ، ومنعتْ (استيرادَهم) وطلبتْ من كلِّ من (يملك) رقيقاً، ذكراً كان أم أنثى، أن يُقدم (صك) ملكيته لرقيقهِ؛ حتى يتم تعويضه عن (أملاكه). ومن لم يقم بهذا خلال مهلةٍ معينةٍ، فإنَّ رقيقه يصبحون أحراراً بصورةٍ آلية... وبدون تعويضٍ. وهكذا قام (مُلاك) العبيدِ في المملكة بالتخلُّص من (أملاكِهم) البشرية قبل فوات الأوان. وهكذا أيضاً أرضتْ القيادةُ السعودية في أثناء حكم الملك سعود (ضميرَها)، وأرضتْ العالم الخارجيَّ، الذي يَدين مثل هذه الممارسات، التي (كان) يشارك فيها سابقاً بأشكال مختلفة، وأرضت كذلك المؤسسة الدينيةَ التي أفاقتْ على وضع على الأرض يقول: بألَّا سوق مُتاحاً لبيع الرقيق، وليس هناك (غبي) يختار الخسارة على الربحِ، لو أنه رفضَ قرارَ حكومتِهِ الصارمَ!

في هذه اللحظةِ التي أخرجت فيها صيغ إدراكي الداخلي، آخر الأفكار المحاولة ذاتياً تفسير ما جرى لوالدي بعد مرورِ أكثرَ من أربعين عاماً على الأحداث التي أدت إلى (خلعه) من حكم المملكة العربية السعودية؛ انتبهتُ إلى تشكُّل وضعٍ (طريفٍ) حولي: فوالدتي انتهتْ من مكالمتها مع المشرف على قصرها في الطائف منذ فترة ليست بالقصيرةِ، وانتظرتْ - بدون جدوى - مبادرةً مني لمواصلة عمليتي البوحِ والاستماع، لكن ابنها استمر ساهماً شارد الذهن؛ يتحدث مع نفسه، بدون أن يعير انتباهاً لكنزهِ الثمينِ، الذي لن تتكرر فرصُ ظهورهِ للعيانِ مرةً أخرى... إلا بمعجزة!

وكأنه الحجرُ في حوض مياه الأفكار الراكد.. جاء سؤالها:

"أنت تقعُ، الآنَ، تحت وطأة كلمات: لو.. وحبذا.. وربما.. أليس كذلك"؟

كان السؤالُ منطقياً. وصمتي الغريب - والمريب - يلفُّ المكانَ الذي كان، قبلَ دقائق، مليئاً بحماس استرجاع وتفسير أحداثِ الماضي. كان هذا السؤال محاولةً من (بلوشيتي) لإخراجي من أسر اعتقاداتنا الدائمة، بأن التاريخَ يمكن تشكيله مرة أخرى، لو أن صانعيه الأسبقين قد استمعوا لنا. ولنصائحنا التي تتأخر دائماً وكثيراً!

أجبتها:

"كنتُ أفكرِ، فقط، فيما (لو) أن الأخطاءَ التي قادتْ إلى النتائج، التي تؤثرُ عليَّ وعليك الآن. وجعلتْ من (الناصرية) القديمة الجميلةَ، مكاناً تتخذه الآن، كملاذ آمن حيواناتٌ مثل الجرذان. أكان بالامكان أن يتفاداها الملكُ العربيُّ، الذي احتضنته - وهو شيخٌ كبيرٌ - بلاد الإغريقِ، في الوقت الذي تَخلَّتْ عنه بلادهُ التي حارب مع أبيه لتوحيدِها، وقضى رَدَحاً من عمره ساعياً - كمجتهد يُخطئُ ويصُيب - لرُقيِّها ومَنَعَتِها"؟!

ابتسامةٌ هازئةٌ تستحضرُها والدتي، وهي تعلق على قوليَ السابقِ:

"ألم تؤكدْ، ويؤكد غيرك: أن المكتوبَ على الجبين لابد أن تراه العينُ؟!

أليسَ كلُّ شيء بقدَرٍ ولا مفرَّ منه، مهما عَمِلَ وحَرَصَ الهاربُ من سطوتِه وجبْريته؟ مالي أراك تتراجعُ عن اعتقاداتكِ الفكريةِ السابقةِ؟!

لا.. لن تستطيعَ ولن يستطيعَ غيرك عملَ شيء. إني أنصحُكَ أن تُشاطرني في هذه اللحظات ـ بالذات ـ اعتقاداتي في القدرْ: تلك أمةٌ كان لها ظروفُها الاجتماعيةُ والسياسيةُ والاقتصاديةُ التي تعامل معها النُّبهاء الفطنون المجربون، ومن جانب آخر فشلوا في خلق علاقة فهم مع تلك الظروف، من أعتقد أن طيبة القلب وصفاء الطوية وهامشية

المعرفة، كفيلة بردِّ نوائبِ الزمنِ وتقلُّباته. وتصبح الأمورُ غايةً في السوء إن كان الغافل (سيئ الحظ) ملِكاً أو قائداً أو نقيباً، له أتباعٌ وأشياعٌ.. وأملاك".

الملعبُ الذي تلعبُ فيه والدتي، عندما تتحدثُ عن القدر، لا أرغبُ في أن ألعبَ فيه. ولديَّ اعتقاد أنني سأهزمُ إن لاعبتها تلك اللعبة غير المفهومة. ولدي اعتقاد كذلك بأن كلَّ من يتحدثُ عن القضاءِ والقدرِ غيرُ مقنعٍ لنفسه، فكيف لغيره؟!

جميع المؤمنين - ومنهم والدتي - يعتقدون بأن الله عارفٌ ومطلع على عباده وأعمالهم. لكنَّهم يختلفون في جبريَّةِ قضائِه وقدره؛ لأن بعضَهم - ومنهم والدتي - ينزهون الله عن ظُلم من أجبروا على فعلِ ما لا يستطيعون - كمُلزمين - عمل سواه. ويرى هذا الفريقُ أن صفةَ العدلِ الإلهيِّ تستلزمُ ألّا يُحاسبَ أحدٌ إلا على ما جنت يداه. والعباد - في رأيهم - وحدَهُمْ، خالقون لأفعالهم ومسؤولون عنها يوم الحساب!

لقد عرفتُ معنى الابتسامةِ الهازئةِ لوالدتي. وسأهزمُ تلك النوعيةَ من الابتساماتِ عندما أعود بصاحبتها إلى ما أريدُ .. إلى مزيدٍ من البوح والاستماع .. والأسئلة:

"أمي .. كيف هي قصةُ الوجود المفاجئِ لـ(مريمَ الإماراتية) في القصر الأحمر؟ كنتُ أعتقدُ أنها أرسلت إلى أحد قصور الأثرياءِ في (جدة) كما ذكرت سابقاً... إن لم تخُنِّي الذاكرةُ"؟

ضمَّتْ السيدةُ السبعينيةُ رداءها الصيفي على صدرها بقوة، ثم رفعت، للحظات، رأسها إلى الأعلى في حركةٍ تكررت منها، سابقاً، عدة مرات، وكأنها تطلب عوناً غامضاً لاستدعاء تداعيات أزمنةٍ مضت.. ثم قالت:

"شاهدت (مريم الإماراتية) ولآخرِ مرةٍ قبل سويعات من دخول قافلة العبودية - التي كنت وإياها من أندر بضائِعها ونفائِسها البشرية - إلى

الهفوف. كان كثيرٌ من مشرفي القافلة، يعرفون أن مجموعةً من الإماء ستبقيْن في الإحساء لأيام غير محدودة، وأخريات سيرسلهن (ابن دايل) إلى الحجازِ... حيثُ أسيادُهن!

أنا كنتُ (زعيمة) من بقي في الإحساء. أما مريمُ الإماراتيةُ وكثيراتٌ معها، فقد اصطحبهن تاجرُ النِّخاسةِ (المعروفِ) إلى جدَّة.

بعد طوفان دموعنا، المتبوعِ والمسبوقِ، بالعناقِ الحار الدالِّ على الفقد، قالت لي أختي الإماراتية: إنها علمتْ قبيل وصولها إلى جدة بأيام، أن (عبد الله السليمان الحمدان) وزير مالية الملك (عبد العزيز)... هو سيدُها الجديدُ. إلا أن هذا السيدَ عندما شاهد صِبا وفطنةِ (العبدة) العربيةِ، اعتقد أنه من الأفضل (إعادةُ) إرسالها (كهديةٍ) إلى وليِّ العهد (= الأمير سعود) مع مجموعة هدايا (أخرى) من ضمنها سجاد تركي وتحفٌ مغربيةٌ. كانت مريم، والهدايا التي رافقتها من جدة إلى الرياض، عربوناً سبقته عرابين كثيرة، من الوزير إلى ولي العهد الذي كان يراهنُ (ابنُ سليمان) على أن يستمرَّ في عهده القادم، كوزير (أول) مؤثر في صناعةِ القرارِ السياسي الداخلي السعودي. كان (الوزير)، كما تقول مريم الإماراتية ونقلاً عن أحاديث في قصر الرجل النشط المقرب جداً من (الشيوخ)؛ لا ينظرُ بكثيرٍ من الرضا لفتور علاقاته مع الأمير (فيصل)، الذي كان ينوب عن والدِه الملك في إدارة الشؤون الخارجية إلى جانب الإشراف على الحجازِ. نائبُ الملك في الحجاز لم يكن يحبِّذ طريقةَ التعاملِ المالي التى اتبعها (ابن سليمان) مع والده. وكان يعتقدُ أن إدارة (ابن سليمان) للمال القليل، والمال المنصرفِ الكثيرِ، ستؤدي إلى رضا (الشيوخ) في الرياض. ولكنها ستؤدي آجلاً إلى إفلاسِ الدولةِ السعودية الفقيرة أصلاً. ولن يفيد في رأي نائب الملك الإلحاح على شركات استخراج البترول وتصديره، أن ترسل المزيد من المال للخزينة السعودية

التي يديرها (ابن سليمان). لأنه سيعيد صرف هذا المال على بناء القصور و(الشرهات)[1]؛ وستكون نتيجة هذه التصرفات الوقوع أكثرَ فأكثرَ تحت هيمنةِ ونفوذ شركات البترول الأجنبية العاملة في المملكة. والتي ستكون أيام المواجهة المحاسبية المستقبلية معها، عاصفة وآتية لا محالة.

...أخبرْني: هل ما قالته والدتك (أم فواز) عن سوء العلاقة بين (ابن سليمان) و (فيصل)... صحيحٌ؟ وهل يمكن أن يستوعبَ عقلُ (أختي) كل تلك المعلومات التي هي من خصائصِ العارفين بخبايا القصور، وليس لأمةٍ هي على هامش الأحداث؟! ثم منْ هو (ابنُ سليمان).. لا كما كنا نسمعُ عنه في القصور، بل كما سمعتَ وقرأتَ عنه أنت، يا من تقولُ إنك لم تتركْ شاردةً ولا واردةً من المعلومات، عن الشخصياتِ المفترضِ أنهم شاركوا في صنع التاريخ، الذي أطلَّتْ عليه والدتك من كوةٍ صغيرة، لم يسمحْ مجالها النظري المحدود، إلا برؤية ضيقة له... ولصناعه"؟

أجبتها، وأنا فخور، مرة أخرى، بلعبِ دورِ الأستاذ العارفِ بخبايا الأمور، ووقائع العصور:

"ما قالتْه والدتي (أم فواز) صحيحٌ - على الأقل - الجانب الخاص بـ (الوزير). أهمية شخصية (ابن سليمان) في عهد الملك عبد العزيز، لم تكنْ محلَّ جدالٍ وشك. الرجل كان نفوذُه كبيراً على المؤسس، وعلى الإدارةِ السعودية الناشئةِ، قليلةِ الخبرةِ والمعرفةِ بأساليب إدارة الأزمات.. وخاصة أزماتِ المال.

الوزيرُ (ابن سليمان) سطعَ نجمُه مع تباشير اكتشاف النفط في باطن الأرض السعودية، لكن تاريخَ التحاقه بالعملِ الحكوميِّ كان سابقاً لهذا

---

(1) الشرهة: تعني المساعدة المالية الهادفة ـ أحياناً ـ إلى كسب الولاءات والتحالفات.

بكثير. ففي سنة 1338هـ[1] دخل (ابن سليمان)، ولأول مرة، في خدمة الملك عبد العزيز ككاتب ضمن كُتاب الديوان الملكي الكثيرين. وبعد ذلك بسبع سنين تولى الرجل الـمُثابر وكالةَ الماليةِ. وما هي إلا سنوات قليلة أخرى، حتى تولى (ابن عنيزة) النجيبُ أولَ وزارة ..حتى قبل التشكيلِ الوزاري الأول. ولهذا سمي ابن سليمان (الوزير)؛ لأنها صفة واحدة لرجل واحد... هو من كان نصيب والدتي (أم فواز) أن تكون أمتهُ، لولا أنه عَرَف بذكائهِ الفطريِّ المُلهم له دائماً، أن الاستمتاع كثيراً بملذات الحياة، يُبعد الإنسان عن تحقيق الأحلام العظيمة وسيادة الكثرة من الناس!

وتقول الرواياتُ التاريخيةُ التي أشكُّ في كثيرٍ منها: إن ابن سليمان هو من أولِ من بشّرَ الملكَ عبد العزيز، باكتشافِ الثروةِ النفطيةِ في بلاده الفقيرة المعزولة. لكنني أشك في هذا؛ لأن ابن سليمان لم تأته تلك البشائر دفعة واحدة من السماء وبشكل فُجائي. بل كان للرجل معرفة أكيدة بأن شيئاً عظيماً (ما) تختزنه الأرض السعودية. وأن باب الأمل سيُفتح على عهود من الرخاء. ولا بأس قبل ذلك من نزف مالٍ هنا، وسفه في الصرف هناك. على شرط أن يُشرف (الوزير) على هذا الشيء الـ (ما) وعلى النزف والسفه معاً!

هنا أرجو أن يتّسعَ صدرك – رعاك الله – للابن المدّعي المعرفة، ليزيد دقائق أخرى على وقت الثرثرة الذي منحته إياه كلفتة مجاملة؛ سأقوم ـ رعاك الله ـ بتوضيح سريعٍ، لتاريخ العلاقة بين أهم الأحداثِ في جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام، وبين ذائع الصيت... الوزير ابن سليمان:

في صحيفة (التايمز) الإنجليزية، وبالتحديد في الملحق الاقتصادي

(1) الموافق لعام 1918م.

فيها، الذي صدر في أواسط ربيع عام 1343هـ[1]، لفت انتباه القُراء عنوانٌ يقول: (امتياز تنقيب عن النفط في الخليج) وتحت هذا العنوان، كان هناك تقرير صحفي عن حصولِ شركةِ (إيسترن آند جنرال سنديكت) على حق امتياز التنقيب عن الذهبِ الأسودِ في منطقة الإحساء التابعة لحكم سلطان نجد. منطقة التنقيب المعنية، مساحتها أربعة آلاف ميل من اليابسة، وثلاث مئة ميل داخل وعلى طول الساحل السعودي الشرقيّ. وينص العقدُ، كذلك، على جني خزينة (ابن سعود) لربع نصفِ الأرباحِ المحتملةِ من إنتاجِ البترولِ. وفي تعليقٍ جانبيٍّ على الخبر، قال الصحافي الذي أعدَّ أجزاء التقرير: إن حصولَ (ابن سعود) زعيم الوهابيين على المال، يمكن أن يؤثر إيجاباً في سياسة التشدُّد الوهابيِّ المنتشرة هناك!

الشركة المذكورة (سيئة الحظ!!) جنسيتها إنجليزية ومسجلة في لندن. وتقول الذاكرة التاريخية: إن الشخص الذي تفاوض مع الحكومة السعودية للحصول على الامتياز، كان مُغامراً نيوزيلاندياً اسمه (فرانك هولمز).

مدة العقد – الذي فشل – سنتان، يترك بعدها الخيار للطرفين، إما التجديد وإما إلغاء الاتفاقيةِ برُمَّتها.

بعد ذلك طلبت الشركةُ الإنجليزيةُ تجديدَ العقدِ؛ لأن ظروفَ التنقيب كانت غايةً في السوء. وتم التجديدُ لها فعلاً ليس لمرة... بل لمرتين. ولكنَ النتيجةَ كانتْ أصفاراً من الفشل، ظهر بشكل واضح عندما تخلفت الشركة الإنجليزيةُ عن دفعِ مبالغ الامتياز السنوية، التي كان بالإمكان أن تنقذ الخزينة السعودية الخاوية حينها.

...ثم تمرُّ السنواتُ، وتزداد حالةُ البؤسِ والعوزِ في الجزيرة العربية، ويفكر الملكُ عبد العزيز، مرةً أخرى، بأن يعاد فتحُ باب

(1) الموافق لعام 1923م.

التفاوض مع الشركات الأجنبية، إلا أنه يُصدم دائماً بمعارضةٍ قوية من قبل (الإخوان)[1]، عندما كان يفاتح أطياف مراكز القوى المختلفة داخل المجتمع السعوديِّ برغبته تلك. وأخيراً ولأن الأزمة المالية العالمية التي ألقت بظلالها على المملكة كانت مؤثرة وموجعة، اتخذ الملك قراره تحت تأثير أحاديث (ابن سليمان) المنبهة إلى ضرورة إعادة الكَرَّة مرة أخرى، مع شركاتٍ أجنبية غيرِ تلك الشركة البائسة، لعل وعسى أن يستفيقَ الجميعُ على حقيقة أن المملكة قادرةٌ على إنتاج وتصدير، براميل - ولو قليلةً ـ من هذا السائل اللزج، الذي يسمعُ البلاطُ السعوديُّ أنه يعود بفائدةٍ جمة على البلدانِ المُستخرج منها!

وتقول الروايات التاريخية - والدتي - إن ابن سليمان لم يكن هو، وحده، الذي (مرَّر) تلك النصائح، بل كان مرفوداً بما كان يسمعه من تجار ووجهاء الحجازِ، الذين أرادوا من (الوزير) نقل آرائهم، بضرورة الانفتاح الاقتصادي على العالم الخارجيّ، في محاولةٍ لجذب شركاتٍ عالمية مشهورةٍ، للتنقيب عن الثروات المعدنية والبترولية في أراضي المملكة الواسعة.

كان وُجَهاء الحجاز يريدون إيصال رسالتهم تلك إلى الملك مباشرةً، إن كانتْ هناك عراقيل معينةٌ تمنع رجال البلاط المتعددي الجنسيات والتوجهات، من تبليغ عاهلهم، بحقيقة أن بلاده ليس في مقدورها، بعد الآن، الاتكال على مزيدٍ من الضرائب المرهقة المُتتابع فرضُها على تجار الحجاز - المكابدين أصلاً من تجمع عوامل عديدة محبطة لرواج تجارتهم - ولا على مداخيل الحجاج المتناقصين سنةً بعد

(1) الإخوان: جماعات متشددة دينياً. ترجع أصولها لعدة قبائل. تحالفت مع الملك عبد العزيز في فترة التأسيس والتوحيد الأولى للمملكة.. ثم حدث خلاف بين الطرفين وصل إلى حد الاقتتال والاصطدام الحربي. انتهت تلك المعارك بانتصار عبد العزيز وذبول فكرة الإخوان.

أخرى؛ بسبب الأزمة الاقتصاديةِ العالمية، والمخاطرِ المتزايدةِ التي تحف بطرقِ المواصلات الدوليةِ.

...وتضيف الروايات: إن ابن سليمان وتكتل التجار والوجهاء في الحجاز، كانوا ينصتون، بدورهم، لرشقات نوعيةٍ من النصائح، يطلقها المستشرقون الغربيون الذين (أظهروا) إسلامهم ويحيطون بالملك عبد العزيز، ومن أشهرهم المدعو (هاري جون فيلبي) والمعروف في بلادنا بـ (عبد الله فيلبي). هذا المستشرقُ الذي تحوم حوله شبهاتٌ قويةٌ حولَ مقصده الأول في الالتحاق بالملك عبد العزيز، أشار في كثير من كتبه إلى أنه بدأ في البحث عن مخرج اقتصادي (لبلاده) الجديدة، منذ أن وصل إلى لندن في رحلة دعائية لكتابه الذي ألفه عن الرُّبْعِ الخالي. وفي العاصمة البريطانية - وكما يقول فيلبي - التقاء من يحسب نفسه يمثل الجانب السعودي، بممثلي إحدى الشركات الأمريكية الراغبة في التنقيب عن البترول في الأراضي السعودية البكرِ. حدثَ هذا في صيف 1352هـ[1]. ومنذ ذلك الحين وحتى صيف العام التالي، جرتْ مفاوضاتٌ شاقةٌ بين الطرفين السعودي والأمريكي ممثلاً في شركة زيت (ستاندارد ولاية كاليفورنيا) وأثمرت تلك المفاوضات العسيرة، التي تخللتها مُطالبات من كلا الطرفين - مالية من الجانب السعودي، ورغبة في توسع حدود الامتياز ومدة العقد من الجانب الأمريكي - التوصلَ إلى الاتفاقيةِ التاريخيةِ المعروفة، التي وقَّعها نيابة عن الملك (عبد العزيز)، وزير ماليته الشهير (ابن سليمان) وعن الجانب الأمريكي السيد (هاملتون). ونصت الاتفاقيةُ على إعطاءِ حقِ امتياز استثمارِ البترول في القسمِ الشرقي من المملكة السعودية ومستخرجاته، للشركة الأمريكية العملاقة، مقابلَ مبالغ مالية مجزيةٍ نسبياً للبلد البترولي، ومشاركة

(1) الموافق لعام 1932م.

سعودية، بنسبة معينة، في أرباح البيع المستقبليّ للبترول، على أن تكون مدة الامتياز ستين عاماً.

احتاج الأمر يا (أمي) سنتين منذُ المرسومِ الملكي للشروع في التنقيب. لسماع البُشرى عن (بُركان) النفط النائم داخل الأراضي السعودية. زفَّ هذه الأخبار الطيبة الوزيرُ ابن سليمان نفسه في عام 1358هـ[1]، بعد أن أخبره الأمريكان بهذا قبل وقت طويل من يوم السعد ذاك. ولم تكن هذه آخر بشائر ابن سليمان، فقد أثلج صدر مليكه والرعية عندما أخبر الجميع، بعد سنة من أم البشائر السابقة، أن الشحنةَ الأولى من البترول السعودي، قد تمددت في صهاريج ناقلة بترول أمريكية، أبحرت من ميناء (رأس تنورة) إلى الأسواق العالمية .

تلك الشحنةُ التي عَلِمَ بها (الوزير) قبل أي شخص في المملكة، كانت في الحقيقة إعلاناً عن أسرع وأكبر تغيُّرٍ شهدتْه الجزيرةُ العربيةُ، ليس في الجانب غير المادي كما أحدثه الدين الإسلامي في أتباعه هنا، بل في الجانب المادي أيضاً. والإعلانُ نفسه كان تعريفاً اقتصادياً مدوياً بالدولة الجديدة. وإعلاناً بأن هذه الدولةَ ستؤثّر في مسارِ الأحداث العالمية عبر بوابة الاقتصاد. كما سيؤثر العالمُ الخارجيُّ، بمعتقداتِه وأفكاره وتداعيات أحداثه، في البلادِ التي عزلتْها عن العالمِ الخارجيِّ عواملُ تاريخيةٌ متعددةٌ... ولعقودٍ طويلةٍ.

... تبقى مسألةُ تحفُظِكِ - رعاكِ الله - على قدرة والدتي (أم فواز) التي عرفْتِها ولأول مرة في البريمي باسم (مريم الإماراتية)؛ على تجميع أجزاء المعلومات المختلفةِ، وإخراجها بالشكل الذي قدمته به لأسماعك تلك الأم الطيبة؛ لتوضيح مسار العلاقات بين نائب الملك في الحجاز وبين الوزير الأول. هنا يمكنني أن أقول - بثقة - إن أختك،

(1) الموافق لعام 1938م.

فاتها سماعُ الأهمِّ، وهي (تلتقطُ) أخبارَ القصورِ والحكام. فهي ... كانت محظوظة بالعيشِ - وإن لفترةٍ بسيطةٍ - في جدة، حيث يمكنُ ... يلمسَ الإنسانُ فروقاً في التركيبةِ الاجتماعيةِ والثقافيةِ المنفتحةِ على ... هناك، وبين مثيلتها المختلفة في نجدٍ، والتي لابد أنك لمست بعضَ ... خصائصِها خلالَ فترةِ عيشك في (القصر الأحمر)، أقول إذا كانتْ ... حظيتْ بكلِّ ذلك فإنها لم تتبينْ أن الأخبار المتناثرة والإشاعاتِ ... (جدة) التي تغذيها ثرثرةُ الحجازيين غير المتحفظة عادةً، بالإضافةِ ... في قصرِ (ابن سليمان)، ومحاولة الاعتقاد بكمال فهمها لما كان يجري حولها من تحليلات مظللة؛ كل ذلك حجب عن والدتي (أم فواز) ... الخلافِ الفيصليِّ... السليمانيِّ!

...جدة، بوابة الحجاز المائيةُ على العالم الخارجي إبَّانَ حكم الملك عبد العزيز، لم تكن مدينةً عاديةً بالمقياس السعودي. فعلى نواصي أزقتها وشوارعها، تنتصب البيوتُ الحجازيةُ التي تضُمُّ جدرانها الداخلية أسراً (جداوية) ذاتَ عراقةٍ تجاريةٍ، إلى جانب امتلاكِها لتربةٍ صالحةٍ بالإمكان أن تنمو فيها حركاتٌ سياسيةٌ ذاتُ صبغاتٍ متنوعة... لماذا؟ لأن نزعاتِ التحررِ العربية لم تكن بعيدةً عنها. فشريفُها السابقُ الذي طرده السعوديون من الحجازِ، والذي كان يتنقل بين جدة ومكة والمدينة، هو من أعلنَ، بنفسه، قيام الثورة العربية ذاتِ الصبغة القومية التحررية. وهو من جعل الحجاز بداية انطلاق ثورته التي هدفت - من ضمن ما هدفت - لاقتلاعِ الوجود العثمانيّ من بلاد العرب المشرقيةِ كلِّها. فكانت النتيجة طردَ العثمانيين والإتيان بالغربيين، مع بذر بذور هبَّاتٍ ثوريةٍ محليةٍ، راشدة حيناً، ومحبطة للآمال أحياناً كثيرةً أخرى.

...عندما استولى الملكُ عبد العزيز على الحجازِ بعدَ معاركَ وحصارٍ مع مدنها، وذلك على مدى سنتين، بداية من 1344هـ وحتى

1346هـ[1]، فإنه لم يجد رعية منعزلين يفتقدون لأي خلفية سياسيةٍ كما هو الحال في نجد وعسير. ولم تكن كذلك البلادُ الحجازيةُ تشكو، من توابع الاختلافِ المذهبيِّ وانقساماته، كما هو الحالُ في الإحساء ومدنِ القطيف. بل وجد هناك تكتلاتٍ من العائلات والوجهاء أصحاب المذهب الواحدِ - أو المذاهب المتعايشة بسلامٍ - والذين يتحدثون بلا مللٍ عن (الملكية الدستورية) والانتخابات والبرلمان!

وبالرغم من أن تلك المصطلحات لم تكن واضحةً معالمها كلَّ الوضوح، في ذهن النخبة الحجازية، بحكم أنها إما جاءت تحت إلحاح ظروف قدوم جيوش الإخوان المُطبقين على الشريف (حسين) وابنه الشريف (علي)، أو أنها مجرد مخرج لحالة الخوف التي اعترت الحجاز من سقوط حكمٍ أَلِفوه وحكم غريب قادم لم يعرفوه؛ بالرغم من كل هذا، فالحجاز وإن أعطى للملك عبد العزيز ثقلاً دينياً لمملكته الناشئة، إلا أنه ظل هماً للقائد المؤسس ولأبنائه، في كيفية التعامل مع تلك الجماعاتِ الحجازيةِ المثقفةِ سياسياً.. بمقياسِ الزمن الماضي. لهذا اختار (الملك عبد العزيز) ابنه (فيصل) نائباً له في الحجاز؛ لأن هذا الابن الثاني، والمؤهل لولاية عهد أخيه (سعود)، يمتلك - في رأي والده - عقلاً مُنفتحاً على التياراتِ التي كانت تتحركُ خفْيةً، وفي بعض الأوقات علانيةً... في الحجاز. وفي رأي (الملك عبد العزيز) أن فيصلَ، بما يمتلكه من صفات الصبر وطول الأناة ومحاولات كسْب الوقت وفن التعامل مع الممكن، بالإضافة إلى بعض الصفات الشخصية الأخرى؛ قادرٌ على كسب ود الحجازيين، الذين سيرحبون بمثلِ هذه (النيابةِ) النوعيةِ، والممثلةِ للقيادة الأكثر ميلاً للمحافظةِ والأدلجةِ من كلِّ أنواع القياداتِ في العالم.

(1) الموافق لعامي 1924م. 1926م.

...وفي رأيي الشخصي، إن (فيصل) قد شعر بأن الوزير (ابن سليمان)، مع وجوده المكثف في جدة، يخطط، وعهد أبيه يتجه للغروب، لبناء جسورِ ثقةٍ بين أعيانِ ووجهاء الحجازِ، وبين وليّ العهدِ الذي يفضل البقاءَ في نجدٍ. والذي يرى أيضاً أن مادةَ العصبيةِ المساندة لحكم أسرته، إنما هي في الموطن الأول للدولة السعودية. وأن من الحكمة عدمَ التخلي عن سوادِ العصبية ومادتها في نجدٍ، من أجل عيون ثُلة من الذين يحسبون أنفسهم الأكثر ثقافةً وعلماً من (الشروق)[1] النجديين.

...(ابنُ سليمان) كان ينصحُ وليَّ العهد بألّا يترك (للآخرين) ملعب الحجاز، وما يمثله من ثقل ديني وحضاري، وأن من الأجدى إظهارَ الشوقِ للتعاملِ مع الفاعليات الحجازيةِ، وإخفاء الميل الحقيقيِّ - والمنطقيّ - للمناطق التي شهدت صولات وجولات (أهل العوجاء)[2].

(فيصل)، بذكائه الحادِّ، أدرك في وقت مبكرٍ، أن (الوزيرَ) يحاولُ أن يلعبَ لُعبةً خطرةً في ميدان، صمم نائب الملك في الحجاز، على جعْله ميدانهَ الأوحدَ، والذي يمكن أن يؤسسَ منه، وعليه، تطلعاته القادمة في الحكم. خاصةً وهو يعرفُ كمية المشاكلِ المتنوعةِ التي ستعترضُ أخاه الأكبرَ في المستقبل. ويعرفُ أيضاً أن (أبا فهد) الطيبَ القلبِ، الذي يحاول، مُتعثراً، أن يقلد والده في ظروفٍ تختلفُ عن التي واجهها الملكُ المؤسس، لن يستطيع التوفيقَ بين تلك الكميةِ من المتناقضاتِ والخياراتِ الصعبة، ولن يفاجأ أحدٌ، حينها، عندما (تُعجل)

(1) الشروق: كلمة يتداولها أهل الحجاز المهاجرون إليها من البلاد الإسلامية البعيدة. ويعنون بكلمتهم تلك. سكان الشرق من بلادهم الجديدة. وخاصة النجديين.

(2) أهل العوجاء: كلمة رددها مؤسس الدولة السعودية الثانية. وتعني كل محب ومتعاون ومشارك في تأسيس الدولة السعودية آنذاك. تلك الدولة التي هيأت بشكل غير مباشر لبزوغ شمس الدولة السعودية الحديثة.

العواملُ السابقةُ والمستجدةُ بسقوط التفاحة شديدة النضوج، في حجر من يعرف قيمتَها، ويعرفُ كذلك كيف يصونُ شجرتَها المعطاءَ*.

مع أني لمست رِضا من والدتي على اجتهاداتي في تجميع تلك المتداخلات من أخبارِ أعلامِ بلادنا السالفين، وللإيجاز - المُخلُ بعضَ الشيء - لقصة اكتشاف البترولِ في المملكةِ. ولمحاولتي الأخرى في فهمِ علاقةِ أسماءٍ معينةٍ، بـ(حدث) القرن العشرين ذي الأبعاد والتبعات التي لا تزال إرهاصاتها تترى حتى الآن. مع كل حالات الرضا تلك، لمست، أيضاً، من والدتي، ضِيقاً من إمعاني في ذكر سيرة (ابن سليمان) وكذلك للإشارات المتكررة، لأُناسٍ معينين على أنهم... سكان الحجازِ الأصليون!

لقد قرأتُ - من خلال المعايشةِ - ماذا يدور في ذهنها كلما مرَّتْ أسماءٌ وصفاتٌ وأماكن معينةٌ؛ أنها مثل كثيرين في الناصرية والذين يُلقون أثقالاً من الملامةِ على الوزيرِ وعلى المستشارين الآخرين للملكِ (عبد العزيز)، الذي (أورثهم) لابنه ولي العهد. فهؤلاء، ومنهم السعوديُّ (ابن سليمان) والسوريُّ (يوسف ياسين) والمصريُّ (حافظ وهبة) والفلسطينيُّ (رشدي ملحس) والآخرون السعوديون، من ضمنِ الدائرةِ الثانيةِ للمستشارين من أمثالِ (عبد الله النفيسي) و(عبد العزيز الزيد) و(عبد الله الفوزان) و(عبد الرحمن القصيبي) و (حمزة غوث) ـ كل هؤلاء في رأي غالبيةِ سكانِ الناصريةِ القدماء تخلُّوا طوعاً أو خوفاً عن (الملكِ سعود)، بعد أن أصبحَ ملكاً يحتاجُ لمشورتهم ونصائِحِهم... كما كانوا يفعلون مع والده. كان الرجل يحتاجُ لمداخلاتهم واعتراضاتِهم الكثيرةِ، كالتي كانت تحدثُ بين مليكهم المؤسسِ وبينهم، والهادفةِ لتحقيقِ الصالحِ العام، والمنتهية دائماً باقتناعِ أحدِ الأطرافِ، عبرَ أحاديثَ شُورية قد تعتريها الحدَّةُ؛ لصواب وجهةِ نظرِ هذا الطرفِ صاحبِ الـحُجَّة القوية... أو ذاكَ.

...والدتي، مثلها مثل الآخرين في الناصرية، تعتقدُ أن انسحابَ

هؤلاء (العُقلاء) من حياة الملكِ سعود، لصالح مستشارين خُبثاء جهلة، فاسدي الذمة والتوجُّه، مثل المملوك (جوهر السعود) والأعرابي (عيد بن سالم) الذي قفز من مأمور (كراج)[1] السياراتِ الملكيةِ إلى أن أصبحَ مُرشحاً في وقتٍ من أوقات الأزمنة المتأخرةِ (الحزينة) للملك سعود، لرئاسة مجلسِ الوزراء بدلاً من المحنك أخيه (فيصل). انسحابُ هؤلاء وقدومُ طاقَمِ البُدلاء (التنابلة) الجهلة المنافقين، قد عجَّل، وبصورة سريعةٍ، ومذهلة، بسقوط عهدٍ وحكمِ الملك سعود.. سيئ الحظ ـ على رأي والدتي!!

لهذا لم تستسغْ والدتي ذكري لابن سليمان في العهد (العزيزي) وكأنه (فلتة) زمانه؛ لأن الوزير الأول عندما جدَّ الجدُّ وتعقَّدت أمورُ الدولةِ وزادت ضبابية الخيارات القيادية، فر إلى تجارته وشؤونه العائلية الخاصة، تاركاً - ومعه كثيرون - (صاحب) الناصريةِ يغرقُ في مستنقعِ حُكمِ بلادٍ مثل البلاد السعودية.

مكمنُ ضيقِ والدتي الآخر، هو إطلاقي اسمَ (الحجازيين) على نُخب السكان المقيمين في حيِّزٍ من أرضِ الجزيرةِ العربية، إبّان ضمِّ الملك عبد العزيز لتلك الأراضي لتصبحَ من ضمن مملكتهِ واسعةِ المساحة.

القادمةُ من أرض بلوشستان، لا تؤمن بأن تلك النخبَ تمثل الحجاز والحجازيين، عندما يتطرقُ الحديثُ إلى رسم أشكالِ العلاقةِ بين المركز والأطرافِ في مملكة (آل سعود). هذه الوضعيةُ ليستْ استثنائيةً، فوالدتي ـ حَسب اعتقادِها ـ تشعرُ أنَّها أكثرُ حُباً... لهذه البلاد، من (بعض) مواطنيها! لكنَّ هذا الشعور لا يعطيها الحقَّ، وهي الآتيةُ من البعيد، في التدخل عندما يتعلقُ الأمرُ بمناقشةِ الوضعِ السياسيِّ الداخليِّ

(1) كراج أو جراح تعني: مرآب سيارات.

السعودي، وما هو مفروضٌ أن يكونَ عليه. تصورها لحلِّ هذه الإشكاليَّة يقول: إنها وهي البلوشية الأصل المكتسبة للجنسية السعودية، عليها حقوقٌ ولها واجباتٌ من يحمل الهوية السعودية.. على ألَّا تتجاوز المطالبة بالحقوق، الخطوطَ الحمراءَ والخضراءَ التي يرسمها - فقط - المواطنون المتحدرون أصلاً وعرقاً وجذوراً، من هذه الأرض ذات الثقافة المغايرة لما جلبه القادمون. هي - حَسب هذا المنظور - تعتقدُ أن الحجازيين الحقيقيين، هم القبائلُ وحضرُ المدنِ الحجازيةِ الذين يرجِعون أنسابهم إلى الجدِّ الخامِسِ أو السادسِ، وحتى هذا الجد عليه أن يكون مولوداً ومترعرعاً في النطاق الجغرافي الحجازي. أما هؤلاء القادمون ـ مثلها - على ظهور السفن، والجمالِ، والبغالِ، من أطرافِ وأواسطِ آسيا وأفريقيا، والمنجبون ذُرياتهم، بعد قدومهم وأزواجهم للحجاز، فأهلاً وسهلاً بهم كمواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات كاملة ... عدا أن يرسموا شكلَ وتوجهات الدولة السعودية.

كان الملكُ عبدُ العزيز محقاً - في رأي والدتي - في التعاملِ الحذرِ مع هؤلاء. ووالدتي تنصحُ الخلفاء بأن ينتهجوا نهج والدهم الفطن المقدام. وقد ساءَها - كثيراً - أن ينجرَّ ابنها (الدكتور) حفيدُ الرجلِ الخارقِ، إلى الاعتقاد المعاكسِ لحقائقِ التاريخِ والمنطقِ، اللذين تُفسرهما على هواها..!!

ولأنني راغبٌ - صِدْقاً - في استمرارِ حالات رضا والدتي، واستبعاد كلِّ ما يُغضبها ويعكّرُ مزاجها، ولو خالف هذا (بعضاً) من اعتقاداتي؛ ولأنني أريد أن أوظفَ هذا الرضا في مزيدٍ من عطاءاتِ البوحِ (البلوشي)، فقد طرحت عليها سؤالاً أعرفُ أنه محركٌ أصيلٌ للحديثِ عما ترغبُ والدتي في الحديث عنه، وأرغب أنا في سماعه .. سألتها:

"هل أتيح لك، في سنوات ما قبل الانتقال للناصرية، أن تكتشفي عالم الرياض الخفي، بعيداً عن أجواء القصور وشائعاتها"؟

أجابت، وقد لمس فيها هذا السؤالُ وَتَراً معرفياً، لطالما رغبتْ في إشهار (إبداع) عزْفها عليه:

"يتيحُ والدك لسراريه وحريمه، عادةً، الخروج إلى الأسواقِ أحياناً، ولمددٍ محدودةٍ سلفاً. يرافقهن في أثناء تجوالهن مرافقون يراقبون ويسجِّلون كل شاردةٍ وواردة على أولئك النسوة. كما يتيح لنا (عمي) أثناء فترتي الإقامة في القصر الأحمر وفي الناصرية، حضورَ الاحتفالاتِ بالأعيادِ والمناسباتِ الكبرى. حيثُ نشاهدُ، من خلال نوافذ الملاحات التي تنقلنا إلى ساحات (العرضة النجدية)[1]؛ الملك وإخوانَه وأبناءه وهم ممسكون بالسيوفِ ويتمايلون يمنة ويسرة على نغماتِ دقَّاتِ الطبولِ الحربيةِ. كل تلك (الخرجات) لم تتحْ لي فرصةً معمقةً لمعرفة مجتمع الرياض القديم، إلى الحد الذي يمكنُ أن أرضيَ فيه فضولَك، في معرفةِ الخصائص القديمةِ لمجتمعِ عاصمةِ بلادك.

...لكنني، ومن خلال القليلِ الذي رأيته، وما أمكن سماعُه من الآخرين الذين كانوا يشاطرونني الإقامة، أو حتى من الذين يتعاملون بأشكالٍ مختلفةٍ مع قاطني سكان القصرِ الأحمرِ والناصرية- أستطيعُ القولَ بأن مجتمعَ مدينةِ (الرياضِ) حينَها كان يمثل، تمثيلاً حقيقياً، الأوضاع الاجتماعيةَ في كل بلاد نجدٍ الواسعة، بل والمناطق الأخرى التي تشترك مع المنطقةِ الوسطى في كثيرٍ من الخصائصِ والسماتِ الاجتماعيةِ والثقافية. مع عدم نكرانِ بديهيةٍ معروفةٍ، وهي أن العواصمَ - مهما بدتْ فقيرةً وبائسةً،- فإنها في نفس الوقت، أفضل حالاً من

(1) العرضة النجدية: رقصة السيف التي يقوم بها النجديون. قبل وبعد المعارك الحربية. وأصبحت بعد ذلك من التراث الشعبي السعودي.

هوامش التجمُّعات السكانيةِ الأخرى في القرى وأشباه المدن هذه العواصم. وهي أيضاً محطُّ أنظار وآمال المهمشين، وراغبي الحصولِ على الأقوات والمداخيلِ الماليةِ.. وإن تضاءلتْ.

الرياضُ هي خيرُ ممثلٍ للحقائق والمسلَّمات التي ذكرتُها سابقاً. هذه المدينةُ هي مدينةٌ زراعيةٌ أصلاً. ولها سور رأيت بعضاً من أطلاله في أثناء جولتنا القليلة على أطرافِ المدينةِ القديمة. هذا السورُ وبقاياه خيرُ دليلٍ على حالةِ العزلةِ الشديدةِ التي كان يعيشُها السكانُ المحليون، حتى سنوات الأربعينيات من القرنِ الهجريِّ الماضي. ولم تكن تلك الحالةُ اختيارية، بل أملتْها عليهم مخاوفهم من غائلةِ العدوان. كنت وأخواتي نتسلُّ - أحياناً - من (الملاحاتِ) التي تطوف بنا أرجاءَ المدينةِ المختلفة، لنجلسَ على بقايا السور، الذي يُذكِّرنا بأسوارِ مدننا المعزولةِ - مثل الرياضِ - في بلادِ (السراري) المختلفةِ.

وأتذكَّرُ أيضاً ما قيل لنا عن مخارج ومداخل عديدة لسور الرياض القديم. ومن أسماء تلك الدراويز[1]، التي لطالما كانت والدتُك (أمُّ فواز) تعلِّمني كيف أنطقها كما ينطقها أهل الرياض: دروازة (الثميري) الشرقية ودروازة (آل سويلم) الشمالية، ودروازة (دخنة) الجنوبية. ودروازة (المذبح) الغربية، إلى جانب دروازة (الشميسي) ودروازة (الظهيرة) ودروازة (مصدة) الغربية، كل تلك الدراويز وسورها الطينيّ العالي الذي قد يصلُ ارتفاعه إلى خمسة وعشرين قدماً، كانت تعني، فيما تعنيه، أن الخوفَ والارتياب وعدم الثقة في المستقبل، كانت نماذج صارخة لأنماطِ تفكيرٍ وعيشٍ سكّان الرياضِ، في كلِّ عصورها.. وحتى السنواتِ الوسطى لحكم جدِّك.

الرياضُ، لم يزدْها انهيارُ مركزِ الدِّرْعيةِ كعاصمةٍ قديمةٍ للدولة

(1) الدروازة: كلمة فارسية تعني بوابة.

السعودية الأولى، واختيارها من جرَّاء ذلك كمركز لقد [illegible] الثانية، بعد انسحاب جيوش حملات أبناء (محمد عي [illegible] من القادم، لاسيما أنها شهدتْ اضطراباتٍ وقلاقلَ [illegible] أبناء الجيلِ الثالثِ من الدولةِ السعوديةِ الثانيةِ، نحو الا [illegible]

هاجسُ الخوفِ ذاك لم تخففه إطلاقاً، نموذجيةُ [illegible] لهذه المدينة، والذي كان يتيحُ لها ولسكَّانها سهولةَ الا [illegible] حيث الإحساءُ ومياه الخليج. أو إلى الجنوبِ حيث [illegible] وصحراءِ الرُّبْعِ الخالي، أو إلى طريقِ الشمالِ الموصِ [illegible] كثيرةٍ. أو إلى الحجاز عندما يسلك القاصدُ طريقَ الغرب. [illegible] لم تُزِله خصوصيةُ الأراضي المحيطةِ بالرياض، والمانحةُ [illegible] للسكان، الذين يتعرضون، مثلهم مثل غيرهم من التجمُّعا [illegible] نجد واليمامة لغزواتٍ قاتلة من سنواتِ الجفافِ والقحطِ [illegible] على جزيرةِ العرب. ففي أعماقِ أراضي مدينةِ الرياضِ وخ [illegible] واديها الشهير (= وادي حنيفة) توجد كمياتٌ لا بأس به [illegible] تُمكِّنُ الأهالي من الاعتماد على مخزونها عند الحاجة [illegible] تُحاصر أجنادُ الجيوشِ الغازيةِ أهلَ تلك المدينة. ولهـ [illegible] الرياضِ القديمُ كان أمرُ إنشائه منطقياً وواجباً، إلا أنه انعكـ [illegible] السكان على شكل تمسُّكٍ كبيرٍ بالعزلةِ وعدمِ الرغبةِ [illegible] بالغرباء؛ لأن هؤلاء الغرباءَ، حسَب السائد فى الاعتقا [illegible] يحملون نُذُرَ شرٍّ، وإما تغيراً وافداً في أشكال وأنماطِ الـ [illegible] والعيشِ، التي ألفها، جداً، (أهل) الرياضِ. وبالطبع لم [illegible] الرياضِ، هي المدينةَ الوحيدةَ في نجد أو حتى في الجزير [illegible] تحيطُ بها أسوارٌ عاليةٌ من الطينِ والعزلةِ، لكن هذه المد [illegible] شهدت إحياء معمقاً لفكرِ الشيخ (محمد بن عبد الوهابِ) [illegible] أخرى، أثناء الاندفاع المبكر لمؤسس الدولةِ السعوديةِ ال [illegible]

أصبحتْ؛ تبعاً لذلك، مركزاً لاستقطابِ طلبةِ العلمِ والدُّعاةِ و(المطاوعة)[1]، بحكمِ وجودِ القيادةِ السعودية، التي كانت تمثل في تلك الأوقات الجانبَ الديني والدنيوي؛ لأنها، كذلك، فقد غدت (الرياض) مركزاً، للتشدد الديني ضد الانفلات الأخلاقي، الذي عاد يطلُّ برأسه مرة أخرى في الجزيرةِ العربية. وتحديداً بعد فراغِ القيادة في الرياض. ولم يكن أمام المنادين بالتشددِ، من طرق نجاة، لما يعتقدون أنه يهدد دينهم ودنياهم، إلا ما أتاحته لهم مداركُهم الضيقةُ من سُبل مقاومة مثل: المناداة بالعزلةِ، والبعدِ عن التيارات الوافدةِ الجديدةِ من الأفكار!

مدينةُ الرياضِ عندما وطِئتُ أراضيها لأولِ مرةٍ أواخر شتاء 1367هـ[2]، كانت تحملُ كثيراً من تلك الملامحِ القديمةِ، لكنها كانتْ تحملُ أيضاً ملامحَ تغير قادمٍ مؤكد قد يكون بطيئاً، لكنه عميق وذو تأثير كبير.

العاصمةُ كان يهيمنُ عليها آنذاك الأصوليون. وعكسُ ذلك كان هو الأمرَ المستغرَب. فالملكُ عبدُ العزيز ذو توجُّه وحسٍّ دينيين بلا مِرَاءٍ. وهو لم يصطدم بالإخوان ويكسر شوكتهم، إلا لأنهم تحَدّوا زعامَته وقيادتَه للبلاد، التي أفنى عمره في إعادة لحُمتها وتماسك بنائها السياسيّ. وكان جدك يعتقد أن اهتزازَ القيادةِ بفعل تصرفات الإخوان الحمقى الصِدامية في الداخل، أو باتجاه الخارج حيث يهيمنُ الإنجليز على البلدانِ التي يغير عليها الإخوان بين الفينة والأخرى.. بلدانٌ مثل العراقِ وشرق الأردنِ ودول ساحل الخليج المتصالح وعمان؛ هذا الاهتزازُ سيؤدي حتماً إلى شعورِ (الرعية) بضعفِ الحاكم الذي أسس سلطانه على مُسلَّمةٍ أدخلت على قلوب الناس: بأنه لا يُهْزَمُ، وبأنه ضمانة لبقاء الكيانِ السياسيِّ موحداً.

---

(1) المطاوعة: تعني هنا كل من نذر نفسه لطاعة الله عبرَ الاحتساب.

(2) الموافق لعام 1947م.

الإخوانُ هزمهم الملكُ عبد العزيز، لكن (فكرةَ) أن الدِّين هو المحركُ للمجتمعِ السعوديِّ وعليه تُبنى الأحكامُ وتنظم القوانين؛ لم تزل باقيةً، لأنَّ صانعها الحقيقيَّ ومرسخَ نفوذِ القائمين على تفعيلها، حي يرزق ويمارس نشاطه ونفوذه على سدة الحكم... بالرغم من كبر سنه.

الملكُ عبد العزيز ترك للمطاوعة ورجالِ العلمِ الإسلاميِّ هامشاً كبيراً من النفوذِ المهيمنِ على الحياةِ اليوميةِ في العاصمةِ وفي غيرها من مدن المملكةِ، عدا بعضَ مدنِ الحجازِ التي منحتْها خصوصيتُها الدينيةُ والجغرافيةُ، شيئاً من التحلل من نفوذِ المطاوعة وأهل الحِسْبة. على أنَّ مياه الينابيع، التي تسير تحتَ الأرض كانت تخفي أشياء وأشياء. فللوهلة الأولى يمكن للرائي - مثلي - الاعتقاد بأنه لا قلبَ لهذه المدينةِ (=الرياضِ). وأنها تخلو من العواطفِ والرغباتِ الإنسانيةِ المشروعةِ حيناً، والبعيدة عن متطلباتِ الاستقامةِ الدينية، والسائد من العادات والتقاليد أحياناً أخرى. وأنها، فوقَ ذلك، مدينةٌ خالصة للمتدينين وطلابهم ومريديهم. لكنَّ الوجهَ الخفيَّ الآخر من المدينةِ كان واضح المعالم... لمن استطاع النفاذَ لداخلِ مساماتِه.

ففي القصورِ الملكيةِ نشأتْ طبقةٌ من الأمراء الصغار المرفهين، الذين لم يعايشوا سنوات العناءِ والشدة التي عاشها الملك المؤسس وبعض أبنائه الكبار. هؤلاء الأغرارُ أتيح لبعضهم مخالطةُ الغرباء الأوروبيين، والتجار الشوام؛ كما أتيح لهم الإنصاتُ إلى الراديو وما فيه من (مخالفات)، كانت تعتبر، حينها، خروجاً عن الدِّين مثل: الغناءِ والبرامجِ الإذاعيةِ التي تتحدثُ عن الحبِ والعواطفِ والقيمِ الإنسانيةِ الأخرى، التي لا يعترفُ الأصوليون بأنها ذاتُ فائدة - مع الافتراضِ أن لها فائدةً أصلاً عندهم - لحياةِ المسلمِ التقيِّ ... حتى ولو هُذبت وشُذبت هذه المصطلحاتُ لتتناسبَ مع الذهنية الشرقيةِ المحافظة.

هذه الطبقةُ من الأمراءِ، كانت تبتعدُ، بفعل قانون الحياةِ، عن المُثل

الخالصةِ التي أرادَها أجدادهم ووالدهم الملكُ المؤسس. هم طبعاً لم يجاهروا بابتعادهم ذاك عن سائد الاعتقادِ والسلوك؛ لكنهم شرعوا يؤسسون لمجتمعٍ آخر – وإن كان مُقزماً– يرتدي مسوحَ الدينِ، ويترك النموذجَ الخالصَ التقيَّ، الذي أراد المؤسسون – قادةً وأتباعاً – تقديمه لأنفسهم وللآخرين، على أنه نموذجٌ (سعوديٌ) لفهمِ الحياةِ والتعاملِ مع البشرِ، ولإعادة أمجادِ الماضي الإسلاميِّ التليد.

...واقعاً؛ لم يكن هذا النموذجُ إلا حُلماً كان مناسباً لأزمنةٍ معينةٍ. لكنه غيرُ قادرٍ على الحياةِ والتنفس الطبيعي، وهو يحملُ تلك المثلَ غيرَ الواقعيةِ في أزمنةٍ كانتْ تبتعد عن المثل والقيم الوضعيةِ... فكيفَ بالسماويةِ؟ وفي نفسِ الوقتِ، وعلى الطرفِ الأخرِ، كان النموذجُ الذي يقدمه أمراءُ البيت المالك حديثو السن ورجال بلاطهم وأفرادُ حاشيتهم، الذين تأثروا بما كانت (تُبشر) به أنماط السلوك الجديد، التي كان (أعمامهم) الأمراء ينشرونها يوماً بعد يوم في جنبات القصور وعلى تخومها القريبةِ، كان هذا النموذجُ المغايرُ الجديدُ – وإن كان إفرازاً حقيقياً للواقع المتغير وللمستجداتِ الجديدة – بعيداً كل البعد عن حلْمِ الزُهاد و(مثاليتهم) الدينية التي أراد أسلافهم أن يحققوها على أرضِ الجزيرةِ، بل كانت هذه المثاليات السببَ الأولَ والرئيسيَّ في حروبهم العديدةِ القديمةِ مع (الكفارِ) والمرتدين، وغيرهمْ من المنافقين من بني جِلْدتهم... مقاسميهم سُكنى جزيرة العرب!

لقد أحسَّ الملكُ عبد العزيز بجريان الينابيع الخفيةِ تلك. وكان يُشاع، وأنا أنزع أيام سنواتي الأولى في الرياض؛ أن (أبا تركي) يعاقبُ دائماً هذا الابن بالسجن؛ لأنه لم يكن يصلِّي. أو أنه يختلط مع أهل المنكر والطرب. وذاك الابن يعزلُ من منصبه، لأنه أخلَّ بواجباته الدينية، التي تعطي له الحق في إصدارِ الأحكام على الآخرين، وتقديمه نفسه كراعٍ لشؤونهم.

تلك العقوباتُ كانت تدل على ضيق وتبرمٍ وتطيُّر الملكِ المؤسس غير المبرر من المستقبلِ الذي قد يرسمه جيلُ الأبناء الصغار، عندما توكلُ إليهم أمور تسيير دولة، قدّمَت، وتقدم نفسها للعالم بقولها: إن دستورها القرآن وهُداها السنةُ النبويةُ، وتشتبكُ مع العالمِ الخارجيِّ المُمتعضِ من التجربةِ، التي (يدَّعي) السعوديون، بمختلف أجيالهم، أنها فريدةٌ، بحيث يمكن قياسُ دساتيرِ العالم بِها، في الوقت الذي يخالفونَ (همْ) فيهِ ـ أحياناً ـ بنودَ هذا الدستورِ الإلهيِّ، الذي يقفون خلفَه مُتمترِسين خوفاً من هبات التغييرِ المختلفةِ!

لم يكنْ هذا الحراكُ يُهمُّنا، نحن (الغرباء). فلقد شغلتنا هموم أنفسنا وحروبنا الصغيرة، من أجل خطفِ قلوبِ (أسيادِنا). لكننا كنا نشعر بما يجري حولَنا. وكنا واعين إلى أن ما نراه من هدوءٍ سياسيٍّ واجتماعي مُصطنعٍ، ليس هو الحقيقةَ المتأسسة عليها الأحكامُ والقطعيات.

وقد تستغربُ – بنيَّ – إلى ما قد يوحي به حديثي، من أن الرياضَ كان يسكنُها فقط رجالُ دينٍ من جهة، وأمراءُ أبناء ملوكٍ وتابعين من جهةٍ أخرى... لا لم يكن الأمرُ هكذا أبداً!

...مجتمع الرياض، كان يتكون، أيضاً، من السكان المحليين الذين لا يعرفون غيرَ (الرياض) موطناً منذ القدم. أسرٌ عريقة كان أفرادها يمتهنون إما تجارة عليلة، وإما حِرفاً شعبية لا تسمن ولا تغني من جوع. أو زراعةً مُكلفة بالكاد تكفي منتجاتها استهلاكَ أصحابِها. تلك المجاميعُ من السكانِ كانوا خاضعين لهيمنةِ الجانبِ الدينيِّ من قبل المشايخِ والمطاوعةِ، وكانوا أيضاً واقعينَ تحتَ التأثيرِ السلطويِّ لساكن المربع وحكومته. إنما لا يمكنُ ـ إطلاقاً ـ الحديثُ (هنا) عن تململٍ واضحٍ لهؤلاءِ السكانِ المحليين، ضد أوضاعِ الهيمنةِ والخضوعِ التي أشرتُ إليها آنفاً. بل إن النقيض هو الصحيحُ. فمجتمعُ الرياضِ كان يحب وُلاةَ أمره،

ويجلُّ رجالَ العلمِ ومشايخه، ولا يرى أن هناك دواعيَ للتَّململِ والهيجان. شيءٌ واحدٌ من هذا القبيل، وردَ إلى أسماعنا، ونحن في حرمِ القصور: هو أن (أهلَ) الرياضِ كانوا ممتعضين من قدومِ أبناءِ الباديةِ الكُثْر للرياضِ، طلباً للغوث والعطاء من الملك عبد العزيز. وهم في انتظارهم الطويلِ هذا لشرهات (المناخ)[1]، كانوا يزاحمون (الرياضيين) في أقواتِهم وفي طرقاتِهم - الضيقةِ أصلاً - وكانوا يثيرون بمشاحناتهم الكثيرةِ، أعصابَ سكانِ الحضرِ المسالمين. إنما لم تتحولْ - حسب علمي - حالاتُ التبرُّم، إلى أن تصبح عصياناً على الشيوخِ.. إطلاقاً.

ولعلكَ يا (سيفُ)، ترغبُ في الاستفسار عن أحوال المرأةِ في الرياضِ. هنا أستطيعُ أن أقول إن المرأة القديمة في الرياض، وبرغم أميتها وجهلها التام بما يدور حولها من أحداث ومخاطر، وبرغم ضآلةِ علمها بكيفيةِ التعاملِ مع المستجداتِ البيئية والصحيةِ والسياسية؛ إلا أنها كانت أكثرَ انفتاحاً في مشاركة زوجِها أو أحدِ محارمها في مهام الحقلِ وزراعتِه، أو في إعداد موادّ صناعةِ الحرفِ اليدويةِ الرائجةِ آنذاك. أو تحمُّل أعباء إدارة المنازل أثناء غياب الأزواجِ المسافرين، الضاربين في الأرض طلباً للرزق.

المرأةُ (الرياضيةُ) خصوصاً، والسعوديةُ، عموماً، في تلك الأوقاتِ، وبرغم هندامها المتحفظ، وخوفها المبالغَ فيه من الجنس الآخر، واقتناعِها الأصيلِ بالموروثِ الاجتماعيِّ والدينيِّ المحليِّ المنظم لعلاقة الرجل والمرأة؛ هذا الهندامُ، لم يمنعها، كل ذلك وهي تتسربل بعباءتها السوداء المتينةِ، من رؤيتها وهي تبيعُ في الأسواقِ تارةً، أو

---

(1) المناخ: مكان خارج أسوار الرياض كان أهل الإبل من البادية والقادمون للرياض من أجل عطاء الملك عبد العزيز، يتخذونه لإناخة إبلهم ولراحتهم من وعثاء أسفارهم الطويلة. هذا المكان يُقال إنه بجوار أسواق البطحاء المعروفة الآن. والواقعة في الجنوب الشرقي للعاصمة.

حاملةً أدواتِ الحرثِ والحصادِ تارةً أخرى. ولم يكن مستغرباً مشاهدتُها وهي رائحةٌ غاديةٌ وفي يديها (مقاضي)[1] البيوت ومستلزماتُها.

السوادُ من حريمِ الرياضِ كُنَّ - وإن أعطى مظهرُهن شعوراً ببؤسِ حياتهن - أكثَرَ تحقيقاً للذاتِ، وفخراً بما يُنجزْن.. على بساطتِهِ.

على الضفةِ الأخرى وُجِدَتْ نسوة - وأنا واحدة منهنَّ - أفنين أيامهن ولياليَهن في المكائد النسائية و(الغندرة)[2]؛ لعلَّ وعسى أن يفزنَ بنصيبٍ وافرٍ من قلب رجلهن الواحدِ. على أن ما يحدثُ في الخارجِ، كان - أحياناً - يشغلنُي وأحاول ربطه بما أشاهده في تجولنا المقنن المتقطع خارج أسوار القصور الملكية. في كل يومٍ كنت أحاولُ تلمُّس آخر شائعاتِ الرياضِ الأخرى، غير التي نعرفُها ونصنع أكثرَها!

...إلا أن يوماً واحداً لا يمكن أن أنساه، جعل هوايتي في تتبعِ الإشاعاتِ واستقصاءِ الحوادثِ... في آخر سلَّمِ اهتماماتي:

في هذا اليومِ، الذي جاءَ بعد سنةٍ كاملةٍ من وصولي الأول إلى الرياضِ، قمتُ في منتصفِ الليل من فراشي، وأنا أشعرُ بالغثيانِ والوهنِ وبكثيرٍ من قشعريرةِ البرد؛ أحاسيسُ مرضيةٌ مبهمةٌ متداخلةٌ لم أشعرْ بها من قبل.

ظلتْ تلكَ الحالاتُ المرضيَّةُ تعاودني لمدةٍ ليستْ بالقصيرةِ، وأنا أُخفي ما أعانيه عن أخواتي اللواتي يشاركْنني الغرفَة رقم (47). لكنني لم أستطع الصمودَ طويلاً، لأسألهنَّ بعد نفاد صبري، عن المعلوماتِ التي يمكنُ أن يملكنها عن المرض المشابهِ لعلّتي.

ألقيت على أخواتي هذا السؤال، وهنَّ متحلقاتٍ حول مائدةِ

---

(1) المقاضي: مؤنة المنازل.

(2) الغندرة: فن التجميل والإغراء.

الإفطارِ. وبالتحديد بعد ثلاثةِ أسابيعَ من شعوري الأولِ بالمرضِ الغريب. شرحتْ لهن ولـ(مريمَ) الإماراتيةِ التي (سِرت) على ساكني غرفتنا بعد مغرب الليلةِ السابقةِ لسؤالي العتيد، عن حالتي وشعوري الغريب بـ(القرفِ) من الأكلِ وروائحتهِ. وحتى من رائحةِ العطورِ والبخور.

...وفجأة!

ضحكتْ كلُّ المتحلقات حولَ مائدةِ الإفطارِ، سوى أختي (مريم الإماراتية) التي كان الجهلُ - النسبيُّ - يمنعُها من إبداءِ مثلِ تلك النوعيةِ من ردود الفعلِ الهازئة!

بعد الضحكات سمعتُ كلمةً واحدةً تخرجُ من كلِّ أفواه الحاضراتِ.. العالمات ببواطن مثل تلك الأمورِ:

مبروك..!

مبروك على ماذا؟... سألت المُباركات.

رددن عليّ بصوتٍ واحد:

أنتِ حاملْ.. مبروك"!

21

قصةٌ أخرى تبدأ في التشكُّلِ. انتهت مرحلة مراهقةِ والدتي وطفولتِها المتأخرة، وتهيأت بشكل سريع للدخولِ في مرحلةِ النضجِ والرُّشْد.

في هذه الفترةِ الانتقاليةِ تكثرُ، عادةً عند (المنتقلين) المشاكلُ المترتبةُ على تغيُّر الانتماءِ للجماعة العمرية السابقة إلى جماعة عمرية جديدةٍ. إنها المنطقة المجهولةُ في معارفِها وحدودِها. وفي المقدرة على

التكيف مع استجاباتِ الخارجِ ومظاهره. وتزداد هذه التعقيداتُ أكثَر، عندما يكونُ المنتقلُ على شاكلةِ والدتي التي خُطفَ صباها واغتيلت أحلامُها فجأة، ثم انتُزعت انتزاعاً من موطنِها الأصليِّ ومنزلها العائليِّ، لتُقذف في جُب المجهولِ والغرائبِ.

كيف كان ردُّ فعل هذه (الصبية) على كلمة: أنت حامل؟

أجابت حتى بدون أنْ تنتظرَ سؤاليَ، الذي كان لزاماً عليّ أن أطرحه. وكان لزاماً عليها أن تكشف - وهي تجيبُ عليه - عن مشاعرَ نفسية مختلطةٍ مضى عليها أكثرُ من نصفِ قرن من الزمان:

"لم أعرف ماذا يقصدْن بكلمة (الحمل). طبعاً أنا أعرفُ أن الأزواج عندما يلتقون في حجرةٍ واحدةٍ. وبعد لقاءات قليلة أو كثيرة.. ينتفخ بطن الأنثى. حينها يُقالُ (للجهلةِ) إن هذا التكرش غيرَ الطبيعي، جاء بعد أن (قبّل) الزوجُ زوجته، أو غير ذلك من التفسيرات المضحكةِ الساذجة. يقالُ ذلك للصغار. لكن ماذا يمكن أن يقال لمن عرفتْ أن الأمر تعدى، كثيراً، مراحل قُبَل الزوجِ وهمساتِه؟!

بعدَ الصدمةِ والخجلِ، الذي لم أعرفْ سببه، للوهلة الأولى، تذكرتُ لاحقاً أن ستةَ (لقاءاتٍ) ليلية مع زوجي ـ وليِّ العهد ـ خلالَ سنةٍ كاملةٍ. قد تسببتْ (آلياً) في الكلماتِ التي سمعتها: مبروكْ ... أنتِ حامل!

بدأتْ مريمُ الإماراتيةُ، التي تأخر حملها بأخيك (فواز)، أكثر من عام ونصف عن موعدِ حملي الأول؛ في تلقيني - نقلاً عن صاحباتِ (الخبرةِ) النظريةِ والمحرماتِ في الحملِ والولادةِ بعد (اللقاءاتِ) الزوجيةِ الليليةِ - كيفيةَ استقرارِ النُطَفِ وأين تعيشُ؟ أشارت هذه الأخت إلى الوسائلِ الأخرى المحافظةِ على هذا (الخيْرِ) الذي يعني أكثرَ من

أمومةٍ.. إنه يعني، في حالتنا نحن الإماء والسراري. العتقَ من نارِ الرقِّ والسُخرة.

... إذن سأصبح، بعد تسعةِ أشهرٍ أو أقل، أمَّ ولدٍ أو بنتٍ ... يا للفرحة!! تظاهرتُ بقولِ تلك الكلمةِ أمامَ (أمهات العيالِ) وأشهرتُ علاماتِ الرضا بنتيجةِ تلك اللقاءاتِ الليليةِ. لكنَّ داخلي كان يزدادُ (قرفاً) فوقَ غثيانِ الوحمِ المصاحبِ للحمل. لقد أعادني الحملُ ووحمهُ إلى تلكِ الالتباسات في نفسي حول علاقة الرجلِ والمرأةِ وضروريات الطهارةِ التي لابدّ أن تحكم، حسب رأيي شكلَ ارتباطاتِهما.

أعودُ وأقولُ لك يا - بنيّ - إنني لم أكنْ أنظرُ إلى أبيكَ على أنه زوجٌ عاشقٌ، لزوجة والهةٍ؛ أبوك بالنسبة لي: ملكٌ رحيمٌ مشفقٌ على رعيته وسراريه. أعاملُه على أنه امتدادٌ لأسطورةٍ مؤسس، وأصلٌ لفرعٍ نحن ومن في القصورِ، وما سيكون في أحشائِنا ... نمثله. لم تكن تعني لي تلك اللقاءاتُ الليليةُ الأقلُّ من عدد أصابع اليدينِ شيئاً، إلا أنها تُمتع (عمي) وتؤنسه... هذا حقه على الزوجةِ المطيعةِ التقيَّةِ.. حُرةً كانت أم عبدةً. أما (حقي) ـ وإن كانتْ هذه الكلمةُ تحملُ صفاتٍ كثيرةً من المبالغة، والأفضلُ أن أستعملَ بدلاً منها كلمةَ (جائزتي) ـ فإنه لا يتعدى - بالرغم من اشمئزازي لطريقةِ الحصولِ عليها - مجردَ الاحتفاظِ بخليةٍ منه.. ولدٍ أو بنتٍ يحملان اسم وليِّ العهدِ... سليلِ المجدِ ابنِ الملوك!

...عَرفْتُ من نصائِح أختي (مريم الإماراتية)، ومن ضحكاتِ وغمزاتِ الأخوات الأخرياتِ من الإماء، كيف أحافظ على حملي، وألّا أجهد نفسي في الأعمالِ اليوميةِ المتوجبةِ على كلِّ مشاركة من الجواري في سكنى الغرف المشتركة. وللحقِ أقولُ: إن أخواتي جميعاً، كُنَّ يُراعينني ويسألْن عن أحوالِ حملي في كلِّ يوم. وازداد فضلهن عندما لم يطلبن مني القيامَ بأعمالٍ خطرةٍ على استقرار الحمل: أعمالٍ مثل حمل الأواني الثقيلةِ المحملةِ بالمأكولاتِ، والملابسِ المعدةِ للغسيلِ ولنشرهِ.

وازداد الإيثارُ إلى أن أشرْن عليَّ، بألّا (أحاول) مخاطبة (فطيمة) في شأن تذكير (عمِّي) بأنني رهنُ إشارتِه. بل و(تبرعن) في إيصال معلومةٍ لتلك المرأةِ (البشير) بأنني (بكرية)[1] حامل؛ ولهذا فإنني أمرُّ بحالات وهن شديد؛ مما لا يسمح لوليِّ العهد، بقضاء وقتٍ زوجي طيب معي، وأن الأخريات سيقمن بتعويضِ (النقصِ) الحاصلِ... وقد كان"!!

...عند آخر كلماتِها تلك، ندَّتْ مني ضحكةٌ مجلْجلةٌ لم أستطعْ كِتْمانها! وعندما وجدتُ أن ضحكتي تلك قد أحدثت رد فعل طيباً لديها؛ لأنها وببساطة، قد شاركتني في القهقهة والسخرية من طرافةِ الموقف، وطرقِ تفكيرِ أخواتِها التي أملاها عليهن واقعُهن، وأوصاهن بها الكتاب الإرشاديُّ في فنِ البقاءِ بالقصورِ.

أقولُ: عندما وجدتُ أن الغضبَ البلوشيَّ لم يقعْ، تجرّأتُ بطرحِ سؤالي التالي، الذي يُفهم منه طلبُ اختصارِ أحداثِ شهور الحمِل - لأنَّها إشاراتٌ ضمناً إلى هامشيتها - حتى أصلَ وإياها إلى الأهمِّ... إلى زمن سماعِ صرخاتِ وليدها الأولِ:

"كيف مرَّت عليكِ ساعاتُ تجربةِ الولادةِ الأولى؟ وهل رأى المولودُ النور في القصرِ الأحمر أم في مكانٍ آخرَ غيرِه"؟

قالتْ، وقد ناسبَها (حرقُ) المراحِلِ ذاك، بعد أن بدأ التعبُ يظهرُ جلياً على محيَّاها:

ولَدتُ في خريفِ عام 1368هـ[2] بنتاً ولا أجمل: سمّاها والدها (لطيفة). هذه الفاتنةُ، حُملت إليه بعد أن بلغتْ من العمر سبعة أيام ... إلى جناحِهِ الخاصِ، حيث (أذَّن)[3] في أذنها اليمنَى، وأطلق عليها اسمها الذي عُرفتْ به.. إلى أن ماتتْ!

---

(1) فتاة بكرية: يعني أن هذه الفتاة تحمل وتلد للمرة الأولى.

(2) الموافق لعام 1949م.

(3) هذا تقليد إسلامي يقصد به بعض الإسلاميين إسماع الطفل الشهادتين.

ولادتي الأولى كانتْ صعبةً جداً. أقسمُ بالله أنني ذقتُ آلاماً لا توصف أثناء عملية الوضع. لكنَّ أخواتِي اللواتي أشرفن على ولادتي قُلن إن كلَّ (البكرياتِ) يسردْن بلا مللٍ، حكاياتِ ساعات ولادتِهن الأولى التي ترافقها آلام فظيعةٌ لا توصف. وأنهن يحلفْن – من جرّاء ذلك – بأنهن لن يرضْخن لرغباتِ الرجالِ بعد ذلك اليوم؛ لأن النتيجةَ هي مزيدٌ من العذابات والمعاناة. لكنهن – يا للغرابة! – يعدن إلى تجربة الحملِ مرةً أخرى وكأن شيئاً لم يكن!

صدقتْ أخواتي..! لكنَّ هذا ينطبقُ على من يختار تكرارَ التجربةِ. أما اللواتي لا يملكْن حريةَ الاختيارِ، فلا يمكن أن يشملهن هذا الفاصلُ من السخريةِ.. المقبولةِ!

ولادتي يا (ولدي) كانتْ في القصرِ الأحمرِ. لم يكن هناك (قابلةٌ) ولا مستشفياتٌ؛ لأن هذا المصطلحَ لم يكنْ موجودً أصلاً حينها. ما كان متوافراً عبارةٌ عن ثُلةِ أطباءِ أصبحوا مستشارين للملكِ عبد العزيز بعد ذلك؛ مما أنساهم أبجديات الطب بعد أن تعلموا أساسياتِ السياسةِ والحكمِ من الرجلِ البدوي الأسطوريِّ!

عدمُ وجودِ أطباء متخصصينَ لم يكن شيئاً مستغرباً، في بلدٍ كان يخطو بتعثر على دروبِ التنميةِ. أشياءُ أخرى من الحاجاتِ الإنسانيةِ الضروريةِ (الآن) لم تكن موجودة حينَها مثلاً: الكهرباءُ... الماءُ النظيفُ... الطعامُ المغذي المتنوعُ. أفكر في هذه اللحظاتِ، كيفَ أني – وأنا الحريصةُ على النظافةِ – عشتُ مثل تجربةِ الولادةِ الأولى بدونِ إشرافٍ طبيٍّ ولا نظافةٍ؟!

...طبعاً لم تكنْ تجربةُ ولادتي الثانيةِ مشابهةً للأولى. حتى وإن كان الفاصلُ بين الولادتين ستة عشر شهراً فقط. حينَها ـ وأعني بذلك عندما ولدتُ أخاك (مقرن) ـ كان والدك يحيطُ نفسَه وعائلتَه بالأطباءِ الماهرين والقابلات المتمكناتِ من عملهنَّ. وكانت تباشير الكهرباءِ تعُمُّ (بخيراتها)

بعضاً من القصورِ الملكيةِ، ومنها القصرُ الأحمُر وقصر الناصريةِ الذي كان يُعدُ لاستقبالِ ساكنِه الجديدِ: ولي العهد الأميرِ سعود.

...على ذكرِ والدكِ، لم أجتمعْ معه بصورةٍ (انفرادية) إلى أن بلغتْ ابنتي من العمر نصفَ عامٍ. هذا إذا استثنيت رؤيتَه أثناءَ ذهابنا الجماعيِّ أنا وأخواتي إلى جناحه الخاص، لتقديمِ التبريكاتِ له بمناسبة الأعيادِ والمناسبات الخاصةِ، أو بعد عودتِه من أسفاره الكثيرة. لم يكن هذا الهجرُ يغضبني؛ لأنه تعودَ على هذا مع كلِّ زوجاتِه وما ملكت يمينه، بعد كل ولادةٍ لتلك المجاميعِ من النساء. مع العلم يا (سيف) أنه كان يرسلُ لي بين الفينة والأخرى هدايا عبارةً عن جنيهاتٍ ذهبيةٍ في كلِّ مناسبةٍ دينية. أما أكبرُ الهدايا حجماً وقيمةً فكانت بعد تسميته لابنتي التي قال إنه لم ير أجمل منها من قبلُ!

الإشارة إلى جمالِ (لطيفة) غيرِ العاديِّ قالها لي (عمي) مرةً أخرى بعد أن استدعتني (فطيمةُ) للقاءٍ ليليٍّ معه بعد ستةِ أشهرٍ من ولادةِ.. الجميلة.

قالَ لي والدُك عندما دخلتُ عليه في تلك الليلةِ بعد انقطاعٍ طويلٍ:

هذه (البنتُ) جمعت جمالَ بناتِ (آل سعود) كلهنّ إضافة إلى جمال البلوش.. النُقباء الذين تدَّعين أنكِ منهم.

اسمعي...! عندما أرغبُ في أن يراها نساءُ آل سعود الأخريات – بالله عليكِ – ألبسيها أحسنَ ما لديك من ملابس، وعطِّريها بأغلى العطور، واقرئي عليها (المعوذتين)[1] وتعوَّذي أنتِ من الشيطانِ الرَّجيم. لك عندي يا (نائلةُ) مفاجأة: هذا صك عِتْقُك كعربون فرح، لولادتِك لـ(حسناء) البناتِ كلهن.. وأيضاً لكِ هذه الرزمة من جنيهات الذهب.. لا

(1) المعوذتان: سورتان من سور القرآن الكريم القصيرة، تبدآن بكلمتي: قل أعوذُ...

تخبري أحداً بذلك.. وعليك قريباً أن تأتي بولدٍ جميلِ الطلعةِ.. كما عوَّدْتِ عمَّك!

...بعدَ تلك الليلةِ وليلةٍ أخرى من (اللقاءاتِ) حملتُ بأخيك الراحلِ (مقرن). لقد جفَّ ثديي من الحليب بعد شهر من ولادة أختك (لطيفة)؛ ولهذا حملتُ سريعاً بعد الحملِ الأولِ. وكأنني أُصادقُ على كلامِ أخواني في سرعةِ نسيانِ (البكرية) لقسمها المغُلظ بألَّا تجرب الحملَ مرةً أخرى.. لكن هيهاتَ لأمثالنا أن يُقْسِمْن - أصْلاً - بمثل هذا الحلفِ العظيم. فكيف بإبراره؟!

دفعتُ بأختكَ الراحلةِ للمرضعاتِ. لتعويضِها عن جفافِ محلبةِ أمّها. وللمفارقة: استعضْت، بدلاً من سائل الحنانِ (المفترضِ) أن يسرى في جسد الرضيع، بتشديد على مشرفاتِ القصرِ، أن يجلبنَ مُرضعاتٍ مُكتنزاتِ الأثداءِ؛ لأن صحة الصغيرةِ تستوجب ذلكَ!

الغريبُ يا (سيف) أنني، وأثناءَ ملاحظتي لابنتي وهي تكبُر تحت عيني يوماً بعد يوم، و(بطني) ينتفخُ شيئاً فشيئاً كعلامةٍ لقدومِ وليد آخر؛ كنت أنسحب ببطءٍ من مأوى الذكرياتِ البلوشية القديمة؛ بل إن مقاومتي العنيدة لفكرةِ تسليمِ الجسدِ والنفسِ للغُرباءِ المتسلطين المُدَّعين ملكية البشر، راحت تفتُر.. بل وتضمحلُّ.

لمتُ، يا (بني)، نفسي على هذا الانسحاب وأسمعتها التقريع بعد التقريعِ. لكنني وجدتُ الجانبَ الآخرَ يعطي الأعذار تلوَ الأعذارِ للجانب المُتناسي من نفسي... ناكث عُهودٍ ومواثيقِ حب الأوطان وبقيةِ الأهلِ.

سرقني يا (دكتورُ) وسرَق صويحباتي... الزمنُ. ألبستنا الأيامُ ثياب الأوهامِ والمخيلات الضيقة. ثملنا من أجواء القصورِ الملكيةِ وهِبات الجنيهات. نعِمنا بلِقاءات الزوجية الخاطفة، والبطونِ المنتفخةِ بين كلِّ حملٍ وحمل. استبدلنا لهفتنا إلى عالم الأحرارِ وفضاءات الأسوياءِ، بصكوكٍ ورقية تُثبت أن أولادَ أسيادِنا قد منحونا الحريةَ... وإن بشروطٍ!

...المهمُّ!

مرت الأيامُ والشهورُ. وتأكدت أنباءُ أمراضِ جدِّك وعِلَلِه. وأصبحنا نعرفُ، بشكلٍ شبهِ مطلق، بأن ولي العهدِ يستعدُّ، وعبر نشاطاته، للانتقال (المنتظرِ) الحزينِ من عهدٍ ولا كل العهود - إلى عهدِه.

أما نائبُ الملكِ في الحجاز، فلم تتخطه الشائعات التي تُخالطها بعض من الحقائق: فيصل ينفس على أخيهِ الأكبرِ، حبَّ أبيه وتفاؤله به... إشاعة أخرى: فيصلُ يخافُ على دولة عبد العزيز، التي بنيت من الدموع والدِّماءِ وأعمار الخارقينَ الأوائل، من تساهل وحيرة وطيبةِ قلب ولي العهد...، إلخ!

كنَّا، نحن (السراري)، نشعر أن أجواءَ برزخيةً - فيها ما فيها - تُعدُّ السعودية للتغييرِ الذي لا يعرف أحدٌ كُنْهه ولا مداه. الشيءُ الأكيدُ أنه لن يصبحَ مثل العهد (العزيزي) أبداً. شعورُنا، ذاك، لم يأتِ اعتباطاً، بل رأيناه على محيَّا (عمِنا) وعلى تصرفاتِه، وعلى علاقتِه بمستشاري والده، ومع تعامله مع الأوراقِ التي تردُ إليه تباعاً للاطلاع عليها قبل أن تمرّ على (الشيوخ) وحتى بعد أن تَمرَّ عليه.

...والدك بدأ يغرق في تفاصيل كلِّ شيءٍ في مملكةِ والده. وبدأ يَظهرُ عليه الغضبُ والانزعاجُ. وكأن مشاكلَ الدولةِ قد أرجئت بفعلِ فاعلٍ إلى أن يعلنَ النذير البشيرُ وفاةَ ملكٍ أسطوريٍّ، وتنصيب ابنِه، الذي يحاولُ أن يجد له مكاناً في القمة، التي لم يتخيلْ إنسانٌ في الجزيرة العربية أن يشغلها.. كائناً من كان، غير عبد العزيز. الحقيقةُ أن المشاكلَ التي تبرم منها والدك، لم تكن طارئةً ولا مستجدةً. بل هي مورَّثةٌ من جدك، والأصحُّ أنها جاءت بقضِّها وقضيضها إليه، بعد أن راحتْ سكرةُ تأسيسِ الدولةِ وتوحيدِ أرضِها الشاسعة، لتأتي الفِكرةُ اللاحقة بنُذُرِها: برغبةِ (الرعيةِ) في أن يلْمسوا محاسن أخرى للتأسيسِ والتوحيدِ، غيرِ محاسنِ الأمنِ واستقرارِ الحكمِ وتوحيدِ المملكة. كانوا يريدون أن ينعموا

- بمقاييسهم الزمنية السابقة - بالخيراتِ التي يسمعون أن الذهبَ الأسودَ يمنحُها للشعوبِ، التي يتدفق من أراضِيها. لقد ملُّوا عطاءاتِ الأرزِ والشاي والسمن. وبدلاً من ذلك فهم يتطلعون للشوارع النظيفةِ الواسعةِ التي يسمعون عنها، وللبيوت المُنارةِ، والمياهِ التي تخلو من الصدأ والملح. كان بعضُهم (طمّاعاً) عندما يتحدثُ عن المدارسِ المختلفةِ تماماً عن (الكتاتيب)[1]. التي ألفوها. ويزداد (جشعهم) التطلُّعي، عندما يطالبون بضرورةِ وجودِ صحفٍ ووسائلِ نشرٍ في بلادهم. وعلى أحقيتهم في الاطلاع على مواقفِ بلادهِم حيالَ الأحداثِ الجاريةِ حولهم أو بعيداً عنهم. والتي تؤثر في وعلى حياتِهم الدينيةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ.

لقد فطنَ جدُّك لهذه المشكلاتِ القادمة، وكان حلُّها غيرَ عسيرٍ عليهِ لو أن في العمرِ بقيةً، وفي الجسمِ عنفواناً، وفي الخزينة بقية مالٍ، بعد الذي يستهلكه الأبناءُ وتُفنيه مصاريفُ القصور، وتأكلُه (شرهاتٌ) قبليةٌ ضروريةٌ لحفظِ التوازناتِ؛ تلك التوازناتُ التي أطلق عليها الإسلامُ قديماً... عطاءاتُ المؤلفةِ قلوبُهم"!

تضمنَ مقطعُ حديثِ والدتي السابقِ، إشاراتٍ لأختي (لطيفة) رائعةِ الجمال. وكم تمنيتُ أن تعيشَ تلك الصغيرةُ؛ لأراها؛ ولأحققَ أمنيةً سألتُ نفسي كثيراً.. لماذا لم تتحققْ؟ كم هو جميل أن يكون للإنسان أختٌ شقيقة حانية.. أكان صعباً أو مستحيلاً أن أحظى بهذا الأنس الاستثنائيّ؟!

لكن متى كانتْ الأمنياتُ والأحلامُ سهلةَ التحقّق.. أليس اسمها أمنياتٍ وأحلاماً؟!

فقط ما كان سهلَ التحققِ، هو أن أعرفَ أكثرَ من والدتِي كيفَ

(1) الكُتاب: طرق قديمة يقوم بها رجال الدين، ويدرسون من خلالها الصغار: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب الفقه وشيئاً من الأدب العربي.

كانت الخاتمةُ المأساويةُ للصغيرةِ الحسناءِ، مع أنَّ كَرَّ ... في تلك الأيام، بحياةٍ ممتدةٍ تعيشها (لطيفة) ملؤها الحبور ...

"ما فهمتُه: أن - طويلَ العمر[1] - كان حريصاً على صحة ... والاهتمام بها بشكلٍ غير معهودٍ. كيف قضتْ أختي نحبه ... أكان بسبب إهمالٍ طبي صغيرٍ، بالمقدور تفاديه؟ لا ... هذه الأسئلةُ منطقيةٌ، تأسيساً على شذراتِ ما كنتُ أسمعُ ... عن حياةِ (لطيفة) القصيرةِ جداً؟!

اربدَّ وجُهها وهي تستحضرُ بشجاعة تلك الأسطر ... ثم لحقَ ذلك عكارُ دمعٍ مُلاحَظٍ، أرادت أن تُغالبَه ... بالقول:

" لعلَّ حرصيَ المبالغَ فيه، وخوفَ والدِها عليها ... المعُتادِ، هو الذي أهلكَها!

استغفرُ الله... استغفرُ اللهَ العظيمَ..!

لا أريدُ يا (ولدي) العودةَ إلى مسألةِ القدر.. هذه الساعةَ...

...لتعلمْ فقط أن بعضَ تصرفاتي الحمقاءَ قد تكونُ سبباً في ... نهايةِ حياةِ (لطيفة). كنتُ أرفضُ أن ترى هذه الوليدةُ الشمس... يداعبها النسيمُ. أوامري الدائمة (للأمة) التي أمر ولي ... تساعدني، هي أن تبقى صغيرتي في ركن الغرفةِ لا تبرحه... وتأتي عليها المراضعُ، دون أن تُحمل إلى أي مكانٍ، سوى ... عندما يريد أن يتباهَى بالتشكُّل الجميل الجديد لـ(بعض) نسلِهِ.

...حتى المرضعاتُ، كنت أختارُ السمينةَ المكتنزةَ لحماً ...

(1) طويل العمر: كلمة تعني شخصاً بعينه .. وهو هنا (الملك سعود) ولا تعني ... معناها الحرفي .. أي أن صاحبها تنعم أو يتنعم بطول العمر. فالملك سعود ... مات وعمره 69 عاماً فقط!

لأُسلِم فم الصغيرة (لديدها)[1] المتورم. لم أكنْ أسألُ عن الصحةِ العامةِ لأولئك النسوةِ ولا عن تاريخِ أمراضِ عائلاتهن، ما كان يعنيني ويهمُّني الاكتنازُ فقط.

... وحتى عندما تُصاب أختُك الراحلة بأمراضِ الإسهال (والتطريش)[2] وتنصحني (أم فواز) بعرض البُنيّة على الطبيبِ الألماني غير المُقيم (زمرو). فإنَّ ردّي الدائمَ عليها: أنني أخشى من عينِ (الكافرِ) أن تُصيبَها! وبدلاً من ذلك أسارعُ إلى استدعاء (عدوية)[3] إلى حجرتي الخاصةِ، التي أمر والدك بتخصيصِها لي - استثنائياً - بعد ولادتي. تأتي تلك المرأةُ وكأنها مُقدمةٌ على حربٍ كلما استدعيتُ، ثم تُسرع في لسع بطن و(عترةِ)[4] الصغيرةِ بالمكواةِ، لعلَّ وعسى أن تزيل الحروقُ - التي أحدثتها - عِلةً خفية متواريةً.

كنتُ أبحثُ عن شفاء ابنتي من خلالِ أداةِ تلك المرأةِ التي لم يبقَ في فمها من الأسنان سوى خمسٍ، وعندما لا تنفع كُلُّ جهود المرأةِ صاحبةِ الحرائقِ ـ وغالباً لا تنفع ـ أقوم بالتوسُّل وراء التوسُّلِ لـ (ابن بلال)[5] حتى يسمحَ بزيارةِ أحد المطاوعةِ العميانِ إلى حجرتي، للنفخ في نحرِ الصغيرة، على رجاء أن تذهب الشياطينُ، أو ينزاحَ حسد عيونِ أخواتي.. هكذا قيل لي، وهكذا نُصِحتُ من أخواتي.

---

(1) اللديد: هو الثدي.

(2) التطريش: الاستفراغ.

(3) عدوية: سيدة اشتهرت في القصر الأحمر والناصرية بإجراء عمليات (كي) لظهور ولبطون الأطفال؛ اعتقاداً من الأهالي بأن ذلك أنجع الوسائل للشفاء.. من كل الأمراض.

(4) عترة: مؤخرة العنق.

(5) ابن بلال: المشرف الأول والأهم على نساء وقصور الملك سعود، أخذ ابن بلال هذا المنصب؛ لاستقامته الدينية المشهودة؛ ولأنه أخٌ للملك سعود من الرضاعةِ. و(بلال) والده كان من مماليك الإمام (عبدالرحمن) جد الملك سعود.

ـحة؟!

ـت (لطيفةُ) بعد أن عاشت سنةً أو أكثرَ قليلاً. وكنت في اليومِ الحيـ ـك، حاملاً بأخيكَ الراحل أيضاً (مقرن)، ولا يفصلني عن ولـ ـلا ثلاثة أشهر. أخبرَ نذيرُ الشؤمِ والدك بموتِ (حبيبته). ويقال: يـ ـب على أحدٍ من أبنائه - حتى الكبارِ - كما بكى ذاك اليوم. يقـ ـاً إنه أراد أن (يضربني) من جرَّاء إهمالي، الذي يعتقدُ أنني تسـ ـت إلى فقدانه لجوهرته الثمينة، لولا أن ذكَّرهُ الجُلساء، بأن الـ ـ العطاء، (قدرُ الله) ولا دافعَ لأمرِه. وكانتْ هذه من المراتِ التـ ـي يتصالح معي القدر وأتصالحُ معه.

ـ ـنا فليسَ مهماً أن أقول لك كيف مرَّتْ أيامُ حزني - على عيـ ـي الأولى - ولياليها. ولعلَّ ضعفَ بصري قدْ تسبَّبَ فيه، فواصلُ الـ ـتي لم تتوقفْ، إلا لأستعدَّ لفاصلِ بُكاءٍ جديد، كمداً على ترنُّح والـ ـي سدة الحكم مُجبراً، ثم ليموتَ غريباً بعد ذلك. لتأتي لاحقاً صد ـ حزني: موت أخيك الراحلِ.. مقرن.

ـعلمي الصغير في القصر الأحمر، أبدى تعاطفاً نسبياً معي؛ لأن ـ ـخه تعوَّد على تواليات الأفراحِ والأحزانِ السريعةِ، مما لا يتركُ فضـ ـ مشاعرِ المساندةِ والتعاطفِ، التي يريدُ المكلومُ - بسذاجتِه - ـ ـع بكثرةٍ وقد غزت الآخرين. أختي (مريم الإماراتية) التي بان ـ ـضعيف الأول للعيان، خففت بألمحيتها وصادقِ مودَّتها، من ـ ـي ابنتي، ومن فاجعة سرعة نسيانِ أخواتي الباقيات كُربتي'!

ـت الساعةِ الحائطيةِ تُسمع بوضوح، وشعرتُ لوهلةٍ خاطفة، بأنَّ ـ ـيـ لم يكنْ مصادفةً، بل إشارةٌ مجهولةُ المصدرِ لي، بأنَّ ليلَ ـ ـحبرٍ يزحفُ سريعاً نحو منتصفِه، وأن صاحبة القصةِ قد بدأتْ

تفقدُ كثيراً من طاقتها السردية. لهذا أسرعت باستحضار وإلقاءِ سؤالي التالي:

"حتى ولدتِ شقيقي (مقرن)، لم يكن هناك كما يظهرُ، أحداثٌ ووقائعُ تستحقُ الذكر.. أليسَ كذلك"؟!

الابتسامةُ الذكيةُ على ثغرِها دلّت على استيعابٍ كاملٍ لرسالةِ المجاملةِ التي أتتْ على شكلِ سؤالٍ. ومن جانبِها... كانت إجابتُها السريعةُ ذاتَ مغزىً مشابهٍ:

" شكراً يا (بني) على هذه اللفتة، وعلى كلِ تخمينِك في محلِّه! لم تحدث أشياءُ غيرُ متوقعة... إلى يوم ولادتي شقيقك في الطائف. أقول غيرَ متوقعةٍ؛ لأن تدافع (الحريم) لكسْبِ قلبِ والدِك شيءٌ معروف ومتوقعٌ. وتدافعَ والدِك وأعمامِك الآخرينَ لكسبِ مواقع شعبيةٍ داخلَ بلادِهِم، أو حتى لإشعارِ العالم الخارجيِّ بأهمية هذا القطب السياسي المحلي أو ذاك.. أمرٌ كذلك متوقع. وأيضاً فتراتُ الاستكانة الاجتماعية، من جرّاء الأمراضِ العديدةِ لجدِّك الزعيم... لم تكن مفاجئة. الأحداثُ الخارجيةُ فقط هي التي كانتْ تحرِّك الساكنَ من الأوضاعِ، بالرغم من أننا لم نكنْ نفهمُ معنى اتجاهاتها. كنا نسمعُ - مثلاً - من بعضِ مناقشات (عمّي) مع قلةٍ من نساءِ القصر، الراغبات في إثارة اهتمامِ والدك، عن طريق إشعارِه بأنهنَّ متابعات للقضايا العالمية؛ كنا نسمعُ عن حركةٍ (خارجة عن المِلَّةِ) تسمَّى الشيوعيةُ. وأن هذه الحركةَ استولتْ على الصينِ وطردت حكامها الميالين للغرْب. وكنا نسمع مثلاً عن غزو كوريا الشيوعيةِ (= الشمالية) لكوريا الجنوبيةِ التي تخضعُ للهيمنةِ الأمريكيةِ. وبين الحينِ والآخرِ كان والدُك و (مُثقفاتُ) عائلتهِ من البناتِ والزوجاتِ يتحدثون عن مشاحنات بين الملكِ فاروقِ المصري وبين الحاكمِ البريطانيِّ المستعمرِ لبلاده.

...في هذه الآونةِ كان والدك يأخذُ حريمه - وأنا من ضمنهن - إلى

جدة والطائف، حيث يقضي الصيف، وحتى أوائل الخريف... هناك بجوار والدِه، الذي كان يحبُّ قضاءَ شهور القيظ الطويلة في الطائف، بسبب جودةِ هوائِها ومُناخِها الصيفيِّ الممطرِ.

وفي أوائلِ صيفِ السنةِ التي سبقتْ وفاةَ جدك بثلاثةِ أعوامٍ إلا شهوراً قليلة[1]، كنا هناك سوياً في الطائف: الملك وولي عهده ونساء القصرين. بينما كان عمُّك (فيصل) ينوبُ عن والدِه في جدة. ذكرتُ هذا التاريخَ؛ لأنني رزقتُ بتعويضٍ (مؤقتٍ) لفقدي بُنيتي الجميلةِ الراحلةِ.

شقيقُك الذي رحلَ عن الدنيا في ريعان شبابه، وُلد في العاصمةِ الصيفيةِ للمملكةِ، وبالتحديد في قصور (الحوية) الواقعة في الشرق منها. ولا أدري لماذا راودني شعورٌ قويٌّ عندما فتحت عيني، بعد آخر دفقات المخاضِ وسماعِ صوتِ الصبيِّ، الذي خرج للدنيا مُتعافياً جداً وقد (أكل) أياماً من الشهر العاشرِ؛ أن هذا القادم ـ الذي أخبرتني صيحاتُ فرحِ القابلةِ بأنَّه مولود ذكر ـ لن يعيش طويلاً. وأن حياته لن يسمعَ فيها إلا تراتيلُ الشقاء والأحزان. وقد صدق - للأسف - شعوري.. ويا ليته كان كاذباً، ولو مرةً واحدة! هي هذه المرة.

أستغفرُ الله... أستغفرُ الله العظيمَ!!

...انتبهْ يا (سيفُ) إلى ما سأقوله، وقد جاءَ ذكرُ (شقيقك): أنا لا أريد أن أذكر أي شيء عن هذا (الحبيبِ) الذي كسرَ برحيلِه رغبتي في لعبِ لعبةِ التفاؤلِ، التي نُتقنُ، نحن البشر حفظ قوانينها، لكننا نعزف عن ممارسةِ تلك اللعبةِ الغبيةِ، عندما نتأكد أن هزيمتنا أمام محن الدنيا، لا رادَّ لها، حتى ولو حـمَّلنا القدرَ ما لا يُحتمل، وحتى لو أحسنا الظنَّ في القادمِ المجهولِ الذي تحمله أرحامُ شرور الأيام.

دعْك ودعني، يا (بني)، من ذكر ما وقع لـ (مقرنٍ)، رحمه الله.

---

(1) هناك هامش خطأ محتمل في تقديم وتأخير هذا الحدث البعيد.

لن أذكر اسمَه أبداً خلال ما تبقى من زمنِ هذه القصةِ، التي لا أدري إن كُنتُ قد أحسنتُ صُنعاً في إطلاعك على وقائعها وملابساتها، أم أنني قد نكأتُ جروحاً لا يحسنُ بالعاقلِ أن يعيد فتحها وإدماءها؟! عند الضرورةِ فقط سيكونُ اسمُ أخيك حاضراً... والضرورةُ تعني، الأحداثَ التي لها علاقةٌ باثنين من الراحلين: أبيكَ وأخيكَ... رحمهما الله"!

مسكينةٌ هذه الأمُ التي نُكبتْ بابنها الشابِّ الذي لم يتجاوز عمرُه، عند وفاته، ثلاثة وثلاثين عاماً. كان (مقرن) زين شباب والده، ويمثل (طرازاً) آخر من إخوانه.

أنهى شقيقي المرحلةَ الثانويةَ ولم يضعْ سيجارةً واحدة في فمِه. كان الجميعُ يغبطُه على عقلِه وتماسك أخلاقِه. هذه الحزمةُ من مكونات الشخصيةِ أوغرت عليه قلوبَ الكثيرينَ من أبناءِ العائلةِ ... حتى إخوته!

"...وأتذكَّرُ، وتتذكر هذه الأمُ، التي راحت لدقائقَ قليلةٍ تتلهى، وهي مستغرقةٌ في صمتٍ حزين ذي دلالة، بلمْسِ وتمشيطِ خيوط حريرِ السجادةِ التي كانت تفترشُها ـ أن (مقرن) قد اختاره والده عندما كان في (أثينا) لحملِ رسائلَ متبادلةٍ منه (= الملك سعود) إلى عمي (فيصلٍ) في الرياض.

كانت تلك الرسائلُ المتبادلةُ مهمة جداً؛ ولأهميتها اختار (غريبُ أثينا) القويَّ الأمينَ من أبنائِه.. لإتمامها.. وبسريةٍ.

الرسائلُ، كما أوضحت المصادر التاريخية بعد ذلك، كانت تحتوي على طلباتٍ من الملكِ (السابقِ)، للعودةِ إلى عاصمةِ بلادِه؛ التي أراد أن يعيش فيها بقيةَ أيامه؛ وتضيفُ المصادرُ ذاتُها: بأن إجاباتِ (الرياض) تضمنتْ رفضاً مُقنعاً، جاء على شكل موافقةٍ على الإيابِ الأخويِّ... بشروط مثل: ألّا يدخل على الملك (السابق) أحدٌ في مسكنِه الذي تحدده الحكومة... إلا بأذنٍ من الملكِ المتصرف (= فيصل). وأن الخياراتِ لديه قليلةٌ عندما ينوي الإقامةَ في أحدِ قصوره؛ تلك الخيارات

هي: إما قصرَ المنصوريةِ[1] وإما قصرَ (سلطانة) في المدينة المنورة. وإما قصراً نائياً على أحد جبال عسير بالقرب من مدينة "أبها". وشروط أخرى: ألّا يتنقل ـ أبداً ـ الملكُ (السابق) برياً، من خلالِ موكبٍ مرافقٍ يلفت الانتباهَ، بل مجرد سيارتِه الخاصةِ، متبوعةً أو مسبوقةً في حال الضرورةِ، بسيارتين فقط؛ تحملان حاشيته وأتباعه. والأهم من كل ذلك ألا يمارسَ الملكُ (السابق) أي نشاط اجتماعيٍّ أو سياسيٍّ أو اقتصادي..!

...على كل الأحوال هذه الأمنيات والشروط المقابلة لم تخرج للنور أبداً. كما لم يطَّلع عليها - غيرُ حامِلِها - سوى قليلين.

لكنَّ المعلوماتِ الحقيقيةَ هذه، تؤكدُ أنَّ الشابَّ الراحلَ، كان يمكن أن يكونَ علَماً في أسرته. وكان يمكنُ أن يبزَّ الكثيرين من أبناء العائلةِ المالكةِ... لولا قصةُ الحبِّ تلك:

بعد أن تجاوزَ (مقرنُ) محنة وفاةِ والدِه، والقسوةَ التي عُوملَ بها (الملكُ السابقُ) حياً وميتاً من قبل إخوانه وبني عمومته. وبعد أن حصل (ابن والدتي) على الثانوية العامة، التي كانتْ بمثابةِ الحصولِ على درجة الأستاذيةِ في أيامنا الحاضرة. وبعد أن أعطى دلائلَ على أنه لن يتوقفَ عند هذا الحدِّ، سافر إلى أمريكا للدراسةِ الجامعيةِ هناك، ثمَّ عودة سريعة؛ لعدم التكيُّف مع المجتمع الأمريكي؛ ليعوض هذا (النكوصَ) بحصولِه بعد أربع سنواتٍ على الشهادةِ (الكبيرةِ) من جامعة الملكِ سعود، تلك الجامعةُ التي حملتْ، أثناء زمن الغضبِ المبالغِ فيه على والده، اسمَ (الرياضِ) بدلاً من اسم مؤسسها ومؤسس جامعاتٍ ومعاهد متخصصة كثيرة. أقول: بعد كلِّ هذه النجاحاتِ في تجاوز المحنِ

(1) قصر صغير في وسط واحة من النخيل وأشجار التوت يقع جنوب الرياض.

والمحبطاتِ، والعقباتِ المصطنعة أو الطبيعية؛ وقع (مقرنُ) في فخ قاتل يصنعه الناسُ لأنفسِهم: اسمه! الحب.

صنع شقيقي الراحلُ، مع حفيدةٍ لأحد أعمامه قصةَ حبٍّ غريبةً!

كلُّ شيء كان يشيرُ إلى أن قصةَ الحب تلك، ستنتهي بحفلةِ عُرسٍ أسطوريٍّ باذخٍ سيتحدث عنه المجتمعان الملكي والمخملي لفترةٍ طويلة. لكن السنينَ وأشهرها وأيامَها تمرُّ، ومواعيد الزواجِ المتعاقبةُ يتم تسويفها من قبل أخي لسببٍ غيرِ معروف.

لم يكنْ أحدٌ يعرفُ أبداً لماذا كلُّ هذا التأخير. المالُ موجودٌ. ومنزل الزوجية يمكنُ إعداده بهذه الطريقة أو تلك. والعاشقان متلهفان - كما يبدو - لساعاتِ الوصالِ والغرام.

...العمُّ، جدُ خطيبة ومحبوبة (مقرن)، قرر أن يضعَ حداً لهذا التلكؤ من جانب ابن أخيه. لقد أنهى الخطوبةَ الطويلةَ في ساعةٍ. وأتبع هذا التصرف - فوراً - بعقد قران حفيدته على ابن عمٍّ لها آخر..!

صُدم (مقرن).. احتجَّ.. توسَّل.. بكى.. لكن ما حدث قد حدث، وأصبحتْ قصةُ الحبِّ الشهيرةُ من الماضي.

لم تكنْ تلك الأحداثُ لتمرَّ على شقيقي الراحلِ مرور الكرام. لقد هدَّته فجيعةُ انهيارِ قصر الحبِّ الذي بناه خيالُه. لم يفهمْ أن يكونَ الانتظارُ - فقط - والأزمنةُ المُستقطعةُ بين بدايات الحبِّ ونهايته، أسبابا تُبرر الشروع في قتل القلوبِ، وبناء محارق للآمال. لم يفطنْ (المسكينُ) إلى أن المرأةَ لا تفهمُ، من جانبها، مفهوم الحبِّ - شبه - العذريِّ، أو الحب المتوقفة ترجمتُه - وإن مؤقتاً - إلى زواجٍ وارتباط.

المخلوقُ الأنثويُّ يريدُ شيئاً محسوساً: تريدُ المرأةُ دائماً امتلاك الرجل، لتأتيَ منه بأولادٍ وبناتٍ، قد لا يُمكن تخمين عددهم، معتقدةً أن أحباب الله الصغار، يمكن أن يضعوا وهم يولدون واحداً بعد آخر،

قيوداً على (تحركات) الرجلِ. تريد الأنثى منزلاً تُزار فيه من الصديقات والأهل، وتُشرب في مجالسه أكوابُ الشاي. بينما الجمعُ الأنثوي (الناعِمُ) يتحدثُ عن الزيجاتِ ومشاكلِ الطلاقِ، وآخر صيحاتِ الموضةِ في الملبسِ والمفروشاتِ والأحجار الكريمةِ ونصف الكريمة. كلُّ رسائل العشق والمكالماتِ الهاتفيةِ الليليةِ التي تتحدث عن السُهاد، واللهفة، ووحي الشعر، والكلامِ المنمقِ الذي يهبط على المحبين أثناءَ فترةِ الخطوبة، كلُّ ذلك ليس إلا طريقاً للمرأةِ، لامتلاكِ الرجل... عاجلاً وليس آجلاً!

...ويوماً بعدَ يومٍ، أخذ (مقرن) ينزع رصيدَه من إعجابِ الآخرين بهمّته وطموحه. ولحق ذلك تبدلٌ في نظرةِ من يعرفُ الشابَّ القويمَ المثاليَّ وأخلاقَه النادرةَ لتحل، بدلاً من ذلك، نظراتُ إشفاقٍ على هذا الأمير الشابِّ، الذي كان نموذجاً، وأصبحَ، بعد أن عاشر جُلساء السوء ومروجي الأحلام الكاذبة المُذهبة للخلق والصحة؛ مجرد حُطام إنسان لا يعي شيئاً حوله. وإن تذكر شيئاً من أيام الحب واللهفات خلالَ نوباتِ صحوٍ متأخرةٍ، يعود - هذا اليائسُ - سريعاً لوضعِه السابقِ، باكياً متكوماً على نفسِه العاجزةِ... إلا عن ذكرِ مؤلماتِ الأيام.

انتهت القصةُ الحزينةُ، بموتِ صاحبِ قصةِ الحبِّ العجيبة - عليلاً مكسورَ القلبِ - في وسط منزلٍ ريفيٍّ على الأطرافِ الفاصلةِ بين مدينتيْ جنيف ولوزان السويسريتين.

هل كانَ ذلك بسبب الحبِّ أم أنه (القدرُ) وليسَ غيرُه؟ أم أن مشاريعَ الخيرِ الإنسانيةِ - المتمثلةِ في هذا الحبِّ وذاك - دائماً ما تموت سريعاً قبل أن ترى النور؟ أهو الضعفُ البشريُّ ليس إلا... حتى ولو بدا أنَّ الأمرَ غير ذلك؟

أسئلةٌ كثيرةٌ بلا إجابة. والعجوز التي انتهت من (تمشيطِ) سجادةِ

الحريرِ لا تريد - إشفاقاً على نفسِها - أن تُسأل عن الحبيب وماضيه، وبالتالي فالإجابةُ ليس لهـا معنى هنـا.. ولا رغبة.

من جانبي، كانتْ رغبتي قويةً - رغم الحزنِ الذي أثارتْه ذكرى الشقيقِ الراحلِ - في انتشالها من حالة فقدانِ (بوصلةِ) سردِ قصَّتها، التي شارفتْ - كما يبدو - على نهايتِها... سألْتها:

"في يومِ وفاةِ الملك عبد العزيز بالطائفِ، كان الذي بجانبه ابنُه فيصل، وولي العهد في جدة. هذا الوضعُ مخالفٌ لما جرت عليه العادةُ الصيفيةُ (للشيوخِ)... أليسَ كذلك؟"

أيقظها هذا السؤالُ - فعلاً - من (سرحانٍ) أفهمهُ وأتوقعهُ كلما مرَّ اسمُ شقيقي. إنها وهي تجيبُ، تعود (لجوِّ) الأحداثِ الماضيةِ، التي ترويها، والآخذةِ مساراتٍ تختلفُ كُلياً عن سابقاتها:

"بالتأكيد...! كلُّ الأصياف السابقة، كانت إقامةُ القيادةِ تتشكلُ حسب الوضعية التي ذكرتُها لك سابقاً. حدث هذا في السنة التي ولدتُ فيها (مقرن) في الطائف، وولدتْ فيها كذلك مريمُ الإماراتية أول أبنائها.. أخاك الراحلَ (فواز). وفي كلِّ السنواتِ التي قبلَها وبعدَها، لم يتغيَّر ديدن البروتوكول الملكي الصيفيّ... سوى تلك السنةِ التي خمدت فيها - للأسف - آخر أنفاسِ رجلِ الجزيرةِ العظيم.

...في صباح أيامِ خريفِ سنة 1373هـ[1] وعن عُمْرٍ يناهزُ السابعة والسبعين، تُوفي مؤسس وموحد أرجاء الجزيرةِ الواسعة، والمتباعدة، والمتنافرةِ، والمتحاربةِ... التي أصبح اسمها، فيما بعد، (المملكةَ العربيةَ السعودية).

كانَ بجانبِ الملكِ الراحلِ - الـمُلهِم والمحظوظِ والاستثنائيِ -

(1) الموافق لـ: نوفمبر 1953م.

وهو يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ بالطائِف؛ ابنه فيصل... وليُّ عهدِ الملكِ الجديد.

أما والدك فقد أمره والدُه أن يوجد ـ في تلك السنة فقط كحالة استثنائيةٍ ـ هناك... في جدَّة. وأن يكون النائبُ معه في الطائف. وقد يكون هذا التصرف من (الشيوخ) مستغرباً للوهلة الأولى، لكن الذين يعرفون خوافيَ ما كانَ يحدثُ في المملكةِ آنذاك... يعرفون السببَ!

السببُ الذي تسرب عنه الكثير في القصور، التي لا تستطيعُ إخفاءَ الأسرار طِويلاً، هو أن الملكَ (عبد العزيز) أخذَ بنصيحةِ وزيرِه (ابن سليمان) بضرورةِ إرسالِ وليِّ العهدِ إلى جدة؛ لإقامة صلاتٍ قويةٍ - وجديدة ـ مع الوجهاءِ والتجارِ والفعالياتِ (الحجازيةِ) المهمة هناك؛ لأنهم قد يثيرون المتاعبَ أمامه، عندما يُعلن عن ارتقاءِ - من لا يعرفونه كما يعرفون أخاه - العرش، في حال ... أخذ الله وديعَته!

... وحَّدت الأحزانُ، التي عصفت بكل أنحاء المملكة: شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً؛ الجميعَ في هذه البلادِ، كما وحَّدهم مليكُهم الراحلُ، الذي منحهم دولةً موحدة آمنة، وأوصلهم إلى مكان غيرَ بعيدٍ مع الثروة والرفاه.

تحت وطأة جللِ الحدثِ وضخامةِ مصيبةِ الفقدِ، انزاحتْ - مؤقتاً - اختلافاتُ السعوديين في اعتقاداتهم للكيفية التي ستُحكم المملكة بها بعد رحيلِ المؤسسِ العظيمِ. وتوارت - إلى حينٍ - الاتجاهاتُ وطوائفُ الأفكارِ، التي بدأ المراقبون يشعرون بوجودِها الملموسِ في الحياة الاجتماعيةِ السعوديةِ غيرِ النشطةِ ... مؤقتاً.

نساء الملكِ الجديدِ كُنَّ مثل الجمعِ المذهولِ. كُنَّ حزيناتٍ، تعصف بهن الهواجسُ والظنونُ حول مستقبلِ البلادِ، التي يلتحفون سماءها ويفترشون أرضها، حتى وإن كان أغلبهن لا صلة لجذورهن، بهذه

الأرض الباكيةِ الحزينةِ، سوى أن مستقبلَهن الغامضَ، يصنعه على - كُرْه منهنَّ - من يبكين لفقدِه، أو من يرجين الله - وهو يتسلطنُ - أن يحفظه لبلادِه.. ولهنَّ!

في إحدى حُجُرات قصرِ (الرويس) في جدَّة، جلس رجلٌ مأزومٌ، اتجهت إليه أبصارُ السعوديين جميعِهم تقريباً. في تلك الساعاتِ العصيبة التي تبِعتْ انتشارَ خبرِ وفاةِ الملكِ عبد العزيز، وهو يبكي بحُرقةٍ لا مثيلَ لها. إنه الملكُ الجديدُ (سعود بن عبد العزيز) الذي استأذنته (حريمُه) في أن يدخلْنَ عليه معزيات ومبايعات (جلالَته) على أن يسمعْن ويطِعْن أوامره في المنشطِ والمكره.

تقبّلَ الرجلُ الذي سُمع نشيجُه بوضوحٍ، تعازي (حريمِه) ومبايعتهن.. وإنْ على عجلٍ؛ لأنه كان يستعدُّ للخروجِ إلى ملحق الرجالِ بالقصر لتقبل تعازي ومبايعةِ من حضرَ مُسرعاً من رجالِ الدولةِ والرعيةِ، وهم غيرُ مصدقين الخبرَ الجللَ الذي بدأ ينتشر كالنّار في الهشيم في جدة كما في كلِّ أنحاءِ المملكةِ، على الرغم أن الخبرَ، الصاعقةَ - كما أسماه غالبيةُ الهارعين إلى القصرِ - لم يكن مُفاجئاً ولا غيرَ متوقعٍ عند المحتفظين بتوازنِهم العاطفيِّ والإدراكيِّ.. وما أقلهم ساعتها!

سمعْنا من حريمِ قصرِ (الملكِ) أنَّ (عمنا)، وبعد أن تقبَّل التعازيَ والمبايعاتِ، اتجه، على الفور، إلى الطائف، حيث سيرافقُ مع وليِّ عهده جثمانَ المؤسسِ، المحمولِ إلى الرياضِ للصلاةِ عليه، ومن ثَمَّ دفنه في مقابر (العود) التي تضمُّ رُفاتِ الأسلافِ من أئمةِ الدولة السعوديةِ الثانيةِ وعائلاتهم.

في تلك الأيام شرَعَ فريقٌ من الناسِ البسطاءِ يحلفون أنهم علموا بوفاةِ (الشيوخ) قبل أن تحدثَ بأسابيعَ، ذلك عندما زارتْهم أحلامٌ مزعجةٌ أخبرتهم بالحدثِ المفجعِ القادم! وهناك (فريقٌ) آخر من سوادِ العامةِ، أقسمَ أن كسوفَ شمسِ اليومِ التالي لوفاة (أبي تركي) ما هو إلا علامةٌ

على حزنِ السماءِ؛ لاختفاءِ الرجلِ المؤمنِ الاستثنائيِّ مِن على هذه البسيطةِ!

ولأن الأحزانَ والفواجعَ تبدو، عند حدوثِها، ضخمةً ولا نهايةَ لها، ثم يتدرَّج، هبوطاً، إحساسُ المفجوعين المكلومينَ بها، حتى تنتهيَ مشاعرُ الفقدِ وكأنَّ شيئاً لم يكن... ما لم تبْق هنا وهناك توابعُ للمصيبة؛ لأن هذا يحدثُ من الناس دائماً، حدث مثلُ هذا، حتى عندما رحلت تلك الشخصيةُ التاريخيةُ، التي لا يتكررُ وجودُها بين الناس.. كثيراً.

أفاق الناسُ، هنا، على مختلَفِ طبقاتِهم ومكاناتهم، وبعدَ زوالِ هولِ الصدمةِ، على حقيقةِ أن إنساناً - آخرَ - غيرَ الملكِ عبد العزيز الـمتعايشين عقوداً مع شخصه ولقبه، يدير شؤونهم بنفس لقبِ (صاحب الجلالة). اللقبُ الذي كأن أحداً لا يستحقُّه... إلا الراحلُ الجهبذ. مع أن الحاكمَ الجديدَ ربما لم يكن غريباً عليهم، وهو شديدُ الصلةِ بالراحل... أكثر من هذا: هم يعرفون أن الملك الجديدَ هو (وجْهُ سعد) منذ القديم على والده. ويعرفون كذلك أنه كريمٌ طيبٌ. العاهلُ الجديدُ تفاءَل به شعبه بلاشك، خاصةً عندما كان يُطلقُ وعودَه للناس، بأن أياماً زاهرة قادمة، سيعرفون فيها العيشَ الرغدَ بل وأكثر مما حلموا به؛ لكن المطّلع على بواطن الأمورِ الملكية، يعرف ألَّا تثريب على المصدومين إن هم لم يتأقلموا مع الحقيقةِ الجديدة. فمنْ رحل هو (عبد العزيز) ويكفي أن يمرَّ هذا الاسم ويمر غيابه لتتضاءل بعده الأسماء كلُّها. الأسماء التي تحاول أن تملأ فراغاً تركه الراحلُ العظيم، حتى وإن كانَ الخلفُ - الذي يحاول إقناعَ الناسِ به ونسيانِ الماضي - هو ابنهُ الأكبرَ سعود!

لكن إحساساً مُختلفاً، خالطَ سكانَ البلادِ السعوديةِ منذُ الشهور الأولى التي تقلَّد فيها (عمِّي) الحكمَ؛ بأنَّ الحاضرَ والمستقبلَ جديران أن يُعاشا؛ لأن الماضي، وإن كان جديراً بالفخر، يبقى ماضياً مهما قيل فيه من أشعارٍ ومراثٍ!

...وبالفعل يوماً بعد يوم، غذّى والدك يا (بني) مواطنيه بشعورٍ متزايد، هو: ضرورةُ طرْح ذكرِ الماضِي المجيدِ وراءهم؛ لا لأنه سيِّئ، بل لأن التعلقَ به وحده وكأنه قدرٌ مقدور، يخالفُ تطلعَ القيادةِ الجديدةِ، بتأسيس بناءات الدولة ومؤسساتها الجديدة، بعد أن قام الآباء والأجداد، بإزالة مخاوفِ الناسِ من الأمنِ المفقود.. والتوحيدِ بعيدِ المنال، ونشوءِ دولةٍ عدها (البعضُ) من المستحيلاتِ والأساطيرِ.

كيف نمّى والدُك هذه المشاعرَ التفاؤليةَ؟

أعادَ تكوينَ مجلسِ الوزراءِ، الذي كُوِّن من قبل بشكلٍ صوريٍّ ومفتعلٍ بسبب رغبةِ الملكِ المؤسّس في رؤيةِ واحدٍ من أحلامِه الكبيرةِ قبل وفاتِه بأسابيع قليلة فقط. ثم أخذَ يتجوَّلُ في أنحاءِ المملكةِ ويتباسطُ مع سكانِها المختلفين في عاداتهم وتقاليدهم وبيئاتهم وظروف عيشهم؛ وزيادة على الأعطياتِ التي راحتْ تُنثر يمنةً ويسرةً على الفُقراء والمعْوزين؛ أمرَ والدك بزيادةِ رواتب الموظفين؛ وأخذَ يضخُّ أموالاً حكومية في السوقِ السعوديةِ الناشئةِ، مما أحدثَ رواجاً تجارياً وعقارياً في البلاد ليسَ له مثيلٌ قبل ذلك. إلا أن هذا الإنفاقَ المبالغَ فيه، أدى إلى مشاكل خطيرةٍ في موازنةِ الحكومةِ، التي أعلنت - للمرةِ الأولى - في السنةِ التاليةِ لوفاةِ جدك. عرفْنا، يا (بني)، هذا التأزمَ من الإذاعاتِ، ومن ملامِحِ الكربِ العميقِ، الآخذ بالالتصاقِ رويداً رويداً، بتقاطيع وجهِ والدك، الذي لم يكنْ كبيراً في السن عندما تولى الحكم[1].

ومما زادَ من حرجِ الوضعِ الماليِّ للمملكة، ما بدأ يضغطُ على المسؤولين، من حتميةِ تشكيلِ جيش محترفٍ، وقواتِ أمنٍ قادرةٍ على ضبط الأمورِ الداخليةِ. هذه الضرورة وإنجازُها يتطلبان - بالطبع - اعتماداتٍ ماليةً كبيرةً، تحملتها مالية البلاد. لكنَّ هذه القراراتِ -

(1) كان عمر الملك سعود عندما تولى الحكم أكثر بقليل من خمسين عاماً.

وخاصةً قرار تشكيلِ جيشٍ لحمايةِ الحدود وقوات خاصة أخرى مدربةٍ لحماية الأمن الداخلي - كانت لازمةً جداً في ضوء الانقلابات الثوريَّة التي اجتاحت العالمَ العربيَّ. والتي تنادي أدبياتُها الثورية، بأن يشتعلَ جزءُ البيتِ العربيِّ الـمُعافى من مرضِ انقلاباتهم، بنيران غوغائيتهم وسذاجتهم القيادية. ومع أن مخاطر الجوارِ لم يتضحْ للقيادةِ السعوديةِ شكلُها الكُلِّيُّ إلا فيما بعد؛ رغم ذلكَ فما كان يُذاعُ من بياناتِ انقلابيةٍ في الشامِ من جهة، ومن جهة أخرى ما كان يُسمعُ ويُقرأ من إسقاطات مجلسِ الثورةِ في القاهرةِ، عندما يُذكِّرون الجماهيرَ بمفاسدِ النظام الملكيِّ (البائدِ) لديهمْ، ودعوتهم (الجماهيرَ) العربية لاحتذاء ما فعله الثوار هنا وهناك. إلى جانب المراسمِ الثوريةِ حول إلغاءِ الألقابِ والمصادراتِ الضيقة غيرِ القانونيةِ لأملاك الطبقةِ الغنية في البلاد التي شهدت الانقلابات؛ كل ذلك أخذ يُدخلُ الوساوسَ في قلبِ والدِك وإخوانه. ويرسلُ إشارةَ تحذيرٍ لهم، بأنَّ مراحلَ العملِ السياسيِّ القادمةَ تختلفُ، بصورة كليةٍ، عن السابق. وأن الجهدَ الماضي الموجه لتوحيدِ البلادِ السعودية وتأسيس هياكل دولتها الناشئةِ، لن يكون ضخماً جداً، قياساً بالدفاعِ المستقبلي المحتملِ ضد هجماتٍ موجهةٍ للممالكِ العربية - عموماً، وللسعودية خصوصاً؛ مرةً باسم الشرعيةِ الثوريةِ، ومرةً باسم البعثية أو الناصرية، أو حتى الشيوعية. ومما زاد من المخاطر وجعلها ماحقة؛ أن تلك الدعواتِ للتغيير الانفلاتيِّ، وقلبِ أنظمةِ الحكمِ التقليديةِ في البلاد العربية، كانت تستهوي، عادةً، الدَّهماء غير المتعلِّمين. ومثلُ هؤلاء كثيرون جداً في المنطقة العربية. على أن هذا لا يعني، كذلك، أن الطبقة العربيةَ المدّعية تفردها بخاصية معينة، لها طابع ثقافي وتعليمي، كانت بعيدة عن رياح غياب العقل الجمعيِّ العربيِّ... إبان أيامِ الحركاتِ الانقلابيةِ العربيةِ.

للأسف يا (دكتور) شاركت النخبُ العربيةُ في مجالاتِ الأدبِ

والفنونِ آنذاك، في تغييبِ ما تبقى من (مُخ) العالمِ العربيّ. كان والدُك يتحدثُ مع مستشاريه تليفونياً حولَ الرسائلِ الإعلاميةِ والإصداراتِ الروائيةِ والأعمالِ الفنيةِ الأخرى، المهاجمةِ لنظامهِ الملكيّ، والمبشرةِ بانتصاراتٍ ستقومُ على يد الأنظمة الثورية. وعندها نلاحظ، ونحن جالسون حولَه، مدى استنكاره – رحمه الله – لأنْ تنضم نُخب الأدباءِ والمثقفين العرب، لركاب الـمُدلسين من القياداتِ الثوريةِ الحاكمةِ في العالمِ العربيِّ!

كان والدكَ يُسمِعُنا تلكَ الجملَ الاستنكاريةَ – التي حفظناها عن ظهر قلب – بعدَ كل محادثةٍ تليفونيةٍ مع مستشاريه في هذا الشأنِ؛ يقولها، وهو ينظرُ محملقاً في عيوننا – نحن نسوته – وكأنه ينتظر منا أن نُهدئ من روْعه، عبر دعوته لتذكُّرِ التاريخ وعبره، أو مناشدته أن يصبرَ ويعد للأمرِ عُدَّته، حتى تنجليَ عاصفةُ الثوارِ العاتيةُ. لكننا كنا دائماً نخذله، ولا يجد منا – نحن السراري، وقد أفشلَ (الكثيرون) مشاريع تعليمنا القديمة ـ ردوداً شافيةً ومؤنسةً وعاقلةً... سوى أن نخبره بأننا دعونا الله الليلة البارحة، أن (يقصفَ) عمرَ أصحابِ الإذاعاتِ، والذين (يَخُطُّونَ) بأقلامهم سفاهات كهذه. وأننا عازماتٌ هذه الليلةَ ـ وكلَّ ليلةٍ ـ على تكرارِ ردَّ فعلِنا العنيفِ ذاك!

... الشيءُ المثير يا (بني)، والذي مازلتُ غيرَ مدركةٍ لخفاياه، هو ما كان يربط والدَك بالرئيس المصريِّ الراحلِ (عبد الناصر) من علاقة غيرِ مفهومةٍ. فالاثنان على اختلاف لا يمكنُ ردْمُه: في الرؤى والاتجاهاتِ، وطرُقِ العملِ، والمكاناتِ، والغاياتِ؛ لكن (حالةً) غريبةً من الودِّ والاحترامِ، كانتْ تربطُ أحدَ أطرافِ العلاقةِ مع الطرفِ الآخر!

والدك، يا (سيفُ)، منذ أولِ يومٍ لحكمهِ، وحتى تُوفِّيَ، كان يحملُ في قلبِه – على الرغمِ من مزاعمَ بوجودِ خُططٍ سعوديةٍ مقابلةٍ ضدَّ عبدِ الناصرِ – محبةً لا يمكنُ وصفُها وقياسُها للرئيس (عبد الناصر). صحيحٌ

أنه تأذى، كثيراً، [illegible] عبد الناصر) وقنابلهِ المتسللةِ عبرَ الحدودِ مع اليمن، [illegible] سقوط الهجومِ الإذاعيِّ والصحفيِّ عليْه وعلى أسرته [illegible] مراتٍ عديدةٍ، مخاطرُ مشاريعِ الانقلاباتِ وزعزعة [illegible] السعوديِّ، التي كان (عبد الناصر) يخطط لها، لكنه، [illegible] قبلَه، يعود ليذْكُرَ الرئيسَ المصريَّ بالخيرِ، ويعطيه [illegible] رجلَ يحتاجُ لمستشارين أخيارٍ حوله يبصرونه لسُبلٍ أفضل [illegible] يقوم بفعله في المجالين السياسيِّ والإعلامي. وكانت [illegible] غريبةٍ بين الرجلين، هي ما ظهرَ من احتضان (عبد الناصر [illegible] آخر أيامِ حياتهِ، وتعدى الأمرُ إلى أن أصبحَ والدك، يتنقل [illegible] العالمِ بواسطةِ جوازِ سفرٍ مصري دبلوماسيٍّ، بعد أن [illegible] جوازُ السعودي!

... هنا يا، (بني [illegible] أن أعلن عن ابتسامة فيها من الألم ما فيها، من جزء [illegible] تاريخيةٍ لتلك الحقبة من العلاقة ـ السعودية ـ المصرية [illegible] – كان يستنكرُ على كلِّ الطبقاتِ وخاصةً الطبقةَ المثقفة [illegible] الناصر وبالثوريين العرب الآخرين، الذين تكررت انقلابات [illegible] بعضٍ. سواءٌ كان في مصر أم في غيرها من البلاد العربية [illegible] بعض – رحمه الله – إلى أن الإعجابَ بتلك الطروحاتِ الثورية [illegible] أقربَ المقربين إليه: إخوانه... أبناء الملك عبد العزيز. [illegible] كثيراً. والذين قام بعضُهم، بتقليدٍ مضحكٍ لما ترمز [illegible] مثل: الثوار الأحرار...! اسمى أبناء الملوكِ أنفسَهم ذات [illegible] الأحرار)، وما دروْا أن في هذا التقليد الأعمى الجاهلِ، متشبهين [illegible] بهم!

... هناك أمرٌ [illegible] أكتشفْ) لماذا لم يكُن عبدُ الناصر أكثرَ حكمةً مما كان عليه؟ [illegible] المستشارون والمحيطون به...! ونسيَ – طويلُ العمر – أن [illegible] اكتشافِ هذه، على أزمتهِ وحاله...

والدليلُ هو ما انتهى إليه تاريخه السياسيُّ، من نهايةٍ غيرِ طيبةٍ ولا متوقعةٍ!

...أريدُ أن أقولَ شيئاً آخر في هذا الشأنِ!

...كم كانت الأمةُ العربيةُ ستبدو أسعدَ حالاً وأقوى، لو أن التاريخَ كتبَ عن علاقةٍ ـ سعودية ـ مصرية ـ سويةٍ تُماثل ماهي عليه الآنَ، وليست كما كانت في تلك الأيامِ الحالكةِ السواد؟

بادرتُ مُستغلاً التِقاطها لأنفاسها اللاهثة؛ لأقول لها:

"أسرفتِ - رعاكِ الله - في الحديثِ عن عبد الناصرِ والعلاقاتِ السعوديةِ ـ المصرية في تلك الأيامِ، وأخشى أن يكون هذا على حساب (الأهمِّ)، الذي أعتقدُ أنه أكثرُ غموضاً في تاريخِ والدِي، من تلك المناكفاتِ العربيةِ، التي نرى مثلها حتّى الآنَ"!

حركةُ اليدينِ، والرأسِ، وتمتماتٌ من الشفتين، علامات دلت على أن قوليَ السابق لم يجد الصدى الطيب لديها. ثم أرْفَقتْ تلك العلاماتِ التي ظننتُ أنني لم أتبين معناها.. بهذهِ الكلماتِ:

"في هذا يا (دكتور) أنتَ جاهلٌ جداً!! العلاقةُ السيئةُ بين أبيك وعبد الناصر، وبين بلادِكَ ومصرَ، كانت من الأسبابِ الـمُعلنةِ التي ادعى تجمهرُ الأمراءِ في مجلس الوزراء وفي خارجه أنها أساءت إلى المملكةِ. هذا الجمعُ لم يكن وليُّ عهدِ أبيك، بعيداً عن التأثير عليه.. ولو من بعيدٍ؛ صحيحٌ أن هذا التجمُّعَ، يتفقُ مع والدِك على ضرورةِ التصدّي لـ(عبدِالناصرِ) ومريديه في الداخل من العسكريين والمثقفين.. وحتى من الذين ادّعوا أنهم أمراءٌ أحرارٌ! لكنَّ نفسَ هذا التكتل، الذي له نفوذٌ كبيرٌ جداً في قطاعاتٍ واسعةٍ داخلَ العائلةِ المالكة، وفي أوساطِ الطبقاتِ الغنيةِ والتجارية في المملكة، الخائفةِ على ثروتها ومكتسباتِها، كان يأخذُ على والدِك اتخاذه لأساليبَ غيرِ ناجحةٍ، بل ومثيرةٍ لمشاعر الغضبِ الجماهيريِّ في العالم العربيِّ ضد المملكة؛ كأن ينيطَ تنفيذَ هذه

الطُرقِ الصداميةِ مع الخصم، بأناسٍ جُهلاء غيرِ مدركين لتبعاتِ أعمالهم؛ بل ويمكن أن يتسلل بينهم - كزيادة في بلّة طينة الفشل - عملاءُ لـ(عبدِالناصرِ)؛ مما سيؤدي إلى حرجٍ للحكومةِ السعوديةِ ونظامها، حتى ولو كان هذا النظامُ المحافظ، هو الذي هوجم أولاً واستُفِزَّ بداية.

...لا يمكنُ ـ يا بني - أن تتحدثَ عن عصرِ الملكِ سعود وتاريخهِ، بدون أن يتداخلَ معه عصرُ وتاريخُ (عبدِ الناصر). وعندما (تحاولُ) أن تكتُبَ رواية أو مقالةً عن تلك المرحلةِ التاريخيةِ، فأعلمْني كيفَ تستطيعُ الفصْلَ بينَ تاريخ الرجلين... منك نتعلَّمُ"؟!

حاولتُ أن أهدئ من غضبها الممزوج بكميةٍ كبيرةٍ من التهكُّمِ الواضحِ، عندما قلتُ بنبرةِ (الـمُعترفِ) بجهله وخطئه:

"هو ذاكَ يا (أمي). لا يمكن، حقيقةً، أن نمرَّ على تلك العلاقاتِ المتوترةِ، مرورَ الكرامِ. ولا يمكنُ أن نحلل أسبابَ سوءِ عاقبةِ فترةِ حكم (الملكِ سعود)، إلا عندما نتعمقُ في طبيعةِ ما كان يُغلفُ العلاقةَ السعوديةَ المصريةَ من توترٍ واصطدام، ومحاولاتٍ من كلا الطرفين لكسرِ هيبةِ ونفوذِ الطرف الآخر. العجيبُ في الأمرِ هو أنَّ الكارهينَ والمعادينَ لوالدي يصرُّون، حتى الآنَ، على أن أخطاء تعاملِ (الملك سعود) مع (عبد الناصر) ونزعاته، منذ أواخر الخمسينيات وحتى آخر يوم له في الحكم، كانت أسباباً رئيسةً للانتهاء المأساوي لعهد الملكِ. مع أنني لا أعرفُ، حتى الآن، معنى ما يقصدون، هل كانوا ينصحونَ - مثلاً - أن يكون (= الملك سعود) أكثرَ شدةً في تعامله مع عبد الناصر؟ أو أنهم كانوا يعتقدون أن تخالفه الـمُفترض - غير المنطقيّ - مع الزعيمِ العربيِّ الشهيرِ المختلف معه في كلِّ شيء، كان يمكن أن يغيرَ من نتائجِ السقوطِ والارتقاءِ في داخل منظمة صُنعِ القرارِ السعوديِّ؟.. لا أعرفُ"!

هدوءُ العجائزِ صاحبات المحصولِ الوفيرِ من التجاربِ والخبراتِ

الحياتيةِ، يأتي ـ دائماً - مُعلماً لمن تكثرُ أسئلتُه عن الماضي، وعن الذي كان يمكنُ... ولم يكن:

"ألم تحاولْ إقناعي، يا (ولدي)، كثيراً، بأننا مجبرون على عمل ما قمْنا به. وأن كلَّ الاحتمالاتِ الأخرى لا محل لها؛ لأن يدَ (القدرِ) القويةَ ترسمُ حياة الناسِ ووقائعَ أيامِهم؟ نصيحتي لك: طبقْ مسلماتِك القديمة، التي أختلفُ معها كل الاختلاف، على ما وقعَ بين والدِك والزعيمِ المصري. بل وعلى كل تاريخ العالمِ جميعاً. وستكون النتيجةُ راحةً كليَّة لك، وإن ظلت الأسئلةُ والأمنيات تراوحُ مكانها.

ألم تلاحظْ يا (بني) أنني، وبدون أن أدري، رُحْتُ، بين حين وآخر أنسى (مسلماتي) لحسابِ مُسلماتِك؟ أنظر كيف تمنيتُ (لو) أن علاقةَ مصرَ ببلادنا - أو بينَ الزعماء - في تلك الآونةِ، كانت أكثرَ دفئاً وشفافيةً وصدْقاً مما كانت عليه... إنها عدْوى سهولةِ التفكير"؟!

...سأقدّمُ لكَ خدمةً أخرى غيرَ نصيحتي السابقة، سأقفزُ بك أيُّها (النهم) للمعرفةِ، إلى عام 1376هـ[1]، إلى العام الذي ولدتَ فيه يا (دكتور) في فندقٍ بجوار مطارِ الرياض القديم. ومن أجواءِ هذه الأمكنةِ وأزمنتها، سأسردُ لك هذه الأقاصيصَ المسليةَ:

الفندقُ كان اسمه (صحاري بلاس) أسسه - كما يُقال - مستثمرونَ سعوديون. طلب والدك منهم، أن يستأجرَه بكل طبقاته وملاحقِه؛ لأنه كان ينوي هدمَ (الناصريةِ) القديمةِ المبنية بالطين؛ ليقيمَ وعلى نفسِ أراضِي واحته المليئةِ بأشجارِ النخيلِ والليمونِ والتوت؛ حياً سكنياً منازله وقصورُه من الأسمنتِ المسلّح.

...أخبر المهندسون والمقاولون والدَك، أن عمليةَ الهدمِ والبناءِ، وإنهاء متطلباتِ الديكور والفرشِ، والخدماتِ الأخرى، ستستغرقُ سنتين،

(1) الموافق لعام 1956م.

بداية من عام 1374هـ وحتى 1376هـ؛ ولهذا فكر والدك في أن ينقلَ (حريمَه) وصغارَ أبنائِه، إلى هذا الفندقِ الـمُجهَّزِ - نسبياً - بما يتوافق ومتطلبات ملكٍ محبٍّ للرفاهيةِ والتنعمِ.

...وقبلَ انتقالِ والدِكَ، ونحنُ معه، إلى الناصريةِ الجديدةِ بثلاثةِ أشهر تقريباً... أتيتَ إلى الحياةِ. وأذكر أنَّ يومَ ولادتِك توافَق مع حدثٍ تاريخي لا يُنسى في العالمِ العربيِّ... يوم الاعتداء الثلاثيِّ على مصرَ، بحيث لم أحظ - وأنتَ - بشرفِ أن يُسميك[1] والدك ويؤذن في أذنك، كما جرت العادة بعد أسبوعٍ من ولادةِ أبناء وبناتِ الملكِ... هذا إن كانَ - طويلُ العمر - موجوداً في البلاد. أما عندما يغيبُ، فجدتك (وضحى بنت عريعر)، المُفترشةُ دائماً سجادة صلاتها، تأخذُ مكانه لإتمام هذه الطقوسِ على الفور. أما لماذا لم تجر عادة التسمية المتعارف عليها في مثل هذه المناسبات، ووالدك موجود في عاصمةِ بلاده، وغيرُ بعيدٍ عن الفندق الذي ولدتُك فيه، فلأن (عمي) كان مجتمعاً طوال يومين كاملين، قبل يوم (التسمية)، مع الرئيس السوري (شكري القوتلي) وولي عهد إمام اليمن الذي لا أذكر اسمه الأول الآن، سوى أن لقبه الذي يسبق اسمه هو (سيفُ الإسلام).

كانَ الزعماءُ الثلاثةُ مجتمعين في الرياض؛ لتدارس أفضلِ السبلِ لمساعدةِ مصرَ، في وجْهِ الهجومِ المشتركِ لفرنسا وبريطانيا وإسرائيل على قناتِها البحرية في خليج السويس. وسمعنا من رجالِ البلاطِ السعوديِّ همساتٍ تقول: إن اجتماعاتِ الزعماءِ الثلاثةِ كانتْ مُكثفةً ومرهقةً، في أجواء عالميةٍ وإقليميةٍ تنذر بتفجُّرِ الأوضاعِ في كلِّ مكانٍ من العالمِ العربيِّ.

وعندما أخبرَ والدُك، بأنَّ ولداً له أتى إلى الحياةِ، وأن فضلَه

(1) أي أن يختار والدك اسمك الذي ستعرف به طوال حياتك.

سيكونُ كبيراً على الوليد وأمّه، إن هو أتمَّ تسميةَ القادمِ الجديد؛ نهرَ (الملكُ) الـمُبشرَ وقال له – كما نقلَ الرواةُ – إنّ مسألة ولادةٍ جديدةٍ، في القصر الملكي ليس إلا حدثاً يتكرر دائماً، وهو بالتأكيدِ ليس بذاتِ أهميةِ الاجتماعاتِ المعقودةِ. وأن مجرَّدَ التفكيرِ بأنه سيقطعُ المباحثاتِ ليتوجَّه لصالةٍ جانبية، حتى (يؤذِّنَ) في أذُنِ الصبيِّ، هو الجنونُ بعينهِ، وسوءُ تصرفٍ من الذي اعتقد بإمكانيةٍ كهذا!

ولأن الأمرَ كذلكَ، والبديلُ معروف، حملتكَ (أمهاتُك) من الرضَّاع: هيا وزهيوة وجمعة، إلى حيثُ قصرُ جدتك (وضحى) والذي يقع غيرَ بعيدٍ، من الجهة الجنوبية الغربية لقصرِ والدك بالناصرية. وهناك سألت جدتُك المرضعاتِ، عن الاسمِ الذي اختاره ابنُها لحفيدها، فقالوا إن – طويلَ العمر – لم يستحسنْ مجرد التفكير بهذا الأمرِ، بينما جزءٌ من بلاد العربِ يُغزى. وأنه ترك لها (=لوالدته وضحى) أمرَ تسميتهِ بما تراه مناسباً، على أن يكونَ اسماً (مُستحباً) وغيرَ غريبٍ.

سألتْ جدتُك عن الأسماءِ الأولى لضيوفِ والدك، فقالوا إن الرجلَ الأولَ كبيرَ السنِّ، اسمُه... شكري!

هذا الاسمُ لم يجدْ وقعاً طيباً لدى جدتك، كما هو متوقع؛ لأنه لم يكنْ اسماً مُنتشراً في البلاد، كما أنه يدلُّ – في رأيها – على الضَّعفِ!

وعندما قيل لها عن اسم الضيف الثاني، استحسنتْ اللقبَ – فقط – أي أنها اختارتْ لكَ اللفظَ المركَّب الذي يسبق اسمه .. (سيف الإسلام)!

نشأتَ، أيها (السيفُ) وقطعُ السحابِ السياسية السوداء تتلبَّدُ في السماء من جهةِ الغربِ، منذرةً بعاصفةٍ هوجاء، لا أحدَ يعرفُ قوتها ولا مدى تدميرها. ما هو مؤكدٌ فقط، هو أنها ستأتي لا محالةَ!

...شقيقُك الراحلُ "مقرن"، كان يبلغُ من العمر ستةَ أعوام، عندما غادرتَ يا (بني) عتمة وطمأنينة بطني. أنت وهو على خلافٍ في كثيرٍ من

الأشياء الخِلقية والخُلقية. منذ يفاعته وحتى انتكاسته الصحية قبل وفاته بسنوات قليلة، كان شقيقُك يُضربُ به المثل في قوةِ بنائهِ الجسمانيّ وبروز عضلاتهِ. الإقدامُ من صفاتهِ المعروفةِ عنه، لا يترددُ ولا يخافُ من الدخولِ مع الآخرينَ في المنازعاتِ، حتى ولو نتج عنها غرزتان في الرأس هنا، وخلعُ أسنانٍ هناك.. وبينهما لكَمَاتٌ توجَّهُ للصدر وللمعدة. بالتأكيد لم يكنْ شقيقُك شريراً يحب الاعتداء، لكنه لم يكنْ يصبرُ أو يختار غيرَ طرقِ التصدّي الفعليّ عندما يتحدَّثُ أحدٌ عن سيرة والده وأسرتهِ بسوءٍ.. أو حتى بتلميح تتطلّبه طبيعةُ المناقشاتِ. والأمرُ الثاني الذي يُطلق شَرَار توثُّبِه القتالي، هو أن يهزمَ فريقَه الكرويُّ الذي يُحبه!

...أما أنتَ، فكنتَ على النقيضِ من شقيقك في كل شيء. فمنذ ولادتِك ظهرتْ عِللٌ كثيرةٌ عليك. زاد من سطوتها، نحافتك المفرطةُ ومناعتك الضعيفةُ، بحيثُ كنت تصابُ بهجماتِ أمراضِ الطفولةِ دفعةً واحدة. وتظلُّ تكافحُ بعد الشفاءِ من هذا المرض، لتقعَ في شَرَكِ مرضٍ آخر.

كنتُ شديدةَ الولعِ والشفقةِ عليك. وترجمتي الدائمةُ لحالتي تلك، هي إصراري على إرسالك إلى الأطباءِ يوماً بعد يومٍ، ليعطوك حقنات المضادَّاتِ الحيويةِ والفيتامينات المتنوعةِ ومخفضاتِ الحرارة. كما كنتُ أطلبُ من المرضعاتِ الأخريات – بالإضافة إلى (جمعة وهيا و زهيوة) – بأن يتناوبن ليل نهار حول سريرك، يجسُسْن نبضك ساعةً، وحرارتك ساعةً أخرى. وبينهما ساعاتٌ طويلةٌ لقياس مستوى الجفافِ في جسمكِ النحيلِ، الذي تزوره دائماً نوباتُ الإسهالِ والتقيؤ.

...لو تدري، يا (حبيبي)، كم كنتُ أدعو الله كثيراً وفي كل ليلةٍ أن يبدِّلَ سُقْمَك، بعاجلِ وتمامِ الصحةِ والعافية! ويبدو أن الله استجابَ لِدُعائي الـمُلحِّ، وإن تأخرت العطاءاتُ الربانيةُ ردَحاً من الزمنِ... المهمُّ أنها جاءت وبأكثرَ مما توقعتْ والدتُك!!

...في مراهقتِكَ كنتُ ألاحظُ أنَّك تنسحبُ كثيراً من فضاءات العالم الخارجيّ الذي يعجُّ بطبيعتهِ بتماسَّاتٍ متنوعةٍ بين بشره، وتقاطعات الرؤى والمصالح والسلوكياتِ، بين الأفراد الذين يصنعون بأفعالهم وردود أفعالهم شكلَ الحياةِ اليوميةِ وما فيها. وبدلاً من انخراطك في ذاك الضجيج، تروح تكلِّمُ نفسَك أو تلعبُ معها. وفي بعض الأوقاتِ - ورغم صغرِ سنِّك - كنتَ تلتصقُ بموشِّر (الراديو)؛ لتستمع للبرامجِ الجادةِ والأخبارِ. وفي أحايينَ كثيرةٍ أخرى تروح تقرأ القصصَ الكثيرة عن عنترةَ بن شدادٍ، وتغريبةِ بني هلالٍ.. وسيف بن ذي يزن!

لم يكنْ لك أصدقاءُ من سنك. ولا كنتَ تبحثُ عن هذه النوعية من الصداقاتِ؛ ترتابُ منهم.. جائز تخافُ أن يؤذوك وتؤذيَهُم.. محتملٌ. ترى أنك أفضلَ منهم، وأنهم لن يزيدوك أو ينقصوك شيئاً إن حضَروا أو غابوا.. الله أعلمُ!

التباين بينكَ وبين أخيكَ، تمثَّل حتى فيما يعنيه زمن قدومِكُما للحياةِ. لقد قدمَ (هو) للحياةِ ووالدك يتأهبُ لإكمالِ الربع الأخير من حلقةِ صنع القرار السعودي، والذي كان يملك أرباعَه الباقيةَ؛ نظراً لمرضِ جدك، ولاختيار منافسه... عمِّك (فيصل)، الإقامة في الإقليم الحجازيّ، كممثلٍ للملكِ.. ليسَ إلا.

أما أنتَ فكنتَ فألاً غيرَ حسنٍ على والدِك!!

...فما هيَ إلا أشهر قليلة بعد ولادتِك وولادةِ عددٍ قليلٍ من إخوتك وأخواتك الذين يعادلونك في العمرِ، حتى بدأت ساقا والدك، تهتزان فوق أرضِ الأحداثِ السعوديةِ الحبلى آنذاك، بالمفاجآتِ والتغيُّراتِ السريعةِ.

مسرحُ الأحداثِ الوطنيِّ المزدحمُ بشخصياتهِ وفصولهِ، كان يدلُّ على أن الداخلَ السعوديَّ مقبلٌ على مخاضٍ سياسيٍ أكبرَ من مقدرةِ والدك على التحكمِ بشكلهِ وتبعاته، تلك التبعاتُ التي كان يظهرُ جلياً

أنها في غيرِ صالحه تماماً. ولا فائدةَ هنا من إعادةِ تفسيرات التقاطع الذي حدثَ بين التوفيق والسدادِ السياسيين... وبين والدِك. المهم أن الانتكاسة التي مُنيَ بها والدُك في صراعِهِ القياديِ داخلَ دائرةِ صناعة القرارِ في المملكةِ؛ كانت تكبرُ مثلما كنتَ تكبرُ أمامَ عيني. وهذا لا يعني، يا (بني)، أن لا أعمالَ مجيدة لوالدِك منذ النصف الثاني من السبعينيات الهجرية[1]. بل إنّ النقيضَ هو الصحيحُ!

كان (أبو فهد) يُشعر المراقبَ المنصفَ، أن الجبهاتِ الأخرى التي تفتحُ النارَ عليه، لم تجذبْ كل اهتماماتهِ الإصلاحيةِ الأخرى في الداخلِ: جامعاتٌ ومدارسُ كثيرةٌ أنشئت، وحركةٌ معماريةٌ وتجارية نشطة، أخذت تُشكل مفهوماً جديداً، لم يسبق أن تكوَّنَ من قبلُ في أقاليمِ (نجد)... إنه، وكما تسمونه في أيامكم هذه: (نشاط وازدهار القطاعِ الخاصِّ).

الرياضُ العاصمةُ التي (كانت) تحملُ اسمَ وصفةِ المركزِ دون أن تحملَ مقوماتِ هذه الصفة، انتقلت إليها الدوائرُ الرسميةُ والوزاراتُ وبعضٌ من الإداراتِ الرئيسةِ للبنوكِ. لتتحول هذه المدينة الـمُغبرَّة الباهتةُ - بفضل قراراتِ والدِك - إلى مقصدٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ، وإلى ما يعنيه كلُّ هذا التحول من تحسين للبنيةِ التحتيةِ الـمُتهالكة فيها.. إن لم تقل المعدومةُ .

مستوى الدخل للسعوديين كان أفضلَ حالاً، قياساً بما كان عليه عندما تولى والدُك الحكمَ. مع أنَ الإنصافَ يُوجِبُ علينا القول: إنّ هذا المستوى من (المفترض) أن يكونَ أفضلَ مما أظهرته المؤشِّراتُ الاقتصاديةُ في تلك الأيام، نظراً لكبرِ حجمِ الصادراتِ السعودية من النفطِ وتحسُّن أسعارِ الذهبِ الأسود..

---

(1) النصف الثاني من الخمسينيات الميلادية.

الداخل السعوديُّ كان مظهره العام، يدلُّ على أنه يتمتع بخدمات صحيةٍ وتعليمية وإعلامية، لا يمكن لمخيلةِ الإنسانِ استيعابها، لو عاد الزمنُ بهذه المخيلةِ إلى الوراءِ سنوات قليلةً فقط!

...حتى على المستويين العربيِّ والإسلاميِّ، والدُك وبلادُك لم يكونا، أبداً، مغيبين عن لعُب الأدوارِ الرئيسةِ فيهما، ولِمَ؟ فبلدٌ مثل السعودية بما له من ثقل عربيٍّ وإسلامي، لا يمكن إلا أن يكون رائداً وقائداً ولاعِباً لا يُهمَّشُ، حيثما تطلب العملُ العربيُّ والإسلاميُّ (فزعتها)[1] وتدخلها.

ومن الغريبِ، يا (بني)، أن الذاكرةَ العربيةَ نسيتْ موقفَ والدِك من حلفْ بغداد ومن العدوانِ الثلاثيِّ... يا لها من كسيحةٍ تلك الذاكرةُ! عندما لا تتذكر إلا قطعَ النفط عن الغرب في حرب رمضان[2] وتقفز على حقائقَ تاريخية صارخة تقول: المواجهاتُ الاقتصاديةُ ضد الغرب، حدثت قبل ذلك التاريخ (المشهور) بسبعة عشرَ عاماً تقريباً!

...لم تكنْ مواقفُ والدِك، يا (ولدي) كذلك حيالَ العادةِ العربيةِ القديمةِ، المتمثلةِ في الاعتداءِ والغزوِ من (البعض) العربيِّ، لمصالح وأرض البعضِ الآخر؛ لم تكن هذه المواقفُ تتَّصِفُ بميوعةِ التصرفِ وتخاذل المجابهة، فمازِلْتُ يا (سيف) أتذكر، ويتذكر، معي الـمُعايشون لتلك الحقبة من الزمن، كيفَ تصدَّى والدك لـ(عبد الكريم قاسم) الرئيسِ العراقيِّ الشيوعي، عندما أراد (ابتلاع) جارتِهِ الصغيرةِ قليلةِ السكان، صغيرةِ المساحة.. واسعةِ الغناء[3]".

ولا أعْفي، يا (دكتور)، الذاكرةَ الوطنيةَ السعوديةَ من الجحودِ

(1) الفزعه هنا تعني: المساعدة.

(2) حرب أكتوبر 1973م.

(3) المقصود بهذا دولة الكويت.

المقصود، الذي أصابَ تاريخَ والدِك في مقتلٍ. أليس (هو) المنسيَّ الذي قاتل فعلياً، وليس خطابةً وتوعُداً نظرياً، الجيش البريطانيَّ - الأكثرَ من جيشِهِ عُدةً وعتاداً - في (البريمي)، التي كان يعتقدُ كثيرٌ من السعوديين أنها أرضٌ لهم، اغتصبها المستعمرُ البريطانيُّ و (أهداها) لدولةٍ أخرى؛ نكايةً في والدك وفي بلاده، صاحبة المواقفِ العربيةِ المبدئيةِ الأشملِ، التي لم تُقايضْ عليها، عندما تتطلب (مرونة) البيعِ والشراءِ السياسيِّ ذلك؟!

لم يبقَ من تاريخِ والدِكَ - للأسف! - إلا إشاراتٌ، لتلكَ الانتكاساتِ التي كانت تكبرُ على مدارِ سنواتِ حكمِ والدك... مثلما كنتَ تكبرُ! لقد أسقطتْ - للأسف! - كلُّ أعمالِ الرجلِ المجيدةِ، هكذا بجرةِ قلم!

لقد عودتُ نفسي يا (بني)، على هذه الغرائب، فالتاريخُ يكتبه دائماً المنتصرون. والمنتصرون هم الذين تغلَّبوا على والدِك وعزلوه. ومن المؤسف ـ جداً ـ أن تساعدَ بعضُ تصرفاتِ والدِك على تكوين الآراءِ السلبيةِ ضدَّه، وضدَّ تاريخه بصفةٍ عامة. فلم يكن (الرجلُ) في حاجةٍ لأن يلعبَ داخلياً أدواراً تسمونها الآن (تكتيكيةً). أدوارٌ اتَّسمْت بضعفِ البصيرةِ وقلةِ الحيلةِ والتخبُّطِ، عندما كان يحاول إنقاذَ نفسِه أثناء دوامة الصراع من أجل قيادة بلاد كبلاده، لها أعراف وتقاليد، تضحي بالفرد - مهما كانَ - في سبيلِ روابطِ الجماعةِ ولحمَتها.

لم يكن هو - مثلاً - في حاجةٍ للاستعانةِ بنساءٍ ورجالٍ، من أهل البيت. والأبناءُ والأعوانُ، يمتازون بأشياءَ كثيرة، سوى أن يُستعان (بمواهبهم) في معمعات إثبات من هو الأقوى والأقدرُ والأنسبُ لقيادة بلادٍ تملك أضخمَ مخزونٍ بتروليٍّ في العالم، وأكبرَ تأثيرٍ دينيٍّ في عالم الإسلام والمسلمين؟!

ألم يكُنْ في مقدورِ (عمِّي) تأجيلُ - قدر استطاعته - كتابةِ آخرِ

سطور صفحاتِ حياتِهِ السياسية، لو أنه ناورَ - على كُره - القوى الأجنبية، التي لم تكن تنظر بعين التعاطفِ للملك الذي جاهرَ بنيته لإزالة وجودها العسكريِّ من على أرضِ بلاده. أو وهو يتحالف مع شركاتٍ بترولية غيرِ الشركاتِ المحسوبةِ على تلك القوى[1]. أما وقوفُه مع تطلّعاتِ الشعبِ الفلسطينيِّ المشروعةِ في التحرُّرِ وتكوينِ دولتِهِ الخاصةِ به، فتلك تهمةٌ لا تعادلها تهمةٌ عند الغُرباءِ الأقوياء؟!

ألم يكنْ من المجدي، حتى لا تقعَ فأسُ العزلِ والنهاياتِ البائسةِ، في رأس ملكٍ مشهورٍ - مثل والدك - لو أنه أقلعَ عن العاداتِ السيّئة في إدارة المال وكأنه رئيسُ قبيلةٍ مندثرة، لا قائد أمة تعيشُ في القرنِ العشرين.. وما أدراك ما القرنُ العشرون؟!

يا ليتَ والدكَ أزاح، أيضاً مشاعرَه الخاصةَ، والإرثَ القديمَ من التنافس مع الإخوة المتربصين، حتى يستطيع - ولو مؤقتاً - تكوينَ مجموعاتٍ مساندةٍ له داخلَ العائلةِ المالكةِ، في وجهِ من يريدونَ إسقاطه، عبر التقاطِ وإشاعة هفواته وأخطائه!!

يا ليتَ، أنَّ كلمة (يا ليت) لم توجدْ في كلِّ قواميسِ لُغاتِ العالم!

...بنيَّ!

كانتْ الأشجارُ والزهورُ والرياحينُ في (الناصريةِ) تزدادُ نمواً وتفتُّحاً واخضراراً أوائل الثمانينيات الهجرية[2]، بينما زارعُها يشيخُ قبل الأوانِ ويمرضُ.

---

(1) المقصود هنا: محاولةُ التعاقد في أواخر الخمسينيات الميلادية مع شركات رجلِ الأعمالِ اليوناني (أوناسيس) لشحن وبيع البترول السعودي، بدلاً من الشركات الأمريكية. وكانت لرجل الأعمال اليوناني هذا سمعة واسعة داخل البلاد السعودية إبان عرضه السابق.

(2) أوائل الستينيات الميلادية.

...غريبة أطوارنا نحن نساء والدك، كنا نراه يصارعُ بلا جدوى مـ أجل البقاء حاكماً كما كان في السابق، في الوقت الذي تزدادُ فينا نـ الاستحواذ على بقايا ملك محطَّم القلبِ مُشتتِ المشاعر، يئنُّ من كثـ جراحِ سهامِ الأبعدين الحاقدين، والأقربين الجاهلينَ، وما بينهما مـ (منتظر) لخواتيم صراعِ المتنافسين".

باهرةٌ تلك البلوشيةُ الـمُسنَّةُ وهي تحلل بسلاسةٍ عجيبة، هذا الكـ الكبيرَ من المعلوماتِ، المتعلقةِ بتلك الأحداثِ التاريخيةِ الـمغرقة في الغموضِ والانزواء، عن أنوار البحثِ التاريخيِّ العلميِّ الدقيـ والمنصف.

على أن ذاكرتَها الخارقةَ، واطلاعها الاستثنائيَّ والـمُستغربَ، نـ كان مثلَها محشوراً بين الجدرانِ العاليةِ للقصورِ، لا يستطيعان كثيـ إخفاء (المتناقضاتِ) في حديثِها المُثيرِ، والذي دافعتْ فيه عن عمِّه.. وانتقدتْه!

هذا الأمرُ أتفهمُه لأن تلك الأحداثَ لم تعد طلية. ولأنها تمـ شخصاً (كان) يمكنُ. حسب الاعتقاد (البلوشي)، ألا يحدثَ له مثل تـ النهايات... لو أنه لم يستسلم.. لقدره!

ورغم التناقضِ وانفعاليةِ الذبِّ والمنافَحة عن أبي أولادها، ومـ استعاضت به عن كل ماضِيها ومستقبلِها؛ رغم ذلك فإن شرحاً لما حـ آنذاك - وإن بوجهةِ نظرٍ غير محايدةٍ - يعطي نصفَ مصداقيةٍ ونصـ معرفة، لحقيقةِ ما وقع في سنواتِ البركانِ السعوديِّ، الذي شكلت حـ في النصف الأول من الستينيات الميلادية؛ معالم واقعٍ سعوديٍّ، غـ المعالم التي كانت قبل ثورته العنيفة. وأستطيع - وأنا القدريُّ - أن أقـ واثقاً: إنه لولا تلك الحُمم المتغيرةُ لما كانتْ أصلاً هذه القصةُ، و كانت الراويةُ في حاجة - والله أعلم - للبوحِ وللسردِ.

إنني أعرفُ أن هذه الراويةَ، ليستْ معنية، البتة بسردِ كلِّ حو ـ

تاريخ لم يذكرها تاريخُ المملكةِ في تلك الأيامِ العصيبةِ، والتي يذكر مُعايشوها أنها كادتْ، بحرائقِها السياسيةِ، تأكلُ في طريقها المدمر، أخضرَ ويابسَ كلِّ أشجارِ النظامِ السعوديّ.

ما أثقلَ حياةَ (البنقلانيةِ) حينها وروَّعها، هو ما كانتْ وغيرُها من أهلِ بيت (الملك سعود) يرونه، على عائلهم وقيّمهم، من علامات الترنُّحِ والسقوطِ من أعلى القمةِ التي عاش وعاشوا معه طويلاً على ثراها. حاسبينَ أن أبدية العلوّ هي أصلُ أشيائِهم، وألّا نقائضَ لسرمديةِ القوةِ، رغمَ الشواهدِ الكثيرةِ المُناقضةِ لمعتقدهم الواهي.

خشيتْ والدتي - ولم تكنْ وحدَها - زوالَ ملكِ (عمِّها)، والعيشَ بعد ذلك في الظلِّ الباردِ الموحشِ. أما رعبُها الكبيرُ، فليس إلا أن يصابَ بأذى ومكروهٍ من لا تُعرف الحياةُ إلا من خلال طريقةِ عيشهِ وهيلمانهِ. الكابوسُ الأعظم الآخرُ، والذي كان يمثِّلُ خاتمةَ مطافِها في ممراتِ الحياة.. لو حدَث؛ هو أن ترى (أمُّ مقرن) ولديْها يُصرعان - كما غيرهم من الاترابِ - على مذبح تنافسِ القوى المتصارعةِ للفوزِ... بأمتار القمة الضيقةِ.

الخشيةُ والفزعُ من انتظارِ المكروهِ الذي وقع (بعضهُ)، هو ما كان يعني والدتي حينَها. وهو الذي عنه تبوحُ (الآن)، وأنا استمع إليها مُتغاضياً عن كم من المتناقضات والميل في الأحكامِ، وما يلحق بها من ضبابيةٍ في الرؤى. هذا لا ينسحبُ على ما سبق روايته... فحسْب، بل على ما تبقى من أصلِ (الحكايةِ)، التي ملَّتْ كُتبُ التاريخ من عرضِ مثيلاتها على قـراء لا يفهمون، وكأن رحم الحياة لا يخرجُ إلا قصصاً مستنسخة للبشر، لا يمكن التفريقُ بين بداياتها ونهاياتها، إلا فيما بينَ ذلك من تفاصيلَ ضئيلة لا تُذكرُ.

سألتها وقتاً، فمنحتني - عامدةً - تلك الفسحةَ من الزمنِ؛ لأستوعبَ مضامينَ السَّرد السابقِ:

"تأسيساً على كل [illegible] - فلا بد أن النتائج أتتْ مسرعةً، كاتبةً آخرَ فصولِ قصة [illegible] سعود) مع الحكمِ.. أليسَ كذلك والدتي؟! هناك عواملُ [illegible] وداخليةٌ وشخصيةٌ وصحيةٌ، أوصلت بالتأكيد (صاحبَ [illegible]) [illegible] الخاتمةِ التي نعرفها ويعرفها التاريخُ .. إلا عاملاً [illegible] من عدمِ وجودِه أصلاً، وهو أن يولَد له ابنٌ... مشؤوم"!!

تغاضت ملامحُ والدتي عن [illegible] هذه الأشياء البعيدة عن اللياقة، لتستحضرَ ـ بدلاً من ذلك ـ [illegible] تلك الفترةِ العصيبةِ القلقةِ. وخُيل لي، للوهلة الأولى. أن [illegible] عميقة لتلك الملامحِ، كافيةٌ لأن تكتبَ صفحات عديدة، [illegible] ما كُتبَ أو سيكتبُ، لو أنها - نُطقاً - لم تكتفِ بتلك (الإعلانات) [illegible] المظهرية، عن هولِ السنواتِ الأخيرةِ لحكمِ.. عمِّها:

"في السنتين الأخيرتين من [illegible] والدِك، ساءت الحالُ جداً في داخل الناصرية: الملكُ [illegible] شهوره في الحكم غدتْ معدودة، حتى ولو أنه أظهرَ في بعضِ الأوقات. رغبةً محمومةً في الدفاعِ عن الشرعيةِ التي اكتسبها من [illegible] المكتوبِ الذي قننه والده المؤسس. ونسيَ أن الشرعيةَ تلك غير [illegible]. يمكنُ أن تفسَّر على عدة أوجهٍ، عندما يريد الآخرون [illegible] هتكَ مُرتكزاتها، حتى ولو بشكلٍ عارض.. مثلاً: أن [illegible] (العبد العزيز) لم يعدْ قادراً (صحيّاً) على ممارسةِ أعباءِ [illegible]. [illegible] أساليبَ إدارتِه للحكمِ داخلياً وخارجياً، ستؤدي ببلاده [illegible] فوضى، لا نهايةَ لها. أيضاً يمكنُ أن تقولَ تلك [illegible] الملكَ الذي بدأ يقتربُ شيئاً فشيئاً من صفةِ الملكِ [illegible] يستمعُ لأحدٍ، إلا لدائرةِ ضيقةٍ من المستشارين والأبناء [illegible] جديرين بأخذ آرائهم - حتى - في إدارة منزلٍ صغيرٍ، فكيف [illegible] السعودية؟!

...بُني:

في آخر نشرات الأخبارِ، أستمعُ، عادةً، وباهتمام لتوقعاتِ الطقس. وعندما يمرُّ الراصدُ الجويُّ على ذكرِ الأعاصيرِ، فإنه دائماً يذكر محفزاتِ نشاط هذا الإعصارِ المُداهم لهذا المحيط، أو لتلك اليابسة. فهناك عواملُ: الضغطِ الجوي، والرطوبةِ، والرياحِ، وأشعةِ الشمس الساقطة.

الإعصارُ الذي اقتلعَ والدك من سُدَّةِ الحكم أسهمتْ فيه عواملُ عدة؛ ولا يغيب يا (ولدي) عن ذاكرتي تعليلاتُ نساءِ والدك الساذجات، عندما كُنَّ يحلفْن أن (عمَّهنَّ) معمولٌ له عمل[1]. وأن هذا السببَ - لا غيره - هو الذي يدفعُ سلطانهن إلى حالة التخبط في الرؤية السياسية، وفشل قيادة الصراع ضد الآخرين. كانت (العبيطات) يدللْن على استنتاجاتهن الخارقةِ تلك، بحالةِ والدِك الصحية. فعندما ينزفُ دماً - وكثيراً ما يحدثُ هذا - فإنهن يحلفْن بأن (أبا فهد) قد دُس له شعرٌ مسحور دنس، في الأكلِ والشراب.. وهكذا!!

الصحيحُ، يا (بنيّ)، أن والدَك كان مُصاباً بأمراضٍ كثيرةٍ في القلبِ والكبدِ والكُلَى، إضافة إلى تدنٍ خطير في مستوى رؤيةِ عينيه. وبالرغم من هذا كان - رحمه الله - يؤخِّرُ قرارات طبيةً لازمةً لصحتِه، كعمليات جراحيةٍ معينةٍ لازمةٍ، ونصائحَ للبعدِ عن الانفعالات. حتى يفرغَ من (حروبهِ) مع الأطرافِ الأخرى في الخارج والداخل. ولأن هذه الحروب كانتْ بعيدةً عن الكسْبِ، ونتائجُها معروفة - للخبيرِ - سلفاً؛ فإن المنطقَ يقولُ: إن صحتَه لن تعرفَ إلا الهبوطَ إلى الأسفلِ... يوماً بعد يومٍ!

لم تكنْ، بالطبعِ، المشاكلُ الصحية، يا (ولدي)، هي كل الأسبابِ

---

(1) المقصود هنا السحر الأسود.

التي أبعدتْ والدكَ عن الحكمِ، فهناك رصيدٌ [illegible] الإعصارِ الذي دمَّرَ حياته السياسيةَ .. وحياتنا:

الداخلُ السعوديُّ، في السنتين الأخيرتين. [illegible] وهو يرى صراعَ الإخوة وأجنحةَ الحكمِ داخل الأسرةِ [illegible] لا يتوقف، لعمل يؤدي، لا لدعم هذا الجناح من البيتِ [illegible] حساب خسارةِ الآخر، بل إلى خسارةِ جميعِ الأطرافِ التي [illegible] أسلافُها هذه الدولةَ من العدم.

...خذْ مثلاً مشاريعَ الانقلاباتِ والثوراتِ. [illegible] يُخططُ لها في العواصمِ الثوريةِ العربية. هذه المشاريعُ كانت [illegible] مثيرٍ، بدليل أن الشرطةَ السريةَ السعوديةَ كانتْ في سباقٍ مع [illegible] لإبطالِ مشاريع الانقلابات الأسبوعية! أو لمنعِ هروبِ طائرةٍ [illegible] قائدها، المتصل مخابراتياً بالقاهرةِ أو ببغدادَ أو بدمشق؛ والذي [illegible] منه أن يُعلن في صالات مطاراتِ تلك البلدان تنديده (الخياني) [illegible] عليه... بالحكمِ السعودي الرجعي!

وفوقَ ذلك، كان الداخلُ السعوديُّ تربةً [illegible] الشعاراتِ الغوغائيةِ القادمةِ له عبر الأثير. وما كانَ يزيدُ [illegible] في استقبالِ البذور المسمومةِ تلك، الانتكاساتُ في [illegible] الاقتصاديةِ للبلادِ السعوديةِ، إلى درجةِ أن موظفي الدولةِ لم يعودوا [illegible] رواتبهم إلا كُلَّ ثلاثةِ أو أربعةِ أشهر؛ لأن وزراء الماليةِ يتغيرون مع كلِّ تغييرات وزاريةٍ يصعبُ تعدادها في تلك الأيام. وحتى [illegible] الوزراءُ الجُدد مناصبَهم، فإن هذا الطرفَ أو ذاكَ من أطرافِ [illegible] المتصارعةِ في المملكة.. يأخذُهم إلى جانبه؛ ومن ثَمَّ [illegible] حضورهم لجلسات مجلس الوزراء، في اليوم الذي يرأسه [illegible] الآخرُ!

الاستثماراتُ والقطاعاتُ التجاريةُ والعقارية [illegible] أصابَها الركودُ القاتلُ. وبهذا تقلَّصت مداخيلُ عائلاتٍ سعوديةٍ [illegible] وهذا كان يعني

مزيداً من الحقدِ والكراهيةِ تجاه رموزِ النظامِ بأسرِه، مهما تعددَت الأسماءُ والصفاتُ؛ لأن جميعَ رؤوسِ القيادةِ السعوديةِ - في رأيِ من قُطعتْ أرزاقُهم - مسؤولون، بخلافاتهم، عن الحالةِ التي وصلتْ إليها البلادُ.

وبناءً على هذه المعطياتِ، تكاثرتْ في البلاد الجمعياتُ والتنظيماتُ السريةُ المعارضةُ، التي كانتْ تتشكَّلُ من صحفيينَ، وكُتَّاب، ومثقفين، ورجال أعمالٍ متضررين من حالةِ الكسادِ والتهميش. وما يجمع تلك التجمعاتِ السرية ونظيراتها في القطاعِ العسكريِّ، هو هدفٌ واحدٌ، تكشفُ عنه أدبياتُهم ومنشوراتهم من جهةٍ، ومن جهة أخرى أعمالُهم العسكريةُ.

ومما زادَ من خطورةِ الوضعِ، الإضراباتُ وأعمالُ التخريبِ والاحتجاجاتُ المليئةُ بالعنفِ، التي كان يقوم بها عمَّالُ استخراجِ وشحنِ النفطِ السعوديِّ في المنطقةِ الشرقيةِ، مدفوعين إما بناصريتهم حيناً، وإما بدافعٍ مذهبيٍّ لا يودُّون التصريحَ عنه حيناً آخر.

انسحابُ العائلةِ المالكةِ التدريجيُّ من خندقِ والدِك، أحدُ أهمِّ العواملِ الرئيسةِ لغروبِ شمسِ ملكٍ، وبزوغ شمس ملكٍ آخر في المملكة!

كانت أجنحةٌ عديدة من هذه الأسرةِ تحبُّ والدك، وتحبُّ إغداقَ عطاياه عليهم، لكنها خشيتْ، إن هي استمرتْ في مؤازرته، فقدان مصالحِها عندما ينكشفُ غبارُ معركةِ النفوذِ الكبرى. وتلك معركةٌ أحست تلك الأجنحةُ أنها بدأتْ تُفرز المنتصرَ والمهزومَ مُبكراً. ومما ساعد على انتقال أطرافِ وأجنحةِ العائلةِ المالكةِ الأخرى إلى خندقِ وليِّ العهد، هو ما كان يُشاع، بشكل منظم بينهم، أن (الملكَ سعود) سيورِّث الحكم لأبنائه الأغرار من بعده، مُزيحاً إخوانه المليئين بالتجربة والحنكة السياسية. بل والأدهى من ذلك، انتشرت بين أفرادِ الأسرةِ المالكةِ -

الناظرين لاتجاهات الصراع الداخلي - إشاعةٌ (مُنكرةٌ) وهي أن والدَك ينوي وضع (ابن سالم) - المشرف على حركةٍ ومستودعِ السياراتِ الملكية - رئيساً للوزراء بدلاً من أخيه (فيصل). وكانت تلك الإشاعةُ - التي فيها نصفُ حقيقةٍ - القشةَ التي قصمتْ ظهرَ البعير، الذي كان يئنُّ تعباً من حملِ والدك في معاركِه!

القوى الأجنبيةُ الخارجيةُ كانت تستعجلُ، بدورها، إنهاء فترةِ الغموضِ، المانعةِ رؤيةَ من هو قائدُ السفينةِ السعودية الجديدُ؛ لأن الحالةَ الداخليةَ تلك لم تكن تعني السعوديين فقط، بل تعني أسواقَ النفطِ العالمية كذلك. وفي هذه الحالة لا يمكن السماحُ للسعوديين أن يعالجوا شؤونهم الخاصة، عبر طريقتهم البطيئة في حلِّ المشاكل، أو حتى عبرَ حلولٍ تقليديةٍ وسطية، فيها مكامن نزاعات أخرى كبرى تالية، ما لم توضع لها حلولٌ جذرية. والحلولُ الجذريةُ تعني صراحةً - في شرائعِ القوى المهتمة بمصالِحها - اختيار قيادة سعوديةٍ جديدة قادرة على مجابهةِ التحدِّياتِ الداخليةِ والخارجية الـمُنذرةِ بعواقبَ خطيرةٍ. ومن ذلك المدُّ الشيوعيُّ الذي كان يلتهمُ بأشكالهِ المتنوعةِ البلدانَ التي تسودها القلاقلُ. والغريبُ، يا (بني)، أن رغباتِ الدولِ الكبرى في أزمةِ الصراع الداخليِّ السعودي، كانت تتفقُ مع رغباتِ عقلاءِ الداخلِ السعوديِّ بمختلفِ أطيافِهم؛ لأنَّ البديلَ - كما يراه العقلاءُ - ليس إلا دولةً مستنسخةً على شاكلةِ دولِ الجوارِ المرتفعة الصوتِ، المنخفضةِ في المنجزات الحقيقية لشعوبها!

وإن سألتني، يا (دكتور)، عن موقف (المؤسسةِ الدينيةِ) في المملكةِ تجاه ما كان يدورُ من صراعاتٍ وتنافسٍ داخليٍّ في الأسرة التي تشتركُ معهم في صناعةِ هوية البلادِ، فإنني سأقول لك - وأنا متأكدةٌ من هذا - : إنَّ المؤسسةَ الدينيةَ تلك، كانت تحاولُ التوفيقَ في البدايةِ بين أطرافِ الصراعِ عبرَ طرحِ حلولٍ اجتهادية لم تكنْ مقنعةً لأيٍّ من الأطرافِ.

محاولاتُ المؤسسة الدينيةِ للخروجِ من أزمةِ الحكم، التي عصفتْ بالمملكةِ في النصفِ الأول من الثمانينيات الهجرية، كانت غيرَ واقعيةٍ، فهي تقترحُ – مثلاً – أن يُنصبَ هذا مِلكاً، وأن يُعوضَ ذاك – بعد عزله – بمنصب شرفيٍّ اسمه (الإمامية). وتلك، لعمري، حلول تصلح للقرونِ البعيدة الماضيةِ، لا إلى دولةٍ تريدُ الخروجَ من حالةِ الجمودِ التي فرضتها الأحداثُ وأضرت بكل أنشطتها، بداية من القمة، وحتى أصغرِ مصلحةٍ لها تماسٌّ بالمواطنين.

...بعدَ ذلك، وعندما شعرتْ المؤسسةُ الدينيةُ، أن الدولةَ السعوديةَ – آخرَ قِلاعِ الإسلامِ – يمكنُ أن (يسرقها) أميرٌ غريبُ الأطوار لا يمكن تصنيفه، إن هي نجتْ من اختطافِ عسكريٍّ يساريٍّ، أو حتى مثقفٍ علمانيٍّ، في حال ما إذا استمرت ضبابيةُ الأوضاعِ السياسيةِ في البلادِ السعودية، عندما استشعرت المؤسسة الدينية ذلك أقدمت على إعلانِ موقفها الصريحِ والجليِّ.. وهو: أن (سعودَ) الذي كان يُشاعُ أنه يفضِلُ الاتجاهَ الانفتاحيَّ لبلادِه – والانفتاحُ في تلك الأزمةِ كان بمثابة زندقةٍ وكفرٍ في القاموس الدينيِّ – لابد أن يُعزل ويولى غيرُه؛ حفاظاً على مصالحِ البلادِ والعباد!!

... المهمُّ وصلَ والدك إلى حالةٍ بيّنةٍ من عراءِ المواقفِ المساندةِ له، وعندما كان يلتفتُ – في تلك الأيام – لطلبِ مساندةٍ أو مشورة أو دعم فإنه كان يجد – فقط – أبناءً يحلفون بالله: أنهم لن يدعوا الأمر يفلتُ من أيدي والدِهم إلا على جُثثِهم. تلك الأيمان الـمُغلظة، كانت – بالطبع – لا تُسمن ولا تغني من جوع، في أزمنة فُرضت فيها عملياتُ فرزِ المواقفِ.. على مستوى الدولة بكاملها.

يا للسخرية! والدك غير المقتنعِ – خُفيةً – بفائدةِ وجدية مثل هذه التصرفات اليائسةِ من أحد قبل أسباب بلائه، لم يكن يجدُ في المقابلِ، إلا جمعاً من (حريم) قصره.. يُخبرنه: بأنهن قد حلمْن الليلةَ البارحة،

بأنَّه سيخرجُ مُنتصراً – بلا شكٍ – من غمرةِ نزاعاتهِ المتعددة. وأنهن يبتهلنَ، في كل صباح ومساء، إلى الله، أن يعصفَ بفسطاطِ المناكفين ويشتتَ قواهم. أما القلةُ من أولئك النسوة، فقد لاحت لهنَّ فرصةٌ لا تعوض، أثناء معمعة الأحداث المتعاقبة؛ راحت أولئك الأخوات – سامحهن الله – يغتنمنَ الفرصَ لزيادة حظوتهن عند الملك الجريح نفسياً. والحظوة لا تعني إلا زيادة مغانمهن المادية. ولم يكتفين بذلك فقط، بل رُحن يوسوسن لوالدك، بأن ينتهج نهجاً عنيفاً ضد إخوانه. وأن يضع الآخرين أمامَ حقائق على شكلِ أوامرَ ملكية، سبق أن أعدت كتابياً له، فيها نسفٌ لكل أسسِ الدولةِ السعوديةِ وقيمِها وأعرافِها.

...وبعد اجتماعات متعددةٍ من الذين لهمْ مصلحةٌ في إبعادِ والدِك من الحكم. وبعد أخذٍ وردٍّ طويلين، إضافةً إلى إعمال الأفكار، لعلها تجد طريقةً للكيفية التي سيعلن فيها للملأ عزلُ (الملكِ سعود) من الحكم، وهي خطوةٌ وإن كانت متوقعةً إلا أنها غير مسبوقةٍ؛ بعد كل هذه الإرهاصاتِ، ضُربَ حصارٌ شديد على الناصرية، مُنع، من خلاله، على غير القاطنين الدخولِ. وإن كان لابد من دخولٍ وخروجِ أفرادٍ معينين، للقيام بمهام الإمداد الغذائيّ أو للرعاية الصحية، أو لأسباب شخصيةٍ بحتةٍ أخرى، فإن الأمرَ يستوجبُ – وعندَ كلِّ حالة – الحصول على إذنٍ يُدرس ويمحَّصُ على حدةٍ. مع التأكيدِ على أن دراسة الحالاتِ لا تعني الموافقةَ بالضرورةِ!

وزيادةً في الضغطِ الفعليِّ والنفسيِّ على والدك، مُنع إخوانك الكبارُ من حريةِ الحركةِ خارجَ أسوارِ الناصرية. كما طُلب من كتيبةٍ للحرسِ الملكي، كانتْ مرابطةً بشكلٍ دائم داخل الناصرية – كحمايةٍ ملكيةٍ لقائدِ البلاد – طُلب منها أن تعود لقواعدِها، خارج الأسوار المغضوبِ على من في داخلها .

الهدفُ من كلِّ هذِه الإجراءاتِ، إيصالُ رسالةٍ إلى (الملك) بأن

يقوم من ذات نفسِه بتقديم (طلب) إعفائه من منصبه؛ وإن تم هذا فسيُرفع الحرج عن الذين بقى لديهم تردد كامن في أعماق نفوسهم، من اتخاذ خطوة ضخمة كهذه، تنسف أسسَ التوادِّ والتراحُم، في العائلة المعروفةِ منذ القدم بهاتين الصفتين، اللتين كانت الحاجة إليهما ملحة. لاسيما في تلكُم الأوقاتِ العصيبةِ، والـمُخرجةِ أعداءً كُثراً، مختلفين في منطلقاتهم ومتوحدين في أهدافِهمْ".

شعرت والدتِي أنني استحضرتُ عند آخر كلمتها، ذكريات مشوشةً وغير سعيدة، مرتْ على كلِّ من كانوا في الناصريةِ، وخاصة على صغارِ أبناءِ وبناتِ الملكِ المحاطين به. مشوشة لأن (عمري) في أيام حدوثِ الانشقاقِ الخطيرِ في داخل العائلة المالكةِ، وما تبعه من بيانِ عزلٍ لثاني ملك للدولة السعودية الثالثة؛ كان يبلغ ثماني سنوات.. وأسابيع قليلة. ودلَّ على شؤمِ تلك الأطيافِ من الذكريات، سؤالي التالي وإجابةُ والدتي اللاحقةُ له:

"أكادُ أتذكَّرُ أحداثَ تلك الأيامِ بصعوبةٍ:

ألمْ ترسليني - رعاكِ الله - إلى منزلِ وكيلنا (ابن عويس) في شارع (عسير) خوفاً من الاصطدامات المسلحةِ المتوقعةِ في داخل الناصريةِ وعند أسوارها؟ أكان تصرفك ذاك مبرراً ومبنياً على مخاوفَ حقيقيةٍ، أم أن الإشاعاتِ الكثيرةَ حينها، لم تترك للعقل مكاناً لقولِ الكلمةِ الفصل تجاه ما يحدث"؟

مسحةُ حزنٍ لافتةٌ ترافقتْ مع إجابتها على سؤالٍ انتظرت ـ كما يبدو ـ طرحه منذ عقود:

"ذاكرتُك فيها، يا (بني)، ثقوب! لم تكن أنتَ، وحدك، من أرسلته إلى بيوتِ الوكلاءِ والسائقين، بل كان شقيقُك الراحلُ (= مقرن) معك. كان يتم (تهريبُ) الأطفالِ واليافعين من إخوانك إلى خارجِ الناصريةِ، وإلى حيثُ منازلُ العاملينَ في قصورِ الناصريةِ، حتى إذا وقعت الواقعةُ (الحربية) كانت الخسائرُ قليلةً في الأرواح.

...عندما اشتدت الأزمةُ، يا (بني)، ورفضَ والدك التنازلَ عن الحكم، وصممتْ الأطرافُ الأخرى على تنازله، انتشرت شائعات في داخل الناصرية، بأن الخطوة المقبلة، بعد إقفال أبواب الناصرية على من فيها، هي قصفُ (الواحةِ) بالطائراتِ وبالمدافعِ وراجمات الدباباتِ. بالطبع لم نكُنْ نعرف مصدرَ الإشاعاتِ. لكنَّها في كلِّ الأحوالِ أثارتْ الخوفَ والجزع، اللذين زاد منهما أكياسُ الرمل الكثيرةُ، التي انتشرت في شوارع الناصرية؛ تحسباً من قِبل والدك، وإخوانك الكبار، ومن بقي على ولائه من الحرس الملكي لحربِ شوارع محتملة.

...في رأيي الشخصي أن (أعمامك) لم يكونوا - كعهْدِهم دائماً - بمثل تلك القسوةِ المفرطةِ التي (وُعد) سكانُ الناصرية بها. هل تتصورُ أنهم كانوا ينوون - مثلاً - القضاءَ على بغْيتهم مع أطفالِه ونسائِه؟.. مستحيل! كانت الاتصالات بين الأطرافِ قد قُطعت.. نعم؛ والتوترُ قد وصل إلى حدودِه العليا.. نعم. وانعدام إمكانية الوصول إلى حلول تحفظ خطوط الرجعة لأصحاب المواقف المختلفة... كان أمراً معروفاً: كل هذه المسببات والدوافعِ لمبدء سماعِ صوتِ الرصاص، كانت متوافرةً ويزدادُ زخمها ساعةً بعد ساعة، أما أن نرى قنابلَ من السماءِ تتساقطُ على الأرضِ التي يقفُ عليها والدك، ومعه كثيرون من العاجزين عن الدّفاع عن أنفسهم، فهذا أمرٌ غير مصدَّقٍ ولا محتملٍ... في رأيي الخاصّ!

أسبابُ تلك الإشاعاتِ وغيرِها، والتي على أساسها اتخذتُ، وغيري من (الأخوات)، قرارات (تهريب) من كان دون الخامسة عشرة من العمر من أبناء الملك، إلى خارج أسوار الناصريةِ، وإلى حيث منازلُ مستخدمينا (المدسوسةُ) في شوارعِ وأحياء الرياض القديمة؛ تلك الأسباب - هي على الأرجحِ - ناتجةٌ عن الحدثِ ذاتِه أو من إرهاصاته. فالأمرُ كان جدَّ خطيرٍ، ويمسُّ مستقبلَ البلادِ، ولا يمكنُ تصورُ وقوع

اضطراباتٍ ومجابهاتٍ بمثلِ هذا الحجم والعمقِ، إلا ويتبع ذلك، وتأسياً عليه، كمٌ لا يُعد ولا يحصى من الإشاعاتِ!

ويُمكنُ ـ أقول يُمكن ـ أن طرفيْ النزاع، كانا يستفيدان أيضاً من مثل هذه الإشاعاتِ. فوالدُك ظنَّ أنه - قد - يستفيدُ من الإشاعةِ عند سماع الآخرين غير المشتركين (فعلياً) في النزاعِ لمثل هذه النوعيةِ من التهديداتِ بالقتلِ الجماعيِّ، فعن طريقِ الأخبار غيرِ الصحيحةِ، يمكنُ أن يحظى بتعاطفِ تلك الأطرافِ صاحبةِ الثقلِ النسبيِّ، وبعد التعاطفِ - قد - تتدخل تلك الأطرافُ لمصلحتهِ!

الطرفُ الآخرُ، من جانبه، كان يستفيد من الإشاعة وما يرافقها من مخاوف (الملك) على سلامة النساء والأطفال والعجزة، عندها ـ حسبَ هذا التفكير ـ يمكنُ، وبسرعة، رؤيةُ الرايةِ البيضاء من قِبل والدك، تُرفع كعلامة استسلام أكيدة؛ وبهذا تتقلّصُ الخسائرُ وتنتهي الأزمةُ في زمنٍ قياسيٍّ.. وبنجاح!

...وتقولُ بعضُ الروايات، إنّ مَنْ بثَّ الإشاعات ونشرَها، حينها، هم تجارُ العقارِ والأحجارِ الكريمةِ والذهب؛ ليستفيدوا من هَلَع (بعضِ) سكان الناصريةِ الـمُهمين. والذين سيقومون - على الأرجحِ - ببيعٍ سريعٍ وخاسرٍ لأملاكهم، احتياطاً لتوابعِ الأيامِ السوداءِ المقبلة، والتي يقول عنها أصحاب الإشاعات إنها واقعة لا محالة، على أصحابِ (النعيمِ) السابقِ في الناصريةِ، تصفيةً لحسابات قديمة حان وقتُها!!

...الأزمةُ أخذت تتفاقمُ بعد ذلك، والمجابهة أصبحت أكيدةَ الوقوعِ، وإن لم يعرفْ أحدٌ متى تقع.

كان منظرُ الوفودِ الكثيرةِ التي تزور جناحَ الملكِ في فيلّته الصغيرةِ المطلةِ على حدائق وبرك قصرِ الناصريةِ الداخلي ـ مُكثفاً، بعد فترةِ انقطاعات طويلة سابقة. الوفود تضمُّ مشايخ، ورجالَ علمٍ، وأمراء كانوا لا يزالونَ يأملون في حلِّ الخلافِ ودياً، إلى جانب وجهاء من (أهل)

الرياض المعروفين. كان (النمامون) في الناصريةِ يخبروننا، أن تلك الوفودَ تأتي مستبشرةً وتذهب مكتئبةً، لأن رد (عمّي) الدائمَ هو رفض الحلولِ المطروحةِ أمامه، وهي: إما خلعُ صلاحياته تماماً وإلباسها لـ(فيصل)، وإما أن يُخلعَ من الحكمِ وينفى. ردُّ والدك الدائمُ - والذي أعتبره منطقياً لمن كان يحملُ تاريخاً كتاريخِ الملكِ سعود - هو رفضُه للاختيار الأولِ، وعدمُ مناقشةِ الاختيارِ الثاني إطلاقاً!

... وقعت الواقعةُ في خريفِ عام 1384هـ[1]. ففي صباحِ يوم 28 جمادى الآخرة من العام الحزين ذاك، سُمع من الإذاعة فتوى من العلماء وموافقة من مجلسِ العائلةِ (بعزل) والدِك من الحكم. ومبايعةِ عمِّك (فيصل) ملكاً جديداً على المملكةِ العربيةِ السعوديةِ.

ظلَّ والدك، منذ ذلك اليوم، وحتى يوم سفرِهِ لمنفاه الأوروبي - وهي مدةٌ تقدرُ بأسابيع قليلة - ينظرُ في كل اتجاهِ فراغي، ويستمعُ لكل الأخبار؛ لعل أحداً يأتيه ببشارة، أو أن تُقطع البرامج الإخبارية لإعلان خبرٍ ينتظره على أحرِّ من الجمْر!

لكنَّ الأيامَ تمرُّ دون أن يرى والدك البشيرَ ولا أن يسمع الأخبارَ الطيبةَ. تفرق السامرونَ الداعون بطول حياته، المُقَبِّلون يدهَ صباحَ مساء. لم يعد يزور قصره في الناصرية، إلا الأطباءُ قليلو الخبرة، الذين يقيسون نبضه، وينصحونه بسرعة مغادرةِ البلاد، للبحثِ عن الشفاءِ من الأمراض التي لم تكن كلُّها جسديةً!

أما الأخبارُ التي كان ينتظرُها والدك، فلم تأتِ بشيء يزيل الغُمَّةَ والكربَ. العكسُ هو الصحيح: كان يسمع برقياتٍ ومبايعات للملك الجديد، وأهازيجَ وأغاني وطنيةً لا يذكر فيها إلا اسم (أبي عبد الله)[2].

---

(1) 3 نوفمبر 1964م.

(2) أبو عبد الله: الملك فيصل.. وعبد الله هذا هو أكبر أبنائه.

وبين هذه وتلك، تحاليل إخباريةٌ عن (النفقِ) المظلمِ الذي خرجتْ منه السعودية، لتعيش أيامها الزاهرةَ القادمة!!

... والدُك، كانت علّلَهُ تزدادُ. ونوبات النزيفِ تتكررُ كل يومين تقريباً. وعندما كان الملك - الذي لم يَعُدْ ملِكاً - يرى أبناءه (الكبار) وقد استسلموا للمأساةِ المشتركةِ التي صنعوا أكثر فصولها؛ و(صغارَه) الأبرياءَ وقد تلبسَتْهم مخاوفهم من القادم المجهولِ؛ ونساءه الساذجات وقد امتهنَّ - كعادتِهن - ندبَ الحظوظِ والرجال؛ عندما كان الملك (السابق) يرى كلَّ هذا، فإن إغماءاته الانفعالية العاطفية الطويلة، لم تكن مُستغربةً... فوق مُعاناة الأمراضِ الأخرى.

... كم كان بودِّي وأنا أشاهد (عمِّي) وقد تكالبت عليه عوادي الأيامِ، أن أخالفَ طبيعتي!

كان بودِّي أن آخذ جسمَه العريضَ الممتلئ بين ذراعيَّ الصغيرتين، وأقول له كلماتٍ هي خليطٌ بين البلوشيةِ والعربية، كلمات تُهونُ عليه مصائبه، وتذكره بما يهوي هو وغيره سماعه: بالقدرِ الذي أعطى وأخذ، وبأن الحياةَ مع الذريةِ (الصالحةِ)، والنساءِ الـمُحباتِ، والذكرياتِ المؤنسةِ، تستحق أن تُعاش ويُبحثَ عن معانيها التي كانت خافيةً في السابق عن البصائرِ وأن...

لم أستطعْ أن أفعل هذا، ولو فعلتهُ لما صدقني والدك، ولما رضي بتلك الكلمات التي لا تعني شيئاً لمن كان مثله، سوى اختيار مهادنةِ الظروفِ المستجدةِ، والانحناء (لتوابع) العاصفةِ، والموتِ كما يموت البعيرُ. ومثلُ والدك لا يفعل، يا (بني)، مثل هذا أبداً، ولو أن ذلك هو كلُّ ما بقي له حقيقةً ولا شيء سواه!

...بحثَ والدُك عن بلدٍ عربي أو إسلامي يعيش فيه بعد عزله من الحكم. ونشطتْ بقية سكرتاريته الخاصة، في اتصالاتها المحمومةِ مع

عواصمِ تلك البلدانِ من أجلِ هذا الغرضِ المتواضعِ، لكنَّ الإجاباتِ كانتْ متشابهةً:

لا... لا نستطيع استقبال (سعود)؛ لأن ذلك قد يُدْخِلُنا في مشاكل سياسيةٍ مع بلادِه المهمة!

ولم يجدْ والدُك مفراً بعد (احتجازِه) الفعليِّ في قصره، وازدياد وطأة عذابات أمراضه، إلا أن يُسافر إلى البلدانِ الأوروبيةِ طالباً الشفاءَ وقطعة أرضٍ يرتاحُ فيها وينامُ قريرَ العينِ بلا مخاوف.

عاشَ والدك منفياً .. نعمْ منفياً، طوال أربعِ سنواتٍ تقريباً[1] وهو يتنقَّلُ بين عاصمةٍ أوروبيةٍ وأخرى. اختار العاصمةَ اليونانية (أثينا) مقراً ثابتاً - ونهائياً - له.

وفي السنتين الأخيرتين من حياة (عمِّي)، كانتْ هناك اتصالاتٌ بينه وبين غريمه (عبد الناصر) لاستقباله (= الملك سعود) في القاهرةِ، بحجة أن فرائضَ الإسلامِ في رمضان يتحتم إقامتها في بلدٍ إسلامي!

كانت تلك الفكرةُ من بنات أفكار إخوانك الكبار. ولقيتْ موافقةً سريعةً من (عبد الناصر)؛ لأن مصر لم تستطعْ - بعبد الناصر أو بغيره - إلا أن تلعبَ دورَها الرياديَّ، المستقطب للباحثين، من أبناءِ العرب، عن الأمنِ والأمانِ. وقد يقالُ، يا (بني)، إنّ عبد الناصر أراد أن يستغلَّ والدك في حربهِ غيرِ المعلنة مع عمك الملك (فيصل)، وأن والدَك أراد أن يستغلَّ في المقابل، موقع القاهرة وتأثيرَها على الأحداثِ العربية، في محاولةٍ يائسةٍ لاسترجاعِ مُلكه. قد يقال هذا، لكن الصحيح أن مواقف القاهرةِ طوال السنوات السابقة لهذا الحدث وبعده تجاه (لاجئي) العرب، هي مواقف مشرفة بلا جدال؛ مع أن كثيرين في بلادك، يا (دكتور) استنكروا ما قام به والدك بعدَ وصوله إلى القاهرة، من زيارات للعاصمةِ

---

(1) توفي الملك سعود في 23 فبراير عام 1969.

اليمنية (صنعاء)، حيث شن حملة على القادة السعوديين، واتهمهم بالتدخل، في السياسةِ الثوريةِ لليمن، بل ويقال أيضاً إن القيادة المصرية حثّت الملك سعود على التبرع لمجهودِ اليمن الحربي، ضد القوات السعوديةِ!

هل صحيحٌ أن ذلك التبرعَ قد حدث، وأن الأمرَ تعدى الدعمَ المعنويَّ والإعلاميَّ للنظامِ الثوريِّ في اليمن؟

يمكنُ هذا...! لكنِ الأكيدَ أن وقْع تحركاتِ والدِك وحاشيتهِ في (صنعاء)، قد استنزفت ما تبقى من رصيد (عمِّي)، عند المؤثرين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً... داخلَ البلادِ السعوديةِ.

...وفي ساعاتٍ متأخرةٍ من أحد أيام ربيع عام 1388هـ[1] وبالتحديد في شهر ذي الحجة، وعندما كان الناس يتابعون موسمَ حجِّ ذاك العام، وبينما كنت أتمشى في الشوارعِ الداخليةِ للناصرية - التي لم يعد لاسمها وقعٌ مثل السابق، والمعايشةِ لسنوات أربع، من الأوقات الصعبة للتجاهلِ الخدميِّ المتعمد - سمعتُ أصواتاً طرقت مسامعي مثلها من قبل، عند وفاة والديّ وابنتي... أصواتٌ هي مزيج من النحيبِ والبكاءِ، وولولة الندبِ، وطلب الاستغاثة، والحوقلةِ!

بالله ماذا يقولون... ومن ينعون؟

أحقاً مات والدك؟

نعـم...!

جفت الأقلام... ورفعت الصحف. أسدل الستار عن نهاية دور لممثل مشهور في مسرحية محلية. حكاية حياتية مُشاهدة لعب مثل أدوارها ـ في كل مكان ـ ممثلون من هذه البسيطة، خدعهم سراب القوة والخلود؛ إنها يا (دكتور) مسرحيات صغيرة تُشكل في مجموعها مسرحية الحياة الكبرى الحزينة...

---

(1) الموافق لعام 1967م.

...بُني:

شعرتُ عندما تيقنت من صحةِ الخبر، أن (كل الأحداث) التي وقعت منذ مرضِ والدتي، مروراً باختطافي واسترقاقي، ووجودي في تلك اللحظةِ في شوارع الناصرية؛ كل الوقائع كانت حاضرةً أمامي وبكل تفاصيلِها:

حسينُ أخي، وبقيةُ إخوانه وأخواته، زوجةُ أبي، وجبالُ وأوديةُ وبحارُ بلوشستان، لاشار جلال وأفراد عصابته، حاضنتي البنقلانية، الرجلُ الإنجليزيُّ والسفينة فُرس، عمانُ وسلاطينُها، البريمي ولقائي الأول بأمِّ فواز. الإحساء ومحمية ابن جلوي، الملاحات التي أتت بي من الشرق إلى وسطِ هذه البلاد، الرياضُ القديمة وأساطيرُ عبد العزيز، الليالي القليلةُ التي جمعتني مع (عمِّي) في القصرِ الأحمرِ وفي الناصريةِ، حصار الناصرية، والمخاوف على الأبناء والنفس. استحضرتُ، وقتها، كلَّ تقاطعاتِ الحياةِ والموتِ، العبوديةِ والحريةِ، والآخرين وما يمثّلون.. والأنا وما تمثّل.

أسئلةٌ كثيرةٌ مرّتْ أمام ناظريّ - وأنا أتلقى وألقي التعازي - تريدُ ردوداً عن أحاجي الماضي، والحاضرِ، والمستقبل.

لا إجاباتِ يا (بني) وقتَها، ولا إجاباتِ الآن.. ولن أحصُلَ عليها - غالباً - مستقبلاً!

الفصلُ الثامنُ

... أغنية للماضي

عن الذاتِ يا رب إني غفلتُ
شبابي يُصارع بي شَيْبيا
ولم يَبْقَ لي من حبيب البيوتِ
سوى ما يعذّب أشواقيا
ويلعن دوماً لساني الحقيقةَ
إمّا نظرتُ بمرآتيا

ياسمين بر الخليلي

22

أسابيعُ كثيرةٌ لاحقة لآخر سرديات التغريبة البنقلانية، أمضيتُها مكرساً جهودي في نقل ما تمَّ تسجيلُه عبر أشرطةٍ سمعيةٍ، إلى الأوراقِ التي ستحمل بعد المراجعةِ والتدقيقِ وإعادةِ النظرِ في بعض الصياغات؛ قصةً تحكي نموذجاً لعذابات جماعاتٍ من البشرِ، فرضتْ عليهم أطماعُ النفوسِ البشريةِ، وظروفٌ حياتيةٌ متشابكةٌ، دخولهم إلى عالمِ تصنيفاتِ ونمطياتِ الرقِّ والعبوديةِ!

من الحرمانِ، بما تعنيه هذه الكلمة من معنى. ومن الدموعِ والآهات، من الذلِّ والشعورِ بالدونيةِ؛ كُتبت أبحاثٌ ودراساتٌ .. وحتى نوادرُ وروايات، عن تلك الطوائفِ المعذَّبةِ.

لكنَّ تلك الكتبَ والمؤلفات، القيمة منها والضحلة، التي تحدثتْ عن الرقِّ والأرقاء، لم ترتقِ إلى تلك التماسّات - الضرورية - مع المشاعرِ الداخليةِ، لمن رمتْ بهم المقاديرُ إلى معتقلات تفصلُ بين عالمين مختلفين كُلياً: عالمِ الحريةِ والأحرارِ.. وعالمِ العبوديةِ والعبيد.

وبرغم هذا النقصِ المُسبب، قدمتْ مثل تلك المؤلفاتِ خدمةً جليلة - قد تكونُ غيرَ مقصودةٍ - للمؤرخين وعلماءِ الاجتماعِ، لزيادةِ معرفتهم، عبر مناهِجهم المشتركة، للمبادئ والقوانين المتحكمة في أحداثِ التاريخ، وخاصةً فيما يتعلقُ بالمشكلاتِ الإنسانيةِ والقوى الاجتماعيةِ الـمُشكِلة للماضِي، والتي كونتْ بعد ذلك الحاضر. ولا يمكنُ إغفالُ حقيقة أنَّ بعضاً من مؤلفات حِقبة الرقِّ، كانتْ مرجعيةً مناسبةً للطرائفِ والنوادرِ، وحتى لإثارةِ الغرائزِ الجنسيةِ التي كانتْ دائماً ما تُلصق بعالم الأرقاء، الذي كأنه خُلِق - فقط - ليُضحكَ، ويؤنسَ... ويزيلَ كبتَ الأحرارِ السادةِ!

عندما كنتُ (أفرغ) وأراجعُ سردياتِ الحكايةِ البنقلانية، لم ينازعْني، قط، شعورٌ بالميل إلى تحويل أحداثِ ووقائعِ وشخصياتِ القصةِ، إلى مجرد (دراسةٍ) لظاهرةٍ إنسانيةٍ تاريخيةٍ، تحاول استردادَ ما كان في الزمان الماضي، أو التَّحقُّق من مجرياتِ الأحداثِ المنصرمة. كما لم أرغبْ، من جهة أخرى، في تحويلِ شجنِ القادمةِ من أرض البلوش، إلى مجردِ كِتابٍ يَضجُ بالحكايات المتنوعة المتفرقة، التي تهدف إلى خلْق أجواءٍ مُسليةٍ خفيفة، في محاولةٍ لجذبِ القارئِ المهتمِّ بمثلِ هذه النوعيةِ من القراءاتِ!

كنتُ عازماً، ومنذ البدْءِ، على الأخذ بمنحىً تأليفيٍّ مُختلفٍ: معرفةِ كلِّ تفاصيلِ تلك التغريبةِ البلوشية، من مصدرها المعنيِّ... أولاً. ومن ثَمَّ تصوير الأحداثِ والشخصياتِ الماضيةِ، بشكل روائي؛ لعل ذلك يبعث في الأحداثِ والشخصيات المعنية نوعاً من الحياةِ الجديدة؛ في محاولةٍ لفهمِ كيفَ جرتْ وقائعُ سطرٍ صغيرٍ من سِفْرِ التاريخِ الضخمِ، الذي لا تزالُ صفحاته تزداد باطّراد.

... وأنا أكتبُ الروايةَ، واجهتْني معضلتان:

فأنا أولاً لم أستشرْ (بطلَة) الروايةِ والشخصيةَ المحوريةَ فيها، حول انتقالي - غيرِ المبرر - من موقفِ المتشوِّق لمعرفةِ قصةِ اختطافها وما

تبع ذلك من أحداثٍ، إلى ولعٍ باقتناصِ هذا النوعِ من البوحِ الخاصِّ؛ على أمل أن يخرَج لاحقاً وقد تشكل قصصياً، وله عنوان على أرفف المكتبات؛ كنت خائفاً أن ترفض والدتِي. ووجِلاً - إن هي وافقتْ، مرغمةً على ما نويت فعله - أن تُسقِط، أو تخفِّف، أو حتى تحوِّر من بعضِ الوقائعِ... لهذا السبب أو ذاك!

وللخروجِ من هذا الحرجِ المزدوجِ، وعندما قررتُ تحويلَ نيتي في نشر الرواية .. إلى واقعٍ، ألْمحت إلى عزمي ذاكَ، لمن أستَغِلُ - دائماً - صفْحَها وحدبَها عليَّ.. فكانت نصفُ المفاجأةِ!

... لم ترفضْ (بلوشيتي) ولم توافق، وتركت تقديرَ تبعاتِ نشرِ الروايةِ لي وحدي. مع أنني - والصدقَ أقولُ - لمستُ منها ميلاً إلى أن أكتفيَ فقط، بما حصلتُ عليه من معرفةٍ بتفاصيل قصَّتها. وتحويلِ المعرفةِ إلى خزينِي الوجداني الداخليِّ فقط، الذي لا أرغبُ - كما غيري - أن يطلعَ عليه أحدٌ، إلا بحدودٍ ضيقةٍ.. وعند الحاجةِ الضروريةِ.

لكن ذيَّاك الميلَ الهادئَ، لم يكنْ - وكما شعرتُ - ليمنعَ (تمريرَ) رغْبتي القويةِ المناقضةِ له!

عندما أحسَّتْ والدتي، بأنه لا التلميحُ المُتباعدُ ولا النصحُ المُغلَّفُ بالتحذيراتِ، يمكنُ أن يعيقَ ما عزمتُ عليه؛ طلبت ألَّا تكونَ سردياتُها، في حال ما إذا تحولت إلى أوراقٍ تتصفحُها الأيدي والأعين؛ مجالاً لانتقائيتي المزاجيةِ، ولا لرغباتي في تحسينِ القديم، ولا للتَّقرُب من الحاضر على حساب الماضي. لِتكُن الوقائعُ والأحداثُ ورؤى (بطلةِ) القصةِ كما هي، وبدون تزييف ولا تجميلٍ... ولا تحوير!

...أعطيتُها وعداً بذلك.. وكان الوعدُ - لجهْلي - مُرهقاً جداً..!

ففي كثيرٍ من أزمنةِ البوحِ والسَّردِ. كانت (بلوشيتي) تسهبُ، وبشكلٍ مملٍ في الحديثِ حولَ وعن واقعةٍ صغيرةٍ، حدثتْ ضمن سياقاتِ وقائعَ ضخمةٍ أخرى، أكثر تأثيراً - كما أعتقد - في مجرى الأحداث السابقةِ التي عاشتْها. على أن هذا المللَ والاعتراضَ الداخليَّ، لا يُفترض أن

يجيء على شكل إجبار للراوي، أن يختارَ ما قد يبدو مناسباً لذائقتنا في الكتابةِ، ولا لما نعتقدُ أنه سيكونُ سهلاً وجذاباً للقارئ الضَّجِرِ.

هذه المعضلةُ الأخرى، قررتُ أن أتعاملَ معها بشكلٍ أخللتُ فيه بوعدِي الذي قطعتُه لوالدتِي على نفسي!

فأنا قد أسقطتُ – عامداً – كثيراً من إسهاباتها حولَ حدثٍ معيَّنٍ مرَّ عليها أو مَّرتْ عليه، أثناء مسيرة (الانتقالِ) الإجباريِّ من أرض الآباءِ والأجدادِ والحريةِ، إلى أرضٍ غريبةٍ فرضتْ عليها ـ مع شخوصها ـ قيودَ، واقعَ الرِّقِّ المر.

كان عذري – الذي لا أدري كمْ هو قيم – ألَّا ضرر من إذابة هذا (الحشْو) من الكلام الذي قالته والدتي، وهي تروي قصتَها عن هذا الشخصِ الثانويِّ في الرواية، أو تلك البقعةِ النائيةِ من الأرض، أو حتى ذيَّاك الانطباع المتولد عن واقعةٍ عابرةٍ.

لقد تلبَّسني اعتقادٌ قويٌّ عند المراجعةِ النهائيةِ، بأنَّ تجاهُلَ استطراداتِ والدتِي الكثيرةِ، قد يجعلُ الحبكةَ القصصيَّةَ أكثرَ قبولاً عند القارئ، الذي سيسأمُ، بلا شكٍ، عندما (يغرقُ) في تفاصيلَ عديدةٍ، لرواية تتعدى صفحاتُها، لو كُتِبتْ بشكْلِها، الأولي، السبعمائة صفحةٍ تقريباً.

الإشكاليةُ هنا، هي أنني، وأنا أبرِّرُ لنفسي هذا الإخلالَ بالوعد، الذي (أجازت) والدتي بعده صفةَ تحويلِ البوحِ إلى قصةٍ مقروءةٍ؛ قد استمرأتُ الإهمالَ المقصودَ لبعضِ الوقفاتِ السرديةِ الطويلةِ لوالدتي. إلى حد أن هذا الإهمالَ، طالَ تقويماتٍ معينةً لـ (البلوشية) الحكيمةِ ... ومقارناتٍ!

في قرارةِ نفسِي، وبرغم حجَّةِ التخفيفِ على القارئ ومساعدتِه، كنتُ وأنا أتحلَّلُ من وعدي، أنظرُ إلى التأثيراتِ الأخرى، التي يمكن أن تحدثَها (لاحقاً) تلك المجموعاتُ من الآراءِ والمقارناتِ (البلوشية) بين الماضي والحاضرِ.. أعني بين الأشخاصِ والرموزِ الفاعلةِ في سنواتِ

الخمسينيات والستينيات من القرن الميلاديِّ الماضي. وبين الأشخاصِ البارزين والرموزِ المهمة.. الآن. ولا يمكن أن يفهم هنا، أن تلك المقارنات تتعلقُ بالأفرادِ والاختلافاتِ المفهومةِ لشخصياتهم. بل بما تعكسه قراراتُهم ونوعياتُ أدائهم الوظيفيِّ، على محيطِهم وأنساقهم الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والسياسيةِ والدينيةِ.

عندما تتحدثُ والدتي ـ مثلاً ـ عن تفاهةِ الأسبابِ التي (أجيزَ) عبْرها، عزلُ الملكِ سعود عن الحكم، مقارنةً بالواقع الذي تعيشُه بلادُنا الآن، فإنها تخلُص إلى أن (التاريخَ) لابد أن يُكتبَ مرةً أخرى، وبشكلٍ مغاير. بل ولابدَّ لإطاره المعروف، الذي وضعه المؤرخون – أو وُضِعَ للمؤرخين – وكأنه تاريخُ البلادِ السعوديةِ (الصحيحُ) في تلك الفترة المضطربة- أن يُنزعَ، ليُقام بدلاً منه، إطارٌ تاريخيٌّ (موثَّق) بديلٌ.

والدتي، وهي تقارنُ، لا ترمي تبعاتِ (بعض) تصرفاتِ القياداتِ الخاطئةِ على (القدرِ)، وهي لا تؤمنُ بأنَّ المؤامرةَ (وحدَها) من خطَّتْ نهاياتِ هذا الزعيم أو ذاك. هي تؤمن بأنَّ الإنسانَ وحده، صانعُ تصرفاتِهِ وقراراتِهِ وسلوكياته، بعد معرفةِ أن الله القديرَ – هو بالطبع – خالقُ الناسِ، وهو كذلك من أعطاهم هذه الحريةَ الفريدةَ التي تَفرقُهم عن سواهم من الخلائقِ المنظورين وغير المنظورين. لكنَّ الإنسانَ يجبُ ألّا يبحث عن المبرراتِ الخارجيةِ، أكثر من بحثِه عن مبرراتٍ أكثرَ التصاقاً بالداخِلِ.. داخِلِهِ .

الملكُ سعودُ .. عمُّها؛ لو لم يُقْدِم على تلك الأخطاءِ الغريبةِ، والتي لا مبررَ لها – إلا أن تكونَ قهريةً ومن صنع مكوناتِ شخصيته – كان بشيءٍ من التروي وإعمالِ الفكرِ، والاختيار بين حلولٍ كثيرةٍ، وسماع نصحِ العقلاءِ؛ لايزال مُتربعاً، حتى الآن على كرسي مُلكه... ما لم تمتدّ يدُ المنونِ إليه!

في المقابل فإن الأخطاء التي صنعتْها القراراتُ غيرُ الصائبةِ، وبعد وفاة الملك سعود بعقود، يجب أن تحاكم مثل ما حوكمَ به عهدُ الملكِ سعود.

قراراتٌ من بعضِها وليس كلها: المحيطُ الاستشاريُّ غير الكُفء. النزفُ والإسرافُ الماليان غير المبررين. انتفاءُ الفصلِ بين الخاصِّ والعام. الرغبةُ الأزليةُ في جعل من يسوس مصالح الناسِ من خُلّص المساعدين المقربين، حتى وإن ظهرت دلائلُ مؤكدةٌ مكشوفةٌ على فقرِ معارف هؤلاءِ في سياسةِ الجمهورِ الذي لم يعدْ بالإمكان استغفالُه؛ إلى جانب محاولةِ كسْب الوقتِ الذي ينتصرُ دائماً على من يحاولُ هزيمتَه، عندما تُضْطَرُّ القيادةُ للاختيار بين الجمودِ والتحركِ إلى الأمام، وبين الخطرِ والأخطرِ، والمهمِّ والأهمِّ، وبين المكسبِ القريبِ السهلِ الهزيلِ، والمكسب البعيدِ الصَّعْبِ... الغنيِّ في عطاءاته.

القراراتُ الخاطئةُ ـ في رأيِ والدتي ـ تشمل أيضاً:

التعاملَ الغريبَ وغيرَ الطبيعيِّ مع القوى الأجنبية ذاتِ النفوذِ العالميِّ، والمؤدي إلى نتائجَ غيرِ حميدةٍ على الداخل. وأخيراً وليس آخراً: الانشغالُ وسط معمعاتِ المشاكلِ الدوليةِ، عن الاهتمامِ بالعدالةِ الاجتماعيةِ، والمشاغلِ اليوميةِ لبسطاءِ الناس وعامتهم... في الداخلِ.

التاريخُ، وعبْرَ هذهِ المقارناتِ بين أخطاءِ الماضِي والحاضر؛ يحققُ مطلبين عزيزين على والدتي: فهو ينصفُ (عمَّها) نسبياً، خاصةً أن المعنيَّ عاش في أجواءِ سياسية محلية إقليميةٍ عاصفةٍ، تغافلَ الكثيرونَ عن ذكرها وهم يستحضرونَ تفاصيل تلك الحقبةِ الزمنية السوداء. زدْ على هذا، أنَّه لم يكنْ يمتلكُ من الخياراتِ الكثير، في وسطِ معادٍ يتصيد أخطاءَه.

...والد أبنائها لم يكنْ محظوظاً البتةَ؛ لأن رغباتِه في تحديثِ ونهضةِ بلاده واجهتْها مصاعبُ ماليةٌ جمة، لم تواجه خلفاءَه من بعده. بل إن المالَ الوفيرَ (غطى) على الكثيرِ من عثراتِ قيادةِ البلادِ السعوديةِ في زمنِ ما بعد عهد (الملك سعود)؛ ولولا تلك (المنحُ) الإلهيةُ لساءتِ الأمورُ أكثرَ.

الملكُ الثاني للدولةِ السعوديةِ الثالثةِ - في رأيِ والدتي - لم يكنْ يملكُ وسائل إعلام ذاتَ تأثيرٍ ملموسٍ... كما هو الحالُ الآن. هذه الوسائلُ تلعبُ دوراً لا مثيلَ له في حُكْمِ الجمهور على أصحابِ القراراتِ ونتائج مراسيمهم. وبهذا فإن الملكَ سعودَ قد خسرَ معركةَ الستينيات، كما خسر معركة الإنصافِ التاريخيِّ لاحقاً!

التاريخُ (الجديدُ) الذي تتطلعُ إليه والدتي - وهي لا تكلُّ ولا تملُّ من سردِ مقارناتِها - لابدَّ وهو ينصفُ المظلومين، أن يزيدَ من عطاءاتِهِ، عندما يحوِّل أخطاءَ قياداتِ بلادِنا في العقود الماضية، والموضوعة على مشرحةٍ تحملُ اسمه، إلى عبرٍ ودروسٍ؛ حتى لا تقعَ الأجيالُ الجديدةُ للنظامِ في نفسِ حفائر الأخطاءِ السياسيةِ والاقتصاديةِ السابقةِ؛ والتي أدى تجاهلُ من كان بيدِهِم مقاليد الأمورِ لمخاطرِ الوقوعِ فيها، إلى أن تُكتب تلك الصفحاتُ المشوَّهةُ - صدقاً أو تدليساً - عن تاريخِهم وتاريخِ بلادِهم.

المجتمعُ السعوديُّ كان يأخذ نصيباً واسعاً من آراءِ والدتي التي (أزحْتُ) بعضها جانباً وأنا أكتبُ هذه الرِّواية: إما لأن انطباعاتٍ مشابهةً وردتْ من خلالِ سردِها لوقائعِ قصتِها، وإما لأنني وجدتُ في تلك الآراءِ والانطباعاتِ تناقضاتٍ عديدةً، أملتْها طبيعةُ الموقفِ الذي قيلت فيه. فهي في وقتٍ من أوقاتِ الرِّوايةِ تستنكرُ ازدواجيةَ معاييرِ المجتمعِ السعوديِّ ورياءَه السلوكي. ونجدها في مكان آخر تُشيد بعصبيةِ أقاليمَ معينةٍ من هذا المجتمع، وتُثني على محافظتِهِ الشديدةِ، التي ساعدت على بقاءِ ملامح الهويةِ الوطنيةِ السعودية ـ ذاتِ الأبعادِ العربيةِ والإسلاميةِ ـ حيةً، تهزمُ الغريبَ أحياناً.. وتُهزم منه في أوقاتٍ أخرى كثيرةٍ!

هي - مثلاً - ضدَّ عبوديةِ الأزمنةِ السابقةِ، ووجودِ طبقةٍ خاصَّةٍ بملاك البشر، والتي يقابلُها طبقةُ الرقيقِ المُسخَّرين للخدمةِ... والأشياء الأخرى. كما أنها ترغبُ في تضييقِ هوةِ الاتِّساع بين الطبقاتِ في هذه الأيام؛ لكنها لا ترى خيراً في المجتمعاتِ التي تتنكَّرُ لسلاطينِها وأسرِها الحاكمة؛ لأنها تعتقدُ أن (مُخلِّصَ) تلك الشعوبِ والمجتمعاتِ من

تجاربِ الثوراتِ المهلكةِ، والرغباتِ الحمقى للاتجاهِ لليسارِ الـمُحبذ للصراع الطبقيِّ الداخلي؛ هم تلك النخبُ الحاكمةُ، والواعيةُ لفسيفساءِ مجتمعاتِهم وآلية الحراك فيها. أصحابُ العروشِ هم - في اعتقاد والدتي - أملُ بلادِ الشرقِ في المحافظةِ على ما تبقى من إرثٍ وطني جامع، في أزمنةِ التغريبِ وصياغةِ العقلِ الشرقيِّ ليصبحَ متأمركاً. في ذاتِ الوقت الذي تسعى فيه تلك النخب لزحزحةِ اتجاهاتِ العزلةِ التي (تعشقها) قوى ظلاميةٌ تتستَّر بالدين. أما ضمانُ ملكيةِ الأفرادِ، وحريَّتهم الاقتصاديةِ والرواجِ والازدهارِ التجاريين، فلن تعرفَه الشعوبُ المشرقية إلا بوجودِ مثلِ تلك السلالاتِ الملكيةِ.

المسلمونَ ـ في رأيِ والدتي ـ لا يمكنُ أن يُتَّهموا بالإرهاب؛ لأنهم ضحايا إرهاب (الآخرين) وحِقب استعمارِهم المليئة بالاستغلال. لكن (بلوشيتي) تقفُ عاجزةً عن تفسيرِ ما يحدثُ بين المسلمين، من تسلُّطٍ وجبروتٍ وتنكيلِ بعضِهم ببعضٍ. وهي لا تجد تفسيراً لهذا الكمِّ الهائلِ، من تاريخِ الدماءِ وقطعِ الرقابِ عند المسلمينَ، منذُ مقتلِ الخليفةِ الراشدِ الثالثِ (عثمان)... وحتى الآن.

...بالتأكيد، وأنا (أحذفُ) تلكَ المقاطعَ الكثيرةَ من أحكامِ والدتي وآرائها، قد سهَّلتُ على نفسي إخراجَ رواية غير مُثقلةٍ بصفحات قد يجدُ بعضُ القراءِ أنها مكررةٌ أو متناقضة، أو أنها سطحيةٌ تفتقدُ للعقلانية. لكن - ولابدَّ أن أعترفَ بهذا: كنت أتطلع إلى أشياء جعلتني أكثر ميلاً لاختصار و (حذْفِ) بعضِ أجزاء بوحِ القادمةِ من (بنقلان)، أشياء غيرُ تلك المبرراتِ الأولية، التي أشعرُ أنها تفتقدُ ـ إلى حدٍّ ما ـ للوجاهةِ والقبول!

أأكونُ بعيداً عن الصدقِ مع النفسِ، عندما أتطلعُ إلى عدم حرمانِ الروايةِ من التداولِ المشروعِ داخل بلادي، حيثُ دارَ القسمُ الكبيرُ من أحداثِ ووقائعِ الرواية؟ أأكون سجيناً لمخاوفي وخائناً للفنِّ القصصيِّ، عندما أسعى إلى عدمِ إثارةِ عداءِ هذه الجهةِ أو تلك المؤسسةِ، المعترضة

ـ افتراضاً ـ على مشاغباتِ (بلوشيتي) الفكريةِ التي لم تترك أحداً، وفي المقابلِ أضمنُ أن ما تريد الرواية البوحَ به عن سجلِّ التغريبةِ البلوشيةِ وتاريخها، قد سلم من بطش ترددي وتلويحات.. الآخرين؟!

أليسَ من المهمِّ ألَّا يفقدَ الكاتبُ خيوطَ حبكتِهِ القصصيةِ الرئيسيةِ، من أجلِ زخارفِ الاسترسالِ في وصفِ الأمكنةِ وسبْر أغوار الأزمنة؛ لأنه إن فعلَ ذلك، فلن نجد فرقاً بين نتاجِه الفكريِّ، وبين مؤلفاتِ أدبِ الرحلاتِ، وأخرى من أمثال علوم الأنثروبولوجيا والسياسةِ والتاريخ؟!

...تصعبُ الإجابةُ هنا، ولعلَّ ما خفف عليّ من وجعِ الإهمالِ المقصودِ، وما قد يراه الآخرون ضرورياً ولازماً للأعمالِ النثريةِ المطولةِ، هو أنني ألـمحتُ لتلك الآراءِ الجريئةِ، ونقدِ ما يتحاشى الكثيرون نقدَه، خلال الإشارة إلى أهمِّ ما رغِبتُ (إزاحته) من بنية الروايةِ... ألم يقررْ (ميخائيل باختين) من قبل: أن الرواية لا تخضع لأي قانون؟!

...وهكذا وبكتلتها الأوليةِ غير المشذبةِ إلا من بعض (المشاغباتِ) الفكرية، أبقيتُ هذه الروايةَ على مكتبي طوالَ سنتين. وجدتُ نفسِي، خلالَ هذه المدةِ عاجزاً عن الانكباب، مرةً أخرى، على الجهدِ الكبيرِ السابقِ، الذي تطلعتُ ـ عاجلاً وليس آجلاً ـ لأن يرى النورَ كنصٍّ أدبي مقروءٍ.

مُحدثاتٌ زمانيةٌ عديدةٌ، أوغلت التكاسلَ في نفسِي، وأدتْ إلى تأجيلِ ما لم يكنْ مُتخيلاً أن يؤجَّلَ:

غيومٌ كثيفةٌ من الاكتئابِ النفسيِّ استمرتْ، وبلا انقطاع، تظللُ أيامَ التوقفِ عن فعلِ أيِّ شيءٍ؛ غذتْ تلك الغيومَ رياحٌ ثقيلةٌ من مشاهداتِ أزمنةِ الذلِّ العربيِّ في فلسطين المحتلةِ، والعراق المنكوبِ بقيادتِه السابقة، والرازح، لاحقاً، تحت الاحتلالِ الأنجلو أمريكي والإرهاب الجوال؛ ولم تزد التهديداتُ الإرهابيةُ ـ الهادفة لنسفِ السلمِ الداخليِّ لبلادي، ـ تلك السحبَ الرماديَة، إلا قتامةً واكفهراراً.

...للأسف! لم تكن بلادي، حتى بدونِ هذهِ التهديداتِ والأفعالِ الإرهابيةِ، في أحسنِ حال. فالحملةُ الغربيةُ عليها كانت تزدادُ ضراوةً، وتستغل أدواتٍ (وطنيةً) لزيادة الضغوطِ عليها، عن طريق تجمعاتٍ وتكتلاتٍ لها توجهاتٌ معينةٌ وجداولُ أعمالٍ اختبأتْ تحت واجهةِ الإصلاح. هذا المصطلح الذي تتباينُ أطيافُ المجتمعِ السعوديِّ وقواه في تحديد مفهومِه وحدودِه. وفي مقابل بيانات وتحرشات (المستغربين) الإصلاحيين السعوديين المستفزة، كانت هناك جهةٌ أخرى تكاد تُكفِّر كلَّ خطوةٍ للخروجِ بالبلادِ من أزماتها المختلفةِ، وتستعملُ سيفَ الدينِ المُشهر على مَن يريد أن يثبت، ألّا تعارضَ بين الإسلامِ وخطواتِ التحديثِ، المُتصادمةِ ـ أحياناً ـ مع سائدِ الأفكارِ والتراثيات!

...وبين هؤلاءِ وهؤلاءِ، وحملاتِ القوى المتعددةِ لاستقطابِ الشارع، راوحت الجهودُ والمحاولاتُ الحكوميةُ السعوديةُ مكانَها، مع أنّها قادرةٌ على أن تأخذَ من بعضِ هذه الأطروحاتِ المتباينةِ المضـادة ـ على ما فيها من مقاصد مُلغمةٍ ـ أوجهَ النفعِ المحشورةَ عَرضاً فيها، وبما يمكنُ أن يحسبَ لها ويصبَّ في مصلحتها؛ ومن ثم تقدمُ ـ بعد تمعُّنٍ ـ مشروعَها الوسطيَّ الخاصَّ، والمُعزز بخطواتِ عملٍ محددةِ الأزمنة؛ لأنها بهذا تهدِّئُ من بؤرِ الغليان الداخلي، التي تظل قابلةً للخمود، متى ما لوحت لها قيادتها ـ التي تعرفُ آلامه أن مصيرَ البلادِ بدونها واضحٌ وجليّ ـ برايات الأملِ غيرِ الكاذبِ.

...حاولتُ أن أسافرَ كثيراً. وأقيمَ صداقاتٍ جديدةً. غرقتُ في قراءةِ كتبٍ تتحدثُ في وعن أي شيء، حتى أجدَ مخرجاً لمشاعرِ الإحباطِ المتثاقلة على نفسي يوماً بعد يوم؛ ولم يكن الفشلُ في المحاولاتِ السـابقةِ مفاجئـاً، بـل مُترتبٌ منطقي لتلك المشاعرِ النفسيةِ الخاذلةِ. ولعلَّ أكبرَ ضحايا حالتي التي قررتُ أن تأخذ مداها بدونِ تدخُّلٍ طبيٍّ، هو ذاك الملفُ الليلكيّ، الذي كان يحوي جهدَ أشهرٍ عديدةٍ من تقصّي حكايةٍ قديمة، بدأتْ باختطافِ طفلةٍ من إحدى بلدان إقليم بلوشستان

الإيراني، وانتهتْ بدموعٍ وآهاتِ تلك الطفلةِ التي هرِم كلُّ جزءٍ من جسدها، إلا ذاكرةً احتفظَت بكلِّ تفاصيلِ رحلةِ التغريبِ، التي كأنها لم تنقضِ حتى الآن!

وفي أيامِ النصفِ الأخيرِ من شهرِ شعبان 1424هـ، أكتوبر 2003م قررَ لفيفٌ من أبناءِ وبناتِ الملكِ سعود وذرياتهم، إقامة حفلِ عشاءٍ على أرض خلاءٍ وسط الناصريةِ القديمةِ؛ كفاتحةٍ لقاءاتٍ سنويةٍ مشابهة. وبالرغم من أن تكرارَ مثلِ هذه المناسبةِ، تحومُ حوله، دائماً، شكوكٌ قوية، إلا أن اختيار المكان ـ في حد ذاتِهِ ـ كان غنياً في إيحاءاته ورموزه.

قررَ الجميعُ أن هدفَ الحفلِ هو تأصيلُ فكرةِ اللقاءِ الموسعِ بين أبناء وبناتِ السلالةِ الواحدةِ، والذين تمرُّ أشهر وحتى سنواتٌ بدون أن يرى بعضُهم البعضَ، لأن المدنَ جِدُّ متباعدةٍ... كما هو حالُ القلوبِ والروابطِ الإنسانيةِ.

في تلك الأمسيةِ فقط، وأثناء عرضِ فيلمٍ قصير، عن تاريخ الملكِ سعود وإنجازاته على الحضور، وبينما كانت راحةُ يدٍ صغيرةٌ تضغطُ بوهنٍ على منتصف ذراعي اليسرى، قررت أن الوقتَ حان لأخرجَ نفسي من مأزقِ قيودي النفسيةِ، وأن أدفعَ؛ تبعاً لذلك، بقصة المُستمرةِ بالإمساكِ بذراعي... إلى المطابع بعد مراجعةٍ سريعةٍ!

لو كنتُ أعرفُ أن تلكَ الحركةَ الانفعاليةَ، فيها الترياقُ لحالتي، وأنها الشفرةُ المفقودةُ الحاملةُ رموزَ تحويلِ الترددِ إلى فعل؛ لو كنت أعرفُ كلَّ هذا، لفعلتُ المستحيلَ حتى أضمنَ حضور (بلوشيتي) إلى حفلةِ العام الذي قبله، والتي كانتْ أكثرَ تواضعاً في أعداد الحضورِ وفي الأهدافِ المبتغاة منها... وحتى في الإعدادِ والتنظيم.

...كلُّ هذا لا يهمّ، لو أنني علمتُ كم هي مفيدةٌ تلك الطاقةُ السحريةُ التي أمدتْني بها حميميةُ التلامسِ تلك، في لقاءٍ أسريٍّ حقق أهدافاً كثيرةً لم تكنْ مأمولةً فيه!!

قبلَ ذلك بعام، رفضتُ والدتي حضورَ (مشروع) التجمُّعِ، دون إعطاءِ تفسيرٍ لهذه المُمانعة، سوى أنها.. لا تستطيع رؤية الحضور والمكان. وفي هذه اللقاءات ـ كما قالت ـ يلعبُ النظر أدواراً، لا يمكن للسمْعِ أن يقومَ بها ـ على أهميته!

لم أقتنعْ بحجَّتِها تلك، لكنني لم أحاولْ فرْضَ رغْبتي عليها.

...في السنةِ التاليةِ، إلهامٌ عارضٌ قال لي: إن عليك أن تحاولَ، وبقوة، حتى توافقَ البلوشيةُ العنيدةُ، على حضورِ جزءٍ صغيرٍ من اللقاءِ المنتظر، لعل في ذلك أُنساً لها وترويحاً، وإتاحةَ فرصةٍ لبعضِ أبناءِ وبنات (أخواتها)، للسلامِ عليها بعد فترةِ غيابٍ طويل عنها!

تمنعتِ المرأةُ المُسنَّةُ، كالعادة، وتحججت بألّا فائدةَ من مثلِ هذه النوعيةِ من الاجتماعاتِ، بعد أن تأخرت كثيراً جداً، وبعد أن فعلتْ أعوامُ الابتعادِ والفرقةِ فعلها، وبعد أن أماتَ (معنوياً) هؤلاء الأبناءُ والبناتُ وخلَفُهم، (صاحبَ) الناصريةِ، مراتٍ لا تُعدُّ ولا تحصى.

"ماذا سيناقشونَ مثلاً"؟

تساءلتْ والدتي.. ثم أجابتْ:

"ميراثَ أبيهم المالي؟.. شارك إهمالُ بعضِهم في ضياعِه. والبعضُ الآخرُ استحلَّ ما لا يحلُّ لهم منه. ميراثَ أبيهم التاريخيَّ؟.. تنافست الأغلبيةُ العظمى في عدمِ البحثِ عنه وتدوينهِ وعرضهِ للأجيالِ، التي لم تسمع وتقرأ عن والدهم، إلا ما سبق أن قدمه (خُصماء) الماضِي لهمْ ولغيرهم.

تلك الحُفرُ في الناصريةِ القاصمة للظهورِ، والروائحُ الكريهةُ المنبعثةُ من زرايبها، وطفح المياه الآسنة المفترشة شوارعها، ومئات الجرذان المُصادقةُ لسكانها، لم تفعلْ فعلها في نخوتهم، حتى يطالبوا ـ على الأقل كمواطنين من درجة لا أعرفُ قياسَها ـ حكومَتهم، التي يتنافسون عندما تتهدد مصالحهم الشخصية.. في التوددِ لها، بأن تعاملَ تلك الأماكن كإرثٍ تاريخي تجب المحافظةُ عليه.

...أسمعتهم، يا (بنيّ)، يطالبون ـ مجردَ مُطالبةٍ ـ بإعطائهم تفسيراً من (المتصرفين) عن أسباب عقودِ التجاهلِ، لحقوقِ الملكِ الثاني للدولةِ السعوديةِ المعاصرة؟ تلك الحقوقُ التي تبدأ من إنصافِ تاريخه، وتنتهي عند تجنُّبِ ما سبق أن وقع فيه شريدُ بلادِ الإغريقِ من أخطاءٍ قاتلةٍ.. لعلَّ في ذلك منجاة. لا فائدة يا (دكتور) أبداً من حفلاتِ تحضيرِ الأرواحِ، وخاصةً الأرواح التي عذبها ـ ولا يزال ـ المُحضِّرون"!

ساقتْ والدتي تلك الأسبابَ والحججَ، والتي يُلاقي (بعضها) هوىً قوياً في نفسي، إلا أنني أظهرتُ لها أن تلك النوعية من الاعتراضاتِ على حضور لقاءٍ، قد يسعى حضورهُ إلى وضعِ الماضِي المختلف عليه وراءهم، ويتطلعون إلى مستقبل مغاير، قد يُفسر تفسيرات أخرى سلبية!

وافقتْ والدتي ـ بعد ترددٍ طويلٍ ـ على الحضورِ، والاستماع إلى ما سيقالُ... ولكن لدقائقَ فقط... ومن بعيدٍ، واشترطتْ كذلك ألّا تنزل من سيارتي التي قُدتها بنفسي وهي بجواري!

...بعد مرورها السريع على مكانِ الحفلِ، وبعد أن أحدثَ إمساكُها بذراعي ما أحدث من تأثيراتٍ، طلبتْ مني، وبصورةٍ مفاجئة، أن أجولَ بها في سيارتي على أنحاء معينة من (الناصرية) القديمة.

فعلتُ هذا ولم يصاحبنا سوى الصمتِ والدموعِ وحشرجاتِ النشيجِ. وعند عودتي بها إلى حيثُ ركنها الحميمُ في بيتها، راحت تتذكرُ أسماءَ الراحلين من الأهلِ والزوجِ والأحبابِ والأصحابِ.

كانت الأسماء كثيرةً، رحلَ بعضُها عن عالمنا منذ أزمانٍ بعيدةٍ، وبعضها مثل، (جمعة)، أبقى رحيلُهم القريبُ، منبعَ الأحزانِ غزيراً مُتدفقاً.

خُيِّل إليّ للحظات، أن مقتَ والدتي حضورَ مثلِ تلك اللقاءاتِ العائليةِ، التي تتصف بوجود أجيالٍ متعددةٍ للجذرِ العائليِّ الواحدِ؛ واستحضارَها لأسماء السالفينَ، ليس إلا مظهراً للاحتجاجِ الكامنِ في

أعماقِها، تجاه حرمانِها و(عديدين)، من مُجردِ احتفال متواضعٍ يُقامُ، وسط أسرٍ أذابت أزمنةُ الانتزاعِ والاختطافِ، ملامحَ أطيافِ شخوصِها... وتلك الأمكنةُ التي عاشوا فيها؛ وكأن (مُتميزي) بني الإنسان، لهم وحدهم حقوقُ ممارسةِ طقسِ الفرحِ الممزوجِ بالحسرةِ!

...وأنا انسحبُ، مودعاً، في تلك الليلةِ المرأةَ المليئة بالهمومِ والهواجسِ والسأمِ، سمعتها تترنم من خلال لغتها العربية (المُعجمة)، بمقاطعَ صغيرةٍ ظلتْ ذاكرتُها محتفظةً بها، من القصيدة الشهيرة المُغناة... والمسماة (صوت الأسى)، بعد أن فشت كلماتها الفارسية قديماً... في كل عموم بلوشستان:

تعالَ أيُّها العصفورُ الأحمرُ الجميلُ

تعالَ وسوف أرسلُك إلى أرضِ مَن أحبُّ

لتأتيَ إليّ ببعضِ أخبارِه

سوف أحدثك عن المنزلِ ذي البوابةِ المزخرفةِ

أنا امرأة فائقةُ الدلال

التي سرَّحتْ شعرَها أمها، وجملته بضفيرةٍ طويلةٍ

أحمل خطابَ التحيةِ

الخطاب الذي يحتوي نصفُه على حديثِ قلبي ونصفُه الآخرُ على تحياتي.

أخبرْه عن قصةِ امرأةٍ سيئةِ الحظِ ولا أمل في علاجها.

امرأة التفت أغصان الشجرِ حول صدرِها ووصلتْ إلى ركبتها

هنا سيدةٌ كساها الحزنُ والظلامُ... لفراقِك.

انتهت

إضـــافـــات

إضافة إلى ذاكرةِ بطلةِ الرواية تمت الاستعانةُ بعدةِ معلوماتٍ وردتْ في الكتبِ التاليةِ، كزيادة للتوثيق التاريخيِّ:

1 ـ الرياضُ: عبقُ الأصالةِ ورونق الحداثة ـ إصدارات الهيئة العليا لتطويرِ مدينة الرياض.

2 ـ الأمير عبد الله بن جلوي آل سعود ودوره في تأسيس الدولة السعودية الثالثة: إعداد (جواهر بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلوي آل سعود).

3 ـ بلوشستان قوس الخليج المشدود: تأليف إبراهيم بشمة.

4 ـ الجوهر المنقوش في تاريخ البلوش: تأليف نبيل داد بن بهادر البلوشي.

5 ـ البلوش تاريخ وحضارة عربية: تأليف الدكتور محمد إسماعيل دشتي.

6 ـ مدينة الرياض ـ دراسة تاريخية في التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي 1902 ـ 1975.

7 ـ الرياض المدينة القديمة: وليام فيس.

8 ـ الرمال العربية: ويلفرد ثيسجر.

9 ـ من أمير إلى ملك: ألكسندر بلاي.

10 ـ المملكة: روبرت ليسي.

11 ـ الدليل العام للمملكة العربية السعودية: عبد المجيد عثمان أبو شناق .
12 ـ الأوبك ماضيها وحاضرها وآفاق تطورها: عبد القادر سيد أحمد.
13 ـ تاريخ نجد الحديث: أمين الريحاني.
14 ـ الإمام تركي بن عبد الله: الدكتور منير العجلاني.
15 ـ تاريخ العربية السعودية: الكسي ڤاسيليف.
16 ـ تاريخ العربية السعودية: مضاوي الرشيد.
17ـ الوهابيون: لويس دكرانس.
18 ـ بعثة إلى نجد: سانت جون فلبي.
19 ـ في التفسير الإسلامي للتاريخ: دكتور/ نعمان عبد الرازق السمرائي.
20 ـ تاريخ المملكة العربية السعودية ـ الجزءان: الأول والثاني: دكتور/ عبد الله صالح العثيمين.
21 ـ قلب الجزيرة العربية: الجزءان الأول والثاني: هاري سانت جون فلبي.
22 ـ تاريخ الدولة السعودية: دكتورة/ مديحة أحمد درويش.
32 ـ مغامرات النفط العربي: هاري سانت جون فلبي.
24 ـ أعمدة الحكمة السبعة: توماس إدوارد لورانس.
25 ـ الفِرقُ الإسلامية: اللواء حسن صادق.
26 ـ تاريخ الفكر الإسلامي: دكتور عصام عبد الرؤوف الفقي.
27 ـ الإسلام والسلطان والملك: دكتور أيمن إبراهيم.
28 ـ الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث: محمد كامل ظاهر .
29 ـ المعتزلة بين القديم والحديث: طارق عبد الحليم / ومحمد العبدة.
30 ـ نشأة الحركة العربية الحديثة: محمد عزة دروزة.

31 ـ دراسات نقدية في المصادر التاريخية: د. محمد كمال الدين عزالدين علي.
32 ـ تاريخ عُمان ـ رحلة في شبه الجزيرة العربية: جيمس ريموند ولستد.
33 ـ الأباظية بين الفرق الإسلامية: علي يحيى معمر.
34 ـ عُمان في التاريخ: وزارة الإعلام في سلطنة عُمان.
35 ـ الانفجار 1967: محمد حسنين هيكل.
36 ـ سنوات الغليان: محمد حسنين هيكل.
37 ـ عُمان تقاليد الإمامة: دكتور حسن عبيد غانم غباشي.
38 ـ مذكرات غير منشورة للملك عبد العزيز.
39 ـ خطوط وظلال في العلاقات السعودية الأمريكية: دكتور/ عيد بن مسعود الجهني.
40 ـ البترول: دكتور عيد بن مسعود الجهني.
41 ـ الدولة السعودية الثانية وبلاد غرب الخليج وجنوبه: حصة أحمد عبد الرحمن السعدي.
42 ـ موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية: دكتور عبد المنعم الحفني.
43 ـ التصدي السعودي للحكم العثماني للإحساء والقطيف: دكتور عبد الله بن ناصر السبيعي.
44 ـ التاريخ السري للثورة اليمنة: اللواء عبد الله جزيلان.
45 ـ الجواري والقيان: سليمان حريتاني.
46 ـ علاقة ساحل عُمان ببريطانيا ـ دراسة وثائقية: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم.
47 ـ الأوضاع الاقتصادية في إمارات الساحل 1862 ـ 1965م: محمد فارس الفارس.
48 ـ الخليج العربي في العصور الإسلامية: دكتور محمد أرشيد العقيلاني.

49 ـ التحليل الاجتماعي لمجتمع الإمارات: عبد الله حمد راشد الشامسي.
50 ـ الأمة والدين في الشرق الأوسط: فريد هاليداي.
51 ـ التطورات السياسية الداخلية في نجد: كريم طلال الركابي.
52 ـ أمبراطوريات الرياح الموسمية: ريتشارد هول.
53 ـ الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة: دكتورة فاطمة الصايغ.
54 ـ من الشراع إلى البخار: يعقوب يوسف الإبراهيم.
55 ـ تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي: سيف مرزوق الشملان.